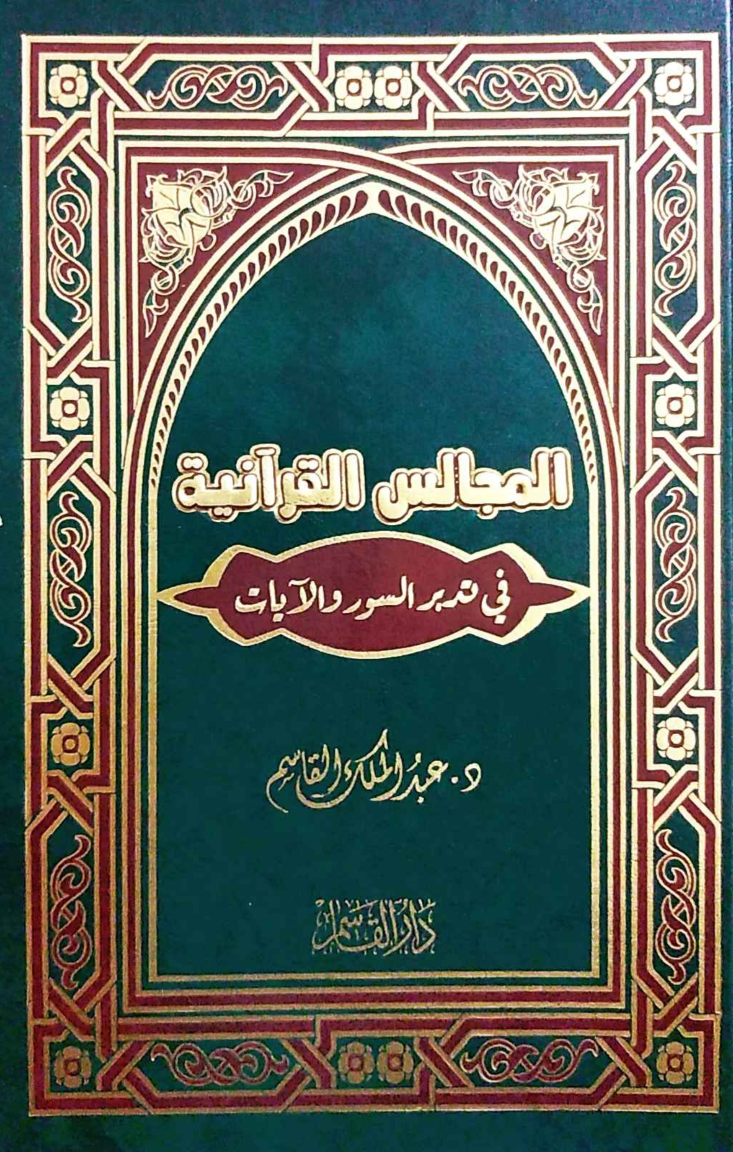

المجالس القرآنية
في تدبر السور والآيات
د. عبد الملك القاسم
دار القاسم

إعداد مُعالجة: م. أبوطه الليبي

المجالس القرآنية
في تدبر
السور والآيات

د. عبد الملك القاسم



الرياض ١١٤٤٢ ص. ب ٦٣٧٣
ت/ ٤٠٩٢٠٠٠ فاكس/ ٤٠٣٣١٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد الملك محمد
المجالس القرآنية في تدبر السور الآيات/ عبد الملك محمد القاسم.
الرياض، ١٤٣٥هـ
٨٦٠ ص؛ ٢٤ سم
ردمك: ٤ - ٧٢١ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١ـ القرآن ـ السور والآيات أ ـ العنوان
ديوي ٢٢١.٢١ ١٤٣٥/٤٥١٧

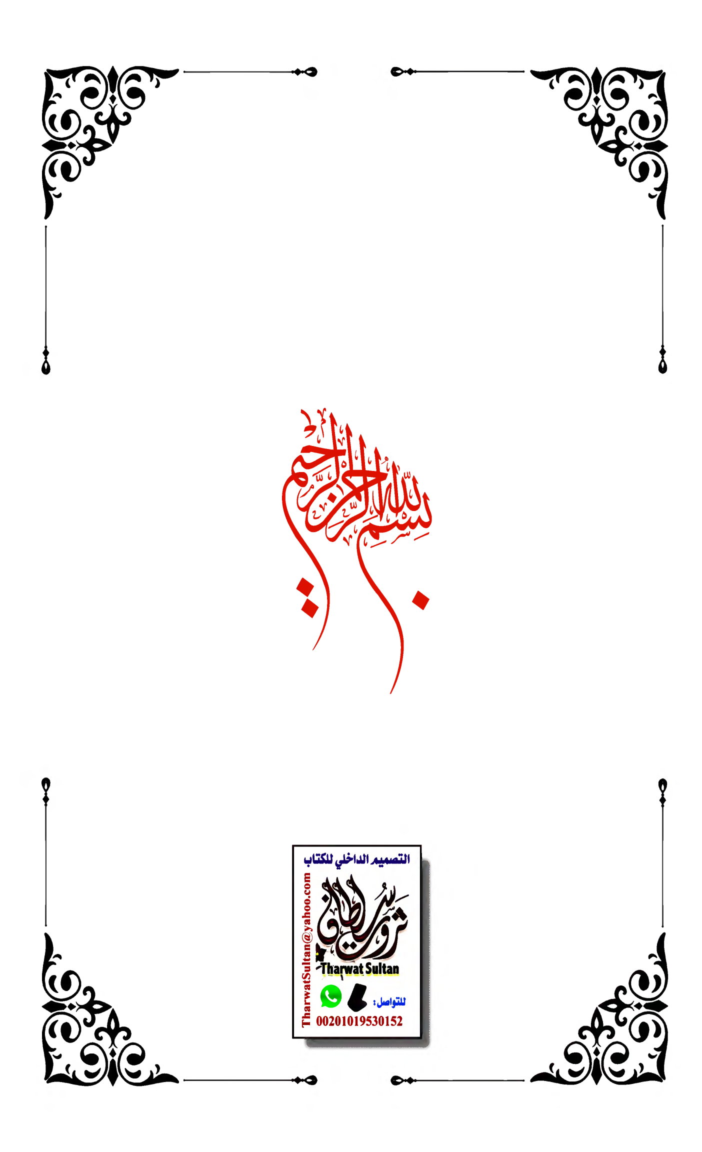
رقم الإيداع: ١٤٣٥/٤٥١٧
ردمك: ٤ - ٧٢١ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الأولى: ١٤٣٥هـ - ٢٠١٣م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ ـ فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
فروع دار القاسم للنشر
الريوة: هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ ـ فاكس: ٤٤٥٢٠٤٥
جدة: هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ ـ فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ ـ فاكس: ٨٤١٣٠١١

www.dar-alqassem.com
sales@dar-alqassem.com



بسم الله الرحمن الرحيم
التصميم الداخلي للكتاب
Tharwat Sultan
للتواصل :
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com

صاحب القرآن

* في الحديث عند الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قال: **«يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْق ورَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»**.

ولا يوصف القارئ بأنه صاحب للقرآن إلا إذا كان إلفه، وملازماً له ملازمة الصاحب لصاحبه، وكان على خُلُق هذا الصاحب وهو القرآن، فالمرء على دين خليله، فإذا كان دَيْدَنُهُ وخُلُقُهُ القرآن؛ فهو صاحب القرآن، وإلا فليس بصاحبه، ولولا ذلك لقال ﷺ: يقال لقارئ القرآن: اقرأ..

* قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: صاحب القرآن هو العالم به، العامل بما فيه، وإن لم يحفظه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل به فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.

المقدمة

الحمـــد لله الذي أنزل كتابه وبيَّن أحكامه، والصلاة والســـلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وبعد:

فقد منَّ الله وأخرجت كتاباً في تفسير القرآن العظيم أسميته «**عقد الجمان في تفسير القرآن**» وكنت حين جمعه وتأليفه أجد فرائد وفوائد ونكاتاً ولطائف، في كتب التفسير المختلفة فأفرح بها وأسرُّ بقراءتها.

ورغبت أن أتم ما بدأت، وأكمل ما كتبت؛ ليتهيَّأ قلب القارئ لســـماع القرآن، وتنشرح نفسه لبيان بعض الآيات. فكان هذا الكتاب الذي جمعت فيه أقوال العلماء ليكون مدخلاً ومعلماً لكل سورة؛ وليتأمل القارئ والسامع أغراض السور وســـبب نزولها، ودررها ونفائسها، وبيان بعض أحكامها، فتتشوق نفسه لمعرفة أسرار هذا الكتاب العظيم وعجائبه ولطائفه.

وكان همي منصرفاً إلى أن يكون هذا الكتاب بيد إمام المســـجد يقرأ فيه على المصلين فـــي شـــــهر رمضان قـــبل صلاتي التراويح والقيـــام، خاصة ما سوف يتلوه عليهم في الصلاة. وبيد معلم القرآن وقارئه، ورب الأسرة وأهله، وصاحب المجالس ورفقائه، ليكون مدخلاً لتفســـير القرآن العظيم وتدبر معانيه.

قـــال ابـــن تيمية ـ رحمه الله ـ: فمن تدبر القـــرآن، وتدبر ما قبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن تبين له المراد، وعرف الهدى والرســـالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج.

وقـــال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لا شـــيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكـــر، فإنه جامع لجميع منازل الســـائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص ٢٩].

قال بعض العلماء: اشتغلنا بالتفسير فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]

أسأل الله الجواد الكريم أن ينزل علينا من بركة هذا الكتاب العظيم ونوره ومحبته. وأن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته، وأن يجعل أعمالنا صواباً خالصة لوجهه الكريم. وأن يغفر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين.

د. عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

وقفات عامة

* تشدد الآيات على أمر التوحيد وتكرره؛ لأنه الأساس والقاعدة العظيمة للأديان السماوية، وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ جملة من الأنبياء مع جلالة قدرهم وعظم منزلتهم، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

* تناولت السور المكية التوحيد وإفراد العبادة، وترك ما يعبد من دون الله بتوسع ومحاجة، وإيضاح ومجادلة، وركزت السور المدنية على الأحكام والعبادات والشرائع المنظمة لحياة الناس.

* يغلب مجيء اسم الجلالة (الله) في مقام الأحكام، ومقام الإجلال والمهابة. وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية من سورة المجادلة.

* هناك مناسبة بين ورود الحروف المقطعة في أوائل السور وبين الحديث بعدها عن القرآن. قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب.

وقال الزمخشري: كل سورة، افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وتبيان عزة أهله ومن تمسك به.

والآيات في ذلك كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] وقوله تعالى: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ١ ـ ٢]، وقوله تعالى: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الدخان: ١ ـ ٢]، وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى

لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤] وقوله تعالى: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾ [ص: ١ ـ ٣].

ـ وتقع الحروف المقطعة في تسع وعشرين سورة من سور القرآن، كلها ذكر فيها القرآن وعزة أهله وأنه حق لا ريب فيه. باستثناء ثلاث سور، وهي: مريم، والعنكبوت، والروم.

* يأتي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ في الدعوة عامة، في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١] .

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

ـ ويأتي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ في الشرائع والأحكام، في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ [البقرة: ١٧٨]

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

* إذا وردت التكاليف الشرعية في القرآن فإنها ترد بصيغة الغائب لما فيها من المشقة والتعب، كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾.

ـ وفي غيرها تأتي مباشرة، فالشر ليس إليه، قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٥].

وفي قوله تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] لم يذكر اسم الجلاله ـ جل وعلا ـ.

* بدأ القرآن بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ . لوجوب تقدم معرفة الله ـ تعالى ـ على معرفة أحكام التكاليف والاستعانة به.

* قال ابن القيم: الهمزة أول المخارج، واللام في الوسط، والميم آخر الحروف. وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف ﴿الٓمٓ ۝﴾ فهي مشتملة على بدء الخلق، ونهايته، ووسطه.

* و﴿الٓمٓ ۝﴾ افتتحت بها ثلاثون سورة في كتاب الله ـ عز وجل ـ.

* أكثر القرآن نزل نهاراً، أما ما نزل بالليل فهو الأقل، ومن ذلك أواخر سورة آل عمران.

* الكثرة ليست مقياساً، فقد وردت في القرآن في مقام الذم في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝﴾ [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝﴾ [يونس: ٩٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [غافر: ٥٩].

* تأتي الآيات القرآنية بلفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في مقام الذم في أكثر من ست عشر موضعاً منها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ٢].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝﴾ [الحج: ٦٦].

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝﴾ [عبس: ١٧] وغيرها من الآيات.

* تراوحت معجزات الأنبياء بحسب ما برز في بني جنسه من علوم وغيرها، وفي هذا دلالة المعجزة وأنها من الله ـ تعالى ـ، فقد بلغ قوم عيسى في الطب ذروته فجاء عيسى بأمر الله يبرئ المرضى ويحيي الموتى، وجاء موسى بما كان في قومه من علوم السحر، فكانت المعجزة تلقف ما صنعوا، والعرب كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فجاء محمد ﷺ بالقرآن العظيم المعجز، الذي تحداهم الله ـ عز وجل ـ أن يأتوا بمثله أو سورة أو آية.

* ذكر الله ـ عز وجل ـ قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مرة واحدة، وأفرد لها سورة كاملة، وهي سورة (يوسف)، بينما وردت قصة موسى ـ عليه السلام ـ مفرقة في أكثر من عشرين موضعاً.

* قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فإن كتاب الله ـ عز وجل ـ هو كلامه العظيم، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته؛ فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتارة يتجلى بصفات الجلال والكمال فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله وكماله.

* يأتي في سياق الآيات ذكر الأنبياء أنهم بشر، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون ويرزقون ذرية، وذلك دفعاً لتوهم البعض أن لهم من خصائص الألوهية شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨].

❁ ورد اسم موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن مائة وواحد وثلاثون مرة، وفي السور المدنية تأتي قصة موسى مع بني إسرائيل لحاجة الأمة إلى أخذ العبرة، وفي السورة المكية تساق قصته مع فرعون لحاجة أهل مكة لذلك.

❁ في القرآن بضع وستون مثلاً، لم يقل عز وجل ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٢] إلا في مثل سورة الحج.

❁ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى. قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝﴾ [هود: ١].

❁ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾ [النساء: ٨٢].

قال السعدي: من فوائد التدبر لكتاب الله أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين.

❁ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٥٠].

قال ابن عاشور: ووصف القرآن بالمبارك يعم نواحي الخير كلها، لأن البركة زيادة الخير فالقرآن كله خير من جهة بلاغة ألفاظه وحسنها، وسرعة حفظه، وسهولة تلاوته، وهو أيضاً لما اشتمل عليه من أفنان الكلام، والحكمة، والشريعة، واللطائف البلاغية... وبذلك اهتدت به أمم كثيرة في جميع الأزمان، وانتفع به من آمنوا به، وفريق ممن حرموا الإيمان، فكان وصفه بأنه مبارك وافياً على وصف كتاب موسى ـ عليه السلام ـ بأنه فرقان وضياء.

❁ جاء مأثوراً عن الحسن البصري: أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع علمها في الأربعة، وجمع علم الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في أم القرآن، وجمع علم أم القرآن في هاتين الكلمتين الجامعتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

* القرآن نور، ولكن لا يشـــاهد ذلـــك إلا من جمع بين أمرين: التدبر والتذكر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقد جعل ـ سبحانه ـ التذكر بعد التدبر، لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف معناه.

سورة الفاتحة ١

سورة الفاتحة سورة مكية، عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك لأنه ـ تعالى ـ افتتح بها القرآن الكريم؛ قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مُجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: «أم القرآن»، وسميت «أم الكتاب»، و«السبع المثاني»، و«سورة الحمد»، و«سورة الصلاة»، و«الواقية».

وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن، وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال. يرددها المسلم سبعة عشر مرة في الصلوات المفروضة، ويردد أكثر من ذلك بل أضعافه في السنن الرواتب وصلاة القيام والنوافل، ومع ذلك لا يمل سمعها ولا يستثقل تأملها، فهي نور تفتتح به الصلوات، فتسري برحمة من الله في نفسه ووجدانه متدبراً عظمة وجلال وبهاء رب يعبده، وإله يوحده، وكريم يرجو عطاءه ونواله وفضله.

ولهذه السورة مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ قال ﷺ: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»** [رواه البخاري ومسلم].

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبرئ: **«وما يدريك أنها رقية..»** [رواه البخاري].

ومن فضائل سورة الفاتحة ما روي في الحديث الصحيح، أنه ﷺ قال: **«لم ينزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور ولا القرآن مثلها، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»**.

وقد ورد في فضلها ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله ـ عز وجل ـ: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ قال الله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ قال: مجدني عبدي ـ وقال مرة: فوض إليَّ عبدي ـ فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

* قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ليست البسملة آية في بداية جميع السور، بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره.

وقد ورد في سورة الفاتحة اسم الله رب العالمين ﴿ٱللَّهِ﴾، الذي لا يسمى به غيره؛ ولا يوجد من تسمى به لا قديماً ولا حديثاً.

والله: هو المألوه المعبود، ـ الذي تفزع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج ـ وهو أصل الأسماء؛ وأكبر أسمائه ـ سبحانه ـ وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

اسم دال على أنه ـ تعالى ـ ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه ـ تعالى ـ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل

حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله ـ وهو كثير جداً ـ، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

والرحمن والرحيم: اسمان كل منهما دال على صفة حقيقة لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهكذا يقال في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: (الله) و(الرب) و(الرحمن).

فاسم (الله) متضمن لصفات الألوهية، واسم (الرب) متضمن لصفات الربوبية، واسم (الرحمن) متضمن لصفات الإحسان والجود والبر، ومعاني أسمائه تدور على هذا.

* وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولابد من قيد، وهو المحبة والتعظيم؛ لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولاتعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً.

والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله ـ تعالى ـ له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامداً.

قال ابن جرير: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله ـ عز وجل ـ بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة.

مبنى الفاتحة على العبودية، فإن العبودية إما محبة، أو رجاء، أو خوف، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ محبة.

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝...﴾ رجاء.

و﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝...﴾ خوف.

وهذه هي أصول العبادة فرحم الله عبداً استشعرها، وأثرت في قلبه وحياته.

قال القرطبي: وقد وصف الله ـ تعالى ـ نفسه بعد قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ بأنه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ ترهيب، قرنه بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ لما تضمنه من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع.

* قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾.

الرب: اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ، ولا يقال في غيره إلا مضافاً، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو ـ سبحانه ـ المنشئ للخلق، القائم بأمورهم المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله ـ تعالى ـ وقيل: العالم عبارة عمن يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين، وتربيته لخلقه نوعان: عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزاقهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه،

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

وفي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ المالك صفة لفعله - جل جلاله -، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو - سبحانه - مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب، وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾.

قال أهل العلم: هذان الاسمان يفتحان - لمن عقل - أوسع أبواب المحبَّة لله، والرجاء فيه، وتنويع الاسمين - مع أنَّ المصدر واحد وهو الرحمة - دليل سعتها، وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي».

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

قال ابن القيم: تضمَّنت هذه الآية إثبات المعاد. ثم جزاء العباد بأعمالهم - حسنها وسيِّئها -. ثم تفرَّد الرب - تعالى - بالحكم إذ ذاك الخلائق. ثم كون حكمه - تعالى - بالعدل.

* ولما حمد - تعالى - نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرده بالحكم في ذلك الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به الرسل. والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده؛ والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضاً بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

قال ابن القيم: قدم العبادة على الاستعانة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ لأن العبادة قسم الرب وحقه، والاستعانة مراد العبد، ومن الطبيعي أن يقدم العبد ما يستوجب رضا الرب ويستدعي إجابته قبل أن يطلب منه شيئاً، وهو هنا التذلل لله والخضوع بين يديه بالعبادة، فكان القيام بالعبادة مظنة استجابة طلب الاستعانة.

وذكر ـ سبحانه ـ الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله ـ تعالى ـ فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ـ عز وجل ـ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول. وقُدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتماماً بتقديم حقه ـ تعالى ـ على حق عبده، فالأول تبرؤاً من الشرك، والثاني تبرؤاً من الحول والقوة والتفويض إلى الله ـ عز وجل ـ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾.

وقال ابن القيم: كثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ تدفع الكبرياء.

* قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾.

أي: دُلّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا إعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين

مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية.

والصراط المستقيم: هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطاً مستقيماً لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مَثل دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل أو العناد، والذين سبب خروجهم العناد هم المغضوب عليه ـ وعلى رأسهم اليهود ـ؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق ـ وعلى رأسهم النصارى ـ، أما بعد البعثة فقد علموا الحق وخالفوه؛ فصاروا هم واليهود سواء، كلهم مغضوب عليهم.

ومن أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الثناء، وفي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ ثناء، وهذا مناسب أن يكون قبل الدعاء ﴿ٱهْدِنَا﴾.

والهداية على نوعين:

الأولى: هداية توفيق؛ وهداية التوفيق خاصة بالله ـ تعالى ـ، ومنها قوله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

والهداية الثانية: هداية الطريق؛ وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي للأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الشورى: ٥٢].

قال الطحاوي: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ فإنه إذا هداه الصراط أعانه على طاعته، وترك معصيته، فلم يصبه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة.

* قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

طريق من أكرمتهم ووفقتهم، ومننت عليهم بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، وأضاف ـ سبحانه ـ الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

ـ وفي الآية إشارة وبشارة للمهتدي أنَّه ليس وحده على هذا الطريق، وأنه وإن كان غريباً بين العابثين من البشر، فإن طريقه مليء بالصالحين الذين حازوا أعلى نعمة، فليأنس بذلك.

ـ وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لا بد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيداً قبل الموت وبعده.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ الغاية، و﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾ الوسيلة، فلن تستطيع أن تعبد الله إلا بالله، فالبداية من الله، والنهاية إلى الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

في لفظه: ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ فوائد: أنَّ الصراط المستقيم نعمة من أعظم النعم. وأنَّ الهداية لا بعمل العبد، بل نعمة من غيره أسديت إليه. وأنَّ المنعم بالهداية هو الله وحده وإليه لا إلى غيره تنسب.

وفي إسناد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ إلى الله، والغضب لم يسم فاعله على وجه التأدب.

* ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾.

المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم؛ فاستحقوا غضب الله.

والضالين هم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلاً فكانوا على ضلال مبين.

قال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه:

أولاها: أنهم متقدمون عليهم بالزمان.

وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية.

وثالثها: أن اليهود أغلظ كفراً من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

* وهذه السورة العظيمة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾.

وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾.

وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾.

وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظها منه على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته ـ سبحانه وتعالى ـ.

وفي السورة أدعية شاملة نافعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه؛ دعاء الفاتحة.

وقد قدم ـ تعالى ـ الحمد والثناء على الدعاء، لأن تلك السنة في الدعاء، وشأن الطلب أن يأتي بعد المدح وذلك أقرب للإجابة.

قال ابن عاشور: ويؤخذ من سورة الفاتحة إيجاز المقدمة مع بلاغتها؛ لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود، وهذا سنة للخطباء ألا يطيلوا المقدمة فينسبوا إلى العي، فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة.

وكان السلف ـ رحمهم الله ـ يتدبرون سورة الفاتحة وهم يقرأونها، وما فيها من التوحيد، وذل العبودية، ونعمة الله عليهم بالهداية إلى هذا الدين، وغير ذلك من التدبر والتأثر.

قال مزاحم بن زفر: صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقرأ حتى بلغ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ بكى حتى انقطعت قراءته، ثم عاد فقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال محمد بن عوف الحمصي: رأيت أحمد بن أبي الحواري قام يصلي العشاء، فاستفتح بـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ فطفت الحائط كله، ثم رجعت، فإذا هو لا يجاوزها ثم نمت، ومررت في السحر، وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلم يزل يرددها إلى الصبح.

هذه هي سورة الفاتحة: أولها تحميد، وأوسطها توحيد، وآخرها دعاء.

سورة البقرة (٢)

سورة البقرة هي سنام القرآن، وأطول سورة على الإطلاق، وأكثر سورة أحكاماً، وأجمعها لقواعد الدين أصوله وفروعه، وهي من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، شأنها كشأن سائر السور المدنية، التي تعالج القواعد التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية.

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام: في العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، وفي أمور الزواج والطلاق، والعدة، وغيرها من الأحكام.

قيل في سورة البقرة: ألف أمر، وألف نهي، وفيها ألف خبر، وفيها خمسمائة حكم، وخمسة عشر مثلاً.

سميت السورة الكريمة «سورة البقرة» ويقال لها: «فسطاط القرآن» لعظمها وبهائها وما تضمنت من الأحكام والمواعظ، ولما في قصة البقرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم من المعجزات والآيات الباهرات؛ حيث قتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل، فأوحى الله ـ تعالى ـ إليه أن يأمرهم بذبح بقرة، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل، وتكون برهاناً على قدرة الله ـ جل وعلا ـ في إحياء الخلق بعد الموت.

وهذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان، قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقاً لتلقيبها فسطاط القرآن؛ فلا تستطيع إحصاء محتوياتها بحسبان.

وقد حيكت بنسج المناسبات، والاعتبارات البلاغية من لُحمةٍ مُحْكَمَةٍ في نظم الكلام، وسُدَى متين من فصاحة الكلمات.

ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه، وعلو هديه، وأصول تطهير النفوس. وقسم يبين شرائع هذه الدين لأتباعه، وإصلاح مجتمعهم.

❊ سورة البقرة أول السور الطوال وهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة. لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة واحدة.

❊ وقد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث، منها ما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**». وقال ﷺ: «**اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**» يعني السحرة.

في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ، خرج من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة**». [السلسة الصحيحة].

وعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرءوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ تحاجان عن أصحابهما..**» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «**هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم.. هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة..**» [رواه مسلم].

وفي سورة البقرة آية الكرسي التي قال فيها النبي ﷺ: «**من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**» [رواه النسائي].

وروي أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أقام للناس في الحج في بعض السنين، فخطب بهم في عرفات خطبة، وفسر فيها سورة البقرة ـ وفي

رواية سورة النور ـ، قال من سمعه: فسر ذلك تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

وقال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن الرجل: إذا حفظ سورة البقرة، كان سيداً عظيماً، مقدماً إماماً.

وذكر أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عندما حفظ سورة البقرة نحر جزوراً فرحاً وحمداً لله على فضله.

* قال ـ تعالى ـ في أول السورة:

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

هذه الحروف وغيرها من الحروف المقطعة في أوائل السور، الله أعلم بمراده منها، وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة في تخاطبهم، فينتبهوا إلى ما يلقى إليهم من آيات بينات.

وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيه على إعجاز القرآن، فإن هذا الكتاب منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ومركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها وهم أفصح الناس؛ فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله وليس من عند محمد ﷺ.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: ١ـ ٤].

قال القرطبي: الإيمان بالغيب: حظ القلب. وإقام الصلاة: حظ البدن. ومما رزقناهم ينفقون، حظ المال.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

ذكر ابن جزي في تفسيره، أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولم يقل: لا فيه ريب، كقوله: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] لأنه أراد نفي الريب عنه دون نفيه عن غيره، بخلاف: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ فإنه أراد نفي الغول عن خمر الآخرة مع الإشعار بوجوده في غيرها التي هي خمر الدنيا.

* وفي السورة بشارات للمؤمنين وإدنائهم، وفضح للمنافقين وهتك أستارهم، وزلزلة للكافرين وإبانة عن أحوالهم. وقد بدأ ـ تعالى ـ بأهل الإيمان، وصفات أهل التقوى والإحسان، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾.

النفقة تشمل النفقة من المال، والنفقة من العلم.

قال معاذ في العلم: تعلمه لمن لا يعلمه صدقة.

وقال أبو الدرداء: ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها، وخشوعها وآدابها، ولم يقل: يفعلون الصلاة أو يأتون بالصلاة؛ لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾ [البقرة: ٤].

واليقين أعلى درجات العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله شك بوجه.

* قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: أتى بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ ﴿فِى﴾ كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [سبأ: ٢٤] لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

* ثم ثنى بذكر حال الكفار، فقال تعالى:
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝﴾.
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: إن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكباراً وطغياناً، وصار الكفر وصفاً لهم لازماً، لا يردعهم عنه رادع. وقد ذكر العلماء أن الكفر على أربعة أنحاء: كفر الإنكار هو أن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به وكفر به، وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود، وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب، وأما كفر النفاق فهو أن يقرّ باللسان ولا يعتقد بالقلب.

* قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝﴾.

أي: يتساوى عند هؤلاء الكفار، أحذرتهم - يا محمد - من عذاب الله وخوفتهم منه، أم لم تحذرهم لإصرارهم على باطلهم وتماديهم في ضلالهم.

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: والإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله - تعالى - فإن فيه شبهاً من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله.

* قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝﴾ [البقرة: ٧].

قال ابن عاشور: وفي تقديم السمع على البصر في موقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع.

* لما ذكر ـ تعالى ـ في أول السورة صفات المؤمنين الخلَّص، وأعقبها بذكر صفات الكافرين الخلَّص، ذكر هنا الصنف الثالث وهم ـ المنافقون ـ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يؤول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

وفي قوله ـ تعالى ـ عن المنافقين في أوائل البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [البقرة: ٨] كرر حرف الجر (الباء) مع العطف، وهذا لا يكون إلا للتأكيد، وهذه الآية حكاية كلام المنافقين، وهم أكدوا كلامهم نفياً للريبة وإبعاداً للتهمة؛ فنفى الله الإيمان عنهم بأوكد الألفاظ، فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

* ثم شرع ـ تعالى ـ في بيان قبائح المنافقين، وأحوالهم الشنيعة، وعدم استماعهم للدعوة والنصيحة، فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝﴾.

وإذا قال لهم بعض المؤمنين نصحاً وتنبيهاً لهم: لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن والكفر، والصد عن سبيل الله، وإفشاء أسرار المؤمنين، وموالاة الكافرين؛ لأن من عصى الله فقد أفسد في الأرض. قالوا كذباً وجدالاً: ليس شأننا الإفساد أبداً، وإنما نحن أناس مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك، وفيه حصر للإصلاح في جانبهم، وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح، فقد صوروا الفساد بصورة الصلاح، لما في قلوبهم من المرض، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية، فهذا أقرب للسلامة وأرجى لرجوعه، ولذلك رد الله عليهم أبلغ رد بتصدير الجملة بحرف التأكيد ﴿أَلَآ﴾ المنبهة و﴿إِنَّهُمْ﴾ المقررة، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل، والاستدراك بعدم الشعور، فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝﴾.

* وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝﴾.

الفرق بين قوله ـ تعالى ـ في الآية الثالثة عشر ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝﴾ وبين قوله ـ تعالى ـ في الآية الثانية عشر ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝﴾.

أن الإفساد في الأرض أمر حسي يدركه الإنسان بإحساسه وشعوره، وأما السفه فأمر معنوي يدرك بآثاره، ولا يحس به نفسه.

* ثم ذكر الله حال المنافقين، ووصفهم وما هم فيه، فقال ـ تعالى ـ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، المريض يجد طعم الطعام على خلاف ما هو عليه، فيرى الحامض حلواً، والحلو مراً، وكذلك هؤلاء المنافقون يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً.

* بعد أن حضت الآيات في ابتدائها أهل الإيمان لأنهم الأكثر انتفاعاً بالقرآن وبهديه. ولما كان أشد الأصناف عناداً وحقداً، صنفاً من المشركين الصرحاء والمنافقين، لُفَّ الفريقان لفّاً واحداً، فقورعوا بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة.

ثم خص ـ عز وجل ـ بالاطناب صنف أهل النفاق؛ تشويهاً لنفاقهم، وإعلاناً لدخائلهم، ورد مطاعنهم.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝﴾.

قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: «بنارهم»؛ لأن النار فيها الإحراق والإشراق، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق، وكذلك حال المنافقين! ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم.

ثم قال: ﴿بنورهم﴾ ولم يقل بضوئهم؛ لأنه لو قال ذلك لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان ذهابه ذهاباً بالشيء وزيادة. وتأمل كيف قال ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ فوحد النور، ثم قال: ﴿وتركهم فى ظلمت﴾ فجمعها، فإن الحق واحد هو صراط الله المستقيم، الذي لا صراط يوصل سواه، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة ومتشعبة، ولهذا أفرد ـ سبحانه ـ الحق وجمع الباطل في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿يُخرجُهم مِّن ٱلظُّلُمت إلى ٱلنُّور﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمت وَٱلنُّور﴾ [الأنعام: ١] وقوله: ﴿وأنَّ هذا صرطى مُستقيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تتَّبعُوا ٱلسُّبُل فتفرَّق بكُمْ عن سبيله﴾ [الأنعام: ١٥٣] فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق.

﴿صُمٌّ﴾ أي عن سماع الخير.

﴿بُكْمٌ﴾ أي: عن النطق به.

﴿عُمْيٌ﴾ عن رؤية الحق.

﴿فهُمْ لَا يرجعُون ﴿١٨﴾﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه فلا يرجعون إليه. بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال فإنه لا يعقل وهو أقرب رجوعاً منهم.

هذا حال من أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾.

* وذكر الله ـ عز وجل ـ مثلين الأول، قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧ ـ ١٨].

والمثل الثاني قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٩ـ ٢٠].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: الأمثال المضروبة في القرآن قسمان:

قسم يصرح فيه بتسميته مثلاً، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

وقسم لا يصرح فيه باسم المثل، كقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١]، في ثلاثة مواضع من القرآن، وكقوله يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [يوسف: ٣٩].

قال الشنقيطي: في القرآن بضعة وأربعون مثلاً، والله ـ تعالى ـ بحكمته ـ يجعل ضرب المثل سبباً لهداية قوم فهموه، وسبباً لضلال لقوم لم يفهموا حكمته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

* في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

جمع الظلمات، وأفرد الرعد؛ والبرق لأن المقتضى للرعد والبرق واحد، وهو: السحاب. والمقتضى للظلمة متعدد وهو: الليل والسحاب والمطر؛ فجمع لذلك.

* قال ابن القيم: ذكر ـ سبحانه ـ رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

وفي مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

فأشرف صفات العبد العبودية، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية.

* قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠].

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: إنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط وأنه على كل شيء قدير.

* ثم دعا ـ عز وجل ـ عباده إلى طاعته وتوحيده، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ليس في القرآن غيره: ليس لأن العبادة في الآية التوحيد، والتوحيد أول ما يلزم العبد من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب الله به الناس في القرآن فخاطبهم بما لزمهم أولاً، ثم ذكر سائر المعارف وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات.

* بعد أن ذكر ـ تعالى ـ أدلة التوحيد وأنه لا إله إلا الله، ذكر الحجة على النبوة، وأقام البرهان على إعجاز القرآن، ورد على حجج المشركين بدليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾.

أي: فإن لم تقدروا على الإتيان بمثل سورة من سوره، وعجزتم في الماضي عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، مع استعانتكم بالفصحاء والعباقرة والبلغاء.

﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾.

أي: ولن تقدروا في المستقبل لا محالة أيضاً على الإتيان بمثله، والجملة اعتراضية للإشارة إلى عجز البشر في الحاضر والمستقبل.

قال ابن كثير: تحداهم القرآن وهم أفصح الأمم ومع هذا عجزوا، و﴿وَلَن﴾ لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذاك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً، غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى، والقرآن جميعه فصيح في غاية نهايات الفصاحة والبيان عند من يعرف كلام العرب، ويفهم تصاريف الكلام. وفي القرآن أوجه كثيرة تثبت صدق النبي ﷺ لكن لم يقصد بها التحدي للعرب، وذلك مثل الإخبار بالأمور الغيبية وأوجه التشريع الحكيمة، ودلائل الأعجاز العلمي التي تثبت أن القرآن هو الحق.

* ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٢].

هذه الآية من المحكم الذي اتفقت عليه الشرائع، واجتمعت عليه الكتب، وهو عمود الخشوع، وعليه مدار الذل والخضوع .

* قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: فيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها وثمراتها، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح،

فذلك أول البشـــارة وأصلها، ومن بعدها البشـــرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

أكمل محاســـن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾.

أي: بأن لهم في الآخرة حدائق وبســـاتين، ذات أشجار ومساكن تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة من الماء واللبن، والعسل والخمر.

وكلمـــا أعطوا عطاء ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة. قالوا: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا قبل هذا المرة.

قال المفسرون: إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها، تأتيهم به الملائكة، فإذا قـــدم لهم مرة ثانية، قالوا: هذا الذي أتيتمونا به من قبل، فتقول الملائكة: كل ياعبد الله، فاللون واحد والطعم مختلف، قال تعالى:

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾.

أي: رزقاً متشابها في الشـــكل والمنظر والاسم، لا في الطعم والمخبر، وقيل يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة.

قـــال ابن عباس: لا يشـــبه شـــيء مما في الجنـــة ما في الدنيـــا إلا في الأسماء.

* لما ذكر ـ تعالى ـ مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب، وفواكههم، ذكر أزواجهم في الجنان، فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه. فقال:

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ﴾.

أي: ولهـــم في الجنـــة زوجات من الحور العين، مطهـــرات من الأقذار

والأدناس الحسية كالبول والحيض، والمعنوية كالكذب وسوء الخلق والفحش والحسد والغيرة، ولم يخصص - سبحانه - نوع طهارة معين، ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخَلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، وورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكن يوم القيامة أجمل من الحور العين.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾.

إشعار بأن العفة ثمنها عظيم ومآلها كبير.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

بقاء الأمة بلا إمام ذنب يأثمون به لكثرة المفاسد.

قال القرطبي: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع ويطاع لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة.

* ثم ذكر - تعالى - قصة آدم في الجنة، فقال:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

أي: كلا من ثمار الجنة أكلاً رغداً واسعاً كثيراً، وتمتعا بذلك هنيئاً.

والرغد: العيش الهنيء الذي لا عناء فيه.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

أي: لا تأكلا من هذه الشجرة حتى لا تقعا في المعصية، وفي هذا اختبار من الله - تعالى - وامتحان لآدم - عليه السلام -، قال ابن عباس: هي الكرمة.

والنهي عن القرب فيه سدٌّ للذريعة وقطع للوسيلة، ولهذا نهى عنه عوضاً عن النهي عن الأكل.

والنهي عن القرب يرد في القرآن: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

* أشار - سبحانه - إلى قصر وقت إقامة آدم في الجنة، فقال في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال - تعالى - في سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩].

الحكمة في التعبير بلفظ ﴿ٱسْكُنْ﴾ في الآيتين دون غيره من الألفاظ التي تؤدي نفس المعنى، إشارة إلى قصر وقت الإقامة في الجنة حينذاك؛ لأن الله - تعالى - إنما خلق آدم لخلافة الأرض.

* وبعد ما جرى لآدم ما جرى من أكل الشجرة وندمه وتوبته، ذكر - تعالى - ذلك بقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إن الله كثير القبول للتوبة، يتوب على من تاب من عباده، واسع الرحمة للعباد، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

و﴿ٱلتَّوَّابُ﴾.

صيغة مبالغة لأن هذه صفة لازمة لله - عز وجل -؛ فمن صفاته الكاملة التوبة، ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون.

وأما ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ فهو ذو الرحمة الواصلة إلي من شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

* ثم قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قال السعدي - رحمه الله -: وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيها، فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر.

* ثم بين ـ تعالى ـ طريق التغلب على الأهواء، والتخلص من حب الرياسة وسلطان المال، ونيل مطلوبهم فيما يؤملون من خيري الدنيا والآخرة، فقال تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

الاستعانة بالصبر على أمور الدنيا والآخرة أمر ظاهر، وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة فقد أشار لها ـ تعالى ـ في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها: النهي عما لا يليق ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وأنها تجلب الرزق، وذلك في قوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

قال ابن جرير: وإنما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ أن الصلاة كبيرة إلا على من هذه صفته؛ لأن من كان غير موقن بمعاد، ولا مصدق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب، فالصلاة عنده عناء وضلال؛ لأنه لا يرجو بإقامتها إدراك نفع ولا دفع ضر، وحق لمن كانت هذه الصفة صفته أن تكون الصلاة عليه كبيرة، وإقامتها عليه ثقيلة، وله فادحة.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله ـ تعالى ـ، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه، ولهذا قال:

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: يعتقدون اعتقاداً جازماً لا يخالجه شك، ويستيقنون أنهم سيلقون ربهم يوم البعث. وأنهم إليه راجعون يوم القيامة للحساب والجزاء، فهذا الذي خفف عليهم العبادات، وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفس عنهم الكربات.

وفي تذكر لقاء الله ـ تعالى ـ، وعظيم ثوابه للمطيعين، من أعظم ما يخفف العبادات، ويصبر عن المعاصي، ويسلي عند المصائب، قال

ـ تعالى ـ بعد أن ذكر خفة الصلاة على الخاشعين ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

* ثم بدأت الآيات في ذكر قصة موسى وفرعون، قال ـ تعالى ـ ممتناً على بني إسرائيل:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين، أما حين ضربت عليهم الذلة واللعنة والصغار ليسوا أفضل العالمين، بل منهم القردة والخنازير، وهم أذل عباد الله.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ من نعمه على موسى وقومه:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

فإغراق العدو أو إهلاكه نعمة، وكونه ينظر إلى عدوه ـ ويغرق ـ نعمة أخرى لأن يشفي صدره؛ وعند عجز الناس لا يبقى إلا فعل الله ـ عز وجل ـ؛ ولهذا في غزوة الأحزاب نصروا بالريح التي أرسلها الله ـ تعالى ـ.

قال الألوسي: لما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة، جعله الله ـ تعالى ـ نكالاً لمن ادعى الربوبية، وعلى قدر الذنب يكون العقاب، ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء، انحطاط المدعي وتغييبه في قعر الماء.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١].

قال البقاعي في نظم الدرر: خص الليل بالذكر إشارة إلى أن ألذ المناجاة فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾.

بيان حكمة الله في مناسبة العقوبة للذنب، لأن عقوبة هؤلاء المتحيِّلين أنهم مسخوا قردة خاسئين، والذنب الذي فعلوه أنهم فعلوا شيئاً صورته صورة المباح، ولكن حقيقته غير المباح، فصورة القرد شبيهة بالآدمي، ولكنه ليس بآدمي، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، ويدلل لذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

* ثم ذكر ـ تعالى ـ قصة ذبح البقرة، فقال:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

قال الماوردي: وإنما أمروا ـ والله أعلم ـ بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.

وقال ابن القيم: ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله ـ تعالى ـ، إنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾.

فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل استهزاءه بمن هو آدمي، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده.

قال القرطبي: وفي الآية دليل على منع الاستهزاء بدين الله وبالمسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق الوعيد.

* قــال تعالــى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

قال السـعدي: فائدة تشبيه قسوة القلب بالحجارة مع أن في الموجودات ما هو أشد صلابة منها: هي أن الحديد والرصاص إذا أذيب ذاب، بخلاف الحجارة.

* قــال تعالــى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ذم ـ عــز وجل ـ الذيــن لا يعلمون الكتاب إلا أماني، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه.

* قال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

قال البغوي: هو اللين في القول، والمعاشرة بحسن الخلق.

وقد جعل الإحســان لســائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به، وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قالوا للناس حسناً فقد اضمروا لهم خيراً.

* ثــم قال تعالــى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿حَيَوٰةٍ﴾.

منكــرة هنا، لبيان أنهم يتشــبثون بأي حياة كانت، ســواء محمودة أو مذمومة، حياة فقر أو حياة غنى، حياة عز أو حياة ذل، المهم أن يبقوا وليس هذا صنيع من يرجو شــيئاً في الدار الآخرة. وهذا يدل على ضعف يقينهم بما يزعمون، وعلى بطلان برهانهم. والمرء كلما ابتعد عن التشــبث بالحياة الدنيا بعد عن صفات اليهود.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

كذا أخبرنا ربُّنا عن أماني بعض اليهود فما سر ذلك؟ لعل من أسرار ذلك ما نبَّه عليه مجاهد بقوله: حَببت ـ بفتح الحاء ـ الخطيئة طول العمر.

❁ قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال ابن عاشور: ولم يقل: (ما يود أهل الكتاب)، ففيه تنبيه إلى أنهم كفروا بكتبهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً ﷺ الذي أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه.

قال ابن القيم: إذا ذكر أهل الكتاب ـ في القرآن ـ بصيغة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١] فهذا لا يذكر الله إلا في معرض المدح، وإذا ذكروا بصيغة: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣] فلا تكون إلا في معرض الذم، وإن قيل فيهم: (أوتوا الكتاب) فقد يتناول الفريقين، لكنه لا يفرد به الممدوحون فقط. وإذا جاءت (أهل الكتاب) عمت الفريقين كليهما.

❁ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: والله واسع الفضل والإحسان، وفيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل العظيم.

والفضل ابتداء إحسان بلا علة، والإنسان إذا طلب الفضل من أهله، وهو ـ عز وجل ـ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ سهل الله أمره، وآتاه من فضله.

❁ ثم أخبر ـ تعالى ـ عن دعوة الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾.

أي: قال إبراهيم داعياً لهذا البيت: أن يجعله الله بلداً ذا أمن، يكون أهله في أمن واستقرار.

﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾.

أي: وارزق يا رب المؤمنين من أهله وسكانه من أنواع الثمرات؛ لأنه لم يكن لهم ثمرة، وكانوا بوادي غير ذي زرع، ليقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك، وخص بدعوته المؤمنين تادباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع.

* في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة: ١١١].

دليل على أن كل مدعي دعوى محتاج إلى تثبيتها، وإقامة البرهان عليها، وإذا كان المدعى عن شيء لله: لم يقبل ذلك البرهان إلا عن الله - تعالى -؛ لقوله في الآية التي قبل هذه: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا ﴾ [البقرة: ٨٠].

* قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة: ١١٢].

قال البغوي: وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه لله، أي: أخلص دينه لله.

وقيل: أخلص عبادته لله.

وقيل: خضع وتواضع لله.

وأصل الإسلام: الاستسلام والخضوع وخص الوجه، لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه.

* قال - تعالى - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ ﴾ قال السعدي: فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله. إذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها أسمه، فلا أعظم ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾ [البقرة: ١١٤].

قال ابن كثير: قلما تجبر متجبر في الأرض إلا أهانه الله قبل موته، فسخر به الصغير والكبير، وأضحى حديث مجالس.

وقال - رحمه الله -: لما استكبروا لقاهم الله المذلة في الدنيا قبل الآخرة.

* قال ابن كثير: لما قال الله - تعالى - لإبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة: ١٢٤]، فأراد الخير لذريته، وهو قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فصلاح الولد صلاح للوالد، قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

* قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] قال ابن عاشور: وإنما قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ ولم يقل: (وذريتي) لأنه يعلم أن حكمة الله لم تجر بأن يكون جميع نسل الإنسان ممن يصلحون لأن يُقتدى بهم، فلم يسأل ما هو مستحيل عادة؛ لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

قال القرطبي: واستدل جماعة من العلماء بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوة على القيام بذلك.. فأما أهل الفسوق والجور والظلم، فليسوا له بأهل، لقوله تعالى ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾.

* وفي قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ...﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال القصاب: ذكر التطهير لا يدل على أن البيت نجس، بل المقصود تطهير التعبد لا إزالة النجاسة، كما أن الجنب يؤمر بالتطهر وليس بنجس بمجرد حدوث الجنابة.

* قال ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦] وقال في إبراهيم: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فجاءت آية (البقرة) بدون تعريف، وآية (إبراهيم) معرفة، والسر في ذلك: أن آية (البقرة) دعا به الخليل ـ عليه السلام ـ قبل أن يكون بلداً، بل قاله عند ترك هاجر وإسماعيل به وهو واد، فدعا بأن يصير بلداً، أما آية (إبراهيم) فإنه دعا به بعد عودته، وسكنى جرهم به، وبعد أن صار بلداً، فدعا بأمنه.

* قال تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قال السعدي: حفظ القرآن وفهمه والعمل به جاء في آية واحدة: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ولفظاً وحفظاً وتحفيظاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ومعنى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبرؤ من الأعمال الرديئة.

* قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

قال إبراهيم بن آزر: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ؟ فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبد الله، هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه، فقال: اقرأ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

* قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

قال القرطبي: سمي الدين صبغة استعارة ومجازا، حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب.

* كما أنه مستقر في الأذهان أن الله يمحق الربا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فهو كذلك يمحق الكافرين: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١]، فكيف إذا اجتمع كفر وتعامل بالربا؟ لم يرد في القرآن كله لفظه: ﴿يَمْحَقُ﴾ إلا في هذين الموضعين.

* قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٢].

قال السعدي: العاقل لا يبالي باعتراض السفيه، ولا يلقي له ذهنه، ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله؛ إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربه بالقبول، والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

* في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

دليل على شرف هذه الأمة من وجوه:

منها: وصف الأمة بالعدل والخيرية.

ومنها: أن المزكي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المزكي.

ومنها: أن المزكي لا يحتاج للتزكية.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهو العفو؛ مهما أسرف العبد على نفسه بالعصيان ثم تاب عفى عن ذنوبه، وهو الرؤوف بجميع خلقه، يغدق عليهم الأرزاق وإن عصوه رأفة منه بهم.

* قوله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤] دون قوله: تحبها أو تهواها، فيه دلالة على أن ميل الرسول إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس، وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن يكون قبلة؛ فهو أول بيت وضع للناس بالتوحيد.

وفي استقبال بيت المقدس أولاً ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب.

* قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: ١٤٥].

إنما قال ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ بلفظ الجمع؛ تنبيهاً على أن لكل واحد منهم هوى غير هوى الآخر، ثم هوى كل واحد منهم لا ينتهي.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: إنما قال ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ ولم يقل دينهم، لأن ما هم عليه مجرد أهواء نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محاله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] إنما قال: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

ولم يقل: (أنفسهم)؛ لأن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجوده، ثم في ذكر الابن ما ليس في ذكر النفس، فإن ابن الإنسان عصارة ذاته ونسخة صورته.

* قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

الأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات.

* قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوهما. بل كل عامل لله بطاعة، فهو ذاكر الله ـ تعالى ـ.

ـ ومن حفظ معاملته عن المخادعة في البيع، وخلف الوعد، فقد وفق لأمر عظيم، وأفضل ما يستعين به من له عناية بدينه: القناعة، وحسن

الظن بالله، والثقة بما ضمن له من الرزق، وخوف الحساب، ومراقبة الجليل، فإنه قال وقوله الحق: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقر: ١٥٢].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرفاً.

* قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

تنكير ﴿بِشَيۡءٖ﴾ للتقليل، أي فهو شيء يسير؛ لأنه ابتلاء تمحيص، لا ابتلاء إهلاك.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦].

جعل هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة، وذلك توحيد الله والإقرار له بالعبودية والبعث من القبور، واليقين بأن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال سعيد بن جبير: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال يا أسفا على يوسف.

* قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

فربنا ـ تعالى ـ هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾؛ وسعت رحمته كل شيء، ورحمته أوسع صفاته: **«خلق مائة رحمة، وأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة، بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»**

[متفق عليه]، وما من أحد إلا وهو يتقلب في رحمة الله، وكل نعمة تراها هي من رحمته. ومن كان قريباً من الله كانت رحمة الله أولى به.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وكان هذا الكتاب ـ أي إن رحمتي سبقت غضبي ـ كالعهد من الله ـ سبحانه ـ للخلق، ولولاه لكان للخلق شأن آخر.

* قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

قيل: تصريفها أنها تارة تكون عاصفا، وتارة تكون حارة، وتارة تكون باردة.

قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح والماء.

* قال ابن تيمية: من جعل ما لم يأمر الله بمحبته محبوباً لله، فقد شرع ديناً لم يأذن الله به، وهو مبدأ الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

* في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾ [البقرة: ١٦٨].

إشارة إلى دور الشيطان في صرف الناس عن إطابة المطعم. مع الإشارة إلى أن إطابة المطعم سبب في إجابة الدعاء.

* قال ـ تعالى ـ في حق الكفار ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

فسلب العقل عن الكفار إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين ـ لأنهم آمنوا ثم كفروا ـ فلم يرجعوا إلى الإيمان.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

قيل في سبب تقديم الغفور على الرحيم: أن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة.

* قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال ابن عاشور: إطلاق وصف الأخ على المماثل في الإسلام أصل جاء به القرآن؛ وجعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الإخوة بل أشد حقاً، فإن التوافق في الدين رابطة نفسانية، والتوافق في النسب رابطة جسدية، والروح أشرف من الجسد.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ فائدة القصاص، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٩]

في القصاص حياة، والتنكير في ﴿حَيَوٰةٌ﴾ للتعظيم، وتلك الحياة العظيمة هي ما فيه من ارتداع الناس عن قتل النفوس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث: الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات، ولو ترك الأمر للثأر كما في الجاهلية لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر، فكان في مشروعية القصاص حياة عظيمة من الجانبين.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال السيوطي: معناه كثير، ولفظه قليل؛ لأن معناه: أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل اقتصوا منه كان داعياً ألا يقدم على القتل، فارتفع كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

* ثم قال ـ عز وجل ـ في أيام الصيام:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قال ابن عاشور: عبر بأيام ـ وهي جمع قلة ـ، ووصف ـ معدودات ـ وهي جمع قلة، تهويناً لأمره على المكلفين، لأن القليل يعد عدّاً والكثير لا يعد.

* قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

من فضائل شهر الصيام أن الله ـ تعالى ـ مدحه من بين سائر الشهور، بأن اختاره لإنزال القرآن العظيم فيه، واختصه بذلك، ثم مدح هذا القرآن الذي أنزله الله.

فقال: ﴿هُدًى﴾ لقلوب من آمن به.

﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ لمن تدبرها على صحة ما جاء به، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

* لما شرع الله الصوم بغير بدل ـ مع ما فيه من المشقة المعروفة ـ قال بعدها:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فاليسر هو ما جاء عن الله ـ تعالى ـ، ولا تجد أيسر من شريعة الله وأحكم.

قال ابن عباس: حق على المسلمين إذا نظروا إلى هلال شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكره يقول: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* توسطت آيات الدعاء بين آيات الصيام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإذا سألك ـ يا محمد ـ عبادي عني، فقل لهم: إني قريب منهم، أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم. روي أن جماعة من الأعراب سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ الآية.

والقرب نوعان:

قرب بعلمه من كل خلقه.

وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

قال الحسن: مفتاح البحار السفن، ومفتاح الأرض الطرق، ومفتاح السماء الدعاء.

* ما ذكر الله أسئلة الصحابة للنبي ﷺ إلا أعقبها بـ (قل) تمهيداً للإجابة، إلا قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى...﴾ فقد باشر الإجابة: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] لعظم أمر الدعاء.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

أجيب دعوة من دعاني إذا كان عن إيمان وخشوع قلب.

فإجابة الدعاء وعد صدق من الله لاخلف فيه، غير أن إجابة الدعوة تخالف قضاء الحاجة، فإجابة الدعوة أن يقول العبد يا رب، فيقول الله لبيك عبدي، وهذا أمر موعود موجود لكل مؤمن، وقضاء الحاجة إعطاء المراد، وقد يكون ناجزاً وقد يكون بعد مدة، وقد يكون في الآخرة، وقد تكون أخيِّرة له في غيره.

قال ابن تيمية: قيل في إجابة الدعاء: أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد، وهو مطابقة الخبر، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر.

قال بعض السلف: متى أطلق الله لسانك بالدعاء والطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك؛ وذلك لصدق الوعد بإجابة من دعاه، ألم يقل الله تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* قال تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

جمع الله ـ عز وجل ـ في هذه الآية أصول المفطرات: الأكل والشرب والجماع.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ من أحكام الاعتكاف، فقال تعالى:

﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

استدل العلماء بقوله: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ على أن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد، وقد حكى القرطبي وغيره الإجماع على ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧].

العلم الصحيح سبب للتقوى؛ لأنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا بان لهم الباطل اجتنبوه، ومن علم الحق فتركه، والباطل فاتبعه، كان أعظم لجرمه، وأشد لإثمه.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال الألوسي: والمراد من الأكل ما يعم الأخذ والاستيلاء. وعبر به لأنه أهم الحوائج، وبه يحصل إتلاف المال غالباً.

والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

* قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]

قال قتادة: سألوا نبي الله ﷺ: لم جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجهم، ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه.

وفي قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى كون الرؤية ميقاتاً للناس كلهم. فما كان رؤية في عهد النبوة فهو المعتبر بعده.

* قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ تنصيص على أهمية الإخلاص في هاتين العبادتين.

* جاء لفظ القرآن في بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل:

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: **«انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام»** [متفق عليه]. فكل شيء حسن في مقامه.

❁ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولم يقل: ولا تقصروا، ففيه دلالة على أن الحلق أفضل، وهو مقتضى دعاء الرسول ﷺ للمحلقين ثلاثاً، وللمقصرين مرة.

❁ قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: من بلاغة الآيات في قوله ـ تعالى ـ عن الهدي:

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ...﴾ [البقرة: ١٩٦].

أنه لم يحدد ما الذي لم يوجد؛ ليشمل من لم يجد الهدي، ومن لم يجد ثمنه، فاستفدنا زيادة المعنى، مع اختصار اللفظ.

❁ قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، وفي الإكثار منه نفع وإعانة المسافرين، وزيادة قربة لرب العالمين.

والزاد: هو الطعام الذي يقتات به الإنسان في سفره، ونحن في الدنيا مسافرون، وزاد الآخرة هو التقوى.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن كثير: نهى ـ عز وجل ـ عباده عن القبيح قولاً وفعلاً، ثم حثهم على فعل الجميل مع علمه به ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

❁ سمى الله المال خيراً.

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

تنبيهاً على معنى لطيف وهو ما كان مجموعاً من وجه محمود.

* قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال ابن القيم: أمر الحجاج بأن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد، ثم نبههم على زاد سفر الآخرة وهو التقوى؛ فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يبلغه إياه، فكذلك المسافر إلى الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى، جمع بين الزادين، فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن.

* قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

لما نهى عن الجدال في الحج كان مظنة للنهي عن التجارة فيه أيضاً لكونها مفضية في الأغلب إلى النزاع في قلة القيمة وكثرتها، فعقب ذلك بذكر حكمها.

* قال ـ تعالى ـ بعد ذكر المناسك: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات. عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧]، ثم بكى، وقال: يا خليل الرحمن! ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يُتقبَّل منك؟

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ـ أي: بعد التحلل من النسك ـ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾.

قال عطاء: هو كقول الصبي: أبه، أمه، أي: فكما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

سأل قتادة أنساً: أي دعوة كان يدعو بها النبي ﷺ أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب

النار». قال: وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. [رواه مسلم].

قال القاسم بن عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي من عذاب النار.

❁ قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وفي هذا دليل على أن الأعمال المخير فيها إنما ينتفي الإثم عنها إذا فعلها الإنسان على سبيل التقوى لله ـ عز وجل ـ دون التهاون بأوامره؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وأما من فعلها على سبيل التهاون، وعدم المبالاة فإن عليه الإثم بترك التقوى، وتهاونه بأوامر الله.

❁ بعد أن أباح الله التعجل لمن اتقاه، قال:
﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٠٣].

فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله؛ فلهذا حث ـ تعالى ـ على العلم بذلك.

❁ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝﴾ [٢٠٦].

فيه التحذير من رد الناصحين، لأن الله جعل هذا من أوصاف هؤلاء المنافقين، فمن رد آمراً بتقوى الله ففيه شبه من المنافقين، والواجب على المرء إذا قيل له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أن يقول: (سمعنا وأطعنا) تعظيماً لتقوى الله.

❁ حكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، فاعلموا أن الله غفور رحيم، ولم يكن الأعرابي من القراء، فقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا، ومر بهما رجل، فقال: كيف تقرأ هذه الآية، فقال الرجل: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

﴿حَكِيمٌ﴾، فقال: هكذا ينبغي، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل؛ لأنه إغراء عليه.

* قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وطريق الجنة إنما هو الصبر على البلاء.

والبأساء غالباً في المال، والضراء في البدن.

* قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما يفرج عن أنبيائه، ومن معهم بعد انقطاع أسبابهم ممن سواه؛ ليمتحن قلوبهم للتقوى، فتتقدس سرائرهم من الركون لشيء من الخلق، وتتعلق ضمائرهم بالله ـ تعالى ـ وحده.

* قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

قدم الوالدين والأقربين على المسكين وابن السبيل لحق الرحم، وختم بالعلم لأجل دخول الخلل على النيات في الإنفاق لأنه من أشد شيء تتباهى به النفس، فيكاد لا يسلم لها منه إلا ما لا تعلمه شماله.

* قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: ما يصيب الإنسان إن كان يسره: فهو نعمة بينة. وإن كان يسوءه: فهو نعمة من جهة أنه يكفر خطاياه، ويثاب بالصبر عليه، ومن جهة أن فيه حكمة ورحمة لا يعلمها.

* قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قد تحب نفوسكم شيئاً لما فيه من الراحة أو اللذة العاجلة وفيه كل الخطر والضرر عليكم، فلعل لكم في القتال ـ وإن كرهتموه ـ خيراً؛ لأن فيه إما الظفر والغنيمة، أو الشهادة والأجر، ولعل لكم في تركه ـ وإن أحببتموه ـ شرّاً؛ لأن فيه الذل والفقر، وحرمان الأجر.

قال ابن القيم: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ولم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم ما لا يعلمه العبد.

ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ .

والله أعلم بعواقب الأمور منكم، وأدرى بما فيه صلاحكم في دنياكم وآخرتكم، فبادروا إلى ما يأمركم به وإن شق عليكم.

والغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمراً من الأمور، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله ـ تعالى ـ أرحم بالعبد من نفسه.

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨].

قال الشوكاني: بعد أن وصف الله عباده بتلك الأوصاف العالية، قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ﴾ وإنما قال: ﴿يَرْجُونَ﴾ بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها؛ لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ.

❁ ثم ذكر ـ تعالى ـ من أحكام الطلاق، فقال:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٣٠].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: وفي هذا دلالة على أن ينبغي للإنسان، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور ـ خصوصاً الولايات الصغار، والكبار ـ نظر في نفسه، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك، ووثق بها أقدم، وإلا أحجم.

قال في آخر الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

قال القرطبي: لأن الجاهل إذا أكثر له أمره ونهيه فإنه لا يحفظه ولا يتعاهده. والعالم يحفظ ويتعاهد، فلهذا المعنى خاطب العلماء ولم يخاطب الجهال.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

آية تنضح بروعة الأسلوب وجمال المعنى من خلال جمعها للطهارتين الحسية والمعنوية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهو التواب؛ لا يرد تائباً، من جاء إليه في ليل أو نهار قبله؛ بل وأحبه.

* قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: فائدة: أن تعيين المهر إلى الزوج لا إلى الزوجة لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ﴾. ينبغي للإنسان ألا ينسى الفضل مع إخوانه، وقد جاء في الحديث: **«رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»** [أخرجه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن، وتطييباً لخاطرهن، وجبراً لوحشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعاً بالمعروف حقاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله.

وفي الآية ذكر المحسنين، وفي الآية الأخرى ذكر المتقين، قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١].

* ثم قال ـ تعالى ـ في آيات الصلاة: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨].

توسطت آيات المحافظة على الصلاة خلال الآيات الكريمة المتعلقة بأحكام الأسرة وعلاقات الزوجين عند الطلاق أو الافتراق، وذلك لحكمة بليغة؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ لما أمر بالعفو والتسامح وعدم نسيان الفضل بعد الطلاق، بيَّن بعد ذلك أمر الصلاة؛ لأنها أعظم وسيلة إلى نسيان هموم الدنيا وأكدارها، ولهذا كان ﷺ إذا حزبه هم فزع إلى الصلاة، فالطلاق يولد الشحناء والبغضاء، والصلاة تدعو إلى الإحسان والتسامح، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وذلك أفضل طريق لتربية النفس.

ولأن الصلاة من أسباب التوفيق واستقرار الحياة الزوجية، فمن استقامت صلاته استقامت حياته ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقد توسط ذكر الصلاة؛ لأن فيه ربط لأداء حقوق الناس في المعاملات بحق الله، وكلها عبادات.

* قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة:٢٣٩].

قال السعدي: وفي هذا زيادة للتأكيد على المحافظة على وقتها، ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل بل أوجب من صلاتها مطمئنة خارج الوقت.

* ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾.

قال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: والكافرون هم الظالمون، ولم يقل الظالمون هم الكافرون.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

في تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم، إيماء إلى الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية، بل يكاد لا يكون بينهما نسبة.

* قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾.

آية الكرسي أعظم آية وتدبرها أولى ما يكون، وقد شُرعت قراءتها في مواضع كثيرة، ويحق لمن قرأها متدبراً متفقهاً، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون بذلك محفوظاً من شرور الشيطان.

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فيها نفي وإثبات؛ نفي الألوهية وإثباتها لله وحده، وهذا من التخلية قبل التحلية، وقد فصل هذا أيضاً في الآية التي تليها ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهو ـ سبحانه ـ.

﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾؛ قائم بأمر جميع الخلائق ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

هو أحد لم يزل وحده، ولم يكن معه غيره، وتوحد بجميع الكمالات لا يشاركه فيها مشارك.

ـ لما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ قال بعدها: ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾، فبعد أن ذكر استحقاقه للعبودية، ذكر سبب ذلك وهو كماله في نفسه ولغيره، فلا تصلح العبادة إلا لمن هذه شأنه.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، من كان يعبد الله؛ فإن الله حي لا يموت.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ .

السنة هي النعاس، وفي نفي النوم بعد نفي السنة: تدرج من نفي الأعلى بعد الأدنى، فكأنه قال: لا تأخذه سنة فكيف النوم؟ وهذا من بلاغة التأكيد.

ـ ولما ذكر الله لنفسه صفة الحياة: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ذكرها بعدها ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، وفيه معنى لطيف وهو أن النوم هو الموتة الصغرى، فنفى عن نفسه السِّنة والنوم بعد أن أثبت لنفسه كمال الحياة.

* قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ .

لم يقل: يعلمه، فهم لا يحيطون بعلمه، ولا بشيء من علمه، بل هم إن علموه، فإنما يعلمونه من وجه دون وجه بغير إحاطة.

ـ من مناسبة قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أن قوله: ﴿مَا﴾ عام، فكل ما في السموات والأرض لله، مملوك من مماليكه وعبدة من عبيده، فكيف يعبد العبد عبداً ولا يعبد مالكه.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ .

والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله ـ تعالى ـ، بل هناك ماهو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال:

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ .

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ .

مثل هذه الجملة التي طرفاها معرفتان تفيد الحصر، فهو وحده العلي؛ أي: ذو العلو المطلق، وهو الارتفاع فوق كل شيء.

و﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾؛ أي ذو العظمة في ذاته، وسلطانه، وصفاته.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه غامضة أثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين المبين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول وظهرت طرقه وتبين أمره وعرف الرشد من الغي، فالموافق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيء القصد، فاسد الإرادة، خبيث النفس، يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

قال البغوي: سمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه، وسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

* ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ ولم يقل (الكافر) ليبين أن خذلانه في الإجابة كان بسبب كفره، ولو قال: (الكافر) يصبح مجرد نعت عام للرجل.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾.

أي: واذكر حين طلب إبراهيم من ربه أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان، ولهذا خاطبه ربه بقوله:

﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾.

قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: بلى آمنت، ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب، وزيادة يقين برؤية ذلك.

أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة وبهذا يجتمع دليل العيان إلى دليل الإيمان، ولم يكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ شاكاً في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس من حب الاطمئنان برؤية ما أخبرت عنه.

* قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ﴾.

قال ابن كثير: بحسب إخلاصه في عمله.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾. [البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٣].

قال السعدي: وهذا الأمر بإيتاء ذي القربي وغيرهم مع القدرة، فأما مع العدم أو تعذر النفقة الحاضرة، فأمر ـ تعالى ـ أن يردوا رداً جميلاً، فقال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: تعرضن عن إعطائهم حاضراً، ولكنك ترجو فيما بعد ذلك تيسير الأمر من الله.

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٨].

أي: لطيفاً برفق ووعد بالجميل عند الوجود، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة قلوبهم، عاذرين راجين، كما قال

تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: هذا من لطف الله بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك عبادة، وسبب لحصوله، فإن الله عند ظن عبده به، وكذلك وَعْدُهُم أن يعطوهم إذا وجدوا ـ عبادة حاضرة لمن وعدوا، لأن الهم بفعل الخير والحسنة خير، ولهذا ينبغي للعبد أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه إذا قدر، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٣].

أي: لا يعاجل من عصاه، بل يرزقه وينصره، وهو يعصيه ويكفره.

* قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والإظهار في مقام الإضمار لإظهار الاعتناء بشأنها.

وفي إيلاء هذه الآية لما قبلها إشعار بأن الذي لا يغتر بوعد الشيطان، ويوقن بوعد الله؛ هو من آتاه الله الحكمة.

* قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

في الآية على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، قال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسر بالقرآن، كالمسر بالصدقة» [رواه أبو داود].

* قال الزجاج: لما ذكر الله في سورة البقرة أحكاماً كثيرة وقصصاً، ختمها بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

تعظيماً لنبيه ﷺ وأتباعه، وتأكيداً لجميع ذلك المذكور من قبل، وأنهم آمنوا بأخباره وعملوا بأحكامه.

ثم قال: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ دل أن الإيمان الصحيح يقود إلى العمل، فهو ليس مجرد معرفة قلبية، وتصورات ذهنية.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال السعدي: الجزاء من جنس العمل، فكما تقلبت عقولهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ جازاهم الله من جنس أحوالهم، فصارت أحوالهم أحوال المجانين: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.

* قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

الجزاء من جنس العمل: فإن المرابي قد ظلم الناس فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم ربه أكرم منه ـ سبحانه وتعالى ـ.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

قال ابن تيمية: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك، ولهذا جاء في الحديث الذي طرقه متعددة: «**إن الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن يأتي الرجل أمه**».

* قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال الحسن: في القرآن تسعين موضعاً أن الله ضمن الأرزاق لخلقه، وموضع واحد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ فشككنا في قول الصادق في تسعين، وصدقنا قول الكاذب في واحد.

وأبواب الشيطان ومداخله على القلوب كثيرة، فحينما تهم بالصدقة، ثم تغل يدك خشية الفقر، فاعلم أن الشيطان قد أخذ حظه منك.

- قال بعض العلماء: أرجى آية في القرآن آية الدين، من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢] فقد أوضح الله فيها الطرق الكفيلة بصيانة الدين من الضياع، ولو كان الدين حقيراً، قالوا: وهذا من صيانة مال المسلم، وعدم ضياعه ولو قليلاً، يدل على العناية التامة بمصالح المسلم، وذلك يدل على أن اللطيف الخبير لا يضيعه يوم القيامة عند اشتداد الهول، وشدة حاجته إلى ربه.

* قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن تيمية: فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردها وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مفيد بالقدرة وذلك لا يكون إلا قليلاً، ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه.

* لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ اشتد ذلك على الصحابة، فقالوا: قد أنزلت عليك هذه الآية ولانطيقها، فقال ﷺ: **«أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا»**، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، (فنسخها الله)، وأنزل الله في إثره: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾. [رواه مسلم].

عن البراء بن سليم قال: سمعت نافعاً يقول: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ثم يقول: إن هذا لإحصاء شديد.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وتقديم السمع والطاعة على طلب الغفران لما إن تقدم الوسيلة على المسئول أقرب إلى الإجابة والقبول.

* قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قال ابن عثيمين: يستدل بها بعضهم على الترخص، مع أنها تدل على العزيمة أيضاً، فيقال: إن الله ـ تعالى ـ لم يكلف نفساً فوق وسعها، فمعناه: أن كل ما كان في وسعه، فهو داخل في التكليف.

* قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

قال السعدي: في الإتيان بـ (كسب) الخير: دال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ (كسب) في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل في سعيه.

وجاءت العبارة بـ ﴿لَهَا﴾ في الحسنات، لأنها مما ينتفع العبد به، وجاءت بـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في السيئات؛ لأنها مما يضر العبد.

* قال تعالى: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾.

في الحديث القدسي: «**أن الله ـ تعالى ـ قال: قد فعلت**».

وانظر إلى ترتيبها: فالعفو طلب إسقاط العقوبة، ثم تدرج منه إلى المغفرة، وهي طلب الستر (وقد تسقط العقوبة ولا يستر الذنب)، ثم تدرج منه إلى الرحمة، وهي كلمة جامعة لأنواع من الخير والإحسان، فالحمد لله الذي لا أعظم من رحمته.

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ:

العفو: عن التفريط في الطاعات.

الاستغفار: عن فعل المحرمات.

الرحمة: فيما يستقبله المرء من زمنه.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال السعدي: وقوله ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾.

أي: فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾.

فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر.

ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

* من ارتباط أول سورة البقرة بآخرها، أن مدح الله ـ تعالى ـ في أولها المتقين الذي يؤمنون بالغيب، ثم فصل صفتهم في آخرها بأنهم الرسول ومن معه إذ آمنوا بالغيب من مثل أركان الإيمان، وسمعوا وأطاعوا، وذكر في أولها أنهم بالآخرة هم يوقنون، وفي آخرها قالوا: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

جمع الله في هذه الآية بين ترك الأمر وارتكاب النهي؛ لأن المراد بالنسيان هنا: الترك، فالنسيان أن يترك الفعل لتأويل فاسد.

والمراد بالخطأ: أن يفعل لتأويل فاسد، فدعوا الله أن يعفو عنهم هذا وهذا.

قال شيخ الإسلام: وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل؛ فإن الله ـ تعالى ـ عفا المؤمنين عما أخطئوا، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ولا نتبع من دونه أولياء،

وأمرنا أن لا نطيع مخلوقاً في معصية الخالق، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فنقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال ـ رحمه الله ـ: ذكر الله في آخر البقرة أحكام الأموال وهي ثلاثة أصناف: عدل، وفضل، وظلم.

فالعدل: البيع.

والظلم: الربا.

والفضل: الصدقة.

فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرابين وبين عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى.

سورة آل عمران (٣)

سورة آل عمران من السور المدنية الطويلة، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على ركنين مهمين من أركان الدين:

الأول: ركن العقيدة وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله ـ جل وعلا ـ.

والثاني: التشريع وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.

أما الأول: فقد جاءت الآيات الكريمة لإثبات الوحدانية، والنبوة، وإثبات صدق القرآن، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن وأمر محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم اليهود وأظهرت حقيقتهم، وكشفت عن نواياهم وخباياهم، وما انطوت عليه نفوسهم من خبث ومكر، فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب، وهم النصارى الذين جادلوا في شأن المسيح وزعموا ألوهيته، وكذبوا برسالة محمد وأنكروا القرآن، وقد تناول الحديث عنهم ما يقرب من نصف السورة الكريمة، وفيها الرد على الشبهات التي أثاروها بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وجاء ضمن هذا الرد الحاسم بعض الإشارات والتقريعات لليهود، والتحذير للمسلمين من كيد ودسائس أهل الكتاب.

أما الركن الثاني: فقد تناولت الحديث عن بعض الأحكام الشرعية كفرضية الحج والجهاد وأمور الربا وحكم مانع الزكاة، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر، وغزوة أحد، والدروس التي تلقاها المؤمنون من تلك الغزوات، فقد انتصروا في بدر، وهزموا في أُحد بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنافقين كثيراً من

كلمات الشماتة والتخذيل، فأرشدهم - تعالى - إلى الحكمة من ذلك الدرس، وهي أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة، ليميز بين الخبيث والطيب، كما تحدثت الآيات الكريمة بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين.

ثم ختمت بالتفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما فيهما من إتقان وإبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجود الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين في تلك الوصية الفذة الجامعة، التي بها يتحقق الخير، ويعظم النصر، ويتم الفلاح والنجاح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

سميت السورة بـ «آل عمران» لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة «آل عمران» والد مريم أم عيسى، وما تجلى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول وابنها عيسى - عليهما السلام -.

وسورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم - عليهم السلام -. يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم (آل عمران) فيه إشارة عظيمة في الرد على النصارى الذين ألّهو عيسى - عليه السلام -، فهو يشير إلى أصل عيسى - عليه السلام - البشري، فهو من (آل عمران).

وتشترك سورة البقرة وآل عمران في جملة من الخصائص والفضائل، فإنهما تأتيان يوم القيامة تقدمان القرآن وأهله، لما في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان أن النبي ﷺ قال: **«يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»**، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال - ما نسيتهن بعد -: قال: **«كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كانهما خرقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»**.

وتسمى الزهراوتين كما في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: **«اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران»**. وقالوا:

سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما، وعظيم أجرهما.

نزلت الآيات من أول السورة إلى نيف وثمانية آية في وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ثلاثة منهم أكابرهم: عبدالمسيح أميرهم، والأيهم مشيرهم، وأبو حارثة بن علقمة حبرهم، فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه، فقالوا تارة عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى، وتارة هو ابن الله إذ لم يكن له أب، وتارة إنه ثالث ثلاثة، لقوله تعالى: «فعلنا وقلنا» ولو كان واحداً لقال: «فعلت وقلت» فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يموت»** قالوا: بلى، قال: **«ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه»** قالوا: بلى، قال: **«ألستم تعلمون أن ربنا قائم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟»** قالوا: لا، قال: **«ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم؟»** قالوا: لا، قال: **«ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث وأن عيسى كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث»** قالوا: بلى، فقال ﷺ: **«فكيف يكون كما زعمتم؟»**، فسكتوا وأبوا إلا الجحود؛ فأنزل الله: ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝﴾.

* قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝﴾ [آل عمران: ٣].

قال البغوي: وأنما قال وأنزل التوراة والإنجيل، لأن التوراة والإنجيل انزلا جملة واحدة، وقال في القرآن ﴿نَزَّلَ﴾ مفصلاً والتنزيل للتكثير.

* قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝﴾.

من أسباب الثبات على الهدى والحق سؤال الله التثبيت، فإن الله هو الذي يثبتك ويهديك، والمسلم يدعوا ويلح على الله ـ تعالى ـ بالسؤال أن يربط على قلبه ويثبته على دينه، فالقلوب ضعيفة والشبهات خطافة،

والشيطان قاعد بالمرصاد، وللمسلم فيمن تقدم من المؤمنين أسوة حسنة فإن من دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

وقد كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾.

وهو الوهاب؛ يعطي من أراد ما شاء، بيده خزائن السموات والأرض، وهب ذرية طيبة لأنبياء بعد بلوغهم عتياً من الكبر، وسأل سليمان ـ عليه السلام ـ ربه الوهاب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فوهبه آيات وعبراً من العطاء، ريح وجن، وعين قطر مسخرات بأمره.

* قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

قال ابن تيمية: فلله رحمة قد عمت الخلق برهم وفاجرهم، سعيدهم وشقيهم، ثم له رحمة خص بها المؤمنين خاصة وهي رحمة الإيمان، ثم له رحمة خص بها المتقين، وهي رحمة الطاعة لله ـ تعالى ـ، ولله رحمة خص بها الأولياء نالوا بها الولاية، وله رحمة خص بها الأنبياء نالوا بها النبوة. وقال الراسخون في العلم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

* قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾ [آل عمران: ٩].

استحضروا عند طلب الرحمة أحوج ما يكونون إليها، وهو يوم تكون الرحمة سبباً للفوز الأبدي، فأعقبوا بذكر هذا اليوم ودعاءهم على سبيل الإيجاز، كأنهم قالوا: هب لنا من لدنك رحمة، وخاصة يوم تجمع الناس.

* قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

سميت الخيل خيلاً: لأن صاحبها غالباً يبتلى بالخيلاء؛ لأنها أفخر المراكب، أو لأنها تختال في مشيتها.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: الدنيا حياة بسيطة ليست بشيء، قال النبي ﷺ: «لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها». وموضع السوط حوالي متر، و«خير من الدنيا وما فيها».

الدنيا منذ خلقت إلى يوم القيامة بكل ما فيها من نعيم، وذلك لأن نعيم الدنيا في الحقيقة كأحلامنا، واعتبر الأمر بما مضى من عمرك.

* قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: أمر الله عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار، فكان ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧] فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار، وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل، بقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠].

* قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:].

تخصيص الأسحار بالاستغفار، لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة إذ العبادة حينئذ أشق، والنفس أصفى، والروح أجمع.

قال الطبري: هم الذين يسألون ستر فضيحتهم بالأسحار.

وأعظم أوقات الاستغفار في السحر، وأفضله في سجود صلاة الليل.

* قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين،

بمنزلة المشاهدة للمبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم.

ومن أعظم ما تنافس فيه الناس، وبلغوا فيه أعظم الغايات الوصول إلى أرفع الدرجات في العلم، لأن الله ـ جل وعلا ـ جعل العلماء شهوداً على أعظم مشهود.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١].

قال ابن رجب: هذه الآية من أظهر الأدلة على بيان منزلة العلماء الآمرين بالمعروف، حيث قرن الله قتلهم بقتل الأنبياء؛ لأن العلماء هم ورثة الأنبياء.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن عاشور: وانظر كيف عبر بصيغة النفي لا النهي، مبالغة في التقرير؛ لأن اتخاذهم أولياء ـ بعد أن سفه الآخرون دينهم، وسفهوا أحلامهم في إتباعه ـ يعد ضعفاً في الدين، وتصويباً للمعتدين.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١].

عبر بلفظ الإتباع دلالة على التقرب؛ لأن من آثار المحبة تطلب القرب من المحبوب، وعلق محبة الله ـ تعالى ـ على لزوم اتباع الرسول، لأنه رسوله الداعي لما يحبه.

* قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

نص ـ عز وجل ـ في الآية على الخير هنا دون الشر، وفي هذا تعليم الله ـ جل وعلا ـ لعباده كيف يرزقون الأدب في خطابهم مع ربهم ـ تبارك وتعالى ـ، ومعلوم أن الأدب مع الرب ـ تبارك وتعالى ـ هو الدين كله. والنبي ﷺ يقول: «**والخير كله بيديك والشر ليس إليك**».

ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم تولوا، يريدون أن تكون السيادة لهم، لا لغيرهم، فأمر الله نبيه أن يبتهل إلى الله بهذا الدعاء المتضمن قدرة الله على نقل النبوة يتبعها الملك من بني إسرائيل إلى العرب.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝﴾ [آل عمران: ٣٦].

فلما فاتها ما كانت عقدت النية عليه وهو أن يكون المولود ذكر وهو أمر ليس بيدها، لم يفتها أن تسمي المولودة باسم يغلب الظن أن فيه شيء من القربى إلى الله، ولهذا قالت ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ومريم في لغتهم بمعنى (خادمة الرب).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] هذا من فضائل مريم، ومن جملة ما يزيد فضلها؛ لأن المتربي يكتسب خلقه وصلاحه ممن يربيه.

* ولما رأى زكريا فضل الله طمع في فضله وخيره، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [آل عمران: ٣٧].

والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبانه، وقد كان في حسرة من

عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم.

- ولم يكتف زكريا - عليه السلام - بطلب الولد. بل قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٦].

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حدِّ العداوة والفتنة، إلى حد المسرَّة والنِّعمة.

* قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

أي: فنادى جبريل زكريا وهو واقف بين يدي الله قائماً في الصلاة يدعوه، ويتضرع إليه، إن الله يخبرك بخبر يسرك، وهو أنك سترزق بغلام اسمه يحيى.

وسمي يحيى؛ لأن الله - تعالى - أحيا قلبه بالإيمان والطاعة.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

فذكر الأعم، ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة، ثم السجود الذي يشرع وحده كسجود التلاوة وسجود الشكر ويشرع في الصلاة، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة.

قال ابن عثيمين - رحمه الله -: ففي أمر الملائكة لها بالقنوت والركوع والسجود، إشارة إلى أنه كلما منَّ الله - سبحانه وتعالى - على إنسان بشيء، وازدادت عليه النعم أن يزداد على ذلك شكر، بالقنوت لله والركوع والسجود وسائر العبادات.

* قال - تعالى - عن معجزات يحيى - عليه السلام -:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٤٦].

قد يبدو بادئ الرأي أنه يكلم الناس وهو كهل، فما السر في إيراد كلمة ﴿وَكَهْلًا﴾ بعد ذكر المهد، قال الله ذلك للصديقة مريم حتى لا يقع في نفسها أن قول الله ـ جل وعلا ـ لها بالبشارة ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أن هذا الغلام سيكون معجزة لا يلبث أن يموت سريعاً، فطمأنها ـ عز وجل ـ.

* ومن حكمة الباري ـ تعالى ـ أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى ـ عليه السلام ـ من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، ثم أخبر ـ تعالى ـ عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى ـ عليه السلام ـ، فقال:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال البغوي: وإنما خص هذين لأنهما داءان عياءان، وكان الغالب في زمن عيسى ـ عليه السلام ـ الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك.

والأكمة: من ولد أعمى.

والأبرص: هو الداء المعروف؛ وهو بياض يعتري الجلد.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]، قال القرطبي: أي بالحجة وإقامة البرهان، وقيل: بالعز والغلبة.

* قال تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

فيها إشارة إلى نجاسة الكفار معنوياً، وأن من يعايشهم ويتبع أثرهم، ويتشبه بهم فسيعلق به أثر من نجاستهم.

* قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٥٧].

قال السعدي: دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضراً موفراً، فيعطي كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه.

- ومن تدبر القرآن علم أن الصالحين لا يخافون من شيء أعظم من خوفهم من أمرين:

الأول: الخوف من أعمالهم الصالحة أن لا تقبل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الثاني: الخوف من زيغ القلب بعد هدايته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

* قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ذم الله في القرآن أربعة أنواع من الجدل:

الأول: الجدل بغير علم: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦].

الثاني: الجدل في الحق بعد ظهوره: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

الثالث: الجدل بالباطل: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

الرابع: الجدل في آياته: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤].

* وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣].

ونحوها من الآيات، تدل على أن من طلب الهدى والرشد من غير الكتاب والسنة ضل، لأن الهدى محصور في هدى الله الذي أرسل به رسوله ﷺ.

* قال تعالى: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٧٩].

دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً؛ فمن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه، وخاب عمله.

* قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [آل عمران: ٨٦ -٨٧].

الجزاء من جنس العمل، فإن هؤلاء لما ارتكبوا ثلاث جرائم أو ثلاثة أمور في كفرهم، كان عليهم: لعنة الله، والملائكة، والناس، ثلاث بثلاث.

* قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢].

مناسبة موقع هذه الآية تلو سابقتها: أن الآية السابقة لما بينت أن الذين كفروا لن يقبل من أحدهم أعظم ما ينفقه، بينت هذه الآية ما ينفع أهل الإيمان من بذل المال، وأنه يبلغ بصاحبه مرتبة البر، فبين الطرفين مراتب كثيرة قد علمها الفطناء من هذه المقابلة.

* قال ابن العربي - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] -.

قال علماؤنا: هذا من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب؛ فإذا قال العربي: لفلان عليَّ كذا، فقد وكده وأوجبه، وهكذا جاء في الحج؛ تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته، وتقوية لفرضه.

* قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١].

قال ابن عاشور: وفي الآية دلالة على عظم قدر الصحابة وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال: سماع القرآن، ومشاهدة أنوار الرسول ـ عليه السلام ـ، فإن وجوده عصمة من ضلالهم.

قال قتادة: أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

* قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الطبري: واصل المعروف كل ما كان معروفاً فعله جميلاً، مستحسناً غير مستقبح في أهل الإيمان ولا يستنكرون فعله، وإنما سميت طاعة لله معروفاً لأنه مما يعرفه أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله، وأصل المنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحا فعله، ولذلك سميت معصية لله منكراً، لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها، ويستعظمون ركونها.

* قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥].

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: النهي عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن تركه هو سبب للتفرق، لا أنه هو سبب التفرق.

* قال ـ تعالى ـ عن اليهود:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال ابن تيمية: فاليهود لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح ـ عليه السلام ـ فكذبوه.

* قال الإمام النووي: ينبغي لقارئ القرآن أن يعتني بقراءة الليل أكثر، قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته؛ لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، والتصرف في الحاجات، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

يستخفي المنافقون ببغضهم وكيدهم للمؤمنين، فتفضحهم عثرات ألسنتهم، وما ظهر من مكرهم، وليس كالتقوى والصبر دافعاً لأذاهم: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ أحداث غزوة أحد، فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

اذكر ـ يا محمد ـ حين خرجت من بيتك إلى غزوة أحد لابساً عدة الحرب في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة.

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ تنزل المؤمنين وترتب أماكنهم وتنظم صفوفهم لقتال عدوهم، وتنزل كل واحد في منزله للقاء المشركين في غزوة أحد، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، وشجاعته الكاملة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حيث يباشر هذه الأمور بنفسه.

* قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قال السعدي: وفي هذه الآية ما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وإن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً

وتكـــون الخيـــرة والمصلحة في غيره، وأن الرســـول ﷺ ليس له من الأمر شـــيء، فغيره من باب أولى، ففيها أعظـــم رد على من تعلق بالأنبياء، أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة ونقص في العقل يتركون من الأمر كله له، ويدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة.

* قـــال ـ تعالى ـ عن الفراق بين الزوجين: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

قال السعدي: يعني: إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: من فضله وإحســـانه العام الشامل، فيغني الـــزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله برزق من غير طريقه، فإنها وإن توهمـــت أنه إذا فارقها زوجها المنفق عليهـــا القائم بمؤنتها ينقطع عنها الرزق، فسوف يغنيها الله من فضله، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي: واسع الرحمة كثير الإحسان.

﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

وقال ـ رحمه الله ـ: وفي الآية تنبيه على أنه ينبغي للعبد أن يعلق رجاءه بالله وحده، وأن الله إذا قدر له ســـبباً من أسباب الرزق والراحة أن يحمده على ذلك، ويســـأله أن يبارك فيه له، فإن انقطع أو تعذر ذلك الســـبب فلا يتشـــوش قلبه، فإن هذا الســـبب؛ من جملة أسباب لا تحصى ـ لا يتوقف رزق العبد على ذلك الســـبب المعين، بل يفتح له ســـبباً غيره أحســـن منه وأنفع، وربما فتح له عدة أســـباب، فعليه في أحواله كلها أن يجعل فضل ربـــه، والطمع في بره نصب عينيه وقبلة قلبـــه، ويكثر من الدعاء المقرون بالرجاء؛ فإن الله يقول على لســـان نبيه: «أنا عند ظـــن عبدي بي؛ فإن ظن بي

خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله»، وقال: «إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي».

* قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

أمرهم - تعالى - بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته التي عرضها السموات والأرض فكيف بطولها.

بكى أحد السلف حين قرأ هذه الآية، فقيل له: لقد أبكتك آية ما مثلها يُبكي، إنها جنة عريضة واسعة، فقال: يا ابن أخي؛ وما ينفعني عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم.

* ثم ذكر - تعالى - صفات المتقين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

الذين يبذلون أموالهم في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء، إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا شيئاً ولو قل، فأول ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة.

والإنفاق ليس خاصاً على البعيد عنك، بل هو عام يشمل حتى الإنفاق على ابنك وبنتك، وأمك وأبيك، وزوجتك، بل ونفسك، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - كلمة جامعة نافعة مانعة، قال: «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في فم امرأتك».

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

أي: والذين يمسكون غيظهم بالصبر إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وحنقهم مع قدرتهم على الانتقام.

والغيظ: توقد حرارة القلب من الغضب، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً» [رواه الطبراني].

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: يعفون عمن أساء إليهم أو ظلمهم بالقول أو الفعل، واستحق المؤآخذة، وذلك من أجل ضروب الخير.

والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤآخذة مع السماحة عن المسيء.

* ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها، وهذا هو الإحسان الذي يحب الله أصحابه.

قال الثوري: الإحسان أن تحسن إلى المسيء، فإن الإحسان إلى المحسن تجارة.

* قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولما ذكر أشق ما يترك ويبذل وهو المال، اتبعه أشق ما يحبس، فقال: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ﴾ أي: الحابسين ﴿ ٱلْغَيْظَ ﴾ عن أن ينفذوه بعد أن امتلؤوا منه.

قال ابن تيمية: فالكاظم للغيظ والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه، كما يروى عن بعض السلف أنه قال: ما أحسنت إلى أحد، وما أسأت إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي، وأسأت إلى نفسي، قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧].

ـ كان عند ميمون بن مهران ضيف، فاستعجل جاريته بالعشاء، فجاءت مسرعة ومعها إناء، فعثرت وأراقته على رأس سيدها، فقال: يا جارية

أحرقتني، قالت: يا معلم الخير ارجع إلى ما قال الله ـ تعالى ـ، قال: وما قال:؟ قالت: قال: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، قال: كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، قال: عفوت عنك. قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: اذهبي فأنت حرة.

* وبعد أن ذكر ـ تعالى ـ حال معاملتهم للخلق، وصف قيامهم بحق الحق واعتذارهم لربهم من جناياتهم وذنوبهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

استفهام بمعنى النفي، أي: وهم موقنون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهي جملة اعتراضية لتطييب نفوس العباد وتنشيطهم للتوبة، ولبيان أن الذنوب ـ وإن جلت ـ فإن عفوه ـ تعالى ـ أجل ورحمته أوسع.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾.

ولم يقيموا ولم يثبتوا على قبيح فعلهم، وهم عالمون بقبحه، بل يقلعون ويتوبون وهم يعلمون أنهم إن تابوا تاب الله عليهم، فوصفهم ـ تعالى ـ عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار وهو حقيقة التوبة النصوح، ولهذا ذكر جزاءهم، فقال:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ (١٣٦)﴾.

أولئك الموصوفون بتلك الصفات الحميدة، جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب. ولهم جنات برحمته تجري خلال أشجارها وقصورها المياه العذبة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله، عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].
الأعلون فيما تدافعون عنه، فإنكم على الحق، وهم على الباطل.

الأعلون لمن تدافعون عنه، فقتالكم لله، وقتالهم للشيطان، الأعلون فيما لكم، فقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾.

أي: في جهاد أعدائكم الذين هم أعداء الله، فالله معكم عليهم، وإن ظهروا يوم أحد نوع ظهور فسترون إلى من يؤول الأمر.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ أي على ما أصابكم منهم ولا على غيره مما عساه ينوبكم ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي في الدارين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

قال ابن تيمية: المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١].

والخالص من الشرك يحصل له الأمن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

قال ابن القيم: للعبد من العلوّ بحسب ما معه من الإيمان.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: الشكر له فائدتان عظيمتان، منها: الاعتراف بالله ـ تعالى ـ في حقه وفضله وإحسانه، ومنها أنه سبب لمزيد النعمة، كلما شكرت زادت نعمة الله.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ [آل عمران: ١٥٢].

لما ذكر الفشل عطف عليه ما هو بسببه في الغالب وهو التنازع والمعصية.

* قال تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ...﴾ [آل عمران: ١٥٢].

المعصية بعد النعمة أشد من المعصية قبل النعمة، لقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال ابن عثيمين: إثبات أن للشيطان تأثيراً على العبد حتى في عمله الصالح وحتى في الجهاد، لقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

ولكن بماذا تحصل العصمة من هذا الشيطان؟ تحصل العصمة بما ذكره الله ـ عز وجل ـ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] كلما أحسست بشيء في داخلك ينهاك عن معروف ويأمرك بمنكر، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال العلماء: إن المعاصي سبب لخذلان الله للعبد أحوج ما يكون إليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]. وقد عاقبهم الله ببعض ما كسبوا؛ فكيف لو عاقبهم به كله؟

* قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ﴾.

فبسبب رحمة من الله وتوفيقه للرفق والتلطف بهم أودعها الله في قلبك ـ يا محمد ـ كنت هيناً لين الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك.

وقد دلت الآية على أن لينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمن خالفوا أمره، وتولوا عن موقع القتال؛ إنما كان برحمة من الله، فالله حقيق بحمد نبيه ﷺ إذ وفقه بفضيلة الرفق لأولئك المؤمنين، وحقيق بحمد أولئك المؤمنين،

إذا كان لين رسوله ﷺ إنما هو أثر من آثار رحمة الله.

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

ولو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفا، لتفرقوا عنك ونفروا منك.

قال السعدي: ولما كانت الفظاظة في الكلام نفى الجفاء عن لسانه والقسوة عن قلبه، فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص. فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به أن يكون كلا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ليعتبر بهذه الآية من يتولى أمراً يستدعي أن يكون بجانبه أصحاب يظاهرونه عليه، حتى يعلم يقينا أن قوة الذكاء وغزارة العلم، وسعة الحياة وعظم الثراء؛ لا تكسبه أنصار مخلصين، ولا تجمع عليه من فضلاء الناس من يثق بصحبتهم، إلا أن يكون صاحب خلق كريم، من اللين، والصفح والاحتمال.

* عن أبي الدرداء قال: ما من مؤمن إلا الموت خير له، وما من كافر إلا الموت خير له، فمن لم يصدقني؛ فإن الله يقول: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٨] ويقول: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

* قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أخبرهم ليوطنوا أنفسهم على احتماله، ويستعدوا للقائه ويقابلوه بحسن

الصبر والثبات، فإن هجوم البلاء مما يزيد في اللأواء، والاستعداد للكرب مما يهون الخطب.

* قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

أي: لا تظنن - يا محمد - الذين يفرحون بما أتوا من إخفاء أمرك عن الناس، ويحبون أن يحمدهم الناس ويثنوا عليهم بما لم يفعلوا، وهم المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾.

فلا تظننهم بمنجاة من عذاب الله في الدنيا. ولهم في الآخرة عذاب مؤلم.

قال ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب؛ سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه.

وفي الآية وعيد شديد لكل آت لفعل السوء معجب به، ولكل مفتخر بما لم يعمل ليُثني عليه الناس ويحمدوه، وطلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه، لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه - جل وعلا -.

* في الحديث أنه - عليه الصلاة والسلام - بكى حتى بلَّ لحيته وبل الأرض؛ وقال: **«لقد أنزلت عليَّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾»** الآيات من آخر آل عمران. [رواه ابن حبان].

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

قال ابن القيم: فيه الذكر على كل حال، فيستفاد منه جواز قراءة

القرآن للحائض، وهو مذهب مالك، وقول لأحمد والشافعي، وكثير من المحققين، وأما حديث: «لا تقرأ الحائض والجنب شيئاً من القرآن»، فمعلوم باتفاق أهل الشأن، وفي منعها من القرآن وتدبره فوات خير كثير، خاصة وأن حيضتها ليست بيدها.

* ثم مدحهم ـ تعالى ـ بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذا دليل على أن التوسل بأفعال الله ـ تعالى ـ وربوبيته من أسباب إجابة الدعاء، فإنه قال بعد ذلك: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

ـ وقد جاء الثناء عليهم بصيغة الفعل المضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ التي تدل على الاستمرار، فالتفكر ديدنهم، وليس أمراً عارضاً.

* قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾.

فيه تعليم العباد كيفية الدعاء وآدابه، وذلك أن من أراد الدعاء فليقدم الثناء، ثم يذكر بعده الدعاء، كهذه الآية.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قال القرطبي: جاءت هذه الآية بعد أن دعوا ربهم بخمس دعوات عظيمات.

قال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم، فكم يخسر المقصرون في عبادةالدعاء، والمتعجلون في رؤية ثمرته؟! وكم يربح ويسعد من فتح له باب الدعاء، ومناجاة مولاه الذي يحب الملحين في الدعاء.

﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الصبر: حال الصابر نفسه.

والمصابرة: مقاومة الخصم فهي مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين.

والمرابطة: الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، وكما أن المرابطة لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو، فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان.

وقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، ولهذا أمر به في هذا الموضع.

قال ابن عثيمين: إن كنت تريد الفلاح، فهذه أسبابه، وهذه طرقه ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

سورة النساء ٤

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة، وهي سورة مليئة بالأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعْنى بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية، وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، وركزت على حقوق الضعفة كالأيتام والنساء والمستضعفين في الأرض، ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء، ولهذا سميت «سورة النساء» لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذلك أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة «سورة النساء الصغرى» التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

سورة النساء عامتها في حقوق الضعفاء: المرأة، واليتيم، واليتيمة، والسفيه، والوارث الضعيف، والذي يغلب في التجارة، والموالي (الخدم)، والمظلوم، والمريض، والمسافر، والخائف، والمستضعف في الأرض، والكلالة ونحوهم؛ لذا لم يأمر الله ـ عز وجل ـ بالقسط (العدل) في شيء من القرآن كما أمر به في سورتي النساء والمائدة، معاقدها تدور على القسط والعدل.

ـ ففي مطلعها قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝﴾ [النساء: ٥].

* قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦].

الزيادة في كلمة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ للزيادة في المعنى وقد خرجت بصيغة الأمر خشية امتناعه من الأكل ورغبة في إظهاره التعفف.

* وفي وسطها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾ [النساء: ٣٣]. وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [النساء: ٤٣].

* وفي أواخرها: أن الجهاد فيها من أجل الضعفاء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

ونقرأ فيها صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] الآيات.

* وتكرر الأمر فيها بالعدل مع الضعفاء، والتخويف باطلاع الله وكمال علمه بالخفايا، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥].

وختمت النســـاء بآية الكلالة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦] والكلالة: من لا ولد له ولا والد، وهذا نوع ضعف في ظاهر. وغيرهم كثير.

ـ ثم تأمـــل بعضاً من تهديد الله للباغين على حقوق الضعفاء: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝﴾ [النساء: ٦].

* وبعد آية المواريث وعد وتوعد سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ [النساء: ١٣ ـ ١٤].

* وقـــال فـــي المهـــر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝﴾ [النساء: ٢١].

* وقال في شأن الزوجة وظلمها: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝﴾ [النساء: ٣٤].

* وقال في الأموال وظلم الناس فيها: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

* وقد ذكر ـ تعالى ـ في السورة أحوال اليهود لكثرتهم بالمدينة، وأحوال المنافقين وفضائحهم، وأحكام الجهاد لدفع شوكة المشركين، وأحكام معاملة المشـــركين، ومســـاويهم، ووجوب هجرة المؤمنين من مكـــة، وإبطال مآثر الجاهلية.

* وجه مناســـبة سورة النساء لآل عمران، أن ســـورة آل عمران حينما ختمت بالأمر بالتقوى، وافتتحت هذه السورة به.

❁ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، جعل الله هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن، أحدهما هذه السورة ـ سورة آل عمران ـ، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج وهي أيضاً الخامسة من النصف الثاني من القرآن.

❁ قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

وفسرها الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع»، وهو ضلع الصدر، وهذا ما فيه إشارة ظاهرة إلى طبيعة التكامل بين الرجل والمرأة، فالمرأة خلقت من الرجل ومن ضلعه تحديداً لا ليخنقها؛ بل ليعطف عليها بجناحه حباً وحماية لها كما يفعل بأضلاع صدره، وهي كذلك لتبقى في محلها، فإن نشوز عظم الصدر مؤلم، بل ترقُّ وتلين له كما الضلع في رقته ولينه.

❁ قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝﴾.

وهذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم اليتامى، والخطاب للأولياء والأوصياء، أي: أعطوا اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون البلوغ، وكنتم عليهم أوصياء أموالهم كاملة موفورة إذا بلغوا ورأيتم منهم قدرة على حفظ أموالهم.

❁ لما ذكر ـ سبحانه ـ حكم أموال اليتامى وصله بأحكام المواريث وكيفية قسمتها بين الورثة، وأفرد ـ سبحانه ـ ذكر النساء بعد ذكر الرجال، ولم يقل للرجال والنساء نصيب، للإيذان بأصالتهن، ودفع ما كان العرب في الجاهلية من جبروتهم وقسوتهم؛ حيث كانوا لا يورثون للضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم بزعمهم أهل الحرب والقتال، والسلب والنهب، فأراد الرب الرحيم الحكيم، أن يشرع لعباده

شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونساؤهم، وأقوياؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمر مجملاً، لتتوطن على ذلك النفوس، فقال تعالى:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٨].

ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر.

وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إذا بدأت باكورة أشجارهم ـ أتوا بها رسول الله ﷺ، فبَرَّك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

* قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ استنبط بعض الأذكياء من الآية: أنه ـ تعالى ـ أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح، فنسأل الله أن يشملنا بواسع رحمته.

* قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

قال في جلاء الأفهام: تأمل تعليقه ـ سبحانه ـ التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة، إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

* لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث، ووجوب الإحسان إلى النساء وإيصال صدقاتهن إليهن، وميراثهم مع الرجل، ذكر التغليظ عليهن فيما يأتين به من الفاحشة لئلا يتوهمن أنه يسوغ لهن ترك التعفف، وبين حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام، قال تعالى:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

واشتراط: الأربعة، والإيمان، والعدالة، والذكور، في الشهود تغليظاً وستراً على العباد.

وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بقوله ﴿يَأۡتِينَ﴾ لطيفة، وهي أن المكلف كأنه ذهب إليها من عند نفسه واختارها بمجرد طبعه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾.

غاية لانتهاء الحكم ينفي وجود النسخ، إنما هو إشعار بأن هذا الحكم سينسخه حكم آخر.

ـ قيل الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فإنه لا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبتهما مختلفة.

* قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨].

فسوى بين الفسق والكفر، تنفيراً من الفسق لصعوبة النزع منه بعد مواقعته.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾.

إنما التوبة التي كتب الله على نفسه قبولها هي توبة من فعل المعصية بجهل منه لعاقبتها، ثم ندم وأناب؛ فكل عاص لله خاطئاً أو متعمداً فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم.

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي به الله فهو جهالة عمداً كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل.

* وتناولت السورة الكريمة نفي الظلم عن الزوجات، وفيها تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسمية وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً، بل هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب، وكانوا في الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

أي: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمتاع، ينتقل بالإرث من إنسان إلى آخر، وترثوهن بعد موت أزواجهن كرهاً عنهن. ولا يحل لكم أن تمنعوهن من الزواج، أو تضيقوا عليهن لتذهبوا ببعض ما دفعتموه لهن من الصداق ونحوه.

لا يكون العضل إلا في حال إتيانهن بفاحشة الزنى، والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها.

قال ابن عباس: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان؛ فلكم حينئذ إمساكهن حتى تأخذوا ما أعطيتموهن.

﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ أي: صاحبوهن بما أمركم الله به من طيب القول؛ والمعاملة بالإحسان والتكريم والمحبة، وأداء ما لهن من حقوق، وقيل هي: الإجمال في القول والمبيت والنفقة. فإن كرهتم صحبتهن لسبب من الأسباب الدنيوية بقبح أو سوء خلق، فاصبروا عليهن واستمروا في الإحسان إليهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً، من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدارين، وربما أن يرزقكم الله منهن ولداً صالحاً تقر به أعينكم، أو يعطفه الله عليها، أو يناله الأجر العظيم على صبره، وعسى أن يكون في الشيء المكروه الخير الكثير، وفي الحديث: «لا يفرك - أي لا يبغض - مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ [النساء: ٢٤].

قال السعدي: كل ما لم يذكر في هذه الآية فإنه حلال طيب، فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر؛ لطفاً من الله ورحمة وتيسيرا للعباد.

* قال تعالى: ﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ [النساء: ٢٥].

قال السعدي: وختم هذه الآية بهذين الإسمين الكريمين ﴿غفور﴾، و﴿رحيم ﴾ لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد وكرماً وإحساناً إليهم فلم يضيق عليهم بل وسع عليهم غاية السعة، ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: ٢٥].

قيل أصل العنت انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكل مشقة وضرر يعتري الإنسان بعد صلاح حاله، ولا ضرر أعظم من مواقعة المآثم بارتكاب أفحش القبائح.

* قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

واسع المغفرة، عظيم الرحمة إذ أذن لكم في نكاحهن عند العجز عن نكاح الحرائر.

والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وأما الرحمة فهي صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ تقتضي الإحسان إلى الخلق ودفع الضرر عنهم.

والغفور يستر المحظور، والرحيم يكشف المحظور.

* في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

بيان لضعف الإنسان الجبلي، وفيه إرشاد له بألا يغرر بنفسه فيلقي بها في مواطن الشهوات؛ ثقة بعلمه ودينه، فمن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟...﴾ [النساء: ٣٢].

قال الشيخ بكر أبو زيد في كتابه حراسة الفضيلة: فإذا كان هذا النهي ـ بنص القرآن ـ عن مجرد التمني، فكيف بمن ينكر الفوارق الشرعية بين الرجل والمرأة، وينادي بإلغائها، ويطالب بالمساواة، ويدعو إليها باسم المساواة بين الرجل والمرأة.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

قال البغوي: فنهى الله ـ تعالى ـ عن التمني لما فيه من دواعي الحسد. والحسد أن يتمنى زوال النعم عن صاحبه، سواء تمناها لنفسه أم لا، وهو حرام. والغبطة أن يتمنى لنفسه مثل ما لصاحبه وهو جائز.

قال الكلبي: لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه، ولكن ليقل اللهم ارزقني مثله.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

إذا منع الله عباده المؤمنين شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى، وهذا من لطفه.

* ثم تناولت الآيات حق الزوج على زوجته، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين، وبينت معنى قوامة الرجل وأنها ليست قوامة استعباد وتسخير، وإنما هي قوامة نصح وتأديب كالتي تكون بين الراعي ورعيته، وأن الرجال يتولون أمر النساء في المسؤولية والتوجيه، فقال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

أي: الرجال قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والكسوة والمسكن والتوجيه والرعاية كما يقوم الولاة على الرعية، بسبب ما منحه الله من العقل والتدبير، وخصهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب.

قال المفسرون: والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير، ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك. روي أن سعد بن الربيع ـ وكان نقيباً من نقباء الأنصار ـ نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى رسول الله ﷺ فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال النبي ﷺ: «لتقتص منه» فنزلت: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فقال ﷺ: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير».

* قال السعدي ـ رحمه الله ـ عن النساء:

قسم هن أعلى طبقات النساء وخير ما حازه الرجال، وهن المذكورات في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] أي مطيعات لله ولأزواجهن، قد أدت الحقّيْن، وفازت بكفلين من الثواب، حافظات أنفسهن من جميع الريب، وحافظات لأمانتهن ورعاية بيوتهن، وحافظات للعائلة بالتربية الحسنة، والأدب النافع في الدين والدنيا، وعليهن بذل الجهد والاستعانة بالله على ذلك؛ فلهذا قال: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: إذا وفقن لهذا الأمر الجليل فليحمدن الله على ذلك، ويعلمن أن هذا من حفظه وتوفيقه وتيسيره لها، فإن من وُكِل إلى نفسه فالنفس أمارة بالسوء.

ومن شاهد منة الله، وتوكل على الله، وبذل مقدوره في الأعمال النافعة، كفاه الله ما أهمه، وأصلح له أموره، ويسر له الخير، وأجراه على عوائده الجميلة.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر ـ تعالى ـ أنهن قسمان:

قسم صالحات مطيعات، وقسم عاصيات متمردات، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن مستقيمات على شرعه، قائمات بما عليهن من حقوق، ويحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير،

كما أنهن حافظات لما يجري بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتمه ويجمل ستره.

﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

قال السعدي: وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن لأن النفس أمارة بالسوء، ولكن من توكل على الله كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

أي: فخوفوهن الله بطريق النصح والإرشاد، وبالكلمة الطيبة، وبيان حكم الله في طاعة الزوج من الترهيب من معصيته.

والوعظ: ما خُتم بترغيب وترهيب، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإن لم ينجح الوعظ والتذكير؛ فاهجروهن في الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن.

قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن لا يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مبرح لا ضرر فيه، وهو ضرب تأديب وإصلاح لا ضرب انتقام وتعسف. قال عطاء: ضرباً بالسواك.

وفي الآيات ذكر - عز وجل - الوعظ والهجر والضرب، والرابعة لم يذكرها - تعالى - لأنها مكروهة عنده وهي الطلاق.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

فإن أطعن أمركم وتركن النشوز فاحذروا ظلمهن، ولا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن ومعاقبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

- ولما ذكر الله قوامة الرجل على المرأة، وحق الزوج في تأديب امرأته الناشز، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: فإن الله -

تعالى - أعلى منكم وأكبر، وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

فذكر بعلوه وكبريائه - جل جلاله - ترهيباً للرجال؛ لئلا يعتدوا على النساء، ويتعدوا حدود الله التي أمر بها. فإنهن وإن ضعفن عن دفع ظلمكم فالله - سبحانه - علي قاهر، قادر ينتقم ممن ظلمهن.

وفي هذا تأديب وتوجيه للمسلمين في كيفية تأديب نساءنا؛ وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ، ثم بالهجران، ثم بالضرب ضرباً غير مبرح.

* لما ذكر - عز وجل - ثلاث مراحل في علاج الزوجة وإصلاح حالها، ذكر في الآيات اللاحقة بعث حكمين من أهل الزوج وأهل الزوجة، فقال تعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: وإن تفاقم الخلاف بين الزوجين، وخشيتم - يا أولياء الزوجين - مخالفة وعداوة بين الزوجين فأرسلوا حكماً عدلاً من أهل الزوج، وحكماً عدلاً من أهل الزوجة يجتمعان فينظران في أمرهما ويفعلان ما فيه المصلحة، وإنما كان بعث الحكمين من أهلهما؛ لأن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال، وأطلب للصلاح واحفظ لأسرارهما الخاصة، ونفوس الزوجين أسكن إليهم، فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب والبغض، وإرادة الصحبة والفرقة، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوق الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال:

﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

إن قصد الحكمين إصلاح ذات البين وكانت نيتهما صحيحة، وقلوبهما ناصحة لوجه الله، بورك في وساطتهما، وأوقع الله بين الزوجين الوفاق والألفة، وألقى في نفوسهما المودة والرحمة.

ومن علامات التوفيق الإصلاح والسعي في ذلك. فإنه ـ سبحانه ـ عليماً بأحوال العباد لا يخفى عليه شيء من أمرهم، حكيماً في تشريعه لهم، خبير بما تنطوي عليه نفوسهم.

* وفي مطلع الآيات يأمر ـ تعالى ـ عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

ثم تنتقل الآيات من دائرة الأسرة إلى دائرة المجتمع فأمرت بالإحسان في كل شيء، وبينت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم، والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان قوي الأركان، قال تعالى:

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾.

واعبدوا الله وانقادوا له وحده، وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء لا صنماً، ولا نبياً، ولا ولياً، ولا غيرهم من المخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً، واستوصوا بالوالدين براً وإنعاماً، وإحساناً وإكراماً. وللإحسان ضدان: الإساءة، وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه.

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: متكبراً في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه، فخوراً على الناس مترفعاً عليهم يرى أنه خير منهم، والاختيال يكون بالفعل والهيئة، والفخر يكون باللسان، وهذا آية جامعة جاءت حثاً على الإحسان واستطراداً لمكارم الأخلاق.

ومن تدبرها حق التدبر أغنته عن كثير من مواعظ البلغاء، ونصائح الحكماء. وقد ختم ـ تعالى ـ هذه الآية بهذه الجملة؛ لأن الغالب أن من يستكبر عن عبادة الله، وعن هذه الوصايا النافعة، فالغالب عليه أن فيه اختيالاً، وفيه فخراً واستنكافاً واستكباراً.

قال بعض السلف: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ الآية. ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، وتلا ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: قد تأولت في البخل بالمال والمنع، والبخل بالعلم ونحوه، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا من علم ومال وغير ذلك، كما تأولوا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٣]، النفقة من المال والنفقة من العلم. والنفقة من العلم هي صدقة الأنبياء وورثتهم من العلماء.

* ثم يخبر ـ تعالى ـ عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عمّا يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا﴾.

إن الله ـ تعالى ـ لا يبخس ولا ينقص أحداً من عمله شيئاً ولو كان وزن ذرة وهي الهباءة، ذلك على سبيل التمثيل تنبيها بالقليل على الكثير. وإن كانت تلك الذرة حسنة ينميها ويكثرها لصاحبها، ويجعلها أضعافاً كثيرة بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

قال السعدي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

ويعط من عنده تفضلاً وزيادة على ثواب العمل أجراً عظيماً وهو الجنة، وكذلك التوفيق لأعمال أخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير، وما وصفه الله بالعظيم فمن يعرف مقداره، مع أنه سمى متاع الدنيا قليلاً.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إذا قال الله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ فمن يقدر قدره.

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ «اقرأ عليَّ» قلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حسبك الآن»؛ فإذا عيناه تذرفان [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝﴾ [النساء:٤٧].

كان أبو مسلم الجليل معلم كعب، وكان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه ينظر أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة، فإذا تال يقرأ القرآن، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ فبادرت الماء فاغتسلت وإني لأمسح وجهي مخافة أن أطمس، ثم أسلمت.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝﴾ [النساء: ٤٨].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، نعمة عظيمة من وجهين:

أحدهما: أنه يقتضي أن كل ميت على ذنب دون الشرك لا نقطع له بالعذاب وإن كان مصراً.

والثانية: أن تعليقه بالمشيئة فيه نفع للمسلمين، وهو أن يكونوا على خوف وطمع.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾.

ومن أشرك بالله فقد اختلق ذنباً عظيماً، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله؛ لأن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه باب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولذا حتم على المشرك بالخلود في العذاب المهين؛ فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية. والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

ولما كانت النار على ما نعهده مفنية ماحقة، استأنف قوله رداً لذلك ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي: صارت بحرها إلى حالة اللحم النضيج الذي أدرك أن يوكل.

فصارت كاللحم الميت الذي يكون في الجرح فلا يحس بالألم.

﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا لهم.

﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي غير النضيجة بدلاً منها بأن أعدناها إلى ما كانت عليه كما كانوا يجدون التكذيب بذلك كل وقت ليكون الجزاء من جنس العمل.

قال الأعمش عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ الآية، قال تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

أعاد الفعل وهو طاعة الرسول ليدل أنه يطاع استقلالاً، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمر به، ونهى عما ليس في القرآن النهي عنه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يعد الفعل في طاعة أولي الأمر؛ بل جعلها ضمناً وتبعاً لطاعة الرسول إذا أمروا بما أمر به، ونهوا عما نهى عنه، ولا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به وينهون عنه.

* قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

قال السعدي: وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي ـ وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سراً ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤].

قال السعدي: وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك.

* قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

ذكر الولدان ـ في الآية ـ تكميلاً للاستعطاف، وتنبيهاً على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم للصبيان، وفيه دلالة على إجابة دعائهم؛

واقتراب الخلاص؛ لما فيه من التضرع لله.

قال ابن الجوزي في بستان الواعظين ورياض السامعين: سمى الله الإنسان ضعيفاً، وقال عن كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦] والضعيفان إذا اقتتلاً ولم يكن لواحد منهما معين لم يظفر بصاحبه؛ فأمر الله الإنسان الضعيف أن يستعين بالرب اللطيف من كيد الشيطان الضعيف؛ ليعصمه منه ويعينه عليه.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال ابن تيمية: من الفوائد: أن العبد لا يطمئن إلى نفسه؛ فإن الشر لا يجيء إلا منها؛ ولا يشتغل بملام الناس وذمهم، ولكن يرجع إلى الذنوب فيتوب منها، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته؛ فبذلك يحصل له الخير ويدفع عنه الشر.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٧٠].

قال البغوي: وفيه بيان لهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم، وإنما نالوها بفضل الله ـ عز وجل ـ.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء: ٧٢ ـ ٧٣].

قال ابن تيمية: فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين، ويسوءه ما يسوء المؤمنين؛ فليس منهم.

* قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

الخطاب لكل سامع، أي: ما أصابك ـ أيها الإنسان ـ من نعمة وإحسان في الدين والدنيا، فمن الله تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً وامتحاناً، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن عندك وبسبب عملك السيء، وما اقترفته يداك من الخطايا والسيئات، وما يعفو الله عنه أكثر، فالله ـ تعالى ـ قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله.

* قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء: ٧٨].

قال ابن تيمية: هكذا قال المنافقون عن الرسول ﷺ، وهذا يتناول كل من جعل طاعة الرسول وفعل مابعث به مسبباً لشر أصابه، إما من السماء وإما من آدمي، وهؤلاء كثيرون.

* قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٣].

في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع. وقد روى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع**».

* قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء: ٨٥].

قال البغوي: الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين الناس، والشفاعة السيئة هي المشي بالنميمة بين الناس.

وقيل: هي الشفاعة في مسلم لتفرج عن كربة أو تدفع مظلمة، أو يجلب إليه خيراً، و﴿شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ بخلاف ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

نكتة نظمها مع آيات الجهاد هو التمهيد لمنع المؤمنين من قتل من ألقى إليهم السلام في الحرب الآتي قريباً.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

ما أحسن جعلها تالية لآية الجهاد إشارة إلى أن من بدل السلام وجب الكف عنه ولو كان في الحرب، وأن من مقتضيات هاتين الآيتين أن مبنى هذه السورة على الندب إلى الإحسان والتعاطف والتواصل، ومن أعظمه القول اللين؛ لأنه ترجمان القلب الذي به العطف، ومن أعظم ذلك الشفاعة والتحية.

وفي الآية تعليم النوع من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال فالمعنى إذا مَّن الله ـ تعالى ـ عليكم بعطيه فابذلوا الأحسن من عطاياه أو تصدقوا بما أعطاكم، وردوه إلى الله ـ تعالى ـ على يد المستحقين، والله ـ تعالى ـ خير الموفقين.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

أبلغ مما لو قيل: لا أحد أصدق من الله حديثاً: لأن الاستفهام يعني التحدي.

* قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

فيه تربية عظيمة، وهي أن يستشعر الإنسان ـ عند مؤاخذته غيره ـ أحوالاً كان هو عليها تساوي أحوال من يؤاخذه، كمؤاخذة المعلم التلميذ بسوء إذا قصر في إعمال جهده، وكذلك هي عظة لمن يمتحنون طلبة العلم،

فيعتادون التشديد عليهم، وتطلب عثراتهم.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله ـ غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض ـ.

قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها.

ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم، فقال يا رسول الله: هل لي من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـ وكان أعمى ـ فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

قال السعدي: إذا فضل الله ـ تعالى ـ شيئاً على شيء وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه، كما قال هنا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦].

قال السعدي: تأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرج، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

* قال تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

وفي هذا بيان لما بين الفريقين من التفاضل، أي: فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية، كما قال ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه»، قالوا:

وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «**نعم حبسهم العذر**» [رواه البخاري].

وقيل أن معنى درجة: علواً؛ أي: أعلى ذكرهم ورفعهم بالثناء والمدح.

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

أي: وقد وعد الله كلاً من المجاهدين والقاعدين بأموالهم وأنفسهم، والقاعدين من أهل الأعذار الجزاء الحسن في الآخرة.

﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم، وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، فالأول في ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ وهنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ فالأول في المنزلة، والثاني في حجم الأجر والثواب.

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾.

أي: هذا الثواب الجزيل منازل عالية في الجنات بعضها أعلى من بعض، وقيل الدرجات هي: الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة، فاز بها المجاهدون، وفي الحديث: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**» [أخرجه النسائي].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين «الغفور الرحيم» ختم هذه الآية بهما.

* قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠].

كل من نوى خيراً ولم يدركه فهو موفيه إياه توفيه: ما يلتزمه الكريم، وفي الآية دلالة على كرم الله ورحمته.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١)﴾ [النساء: ١٠١].

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! مالنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» [رواه أبو داود].

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢].

في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ مما يدل على أن الإمام ينبغي أن يعتني بصلاته أكثر، ويعتني بحال المأمومين؛ لأنه لا يصلي لنفسه، بل يصلي لمن خلفه من المأمومين أيضاً.

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

قال السعدي: هذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله ـ تعالى ـ أمر بها في هذه الحالة الشديدة وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم، فاذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطلة في غيرها، وما ذلك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا يتعارض بين واجب ومستحب فلولا الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

* قال تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

قال السعدي: وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وسمي ظلم النفس (ظلماً) لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله ـ تعالى ـ، قد جعلها أمانة عند العبد.

قال ابن الجوزي: ربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما روي أن بعض أحبار بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري؟! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟

* قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

قال الأوزاعي: ما خطوة أحب إلى الله ـ عز وجل ـ من خطوة إصلاح ذات البين، ومن أصلح بين اثنتين كتب الله له براءة من النار.

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [النساء: ١١٤].

قال السعدي: النزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره، فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان.

وفي الحديث عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؟»** قالوا: بلى قال: **«إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»** [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

الآية الأولى: في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علم بصحة نبوته ومع ذلك فقد كابروا وافتروا على الله ـ تعالى ـ.

والآية الثانية: في شأن قوم مشركين ليس لهم كتاب ولا عندهم علم، فناسب وصفهم بالضلال.

* ثم ذكر الله ـ عز وجل ـ حال الشيطان وأعوانه:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَـَٔامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

وهذا يُشعر بأنه لا حيلة له في الإضلال أقوى من إلقاء الأماني في قلوب الخلق، وطلب ما يورث شيئين: الحرص والأمل، قال ﷺ: **«يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان: الحرص والأمل»** [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وعيد حتم في الكفار، ومقيد بمشيئة الله في المسلمين ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ دخلت (من) للتبعيض رفقا بالعباد لأن الصالحات على الكمال لا يطيقها البشر.

وقيل: وكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنب ذنباً، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لما عبر ـ تعالى ـ عن كمال الاعتقاد بالماضي شرط فيه الدوام والأعمال الظاهرة، بقوله ﴿وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: مؤمن مراقب لا غفلة عنده أصلاً، بل الإحسان صفة له راسخة لأنه يعبد الله كانه يراه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن كثير وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أي: يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصبح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً.

* قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: صفياً اصطفاه لمحبته وخلته، قال ابن كثير: فإنه انتهى إلى درجة الخُلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه. وفي هذه الآية إثبات صفة الخُلة لله ـ تعالى ـ وهي أعلى مقامات المحبة والاصطفاء، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين.

* قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

في هذه الآية إشارة إلى المبادرة في الحسم وإصلاح الشأن: إما بالوفاق أو الفراق، بعد أن تتخذ الوسائل المشروعة، لعل ذلك لا يقف عند مسألة الزوجية، بل يتعداه إلى أمور كثيرة من شأنها أن تعقد المشكلات، أو تنشئها إن لم تكن موجودة، فاللائق ـ في الأحوال التي لا يسوغ فيها التروي ـ أن

تحســم الأمور ولاتظل معلقة، ليعرف كل طرف ماله وما عليه؛ ولئلّا يبقى في النفوس أثر يزداد مع الأيام سوءاً.

رفع لعمر بن عبد العزيز قوم يشــربون الخمر فأمر بجلدهم فقيل له: إن فيهم صائماً، فقال: ابدءوا به! أما سمعتم الله يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] فبــين ـ رحمــه الله ـ أن الله جعل حاضر المنكر كفاعله.

وفــي الآية البعد عن مواطن الباطل وأنها من أســباب العصمة، والآية فــي المعاصي العلمية، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوســف: ٢٥] في المعاصي العملية.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١].

جعل الأمر بالتقوى وصية؛ لأن الوصية فيه أمر بشــيء نافع جامع لخير كثير، والتقوى تجمع الخيرات؛ لأنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

* قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠].

لما كانت آية الأنعام مكية اقتصر فيها على مجرد الإعراض وقطع المجالسة، لعدم التمكن من الإنكار بغير القلب، وأما هذه الآية فمدنية، فالتغيير عند إنزالها باللسان واليد ممكن لكل مسلم فالمجالس من غير نكير راض.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

عــن ابن عبــاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: يكــره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كســلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد

الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه، يغفر له ويجيب إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

* قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء: ١٤٨ ـ ١٤٩].

موقع هذه الآية عقب الآية التي قبلها: أن الله لما شوه حال المنافقين، وشهر بفضائحهم تشهيراً طويلاً، فحذر الله المسلمين من أن يغيظهم ذلك على من يتوسمون فيه النفاق، فيجاهروهم بقول السوء، ورخص لمن ظلم من المسلمين أن يجهر لظالمه بالسوء، لأن ذلك دفاع عن نفسه.

قال الرازي: اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخُلق مع الخلق، والذي يتعلق مع الخلق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم.

فقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم. فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر.

* قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

أي: كان مبالغاً في العفو مع كمال قدرته على المؤاخذة، فيسدل عليهم ستره ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

قال الحسن: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله ـ تعالى ـ حيث حث ـ تعالى ـ على العفو، وأشار إلى أنه عفو مع قدرته، فكيف لا تعفون مع ضعفكم وعجزكم؟!

قال السعدي: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا لله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له،

ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

* قال شيخ الإسلام: والله ـ سبحانه ـ جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

* لما حكى ـ تعالى ـ جرائم اليهود التي من ضمنها كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح، ذكر ـ تعالى ـ أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ﴾.

أي: نحن أوحينا إليك ـ يا محمد ـ كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده، وإنما قدم النبي محمد ﷺ في الذكر وإن تأخرت نبوته لتقدمه في الفضل.

وأوحينا إلى سائر النبيين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ـ وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل ـ وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، خصَّ ـ تعالى ـ محمداً بالذكر تشريفاً وتعظيماً لهم، وبدأ بعد محمد ﷺ بنوح لأنه شيخ الأنبياء وأبو البشر الثاني، ثم ذكر إبراهيم؛ لأنه الأب الثالث ومنه تفرعت شجرة النبوة، وقدم عيسى على أنبياء كانوا قبله لشدة العناية بأمره لغلو اليهود في الطعن فيه، والنصارى في تقديسه، وفي ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم واستناناً بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ .

وخصصنا داود بالزبور وهو كتاب وصحف مكتوبة.

قال القرطبي: كان فيه مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم من الأحكام وإنما هي حكم ومواعظ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ .

وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك ـ يا محمد ـ في غير هذه السورة، ورسلاً آخرين لم نخبرك عن أحوالهم لحكمة أردناها، وخص الله موسى بأن كلمه بلا واسطة تشريفاً له بهذه الصفة ولهذا سمي الكليم، وإنما أكد ﴿تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ رفعاً لاحتمال المجاز.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله ـ تعالى ـ، كما يليق بجلاله، وأنه ـ سبحانه ـ كلم نبيه موسى ـ عليه السلام ـ حقيقة بلا واسطة.

سورة المائدة (٥)

سورة المائدة من السور المدنية الطويلة، وهي أجمع سورة في القرآن لفروع الشريعة من التحليل والتحريم. وقد تناولت كسائر السور المدنية موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، وجانب التشريع بإسهاب، وجماعها يتناول الأحكام الشرعية؛ لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها وهي بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار، وسورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن ليس فيها منسوخ، وفيها ثمان عشرة فريضة.

سميت سورة المائدة لورود ذكر المائدة فيها؛ حيث طلب الحواريون من عيسى ـ عليه السلام ـ آية تدل على صدق نبوته وتكون لهم عيداً، وقصتها أعجب ما ذكر فيها، لاشتمالها على آيات كثيرة، ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

قال ابن تيمية: سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع، من التحليل والتحريم، والأمر والنهي.

وقد نزلت هذه السورة منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية.

وسبب نزولها: أن المشركين كانوا يحجون البيت ويهدون الهدايا ويعظمون الشعائر وينحرون، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

وقد ورد في فضلها: ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «نزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها» [رواه أحمد].

وقد ختمت السورة الكريمة بالتذكير بيوم القيامة، وشهادة الرسل على أممهم، وشهادة عيسى على النصارى وتمجيد الله ـ تعالى ـ.

* قال ـ تعالى ـ في مطلع السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: ١].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا شامل للعقود التي بين العبد وربه، والتي بينه وبين الرسول بطاعته، والتي بينه وبين الوالدين، والأقارب، والتي بينه وبين أصحابه، والتي بينه وبين الخلق، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

* قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: ١].

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾.

وصية عامة، والفرق بين البر والتقوى؛ أن البر عام في فعل الواجبات والمندوبات، وترك المحرمات، وفي كل ما يقرب إلى الله. والتقوى في الواجبات، وترك المحرمات دون فعل المندوبات؛ فالبرّ أعم من التقوى.

* قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: ١].

وردت ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في القرآن العظيم ما يقارب من ثلاثين مرة. قد جاءت في سياقات متنوعة: ثمان مرات في البقرة، وتسع مرات في المائدة.

* من مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن إيثار لفظ بدل آخر، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

يظهر حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها، والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها. والسر في التعبير عن الدين بالكمال، وعن النعمة بالتمام؟ أن الكمال لا زيادة عليه،

ومـــن هنا يعلم أنه لا زيادة في الدين؛ لأنـــه اكتمل، أما النعمة فعبر عنها بالتمام؛ لأن التمـــام يقبل الزيادة ليصل إلى الكمال، ودليل ذلك أن النعم تختلف من زمن إلى آخر، فما يتنعم به بعض الفقراء اليوم لم يجده ملوك الأمم السابقة في زمانهم.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

في الآية من البلاغة والبيان سبعة أزواج من المسائل:

الأول: طهارتان: الوضوء، والغسل.

ومطهران: الماء، والتراب.

وحُكمان: المسح، والغسل.

وموجبان: الحدث، والجنابة.

ومبيحان: المرض، والسفر.

وكنيتان: الغائط، والملامسة.

وكرامتان: تطهير الذنوب، وإتمام النعمة.

* عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: إن المرء قد ينسى بعض العلم بالمعصية، وتلا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: ١٣].

* قال البقاعي: من الأســاليب البلاغية (الكناية) وهي إرادة وصف أمر بمــا لم يعرف به، أو ذكر اللازم وإرادة الملزوم، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٦].

فكنى عن الجماع في الآية بالملامسة، وفي غيرها كنى بالمباشرة، والإفضاء، والرفث، والدخول، والسر، كما في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥].

* قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣].

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به. وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة.

ذكر ابن كثير أن بعض الشيوخ قال لصاحبه: أين تجد في القرآن أن الحبيب يعذب حبيبه؟ فلم يجب؛ فتلا الشيخ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

قال ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: يا من يجد في قلبه قسوة احذر أن تكون نقضت مع الله عهداً، فإن الله يقول: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾.

* قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

قال السعدي: وهذه عقوبة دنيوية لعل الله ـ تعالى ـ كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

قال الحاكم: دل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ على أن من لحقه عذاب الله لا يجوز أن يحزن عليه لأن ذلك حكمه، بل يحمد الله إذا أهلك عدواً من أعدائه.

* قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

ذكر عن عامر بن عبد الله العنبري، أنه حين حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقد كنت وكنت! فقال: يبكيني أني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

* لما قتل قابيل هابيل احتار في أمر أخيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

انظر كيف أهان الله قابيل، لم يبعث الله أياً من الدواب غير الغراب ليري قابيل كيف يصنع بجثة أخيه، والغراب أحد الفواسق المنبوذة في الأمم كلها.

* بعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ عقوبة الحرابة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

ذكر بعدها حد السرقة بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٣٨ ـ ٤٠].

ـ قد لا تختم الآية الكريمة بأسماء الله صراحة، ولكن قد تذكر فيها أحكام تلك الأسماء، كقوله ـ تعالى ـ لما ذكر عقوبة السرقة، فإنه قال في

آخرها ـ: ﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].
أي: عز وحكم فقطع يد السارق، وعز وحكم فعاقب المعتدين شرعاً، وقدرا، وجزاءً.
قال بعض العلماء: إن الاستزادة من الحرام يتسبب عنها نقص من الحلال.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣].
قال القرطبي: يحاربون أولياء الله فعبر بنفسه العزيزة عن أوليائه إكباراً لأذيتهم، كما عبر بنفسه عن الفقراء الضعفاء في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥] حثاً على الاستعطاف عليهم.

* قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].
والحكمة في قطع اليد في السرقة أن ذلك حفظ للأموال واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية.
قال القرطبي: وبدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة. وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما الحكمة في ذلك؟ فالجواب أن يقال لما كان حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب، بدأ بهما في الموضعين.

* قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: القلب لا يدخله حقائق الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦] وأمثال ذلك.

* قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

مما يدل على أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله، أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه.

* عن أبي المثاب القاضي قال: كنت عند القاضي إسماعيل يوماً؛ فسُئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟

فقال: قال الله ـ تعالى ـ في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩] فلم يجز التبديل عليهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ [المائدة: ٤٥]، قال الألوسي: ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة فلإنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين، ولوضعهم الحكم في غير موضعه وصفوا بالظالمين، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [المائدة: ٥١].

عن محمد بن سيرين: قال عبد الله بن عتبة: ليتق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا، وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية.

* قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝﴾ [المائدة: ٥٢].

إن الله ـ تعالى ـ قد أتى في الآية التي بين أيدينا: ﴿بِٱلۡفَتۡحِ﴾ معرفاً، وبـ ﴿أَمۡرٖ﴾ منكر، وقدم الفتح على ذلك الأمر، وهذا الأسلوب الرائع سبب ـ والله أعلم ـ أن أول ما يتبادر إلى أذهان المؤمنين من كسر لشوكة أعدائهم يكون بالفتح المعهود لديهم، فبدأ بـه، ثم ثنى بقوله: ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ وكلمة ﴿أَمۡرٖ﴾ عامة تشمل كل ما يخطر على البال، وما لا يخطر فيه.

ثـم إن الله ـ تعالى ـ وصف كلمـة: ﴿أَمۡرٖ﴾ بقوله: ﴿مِّنۡ عِندِهِۦ﴾، فالفتـح يكون من الله ـ تعالى ـ لكنه بأيدي المؤمنين، أما الآخر فمن عند الله وحده خالصاً، كإرسـال الريح على الكفار، والخسف بهم، وإهلاكهم بالطوفان والزلازل والأمراض وغيرها.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝﴾ [المائدة: ٥٥].

قـال في محاسـن التأويل: إنما أفرد (الولي) ولـم يجمع مع أنه متعدد للإيذان بأن الولاية لله أصل، ولغيره تبع لولايته ـ عز وجل ـ، فالتقدير: وكذلك رسوله والذين آمنوا.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾.

يخبر ـ تعالى ـ عن مقالة اليهود الشنيعة، أي: قال اليهود إن الله بخيل يقتر الرزق على العباد.

قال ابن عباس: مغلولة أي بخيلة أمسك ما عنده بخلاً، ليس يعنون أن يد الله موثقة ولكنهم يقولون إنه بخيل.

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾.

لأنهم هـم البخلاء وليس علـى وجه الأرض يهـودي إلا وهو أبخل النـاس، وهذا دعـاء عليهم بالبخل المذموم والفقـر والنكد، أي: بجنس مقالتهم، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسـد والجبن والذلة أمر عظيم.

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

أي: ليس الأمر كما يفترونه على ربهم، بل هو جواد كريم، سابغ الإنعام، يرزق ويعطي كما يشاء على مقتضى الحكمة وما فيه مصلحة العباد.

وفي الآية إثبات لصفة اليدين لله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يليق به من غير تشبيه ولا تكييف، وذكر اليدين مع كونهم لم يذكروا إلا اليد الواحدة مبالغة في الرد عليهم بإثبات ما يدل على غاية السخاء، فإن نسبه الجود إلى اليدين أبلغ من نسبته إلى اليد الواحدة.

* قال تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ .

وليزيدنهم هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد كفراً فوق كفرهم، وطغياناً فوق طغيانهم، إذ كلما نزلت آية كفروا بها فيزداد طغيانهم وكفرهم، كما أن الطعام للأصحاء يزيد المرضى مرضاً.

قال الطبري: أعلم ـ تعالى ـ نبيه أنهم أهل عتو وتمرد على ربهم وأنهم لا يذعنون لحق وإن علموا صحته ولكنهم يعاندونه، يسلي بذلك نبيه ﷺ في ذهابهم عن الله وتكذيبهم إياه.

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وألقينا بين اليهود العداوة والبغضاء يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، فكلمتهم مختلفة وقلوبهم شتى، لا يزالون متباغضين متعادين فلا يتآلفون ولا يتناصرون إلى قيام الساعة.

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ .

كلما تآمروا على المسلمين وأرادوا إشعال حرب ليكيدوا بها الإسلام وأهله رد الله كيدهم، وفرق شملهم، وهم يجتهدون في الكيد للإسلام

وأهله ويسعون لإثارة الفتن بين المسلمين، ومن سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من كانت هذه صفته بل يبغضهم أشد البغض وسيجازيهم على ذلك.

قال قتادة: لا تلقى يهوديًا في بلد إلا وقد وجدته من أذل الناس.

* قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨].

قال ابن حزم: ولو لم ينه عن الشر - إلا من ليس فيه شيء منه، ولا أمر بالمعروف إلا من استوعبه؛ لما نهى أحد عن شر، ولا أمر بخير بعد النبي ﷺ.

* قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

قال ابن كثير: وما ذلك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة: ٨٧].

كأنه لما تضمن ما سلف مدح النصارى على الترهب، والحث على كسر النفس، ورفض الشهوات، عقبه النهي عن الإفراط في ذلك بتحريم اللذائذ من المباحات الشرعية.

* قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٨].

قال الرازي: لم يقل - تعالى - كلوا ما رزقكم، ولكن قال: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وكلمة (من) للتبعيض، فكأنه قال: اقتصروا في الأكل على

البعض، واصرفوا البقية إلى الصدقات والخيرات.

* قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨].

قال ابن تيمية: فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى، وأما العذاب والعقاب جعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه.

* قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٦]، قال ابن عباس: صيده: ما أخذ حياً، وطعامه: ما أخذ ميتاً.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

هذه الآية والآيتان اللاتي بعدها من أصعب الآيات إشكالاً.

قال الشوكاني: قال مكي: هذه الآيات الثلاث عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن أعرابا ومعنى وحكماً.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [المائدة: ١٠١].

قال الإمام ابن القيم: وكذلك لا ينبغي للعبد أن يسأل ربه أن يبدي له من أحواله وعاقبته ما طواه عنه وستره، فلعله يسوءه إن أبدي له بالسؤال عن جميع ذلك تعرض لما يكرهه الله، فإنه ـ سبحانه ـ يكره إبداءها ولذلك سكت عنها.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قد يتوهم الجاهل من ظاهر هذه الآية الكريمة عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن نفس الآية فيها الإشارة إلى أن ذلك فيما إذا بلغ جهده فلم يقبل منه المأمور، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ لأن من ترك الأمر بالمعروف لم يهتد.

سورة الأنعام ٦

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة التي يدور محورها حول العقيدة وأصول الإيمان، والألوهية والوحي، والرسالة والبعث والجزاء.

والحديث في هذه السورة مستفيض يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين.

وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية.

قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور.

وقيل: في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد.

وسورة الأنعام أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدها مقارعة جدال لهم، واحتجاج على سفاهة أحوالهم. وكان نزولها في مرحلة الجهر بالدعوة التي واجهها أساطين الكفر وصناديد الشرك بالصدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء.

وقد نزلت السورة جملة واحدة على غير المعهود في السور الطوال لتكون دفعة واحدة بجميعها الساطعة وبراهينها القاطعة، وآياتها المتتابعة، التي ترهف الآذان، وتخاطب الوجدان وتحاور العقول، وتصل إلى القلوب.

سميت بـ «سورة الأنعام» لورود ذكر الأنعام فيها: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ...﴾ ولأن أكثر أحكامها الموضحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

ومن خصائها ما روي عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح.

* بدأ - تعالى - هذه السورة بالحمد لنفسه والثناء عليه بصفات الكمال ونعوت العظمة والجلال، تعليماً لعباده أن يحمدوه بهذه الصيغة الجامعة لصنوف التعظيم والتبجيل والكمال، وإعلاماً بأنه المستحق لجميع المحامد، فلا ند له ولا شريك، ولا نظير ولا مثيل، والفرق بين الحمد والشكر أن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة، أما الحمد فإنه على النعمة وعلى ذات المنعم.

* قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: احمدوا الله ربكم المتفضل عليكم بصنوف الإنعام والإكرام، الذي أوجد وأنشأ وابتدع، خلق السموات والأرض بما فيهما من أنواع البدائع وأصناف الروائع، وبما اشتملا عليه من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة، وبما يدهش العقول والأفكار تبصرة وذكرى لأولي الأبصار، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد، وخص خلق السموات والأرض بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع للعباد.

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

وأنشأ الظلمات والأنوار، وخلق الليل والنهار يتعاقبان في الوجود لفائدة العوالم بما لا يدخل تحت حصر أو فكر.

قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان إلا في هذه الآية، فإنه يريد بها الليل والنهار.

وجَمَعْ الظلمات لأن شُعب الضلال متعددة ومسالكه متنوعة، وأفرد النور لأن مصدره واحد هو الرحمن منور الأكوان.

وفي الآية رد على المجوس في عبادتهم للنار وغيرها من الأنوار، وقولهم إن الخير من النور والشر من الظلمة، فإن المخلوق لا يكون إلها ولا فاعلاً لشيء من الحوادث، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١].

* قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝﴾ [الأنعام: ١٣].

﴿سَكَنَ﴾ من السكون مقابل الحركة، أي: ما سكن فيهما وما تحرك، فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر، كما في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، لأن ذلك يعرف بالقرينة.

واكتفى بالسكون عن ضده دون العكس: لأن السكون أكثر وجوداً، والنعمة فيه أكثر.

* قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝﴾ [الأنعام: ١٣].

ختم الله ـ تعالى ـ سبع آيات لما تكلم عن الليل، ذلك أن السمع في الليل أقوى منه في النهار.

قال الأصفهاني: ذكر ـ تعالى ـ في الآية الأولى السماوات والأرض، إذ لا مكان سواهما.

وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار، إذ لازمان سواهما.

* قال عامر بن عبد قيس: آيات في كتاب الله إذا ذكرتهن، لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

* قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٢].

الآيات تسوق الحجج والبراهين وتفند شبه المعرضين عن الهدى إلا أنها تتوسطها كلمة ﴿ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ فقد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾. فقدم

ـ تعالى ـ رحمته على إعلامه عباده بهذا اللقاء الموعود وذلك اليوم المشهود.
ومن رحمته ـ تعالى ـ أن أمهل العصاة والمسرفين لعلهم يرجعون.
قال رسول الله ﷺ: **«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي»** [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

قال ابن القيم: وأعظم الضر حجاب القلب عن الرب.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

قال الطبري: إنما قال ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه وصف نفسه بقهره إياهم، وصفة كل قاهر أن يكون مستعلياً عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأنعام: ٢٦] قدم ـ جل وعلا ـ الستر على الزينة لأنها الأصل.

* في القرآن آية فيها التهديد المفزع والوعد المطمع: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] فتجد في كلمتي (قاهر) و﴿فَوْقَ﴾ ما يخلع القلب، ثم تجد وراء كلمة ﴿عِبَادِهِۦ﴾ فيضاً من الرحمة والحب والأمان.

* قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

لما عجب منهم في قولهم الذي يقتضي أنهم لم يروا آية قط: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ...﴾ [الأنعام: ٣٧] ذكرهم بآية غير آية القرآن تشتمل على عدة آيات مستكثرة كافية لصلاحهم.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: ٤٦].

ذكر ـ عز وجل ـ هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا.

* قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

قال الخازن: قدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز، وفي الجبال وكثرة ما فيها من المعادن والخيرات، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها.

ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله ـ تعالى ـ.

ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة، ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس، فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه ـ سبحانه وتعالى ـ فصارت هذه الأمثال منبهة على حكمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع، فسبحانه العليم الخبير.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: ٥٣ ـ ٥٤].

لما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين أمر بمقابلتهم بالإكرام والإعظام والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

أسلوب حصر، فمن أساليب الحصر في اللغة تقديم ما حقه التأخير، وأصلها (مفاتيح الغيب عنده) فقدم ـ سبحانه وتعالى ـ الخبر على المبتدأ فأصبح المعنى أن مفاتح الغيب ليست عنده أحد غيره، لكن لو قال: (ومفاتح الغيب عنده) يحتمل المعنى أنها عنده وعند غيره.

ومفاتح الغيب أمر لا يعلمه إلا الله، لا يُعطى لأحد، أما الغيب الباقي فيمكن أن يطلع عليه ـ جل وعلا ـ بعض عباده على بعض.

﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

النفي مع الاستثناء أيضاً من أساليب الحصر.

* قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنعام: ٦٣].

وليس المقصود هنا عين الظلمة، وإنما المقصود ما في البر والبحر من مشاق ومن مفاوز، فإذا أصابهم الأمر وتيقنوا الهلاك وعظم عليهم الأمر وأشتد عليهم الكرب علموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فلجأوا إليه مخلصين فإذا نجاهم نسوا والعياذ بالله كل هذا.

* قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة: ٦٥].

استئناف ابتدائي عقب به ذكر النعمة التي في قوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ بذكر القدرة على الانتقام.

* قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠].

قال الشـوكاني: أمره الله ـ سبحانه ـ بالإعراض عن أهل المجالس التي يسـتهان فيها بآيات الله إلـى غاية هي الخوض في غيـر ذلك، وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسـم بمجالسة المبتدعة، الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسـنة رسوله، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسـدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هو فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالسـتهم، وذلك يسير عليه غير عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسـون به شبهة يشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: ومن عرف هذه الشـريعة المطهرة حق معرفتها، عَلِمَ أن مجالسـة أهـل البدع المضلة فيها من المفسـدة أضعاف أضعاف ما في مجالسـة من يعصي الله بفعل شـيء من المحرمات، ولا سيما لمن كان غير راسـخ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهـم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فيقـدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسـر دفعه، فيعمل بذلك مـدة عمره ويلقي الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر.

وقال صاحب المنار: وقد حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذا لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يخشـى عليه من فتنة المبتدع لأنه يحذر من الأول على ضعف شبهته ما لا يحذر من الثاني وهو يجيئه من مأمنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال اسـتهزائهم بآيـات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها كما يقعد مختارا مع المجادلـين فيها المتأولين لها، وإنما يتصور قعود المؤمن مع الكافر المسـتهزئ في حال الإكراه وما يقرب منه، كشدة الضعف ولا سيما إذا كان فـي دار الحرب ولم تكن مكة دار إسـلام عن نزول هذه الآيات، ويدخل في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق أيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها

بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارض أخر.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤)﴾ [الأنعام: ٧٤].

لما كانت السورة تتكلم عن عقيدة التوحيد التي بعث الله الرسل، ومن أجلها أنزل الكتب، ذكر الله ـ جل وعلا ـ في هذه السورة إمام الموحدين خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فهو أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء، ونسب الله ـ جل وعلا ـ الملة إليه في كتابه ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]. وذلك لمكانة إبراهيم عند مشركي العرب فهم يدعون متابعته وهم راغبون عن ملته لأربعة أمور: جعل ماله للضيفان، وجعل بدنه للنيران، وجعل ولده للقربان، وجعل قلبه للرحمن.

* الأمن والطمأنينة مع زوال سبب الخوف، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام: ٨٢].

والأمنة: الطمأنينة مع وجود سبب الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

* ولعظم أمر الشرك وخطورته، فقد ذكر الله ـ عز وجل ـ ثمانية عشر نبياً في سورة الأنعام، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٥)﴾ [الزمر: ٦٥].

ثم قال ـ عز وجل ـ في نهاية المحاورة ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال ابن عاشور: وقدم ﴿حَكِيمٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ (٨٣)﴾ لأن هذا التفضيل تظهرٌ للحكمة، ثم عقب بـ ﴿عَلِيمٌ (٨٣)﴾ ليشير إلى إن ذلك الإحكام جار على وفق العلم.

* قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

يوجب الاقتداء بأهل الخير ممن يحيط العلم أنهم مقيمون على الحق ولا يكون ذلك إلا للأنبياء، فأما من دونهم وإن كانوا لا يعرون من الحق ولا يظن بهم سواه، فالإقتداء بهم غير واجب.

قال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ ولم يقل (فبهم) فيه إشارة إلى أن الإقتداء يكون بالمنهج والطريق لا بالأشخاص.

* قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

هذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلا الناس الطيبين المباركين، فهو كثير البركات والخيرات؛ لأنه كلام رب العالمين، من قرأه وتدبر معانيه، عرف منه العقائد الحقة، وأصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق وأسباب النعيم الأبدي، والعذاب الأبدي، ومن عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح الله له الدارين.

وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية.

* قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣].

هو اللطيف؛ يلطف بعباده، يسوق الرزق إليهم وهم لا يشعرون.

وهو الخبير بأمور العباد لا يخفى عليه شيء، مطلع على حقيقة كل أمر.

* لما ذكر ـ تعالى ـ أمر التوحيد وأردفه بتقرير أمر النبوة، شرع في تعداد عجائب صنعه ـ تعالى ـ، وذكر الأدلة الدالة على وجود الخالق، وكمال علمه وقدرته وحكمته، وبعجائب الصنع ولطائف التدبير تنبيهاً على أن المقصود الأصلي إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾.

إن الله ـ تعالى ـ يشق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويشق النوى لخروج الشجر منها، وقيل: يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة.

قال الرازي: واعلم أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قَدْرٌ من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً، أما من أعلاها فتخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، وأما من أسفلها: فتخرج من الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة. وهاهنا عجائب.. منها: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة وللطافة بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الإجرام الكثيفة، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز العليم.

* قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾.

يخرج ـ سبحانه ـ النبات الغض الطري الحي؛ من الحب اليابس الذي هو كالجماد الميت، ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي.

وعن ابن عباس: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر.

* قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمردهم على الحق وإعراضهم عنه حيارى تائهين، لا يهتدون سبيلا.

قال الشوكاني: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة.

وقال الماوردي: وهذا من الله عقوبة لهم، وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار.

والثاني: في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها.

والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، فإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة.

* قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أموراً:

أحدها: أنه يمشي به في الناس بالنور وهم في الظلمة.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

سأل عمر أعرابياً: ما الحرجة؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء! فقال عمر:

كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

* قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨].

أي: فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة.

قال الحسن: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت، وعملت الإنس.

* قال تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤١]، أما في الآية [٩٩] ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ﴾.

فما سر ذلك؟

سياق الآية الأولى: في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه.

وأما سياق الآية الأخرى: ففي بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل الكفرة افتراء على الله وبيان عقائدهم الباطلة.

و(اشتبه) أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال كقولهم: اشتبهت عليه القبلة.

و(تشابه) أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدى الالتباس أم لم يؤد.

ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل تشابه بين شيئين، فوضع (مشتبها) في السياق الدال على قدرته وآياته.

* سُئِل ابن سمعون عن قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

فقال: مشتبه الأوراق، مختلف المذاق، هذا جلاء للظلام وهذاء شفاء للسقام.

* قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وصف ـ تعالى ـ المشركين بأوصاف سبعة هي: الخسران، والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال، وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم.

* قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

إذا أمر الله بالبر تأتي كلمة الوالدين وليس الأبوين، لأن الوالد من الولادة، والأم هي التي تلد، وهنا إشارة إلى أنها أولى بالبر والصحبة، وقد وردت كذلك في سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [٨٣].

وفي سورة النساء ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [٣٦].

وفي سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [١٥١].

وفي سورة الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [٢٣].

* قال ـ تعالى ـ في سورة الأنعام:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]

أي: لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، ولهذا قال بعدها: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ فذكر الرزق لهم، بينما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، أي: خشية حصول فقر في المستقبل؛ ولذا قال بعدها: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله.

* قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

قال الرازي: فإن من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الإلهي، لم يقف على الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ومن لطائف القرآن الاقتصار في وصف: ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مؤكد واحد، وتعزيز وصف: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ بمؤكدات ثلاثة وهي: إن، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي؛ لأن (الرحيم) يؤكد معنى (الغفور) ليطمئن أهل العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليستدعي أهل الإعراض والصدوف إلى الإقلاع عما هم فيه.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤].

* افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١].
وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعادل بربه شيئاً، فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كأن التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

سورة الأعراف (٧)

سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، وفي ثناياها تقرير أصول العقيدة من توحيد الله ـ جل وعلا ـ، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة.

وتعرضت السورة الكريمة في بدء آياتها للقرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين.

ولفتت الآيات الكريمة الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر آدم ـ عليه السلام ـ الذي أمر الله الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على طريق الناس ليصدهم عن الهدى ويبعدهم عن خالقهم.

سميت هذه السورة بسورة الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما. روى ابن جرير عن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف، فقال: **«هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم»**.

* وقد ذكر ـ تعالى ـ في ثنايا آياتها الجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب، فقال:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝﴾.

قيل: والذي يوضع في الميزان يوم القيامة الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله ـ تعالى ـ يقلبها يوم القيامة أجساماً.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة.

• وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «**يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة**» والكل صحيح، فتارة توزن الأعمال، وتارة محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

* قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

تعليل علل به إبليس امتناعه من السجود، وهو يقتضي الاعترض على الله ـ تعالى ـ في أمره بسجود الفاضل للمفضول على زعمه وبهذا الاعتراض كفر إبليس، إذ ليس كفره جحود.

* قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء.

قال: فيما أغويتني الفاء للتعليل، وهي تتعلق بفعل قسم محذوف تقديره، أقسم بالله ـ بسبب إغوائك لي ـ لأغوين بني آدم.

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: إن الله ـ تعالى ـ عامل إبليس اللعين بنقيض قصده حيث كان قصده التعاظم والتكبر فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ والصغار أشد الذل والهوان.

وقوله: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨]، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك، وصرح ـ تعالى ـ بهذا المعنى في قولهم: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

* وقد ذكر - عز وجل - في السورة مكر الشيطان ومكائده وسعيه لإغواء بني آدم. فقال تعالى:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٧].

قال قتادة: أتاك الشيطان ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

وقال النسفي: لم يقل من فوقهم ومن تحتهم؛ لمكان الرحمة والسجدة.

* قال - تعالى - عن آدم وحواء: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأنعام: ٢٢].

ظهور السوءات وبدو العورات إنما هو عقوبة من عقوبات الذنوب والمعاصي، وليس علامة على المدنية والتحضر، وإنما هو ارتكاس وبعد عن الفطرة، وقد تمنن الله - عز وجل - على بني آدم باللباس الذي يواري السوءات والرياش التي يتجمل بها، ولذلك كان من أعظم طرق الشيطان في إغواء بني آدم: كشف العورات، كما قال تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وهو بداية النهاية في انحلال الأخلاق وفساد الأمم والشعوب.

* قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ابن تيمية: فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قال مالك بن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلا من عصم الله.

* قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ يا بني آدم كونوا عند أداء الصلاة على حالة من الزينة المشروعة من ثياب ساترة لعوراتكم ونظافة وطهارة ونحو ذلك، فيستحب لها التزين والتعطر كما يجب التستر والتطهر.

قال أهل التفسير: كان بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وأذن مؤذن رسول الله ﷺ: «ألا يطوف بالبيت عريان» [رواه مسلم].

قال ابن القيم: الأدب هو الدين كله، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو: أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة، إيذانا بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة.

- وفي قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

قال بعض العلماء: جمع في الآية أصول الكلام: النداء، والعموم، والخصوص، والأمر، والإباحة، والنهي، والخبر.

* قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾.

أي: ولا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال، ولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في ذلك.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: كل ما شئت، واشرب ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة.

* قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: سمعت عبد الله حنظلة يوماً وهو على فراشه، وعُدْتُهُ من علته، فتلا رجل عنده هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ فبكى حتى ظننت أن

نفسه ستخرج، وقال: صاروا بين أطباق النار، ثم قام على رجليه، فقال قائل: يا أبا عبد الرحمن! اقعد، قال: منعني القعود ذكر جهنم؛ ولعلي أحدهم.

وذكر أن عبد الله بن عمر شرب ماءً مُبَرَّداً فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله عز وجل: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤]؛ فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماء، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال بعض العلماء: أنهار الجنة في غير أخدود، إن المؤمن في غرفته العالية قد يشير إلى النهر تحته فيصعد إليه حتى يقضي منه حاجته كما في تفسير قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٦].

ولا غرابة في ارتفاع الماء إلى ولي الله في غرفته من الأرض لأنه يشاهد في الدنيا ما هو أعظم من هذا وأغرب.

* قال ـ تعالى ـ في شأن أصحاب الأعراف: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٧].

وفي التعبير بـ ﴿صُرِفَتْ﴾ إشارة إلى أنهم أجبروا على أن ينظروا إلى أهل النار؛ لأن الهول شديد، ومنظر النار فظيع جداً، لا ينظر إليه أحد باختياره، بينما قال في حالهم مع أهل الجنة: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أن سقي الماء من أفضل الأعمال.

وقد سئل ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ فقال: الماء ألم تروا إلى أهل النار حين استغاثوا بأهل الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

وقد قال بعض التابعين من كثرت ذنوبه، فعليه بسقي الماء، وقد غفر الله ذنوب الذي سقى الكلب، فكيف بمن سقى رجلاً مؤمناً موحداً، وأحياه؟

❁ قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم من صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾، وأن الله ذكر عبداً صالحاً ورضي بفعله، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٣].

قال ابن القيم: وفي الآية دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

قال الحسن: لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدرون على أن يكون سرّاً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال الشيخ ابن عثيمين: تضرعاً في القلوب، وخفية في اللسان بدون صوت مزعج.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العدوان: أن يدعوه دعاء غير متضرع بل دعاء مُدلّ كالمستغني بما عنده من المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد.

- وفي إخفاء الدعاء فوائد، منها:

أولاً: أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله - تعالى - يسمع دعاءه الخفي.

ثانياً: أنه أعظم في الأدب، ولهذا لا تُسأل الملوك برفع الأصوات، ومن فعل ذلك مقتوه - ولله المثل الأعلى -.

ثالثاً: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق.

رابعاً: أنه أبلغ في الإخلاص، وفي جمع القلب على الله، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته.

خامساً: أنه دال على قرب صاحبه من الله، يسأله مسألة مناجاة للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى - سبحانه - على عبده زكريا بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣]، فلما استحضر قرب ربه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقواعد الدعاء والذكر أجمعت في موطنين من سورة الأعراف، فآيتا الدعاء: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥] والآية بعدها.

وآية الذكر: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

* وبعد أن ذكر - تعالى - قصة نوح مع قومه، ذكر هنا قصة هود مع قومه، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ

مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أجابهم بحلم وسعة صدر مع علمه بأن خصومه أضل الناس وأسفههم.

قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء ـ عليه السلام ـ ممن نسبهم إلى السفاهة والضلالة ـ بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة ـ أدب حسن وخلق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم.

* قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩] قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: فذكر آلائه ـ تبارك وتعالى ـ ونعمه على عبده، سبب الفلاح والسعادة؛ لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله، وحمداً وشكراً وطاعة، وشهود تقصيره، بل تفريطه في القليل مما يوجب الله عليه.

* ذكر الله ـ عز وجل ـ نبيه صالحاً وآيته وهي الناقة، فقال تعالى:

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾.

هذا بيان للمعجزة، أي: هذه الناقة معجزتي إليكم، وإضافتها إلى الله للتشريف والتعظيم؛ لأنها خلقت بغير واسطة، حيث أخرج لهم الناقة حين سألوه من حجر صلد.

* ثم قال ـ تعالى ـ عما نالهم من العذاب بعد أن كذبوا:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٩١].

وقال في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧].

فحين ذكر الرجفة ـ وهي الزلزلة الشديدة ـ ذكر الدار مفردة (في دارهم) ولما ذكر الصيحة جمع الدار ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾؛ وذلك لأن الصيحة يبلغ صوتها

مساحة أكبر مما تبلغ الرجفة التي تختص بجزء من الأرض؛ فلذلك أفردها مع الرجفة، وجمعها مع الصيحة.

قال ابن كثير: أخبر - تعالى - هنا أنهم أخذتهم الرجفة حين أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، وأخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ [هود: ٨٧]، فجاءت الصيحة فأسكتهم، وقال - تعالى - في الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ...﴾ [الشعراء: ١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...﴾ [الشعراء: ١٨٧] وقد اجتمع عليهم ذلك كله.

* قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

قال ابن تيمية: من رضي عمل قوم حشر معهم، كما حشرت امرأة لوط معهم.

* قال - عز وجل - عن قوم لوط وما أنزل عليهم من العذاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: وأرسل الله عذاباً على الكفار من قوم لوط بأن أنزل عليهم مطراً من حجارة من سجيل، وشبه العذاب بالمطر المدرار لكثرته حيث المطر أرسل إرسالاً.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقال - تعالى - في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

فقال في آية الأنعام: ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن

قَبْلِكَ﴾ وقال في الأعـراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية، وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ.

فلمـا طـال الحدث واسـتمر جـاء بمـا هـو أطول بنـاء، فقـال: ﴿يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ولمـا كان الإرسـال فـي الأعراف إلـى قريـة، قال: ﴿يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فجاء بما هو أقصر في البناء.

ومن ناحية أخرى استعمل في آية الأنعام: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ﴾ وفي الأعراف: ﴿أَرْسَلْنَا فِى﴾ والإرسـال إلى شـخص يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث، فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود، وأما الإرسال في القرية فإنه يقتضي التبليغ والمكث، ولا شـك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه.

* قـال تعالـى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: أفأمن أهل القرى المكذبة مكر الله وإمهاله لهم واسـتدراجه بالنعمة حتى يهلكوا في غفلتهم؟ فإنه لا يأمن ذلك إلا القوم الهالكون.

قال الحسـن: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق خائف وجل، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو مطمئن آمن.

قال الشـيخ عبد الرحمن السعدي في تفسـيره: في هذه الآية تخويف بليغ، فإن العبد لا ينبغي أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً أن يبتلى ببلية تسـلب إيمانه، ولا يزال داعياً بالثبات، وأن يسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقع الفتن؛ فإن العبد ـ ولو بلغت به الحال ما بلغت ـ فليس على يقين من السلامة.

وقال الزمخشـري: فعلـى العاقل أن يكون في خـوف من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة.

وكان هرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادي بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها؟ وعجبت من النار كيف نام هاربها؟ ثم يقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف: ٩٧].

وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت: مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام؟ فقال: يا بنتاه! إن أباك يخاف البيات. أراد قوله: ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الأعراف: ٩٧].

* قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال ابن الجوزي: أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع في السرور بما هو عقوبة؛ كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حالة لا يفوز بطاعة. وتأمل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠].

* قال ـ تعالى ـ عن حال السحرة بعد أن آمنوا:

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠].

ولم يقل سجدوا، كأن شيئاً اضطرهم إلى السجود، كأنهم سجدوا بغير اختيار؛ لقوة ما رأوا من الآية العظيمة.

* ثم تأتي النهاية ويزف النصر، ويمكّن ـ جل وعلا ـ لعباده المؤمنين:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال الزمخشري: وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما

أحدثوه بعد إنفاذهم من ملكه فرعون واستعباده ومعاينتهم الآيات العظام ومجاوزتهم البحر، من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه: ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، جهول كنود إلا من عصمه الله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وليسلي رسول الله ﷺ مما أري من بني إسرائيل بالمدينة.

ولم يُذكر - عز وجل - الشمال والجنوب في القرآن لقلة الخير وفقر الأرض.

* سأل موسى - عليه السلام - أجلَّ الأشياء، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وسأل أقل الأشياء فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

والمسلم يسأل الله أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة، وأقلها وهي خيرات الدنيا، فيقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

* لما رجع موسى - عليه السلام - ووجد قومه قد عبدوا العجل، غضب وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته، وعاتبه عتاباً، ولطف به في القول بالمناداة ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾ تودداً وترحماً ناداه بالأم، وإلا فهو شقيقه لأم وأب.

ثم قال هارون لموسى: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وهو درس عظيم لأتباع الأنبياء في علاج مشاكلهم مهما كانت كبيرة، بعيدة عن أي أسلوب يجلب شماته الأعداء والحاسدين.

* قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

قال كعب: رب قائم مشكور له، ورب نائم مغفور له، وذلك أن الرجلين يتحابان في الله فقام أحدهما يصلي فرد الله صلاته، ودعاه فلم يرد عليه من دعائه شيئاً، فذكر أخاه في دعائه من الليل، فقال: يا رب أخي فلان اغفر له، فغفر له وهو نائم.

* قال ـ تعالى ـ بعد أن ذكر جملة من قبائح اليهود ـ:

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٥٣)﴾ [الأعراف: ١٥٣].

فإنه ـ سبحانه ـ عظم خبائثهم أولا، ثم أردفها بعظم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن حلت فالرحمة أعظم.

عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ فقال: هؤلاء الورقات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف، وذكر أصحاب السبت، ثم قرأ ابن عباس ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٦٤] قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ (١٥٤)﴾ [الأعراف: ١٥٤].

في هذا النظم الكريم، يعني قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى﴾ من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزلة الآمر بذلك، المغري عليه، بالتحكم والتشديد،

والتعبير عن سكوته بالسكوت ما لا يخفى.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن تيمية: فإن أميته لم تكن من جهة فقد العلم والقراءة عن ظهر قلب فإنه إمام الأئمة في هذا، وإنما كان من جهة أنه لا يكتب ولا يقرأ مكتوباً.

* قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

قال القرطبي: فدلت الآية لمن تدبرها على ألا يغتر بعمله ولا بعلمه، إذا لا يدري بما يختم له.

* ضرب الله مثلين منفرين، فقال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

فالمثل الأول ضربه للعالم الضال المنسلخ عن العلم النافع، دائم اللهاث وراء شهوته.

وأما المثل الثاني فضربه الله للذين يحملون التوراة في عقولهم، لكنهم لم يستفيدوا منها ولم ينتفعوا بها في حياتهم، فماذا يفرقون عن الحمار حامل الأسفار؟

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع.

قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً عن من كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل، وإن تركته ضل، فهو كالكلب؛ إن تركته لهث، وإن طردته لهث.

واللهث تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وخلقه الكلب أنه ليلهث على كل حال.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الاعراف: ١٧٦].

أخبر ـ سبحانه ـ أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع، لا يرفع أحد به رأساً، فإن الرب الخافض الرافع ـ سبحانه ـ فإن شاء خفضه ولم يرفعه.

* قال تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الاعراف: ١٧٧].

حيث شبهوا بالكلاب إما في استواء الحالتين في النقصان (استواء إيتاء الآيات والتكليف بها وعدم ذلك) وأنهم ضالون وعظوا أم لم يوعظوا، وإما في الخسة فإن الكلاب لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين أعلم ربك ليسلطن على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم، وقد سلط الله عليهم على مر الأزمنة من يسومهم سوء العذاب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، ولا تقوم لهم راية ولا ينصر لهم علم.

* كثيرا ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته، وإن كانت صورته موجودة، ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الاعراف: ١٧٩] فلما لم ينتفعوا بقلوبهم بفقه معاني كلام الله، وأعينهم بتأمل ملكوت الله، لم تتحقق الثمرة منها.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].
قال القرطبي: سمى الله ـ سبحانه ـ أسماءه بالحسنى لأنها حسنة في الأسماع والقلوب، فإنها تدل على توحيده، وكرمه، وجوده، ورحمته، وإفضاله.

وهو ـ سبحانه ـ يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم، جواد يحب كل جواد، وتر يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو وأهله، حيي يحب الحياء وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم، فلمحبته ـ سبحانه ـ للتوبة والمغفرة والعفو والصفح؛ خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه.

* قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢]
قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم، ونمنعهم الشكر.

قيل لعمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت: هؤلاء بنوك ـ وكانوا اثني عشر ـ ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟!

فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، والله لا أعطيهم حق أحد، وهم بين رجلين: إما صالح؛ فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح؛ فما كنت لأعينه على فسقه، ولا أبالي في أي وادٍ هلك، ولا أدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت، ثم استدعى أولاده فودعهم وعزاهم، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم.

قالوا: فلقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك مع كثرة ما ترك لهم من الأموال؛ يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل

ولده إلى الله عز وجل، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم من الإرث؛ فيضيعون وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم!

* قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩- ٢٠٠].

في هذه الآية والآيتان الآخريان بيان ما يتلقى الإنسان به العدو من جنسه والعدو من الشياطين، ليكتفي شرهما ويكسر أصل هذه العداوة المضرة الشنيعة التي لا يسلم منها أحد، وذلك أن عدوك من بني جنسك أنك تقابل إساءته بالإحسان، ومنكره بالمعروف، وإساءته بالحلم والصفح، فإن ذلك الإحسان وذلك الحلم والصفح يقضي على إساءته ويذهبها حتى يضطر إلى أن يصير في آخر الأمر من أصدق الأصدقاء، وأما إذا كان العدو من الشياطين فإن الملاينة لا تفيد فيه، وأنت لا تراه ولا لك فيه حيلة إلا الاستغاثة بخالق السماوات والأرض والاستعاذة به منه.

* قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

الآمر بالمعروف لن يعدم من يكابره على الحق ويجادله، فليعرض عنه، مر سالم بن عبد الله بن عمر ـ وهو من كبار الفقهاء ـ على قافلة فيها جرس، فقال: إن هذا يُنهى عنه، فقالوا: نحن أعلم منك، إنما يكره الجلجل الكبير، وأما هذا فلا بأس به، فبكى سالم، وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وحين قدم عيينة بن حصن على عمر فقال: إنك لا تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر غضباً حتى كاد أن يهم به، ولكن ابن أخي عيينة قال: يا أمير المؤمنين، إن الله ـ تعالى ـ قال لنبيه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين، فوقف عندها عمر ولم يتجاوزها؛ لأنه كان وقافاً عند كتاب الله.

* قال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن؛ لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولعل من الله ـ سبحانه وتعالى ـ واجبة.

سورة الأنفال ٨

سورة الأنفال إحدى السور المدنية التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات، وتضمنت كثيراً من أحكام الجهاد، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله، وتناولت جانب السلم والحرب، وأحكام الأسر والغنائم.

نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة سورة بدر؛ لأنها تناولت أحداث هذه الموقعة بإسهاب، ورسمت خطة القتال، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من البطولة والشهامة، والوقوف في وجه الباطل بكل شجاعة وجرأة وحزم وصمود.

وكانت وقعة غزوة بدر الكبرى هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، ورد البغي والطغيان، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين قعد بهم الضعف في مكة، وأخذوا في الضراعة إلى الله أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وقد استجاب الله ضراعتهم فهيأ لهم ظروف تلك الغزوة، التي تم فيها النصر للمؤمنين على قلة في عددهم، وضعف في عُددهم، وعلى عدم تهيئهم للقتال، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده، وقويت شوكته، وامتد سلطانه، فلا بد له من يوم يخرّ فيه صريعاً أمام جلال الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر؛ نصر للمؤمنين، وهزيمة للمشركين.

وفي ثنايا سرد أحداث بدر، جاءت النداءات الإلهية للمؤمنين ست مرات بوصف الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الأنفال: ١٥] كحافز لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله، وكتذكير لهم بأن هذه التكاليف

التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به، وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب الإيمان لا بكثرة السلاح والرجال.

أما النداء الأول: فقد جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥] وقد توعدت الآيات المنهزمين أمام الأعداء بأشد العذاب.

أما النداء الثاني: فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠].

وأما النداء الثالث: فقد بين فيه ـ جل وعلا ـ أن ما يدعوهم إليه الرسول فيه حياتهم وعزتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢٤].

وأما النداء الرابع: فقد جاء بالتحذير من إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله، وللمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

وأما النداء الخامس: فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكرهم بأنها أساس الخير كله، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني، الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، وبه يفرق بين الرشد والغي، والهدى والضلال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأما النداء السادس: وهو النداء الأخير فقد وضح لهم فيه طريق العزة، وأسس النصر، وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء، واستحضار عظمة الله التي لا تحد، وقوته التي لا تقهر، والاكثار من ذكر الله كثيراً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

* في مطلع السورة تحدثت الآيات عن الأنفال وهي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

في هذه الآيات صرف الله ـ عز وجل ـ إجابتهم عن ما يريدونه إلى ما يحتاجونه.

فالأصل فيكم يا أهل الإسلام أن تكونوا متآلفي القلوب، فليس الآن وقت إجابة عن هذه الغنائم، وإنما الشأن كل الشأن أن تتآلف قلوبكم وأن تجتمع كلمتكم وأن تتقوا الله ربكم، ثم بعد أربعين آية جاء قول الله ـ جل وعلا ـ يجيب عن هذا السؤال ويبين الحكم في ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

يريد في الحكم في الغنائم.

قال عبادة بن الصامت: نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعلها لرسول الله ﷺ قسمها على السواء.

* لما حضر الإمام نافعاً المدني ـ وهو أحد القراء السبعة ـ الوفاة قال له أبناؤه أوصنا! قال: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

قدم ـ تعالى ـ أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه: بفهم القرآن، ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن.

وقد أخبر عنهم باسم الموصول بثلاثة مقامات عظيمة وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن.

قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقال ابن رجب في لطائف المعارف: إذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه وحلاوته ظهر ثمر ذلك على لسانه وجوارحه، فاستحلى اللسان ذكر الله وما والاه، وأسرعت الجوارح طاعة لله، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝﴾ [الأنفال: ٢].

ـ وهذا شأن أهل الإيمان مع القرآن كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

لأنهم يلقون السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب؛ ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، أو وجلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي.

❊ قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

الدعاء الصادق من قلب مخبت سلاح نافذ بإذن الله، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: القلوب الصادقة والأدعية الصالحة هي العسكر الذي لا يُغلب.

❊ قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ..﴾ [الأنفال: ١٢].

قال في فتح الباري: سُئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة في بدر، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟ فقال: وقع ذلك

لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله ـ تعالى ـ في عباده.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

ودلت الآية على أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير؛ بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه، فلا ينتفع به فلا يكون فيه خيراً، ودلت أيضاً على أن إسماع التفهيم إنما يطلب لمن السؤال هل كل من سمع يكون خير؟

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

كما أن الإنسان لا حياة حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حيّاً بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه.

* قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: أي هذه الفتنة لا تصيب الظالم فقط؛ بل تصيب الظالم والساكت عن نهيه عن الظلم.

* قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾.

واعلموا أنه ـ تعالى ـ المتصرف في جميع الأشياء، يصرف القلوب كيف يشاء بما لا يقدر عليه صاحبها، فيفسخ عزائمه، ويغير مقاصده، ويلهمه رشده، أو يزيغ قلبه عن الصراط السوي، وفي الحديث: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** [رواه الترمذي].

قال ابن عباس: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان.

وفي ذلك حض على المراقبة، والخوف من الله ـ تعالى ـ، والمبادرة إلى الاستجابة له ـ جل وعلا ـ.

* ثم يقول ـ تعالى ـ ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة، فضلاً منه وإحساناً.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لتشكروا الله على هذه النعم الجليلة، والغرض التذكير بالنعمة.

فإنهم كانوا قبل ظهور الرسول ﷺ في غاية القلة والذلة، وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة، فعليهم أن يطيعوا الله ويشكروه على هذه النعمة، قال قتادة بن دعامة السدوسي ـ رحمه الله ـ: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم مُنعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

* قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨].

فتقديم الأموال لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣].

أشارت هذه الآية إلى أن محبة الرسول وحقيقة ما جاء به إذا كان في القلب؛ فإن الله لا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال ابن تيمية: من سره أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

* ثم دعا ـ تعالى ـ المشركين إلى التوبة والإنابة، وحذرهم من الإصرار على الكفر والضلال، قال سبحانه:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا عن الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، فالإسلام يجبُّ ما قبله. وذلك من رحمة الله وعفوه، وذلك أن الكفار يقتحمون الكفر والجرائم والمآثم، فلو كان يوجب مؤاخذتهم لما استدركوا أبداً توبة، ولا نالتهم مغفرة؛ فيسر الله عليهم قبول التوبة عند الإنابة، وبذل المغفرة بالإسلام، وهدم جميع ما تقدم، ليكون ذلك أقرب إلى دخولهم في الدين، وأدعى إلى قبولهم كلمة الإسلام.

﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾.

أي: وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك ومكرهم وعنادهم، ويستمروا على ما هم فيه فقد مضت سنة الله في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائه، فكذلك نفعل بهم، وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن المكابرة والعناد.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: قاتلوا يا معشر المؤمنين أعداءكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يُعبد إلا الله وحده، وحتى لا يفتن مؤمن عن دينه.

قال ابن عباس: الفتنة: الشرك، أي حتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾.

أي: تضمحل الأديان الباطلة، وحتى يكون الدين والطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره. واضمحلالها إما بهلاك أهلها جميعاً، أو برجوعهم عنها خشية القتل، لقوله ـ عليه الصلاة السلام ـ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (رواه البخاري).

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ذلك العذاب الذي أصابكم أيها المشركين في بدر فبسبب ما كسبتم من الكفر والآثام، وأنه ـ تعالى ـ عادل ليس بذي ظلم لأحد من العباد حتى يعذبه بغير ذنب، فقد أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين.

وصيغة ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ليست للمبالغة، وإنما هي للنسب، أي: ليس منسوباً إلى الظلم، فقد انتفى أصل الظلم عنه ـ تعالى ـ لكمال عدله.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٢].

قال ابن تيمية: وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم لم يغير ما بهم من العقوبة والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة» ومنه قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة» فإذا منع الكلب والصورة دخول الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها.

* قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

أمر ـ سبحانه وتعالى ـ بإعداد القوة للأعداء، فإن الله ـ تعالى ـ لو شاء لهزمهم بالكلام وبحفنة من تراب كما فعل ﷺ، ولكنه أراد أن يبلي بعض الناس ببعض، فأمر بإعداد القوى والآلة في فنون الحرب التي تكون لنا عدة، وعليهم قوة، ووعد على الصبر والتقوى بإمداد الملائكة العليا.

* قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

روى الحاكم أن ابن عباس كان يقول: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم يقرأ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٣].

سورة التوبة (٩)

سورة التوبة من السور المدنية التي تعنى بجانب التشريع، وهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما في أصول الدين وفروعه وأحكام القتال والاستعداد له وأسباب النصر فيه، وأحكام المعاهدات والمواثيق وغيرها. وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري عن البراء ابن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة.

وروى ابن كثير: أن أول هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ عند مرجعه من غزوة تبوك، فقد بعث أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مبلغاً عن رسول الله ﷺ ما فيها من الأحكام، وذلك في السنة التاسعة من الهجرة، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم، واشتهرت بين الغزوات النبوية بـ «غزوة تبوك» وكانت في حرّ شديد، وسفر بعيد، حين طابت الثمار، وأخلد الناس إلى نعيم الحياة، فكانت ابتلاء لإيمان المؤمنين، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم لدين الله، وتمييزاً بينهم وبين المنافقين، وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة، بدءاً من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ٤٢ ـ ١١٠] ولهذا سماها بعض الصحابة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين وكشفت أسرارهم.

قال سفيان بن عيينة: هذه السورة نزلت في المنافقين.

وقال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عن سورة براءة، فقال: تلك الفاضحة، ما زال ينزل: ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع منهم أحد.

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها.

قال ابن عباس: سألت علي بن أبي طالب لِم لم يكتب في براءة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال: لأن: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أمان، وبراءة نزلت بالسيف، ليس فيها أمان.

وقال سفيان بن عيينة: إنما لم تكتب في صدر هذه السورة البسملة؛ لأن التسمية رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالمنافقين وبالسيف، ولا أمان للمنافقين.

وتسمى هذه السورة بأسماء عديدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة عشر اسماً، منها: براءة، والتوبة، والمقشقشة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة، والمثيرة، والحافرة، والمنكلة، والمدمدمة، وسورة العذاب.

قيل: لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشقش من النفاق، أي تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم، وتنكل بهم، وتشردهم، وتخزيهم، وتدمدم عليهم.

وسورة التوبة اسم على مسمى، فالله - عز وجل - يحب التوابين، ويفرح بها ويدعوا عباده لذلك، وآياتها مليئة بنداءات التوبة لتغرس ذلك في حس المسلم ووجدانه، حتى تلازمه ولا تفارقه: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ [التوبة: ٣]، ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: ١٥]، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]، ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ [التوبة: ١٠٤]، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٦]، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

* قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝﴾ [التوبة: ١١].

قال ابن تيمية: فعلق الأخوة في الدين على التوبة من الشرك وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة والمعلق بالشرط ينعدم عند عدمه، فمن ثم يفعل ذلك فليس بأخ في الدين.

* قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ١٥].

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٧].

في الأولى ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، والثانية: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن الآية الأولى، أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضييق والإخراج، فأمر ـ تعالى ـ بقتالهم ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي بما في القتال.

وأما الثانية؛ فسببه ـ والله أعلم ـ ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، فختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ثوابهم عند الله عظيم، تعجز العقول عن وصفه، جزاء ما قدموه في الطاعات والعمل الصالح في حياتهم الدنيا.

ولما وصف المؤمنين بثلاث صفات: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاثة: الرحمة، والرضوان، والجنان. فبدأ بالرحمة؛ لأنها أعم النعم في مقابلة الإيمان، وثنى بالرضوان الذي هو نهاية الإحسان في مقابلة الجهاد، وثلث بالجنان في مقابلة الهجرة وترك الأوطان، ولا يخفى أن وصف الجنان بأن لهم فيها نعيماً مقيماً جاء في غاية اللطافة؛ لأن الهجرة فيها السفر، الذي هو قطعة من العذاب.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

* قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: ٨] الآية الأولى في المحارب للإسلام علانية.

والثانية: في المحارب للإسلام خفية.

- وإضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥].

قال السعدي: ولم يقل: تحمى في نار جهنم؛ ليدل ذلك على أنها مع حرارة نار جهنم تستعمل لها الآلات المحمية، فيضاعف حرها ويشتد عذابها.

والكي في الوجه أشهر وأشنع، وفي الظهر والجنب آلم وأوجع. فلذلك خصها بالذكر من بين سائر الأعضاء.

* قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، هي أن من صحب الرسول ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه.

قال السعدي: وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى ـ إذا نزل بالعبد ـ أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

* قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الشعبي: عاتب الله ـ عز وجل ـ أهل الأرض جميعاً ـ في هذه الآية ـ إلا أبا بكر الصديق.

ـ فقوله ـ تعالى ـ في القرآن: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ لا يختص بمصاحبته في الغار، بل هو صاحبه المطلق الذي كمل في الصحبة كمالاً لم يشركه فيه غيره، فصار مختصاً بالأكملية من الصحبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كل من وافق الرسول ﷺ في أمر خالف فيه غيره فهو من الذين اتبعوه في ذلك؛ وله نصيب من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فإن المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دل عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه.

* قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

افتتاح العتاب بالإعلام بالعفو إكرام عظيم ولطافة شريفة؛ فأخبره بالعفو قبل مباشرة العتاب كناية عن خفة موجبه.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف: بدأ بالعفو قبل ذكر المعفوّ.

وقال مورق العجلي: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذه؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة.

وقدم العفو على العتاب إكراماً للنبي ﷺ، ووقره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

الإعداد للعمل علامة التوفيق وأمارة الصدق في القصد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾.

والطاعة لا بد أن يُمهَّد لها بوظائف شرعية كثيرة حتى تؤتي أكلها وتجتنى جناها.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

كره الله خروجهم لنفاقهم وعدم حرصهم على الجهاد.

* قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

أي: قابلون مستجيبون، فإذا كان جيل القرآن كان بينهم منافقون، وفيهم سماعون لهم، فما الظن بمن بعدهم، فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم، لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٤٧].

قال ابن تيمية: فأخبر أن في المؤمنين من يستجيب للمنافقين ويقبل منهم، فإذا كان هذا في عهد النبي ﷺ كان استجابة بعض المؤمنين لبعض المنافقين فما بعده أولى.

* قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

قال الوزير ابن هبيرة: إنما لم يقل: ما كتب علينا، لأنه أمر يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيراً فهو له في العاجل، وإن كان شراً فهو ثواب له في الآجل.

* ثم مضت سورة التوبة المعروفة بسورة العذاب والفاضحة، والمخزية، والكاشفة، تفضح المنافقين وتهتك استارهم. قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

قال السعدي: ففي هذه غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر، ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون، فيغنينا عن الصدقة وعن صدقات الناس.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسرّاً شريفاً حيث جعل الرضا بما أتاه الله ورسوله والتوكل على الله، وهو قوله ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتضاء بآثاره، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لكان خيراً لهم، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠].

في سورة الأنفال تولى الله ـ سبحانه ـ قسمة الغنائم، وجعل خمسها خمسة أخماس، وفي براءة تولى قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصناف، وهذا من التناسب بين السورتين.

* قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله ستّير، يحسب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب، وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب حتى خافوا غاية الخوف.

* لما ذكر ـ تعالى ـ المنافقين وهتك استارهم، ذكر المؤمنين وحالهم ومآلهم، فقال:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

بدأ في هذه الآية بذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الصلاة والزكاة، وما ذلك إلا لعظم شأنه، وعموم نفعه، وتأثيره في المجتمع.

قال الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ: وتدل الآية أيضا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أخلاق المؤمنين والمؤمنات وصفاتهم الواجبة التي لا يجوز لهم التخلي عنها والتساهل بها.

وفي قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن تيمية: إن الله يجعل للمؤمنين من الرحمة بما يجدونه من حلاوة الإيمان وانشراح الصدر بما لا يمكن وصفه.

❁ ثم ذكر ـ تعالى ـ جزاءهم، فقال:
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

جاء بالرضوان مبتدأ منكراً مخبراً بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسر ـ شيء من رضوانه أكبر من الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته، ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي شيء يريدون؟ فيقولون: ربنا أي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول ـ تبارك وتعالى: «إن لكم عندي أفضل من ذلك، أحِلُّ عليك رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

❁ قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ [التوبة: ٩١].

قال السعدي: إذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

❁ قال تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

في الآية ذكر الحزن على فوات الطاعة.

قال العز بن عبد السلام: الحزن على فوت الطاعة من ثمرة حبها، والاهتمام بها؛ لأن المرء لا يحزن إلا على ما عز عليه. فكيف لو وقعت منهم هنة أو جرت منهم هفوة!

❁ قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦].

ولم يقل: (فإن الله لا يرضى عنهم)، ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم ويرضى عنهم. وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه.

* وفي آيات تالية؛ أثنى الله ـ عز وجل ـ على المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان، فقال:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال ابن تيمية: فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان ـ، والرضى من الله صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى، ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدا.

وهذه الآية تفتح لكل مسلم باب الترغيب في العمل الصالح لأن الله ـ جل وعلا ـ ذكر فيها ثلاث أصناف: المهاجرين، والأنصار، والذي اتبعوهم بإحسان وهذا يدخل فيه كل مؤمن إلى يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

هذه الآية دلت على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب.

وأما المخلِّط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: إن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

* قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

يؤخذ من المعنى، أن ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي

تنشيط من أنفق نفقة، وعمل عملاً صالحاً بالدعاء والثناء ونحو ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧].

في الآية النهي عن كل عمل يراد به تفريق المؤمنين ولو كان في مسجد، فلا يوجد مصلحة في الدين أعظم من اجتماع كلمة الناس.

* قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

الأعمال والدرجات بنيان، وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيئاً من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان، أو كاد.

* لما ذكر ـ تعالى ـ أحوال المنافقين، المتخلفين عن الجهاد، المثبطين عنه، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به، عاد على بيان فضيلة الجهاد، والترغيب فيه، وذكر صفات المؤمنين المجاهدين، الذين باعوا أنفسهم لله، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

أي: إن الله ـ جل وعلا ـ اشترى بنفسه الكريمة؛ أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين.

وقد مَثَّل ـ تعالى ـ جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء.

قال الحسن: بايعهم فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله، أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو رزقها، ثم وهبها لهم، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه.

وقال بعضهم: ناهيك عن بيع؛ البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ـ لما بايع الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل، ولا نستقيل، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ الآية.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد: وتقديم الأموال على الأنفس في الجهاد وقع في جميع القرآن الكريم إلا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١] لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استلمها ربها وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصود بعقد الشراء والأموال تبع لها، فإذا ملكها مشتريها ملك ما لها، فإن العبد وما يملكه لسيده ليس فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها، فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسناً لا مزيد عليه.

* قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:].

وسماها ساعة؛ تهوينا لأوقات الكروب وتشجيعاً على مواقعة المكاره، فإن أمدها يسير وأجرها عظيم.

قال القرطبي: اجتمع عليهم عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء.

* قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧].

قال البغوي: فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة، وقد قال في أول الآية: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ قيل: ذكر التوبة في أول الآية، قيل: ذكر الذنب وهو محض الفضل من الله ـ عز وجل ـ فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ قصة الثلاثة الذين خلفوا، فقال:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه.

وعلق ابن القيم فقال: فسرها كعب بالصواب، فليس ذلك تخلفهم عن الغزو؛ لأن الله لو أراد ذلك لقال: وعلى الثلاثة الذين تخلفوا.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

قال ابن القيم: كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله ـ تعالى ـ يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ولا مضارهما بمثل الكذب، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٩٠].

قال ابن مسعود عند قوله تعالى: ﴿...وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ قال: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجزه.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال السعدي: في هذه الآية إرشاد لطيف لفائدة مهمة، وهي أنه ينبغي للمسلمين أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور، فإن التخصص مدعاة لإجادة العمل واكتساب الخبرة والنفع العام.

* قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة؛ لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعينها، ولم يؤمر بمجرد التوكل.

سورة يونس (١٠)

ســـورة يونس من السور المكية، التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله ـ تعالى ـ، والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء، وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرســالات الســماوية، وبوجه أخص إلى القــرآن العظيم خاتمة الكتب المنزلة، والمعجــزة الخالدة على مدى العصور والدهور.

وقد تحدثت الســورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبينت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فما من أمة إلا بعث فيها رسولاً، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين.

وتناولت الســورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكرت أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع أنهم أســاطين الفصاحة، وأمراء البيــان: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨].

ـ ســميت السورة «سورة يونس» لذكر قصته ـ عليه السلام ـ فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهــم البلاء والعذاب، وهذا من الخصائــص التي خصَّ الله بها قوم يونس لصدق توبتهم وإيمانهم. وقد انفردت هذه الســورة بتفصيل حادث الطوفان وغَيضه.

ـ وفي القرآن ست سور سميت بأسماء الأنبياء، وهي: (محمد) و(نوح) و(إبراهيم) و(هود) و(يوسف) و(يونس).

* قال ـ تعالى ـ عن حال الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤].

وخص الشراب من الحميم من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفس.

* ثم قال - تعالى - عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٩].

قال السعدي: أضافها الله إلى النعيم؛ لاشتمالها على النعيم التام؛ نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه والاغتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم وسماع الأصوات المطربات، والنغمات المشجيات والمناظر المفرحات، ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشارب والمناكح ونحو ذلك مما لا تعلمه النفوس ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

* قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

قال الطبري: إذا مر بهم طير فيشتهونه، قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم، فيردون عليهم، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ﴾ فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ [يونس: ١٢].

قال الألوسي: وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة، واللائق بحال الكامل؛ التضرع إلى مولاه في السراء والضراء، فإن ذلك أرجى للإجابة، ففي الحديث: «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

* قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢].

قال في بدائع الفوائد: ذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد، لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، فإذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هنا هو ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعاً لتوهم أن تكون ريحاً عاصفة.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣].

أعجل الناس عقوبة الباغي الظالم، فلسرعة العقوبة بالباغي على بغيه، فكأنما بغى على نفسه.

* قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

مناسبتها لما قبلها: لما دعا إلى دار السلام كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وإن يصيبك الله بضر وشدة فلا دافع له إلا هو وحده، فإنه ـ تعالى ـ هو الضار النافع، المعطي المانع وهذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده المستحق للعبادة.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾.

وإن يردك بنعمة أو رخاء فلا يمنعه عنك مانع، وعبر بالفضل مكان الخير للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقونه بأعمالهم. يصيب بهذا الفضل والإحسان من شاء من العباد، وقطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه، والاعتماد إلا عليه.

* قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧].

قال ابن كثير: أول من يقضى له يوم القيامة أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ونالت ذلك لشرف رسولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بالرغم من أنها آخر الأمم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* استعمل لفظ «الأمة» في القرآن أربع استعمالات:

الأول: الجماعة من الناس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ﴾ [يونس: ٤٧].

الثاني: في البرهة من الزمن: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

الثالث: في الرجل المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

الرابع: في الشريعة والطريقة، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

* قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

قدم في سورة يونس الضر على النفع، وعكس ذلك في سورة الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والسر في ذلك ـ والله أعلم ـ أن ما في سورة الأعراف من تقديم النفع على الضر جاء في سياق الكلام عن قيام الساعة، وهذا الموقف يرجو فيه

كل إنسان النفع، ويخشى الضر، ويتمنى فيه تعجيل الثواب والسلامة من العقاب، لذلك قدم النفع.

أما في سورة يونس فإنه جاء في سياق الرد على استعجال الكفار عذاب الله - تعالى - وما يتوعدهم به الرسول ﷺ من الضر، فتقديم الضر على النفع لأنه هو المطلوب لمجازاة الكفار، وهو ما يحقق رغبتهم المبنية على الاستهزاء والسخرية.

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾.

أي: من الشك والنفاق، والخلاف، والشقاق.

﴿وَهُدًى﴾ أي: ورشداً لمن اتبعه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمة.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بالإيمان.

قال ابن عاشور: وقد عبر عنه بأربع صفات هي: أصول كماله وخصائصه، وهي: أنه موعظة، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه هدى، وأنه رحمة للمؤمنين.

قال الحسن: من لم يردعه القرآن والموت ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع.

* قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٨].

قال ابن عباس: فضل الله: الإسلام. ورحمته: القرآن.

فالفرح بالله ورسوله، وبالإيمان والسنة، وبالعلم والقرآن من أعلى المقامات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦] فالفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له،

وإيثاره على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

مناسبتها لما قبلها: بين ـ تعالى ـ أن من فضله على الناس تبين الحرام من الحلال على ألسنة الرسل، لئلا يفترون عليه الكذب بتحريم ما أحل أو عكسه، كما فعل المشركون.

* قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣].

قال ابن تيمية: وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله ـ تعالى ـ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله ـ عز وجل ـ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: لهؤلاء الأولياء ما يسرهم في الدارين.

أما البشارة في الدنيا، فهي الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الإخلاق، وحيث تبشرهم الملائكة عند الاحتضار برضوان الله ورحمته.

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله ـ تعالى ـ والنعيم المقيم.

وفي الآخرة تمام البشرى بجنات النعيم والفوز العظيم، والنجاة من العذاب الأليم.

* قال تعالى: ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴿٦٨﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿٦٩﴾﴾ [يونس: ٦٩].

لفظ ﴿لا يفلحون ﴿٦٩﴾﴾ وردت في القرآن مرتين، في هذه السورة وفي سورة النحل، وكلا الموضعين في الذين يفترون على الله الكذب.

* لما ذكر - تعالى - الدلائل على وحدانيته، ودفع الشبه، وذكر ما جرى بين رسول ﷺ وكفار مكة، ذكر هنا بعض قصص الأنبياء، تسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم، فيهون عليه ما يلقاه من الشدائد والمكاره.

وقد ذكر - تعالى - هنا ثلاث قصص: قصة نوح - عليه السلام - مع قومه، وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - مع الطاغية فرعون، وقصة يونس - عليه السلام - مع قومه، وفي كل قصة عبرة لمن اعتبر، وذكرى لمن تدبر.

قال - تعالى - عن موسى - عليه السلام -:

﴿فما ءامن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإيهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

والحكمة - والله أعلم - يكون ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، أن الذرية والشباب أقبل للحق، وأسرع له انقياداً، بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم - بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق من غيرهم.

وفي قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾.

أي: متبعاً لموسى بسبب ما فعل، ليعلم أن الآيات ليست سبباً للهداية إلا لمن أراد ذلك منه.

* قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يونس: ١٠٥].

إقامــة الوجــه للدين كناية عن توجيهه بالكلية إلــى عبادته ـ تعالى ـ، والإعراض عما سواه، فإن من أراد أن ينظر إلى شيءٍ نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شــمالاً، إذ لو التفت بطلت المقابلة، فلذا كنى به عن صــرف العمل بالكلية إلى الدين، فالمراد بالوجه الذات، أي: اصرف ذاتك وكليتك للدين، فاللام للصلة.

سورة هود (١١)

سورة هود سورة مكية تقرر قواعد وأصول التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء، وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه أبي طالب، وزوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ، فكانت الآيات تتنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء، ليتأسى بهم في الصبر والثبات.

في الحديث أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: يا رسول الله قد شبت، قال: **«شيبتني هود، وأخواتها»** [رواه الطبراني].

وعن ابن عباس قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله قد شبت! قال ﷺ: **«شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»** [رواه الترمذي].

والجامع بين هذه السورة والحديث: هو كونها تتحدث عن اليوم الآخر وأهواله، والله ـ عز وجل ـ ذكر ذلك صراحة في كتابه العظيم: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل: ١٧] ولا يعني هذا أن النبي ﷺ كان كثير الشيب، وإنما مرد ذلك إلى العرف، فقد مات ولا يحصى من الشيب فيه أكثر من عشرين شعرة.

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم، الذي أحكمت آياته، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض؛ لأنه تنزيل الحكيم العليم، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

قال ابن كثير: ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس ـ على الخلاف ـ، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضيه كانت ووقعت طبق ما أخبر، سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر.

* ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أربع آيات، ذكر الله ـ تعالى ـ فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا، وجزاء في الآخرة. وهي:

الأولى: في سورة هود: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣﴾.

والثانية: في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾.

والثالثة: في سورة النحل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾.

والرابعة: في سورة الزمر: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾.

* قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: ٦].

أي: ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفل الله برزقه وقوته تفضلاً منه ـ تعالى ـ وكرماً، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق حتى إن ما يتناوله العبد من الحرام؛ هو داخل في هذا الرزق!

فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة ويرزقون رزقاً حسناً، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة ولا يكون خبيثاً، والتقي لا يُحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يُحمى من فضول الدنيا رحمة به؛ فإن توسيع الرزق قد يكون مضرة على صاحبه، وتقديره يكون رحمة لصاحبه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

فضلاً لا وجوباً، قيل لأبي أسيد: من أين تأكل؟ فقال: سبحان الله والله أكبر! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد؟

ـ قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: لا بد لكل مخلوق من الرزق.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه.

ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: المستقر أرحام الأمهات، والمستودع المكان الذي تموت فيه.

﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

أي: كل من الأرزاق، والأقدار، والأعمار، مسطر في اللوح المحفوظ، المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض، الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه ونفذت فيها مشيئته ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها وصفاتها.

* قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: خلقهن لحكمة بالغة، ليختبركم فيظهر المحسن من المسيء، ويجازيكم حسب أعمالكم.

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، قيل يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة.

❁ ثم يخبر ـ تعالى ـ عن طبيعة الإنسان، وهو خالقه، وعالم بأحواله وطرائقه، قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾.

أي: إذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من الصحة والأمن، والرزق والأولاد، وغيرها من النعم. ثم سلبنا تلك النعم منه فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للقنوط من رحمة الله، عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله نَسَّاءٌ له؛ شديد الكفر به، فلا يرجو ثواب الله ولا يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.

ولئن منحنا الإنسان نعمة من بعد مانزل به من الضر، وما أصابه من البلاء والفقر والمرض والشدة، وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق: أقل ما يوجد به الطعم.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: انقطع الفقر والضيق والمصائب وزالت الشدائد عني، ولن تصيبني بعد اليوم. وبطر بالنعمة وفرح بها واغتر بها، فمتعاظم على الناس بما أوتي متطاول عليهم بما أعطي.

والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى.

والفخر هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهي عنه.

ـ والآية ذم لمن يقنط عند الشدائد، ويبطر عند النعم، وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

* قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [هود: ١٣ ـ ١٥].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول ﷺ شيئان: إما الجهل، وإما فساد القصد، ذكر ما يزيل الجهل وهو الآيات الدالة على صدقه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ثم ذكر أهل فساد القصد بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾.

* ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢].

أنه جاء اسم الفاعل ضائق دون ضيق، لأن ضيق صدر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عارض غير ثابت.

* قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: ٢٧].

﴿أَرَاذِلُنَا﴾.

جمع أرذل، وهم سفلة الناس وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم جهلاً، منهم واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كما اعتقدوا، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: أول الرأي من غير نظر، ولا تدبير. والمعنى: اتبعك الأراذل من غير نظر ولا تثبت.

* قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨].

قال البغوي: جعل قومه يمرون به وهو في عمله، ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح، لقد صرت نجاراً بعد النبوة؟

* قال - تعالى - عن نوح - عليه السلام - وهو ينادي ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٢ - ٤٣].

إن سلوك طريق المؤمنين، ومجالستهم، والانحياز إليهم هو سبيل النجاة الحقة؛ لأنهم في كنف الله وعنايته، حتى وإن تقاذفتهم الفتن، وكانت أسبابهم يسيرة، كسفينة من خشب في أمواج كالجبال. كما أن سلوك طريق الكافرين والمنافقين والانحياز إليهم هو سبيل الهلاك، حتى وإن توفرت لهم الأسباب المادية المنيعة كالجبال في علوها وصلابتها.

* قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

قال مجاهد ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يوم الغرق، وتواضع هو لله فلم يغرق، وأرسيت عليه سفينة نوح.

وعلق القرطبي على خاتمة قصة نوح مع قومه - بقوله سبحانه: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤].

فقال - رحمه الله -: لما تواضع الجودي وخضع عز، ولما ارتفع غيره واستعلى ذل، وهذا سنة الله في خلقه؛ يرفع من تخشع، ويضع من ترفع.

قال القاضي عياض: حكي أن ابن المقفع أراد أن يعارض القرآن! فحاول ذلك وطلبه، وبدأ فيه؛ فمر بصبي يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى

ماءك﴾ [هود: ١٤٤] الآية، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل وقته.

* قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ١٤٥].

إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة على طلب نجاته، وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة، وحسن السؤال فقال: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: لا تخلف وعدك بإنجاء أهلي، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القرابة الصورية - الرّحم والنسبيّة - وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه - تعالى - بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ١٤٠].

* قال تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧].

طلب المغفرة ابتداء، ثم أعقبها بطلب الرحمة؛ لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله؛ كان أهلا للرحمة.

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين.

* قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وقال - تعالى - في آية الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠].

ففي آية الأنفال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية هود: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ من دون حذف، ذلك أن آية الأنفال خطاب للمؤمنين، وأن آية هود خطاب للكافرين، وهم قوم هود، ومن المعلوم أن تولي المؤمنين أقل من تولي الكافرين، فلما كان تولي المؤمنين أقل حذف من الحدث للدلالة على قلة توليهم، بخلاف تولي الكافرين، فإنه عام شامل، فزاد في الفعل للدلالة على زيادة توليهم، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: فإنه نهى المؤمنين عن التولي مهما كان قليلاً.

* قال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود: ٥٦].

تخصيص الناصية بالأخذ دون سائر الجسد في قول هود لقومه. قال ابن جرير في ذلك: لأن العرب كانت تستعمل ذلك فيمن وصفته بالذلة والخضوع؛ فتقول: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي: هو له مطيع يصرفه كيف شاء، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه، جزوا ناصيته؛ ليعتدوا بذلك عليه فخراً عند المفاخرة.

* وحينما أمر صالح ـ عليه السلام ـ قومه بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له، فكان الجواب منهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: هذا الجواب شهادة من ثمود لنبيهم صالح وأنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه. ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت الظن فيك، وصرت في حاله لا يرجى منك خير.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

ومن أسماء الله الحسنى التي وردت في سورة هود: القوي، وقد ورد في القرآن تسع مرات، جاء في أكثرها مقروناً بالعزيز، وورد مرتين مقترناً بشديد العقاب.

* قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

قال في أضواء البيان: ذكر ـ تعالى ـ في هذه الآية الكريمة أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل، أو وسطه، أو أوله، ولكن بيَّن في (القمر) أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٤]، ولم يبين هنا أنه أمر أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في (الحجر) بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ٦٥].

* قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١].

قال الألوسي: والحكمة من نهيهم عن الالتفات ليجدوا في السير، فإن الملتفت للوراء لا يخلو من أدنى وقفة، أو لأجل أن لا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فترق قلوبهم لهم.

* قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي، ولما كان هذا فيه نوع تزكية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

* قال شعيب لقومه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود: ٨٨].

فلهذه الأجوبة الثلاثة ـ على هذا النسق ـ شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره، أحد حقوق ثلاثة: أهمها وأعلاها حق الله ـ تعالى ـ، وثانيها: حق النفس، وثالثها: حق الناس.

* قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠].

التائب من الذنب كما يُسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه، فإن الله ـ تعالى ـ يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لايعود. فإن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

قال ابن كثير: ذكر ههنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف: رجفة، وفي الشعراء: عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم ـ يوم عذابهم ـ هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

قال ابن القيم: أخبر الله ـ تعالى ـ أن عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية في حقه، فإنه إذا سمع ذلك قال: لم يزل في الدهر الخير والشر، والنعيم والبؤس، والسعادة والشقاوة، وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولا تميلوا.

والركون هو المحبة، والميل بالقلب.

وقال أبو عالية: لا ترضوا بأعمالهم.

وقال السدي: لا تداهنوا الظلمة.

وإذا كان الوعيد في الركون إلى الظلمة فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

قال القرطبي: دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ جزاء الأشقياء في الآخرة، فقال:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: فأما الأشقياء الذين سبقت بهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم، لهم من شدة كربهم.

﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النفس بشدة.

﴿وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ وهو رد النفس بشدة.

وقد شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير.

قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق.

قال ابن عاشور: وخص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التنويه بهم، وذلك أخوف لهم من الألم.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: لابثين ماكثين في جهنم أبداً دائم دوام السموات والأرض.

والمعنى: خالدين فيها أبداً.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

الاستثناء في أهل التوحيد؛ لأن لفظه ﴿شَقُواْ﴾ تعم الكفار والمذنبين، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة،

ويقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: يفعل ما يريد، يرحم ويعذب كما يشاء ويختار، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

* قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

لم يرد لفظ السعادة في القرآن إلا في هذه الآية، فإن السعادة الأبدية في جنات النعيم.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

ولم يقل: صالحون؛ لأن الصلاح الشخصي المنزوي بعيداً لا يأسى لضعف الإيمان، ولا يبالي بهزيمة الخير، والأصل أن يكون صالحاً مصلحاً وراشداً مرشداً.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: ١٢٣].

والسورة بدأت بالدعوة إلى التوحيد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ﴾ [هود: ٢]، وانتهت به ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣].

سورة يوسف (١٢)

سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - وما لاقاه من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق.

والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد. وفيها آيات وعبّر منوعة لكل من يسأل ويريد الهدى والرشاد، لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن منة إلى منة، ومن ذلة ورق إلى عزّ ومُلك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وإدراك غايات، ومن حزن وترح إلى سرور وفرح، ومن رخاء إلى جدب، ومن جدب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه هذه القصة العظيمة فتبارك من قصها ووضحها وبينها.

قصة يوسف: قصة عجيبة جرت فيها أحداث طوال وأمور ذات بال، وقعت لنبي ابن نبي، ابن نبي ابن نبي، سلالة أنبياء.

قصة تبدأ مع طفولته وتنتهي بنهاية أجله، فقد عاش معاناة الطفولة بفقد الأبوين، وفراق الأهل والأصحاب وتبعتها مرحلة الحياة المرفهة في القصر، ثم دخول السجن سنين عدداً، ثم أخرجه الله ليتبوأ مكان الوزارة، وتمت له النعمة برؤية أبويه بعد طول فراق. وقد ذكر الله - عز وجل - اسم يوسف - عليه السلام - في القرآن ستاً وعشرين مرة، منها أربعاً وعشرين في سورة يوسف.

منها ما ذكره الله - عز وجل - في سورة غافر أن يوسف - عليه السلام - نبي مرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

والسورة الكريمة أسلوب فذ فريد، في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها، وفي قصصها الممتع اللطيف، تسري مع النفس سريان الدم في العروق، وتجري ـ برقتها وسلاستها ـ في القلب جريان الروح في الجسد، فهي وإن كانت من السور المكية، التي تحمل ـ في الغالب ـ طابع الإنذار والتهديد، إلا أنه اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طرية ندية، وفي أسلوب ممتع لطيف، سلس رقيق، يحمل جو الأنس والرحمة، والرأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة، وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

قال ابن الجوزي: لما سجنت في واسط مكثت سنة اختم في كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف حزناً على ولدي يوسف.

وفي السورة تجلت مراتب الصبر التي نالها يوسف ـ عليه السلام ـ. **فصبر الصبر الاضطراري**: وهو صبره على أذية إخوته، وما ترتب عليها من بعده عن أبويه، وصبره في السجن بضع سنين.

ومن الصبر الاختياري: صبره عن مراودته امرأة العزيز مع وجود الدواعي القوية من جمالها، وعلو منصبها، وكونها هي التي راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب، وهو في ريعان الشباب، وهو في بلد غريب لا يُعرف فيها.

وكما أنه ـ عليه السلام ـ كمل مراتب الصبر، فقد كمل مراتب العدل والإحسان للرعية حين تولى خزائن البلاد المصرية، وكمل مراتب العفو والكرم حين عفى عن إخوته.

نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة هود، في تلك المدة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ، حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخص بعد أن فقد ـ عليه الصلاة

والسلام ـ نصيرته: زوجه الحنون العاقلة الراشدة أم المؤمنين خديجة، وعمه أبا طالب الذي كان له خير نصير، وخير معين، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عرف ذلك العام بـ عام الحزن.

في تلك الحقبة العصيبة من حياة الرسول الكريم، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون الوحشة والغربة، كان ـ سبحانه ـ ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسلية له، وتخفيفاً لآلامه، بذكر قصص المرسلين، وكأن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه ﷺ: لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك، وإيذائهم لك، فإن بعد الشدة فرجاً، وإن بعد الضيق مخرجاً، انظر إلى أخيك يوسف وتمعن ما حدث له من صنوف البلايا والمحن، وألوان الشدائد والنكبات، وما ناله من ضروب المحن: محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة رميه في الجب، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش؛ انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة، وصبر على الضر والبلاء، نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزاً في أرض مصر، وملكه الله خزائنها، فكان السيد المطاع، والعزيز المكرم؛ وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطد النفس على تحمل البلاء، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين.

هكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه، وجاءت تحمل البشر والأنس، والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، وفي السورة دروس وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة.

هذا هو جو السورة، وهذه إيحاءاتها ورموزها؛ تبشر بقرب النصر، لمن تمسك بالصبر، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين، والدعاة المخلصين، فهي سلوى للقلب، وبلسم للجروح، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة، بقصد العظة والاعتبار ولكن بإيجاز دون توسع، لاستكمال جميع حلقات القصة، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل، وأما سورة يوسف فقد ذكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن في المجمل والمفصل، وفي حالتي الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلي الوهاب.

قال القرطبي: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد، في وجوه مختلفة، وبألفاظ متباينة، على درجات البلاغة والبيان، وذكر قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر، ولا على معارضة غير المكرر، والإعجاز واضح لمن تأمل، وصدق الله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ..﴾ [يوسف: ١١١].

وسورة يوسف كاملة ليس فيها ذكر الجنة ولا النار.

* قال تعالى: ﴿الر﴾.

إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾.

أي: تلك الآيات التي أنزلت إليك ـ يا محمد ـ هي آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشتبه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، مبين والله بركته وهداه ورشده.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾.

أي: أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربيّاً مؤلفاً من هذه الحروف العربية؛ لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التي

تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل الله أشرف الكتب بأشرف اللغات، وعلى أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان فكمل من كل الوجوه.

* قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

أي: نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان، وأجمل عبارة.

وقيل المراد منه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ خاصة، سمّاها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا، من سير الملوك والمماليك، والعلماء ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد.

وقيل: لأنه ليس في القرآن قصة تتضمن من العبر والحكم والنكت ما تتضمن هذه القصة.

وقيل: لامتداد الأوقات بين مبتداها ومنتهاها.

وقيل: لحسن محاورة يوسف وإخوته، وصبره على أذاهم، وإغضائه عن ذكر ما تعاطوه عند اللقاء، وكرمه في العفو.

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والإنس والجن، والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء ومكرهن وحيلهن، وفيها أيضاً ذكر التوحيد والفقه والسير، وتعبير الرؤيا والسياسة، والمعاشرة وتدبير المعاش.

وفيها من أصول تعبير الرؤى ومقاصدها كما في رؤيا يوسف، ورؤيا أصحاب السجن، ورؤيا الملك وأنها تقع من المؤمن والكافر.

وقيل: فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

وقيل: ﴿أَحْسَنَ﴾ بمعنى أعجب.

وقيل سورة يوسف أحسن القصص لاشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وحابس ومحبوس، وخصب وجدب، وحزن وفرح، وغنى وفقر، ومنام ويقظة.

قال ابن تيمية: في قصة يوسف أنواع من العبرة للمظلوم، والمحسود والمبتلى بدواعي الفواحش والذنوب.

* قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝﴾ [يوسف: ٤].

في هذه الآيات أسلوب رائع من أساليب التعامل بين الأب وابنه، فيعقوب ـ عليه السلام ـ يربي أبنائه على الرجوع إليه كلما حدث لهم ما يثير انتباههم، حتى يوجههم التوجيه المناسب، فيوسف ـ عليه السلام ـ يرى الرؤيا فيبادر بقصها على أبيه ولا يتردد، وهذا يشير إلى طبيعة العلاقة الحميمة بينهما.

* فكان جواب والده نصيحة وتوجيه، عن خبرة ودراية، ومحبة وشفقة:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝﴾ [يوسف: ٥].

لما قص عليه ابنه الصغير رؤياه، أولاها الأب النبي ـ وحسبك بالنبوة شغلاً ـ ما تستحقه من الاهتمام، فلا هو أهملها كما يفعل الكثيرون، ولا هو بالغ في الاهتمام بها والتحذير من عواقبها، وكثير من الناس يظن أن رؤيا الأطفال لا أهمية لها ولا يُعبأ بها، والواقع أنها قد تكون أصدق من رؤى الكبار، لأنهم ما زالوا على الفطرة ولم يتعودوا الكذب، وفي الحديث الصحيح: **«أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»**.

وهنا نلحظ أمرين: أن النهي جاء معللاً وأن التعليل تعليل حكيم، مع أنه يخاطب غلاماً صغيراً، وهذا من حسن تربية يعقوب ـ عليه السلام ـ.

وفيما بعد علم يعقوب ـ عليه السلام ـ من هذه الرؤيا أن ان يوسف لن يموت مبكراً، وسوف يكبر ويبلغ مبلغاً عظيماً.

ـ وفي قوله: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف:٥].

يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [يوسف: ٦].

إن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه. كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

* ثم من هنا تبدأ قصة يوسف مع أخوته. وهي بداية رحلة طويلة شاقة، من المعاناة والابتلاء، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ٧].

آيات لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال؛ فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] من فوائد هذه القصة أنه يتعين على الإنسان أن يعدل بين أولاده. فإن ذلك أقرب إلى صلاح الأبناء واجتماعهم، واتفاقهم فيما بينهم، وبرهم بأبيهم، وقد كان السلف يسوون بين أبناءهم حتى في القبلة.

وفي الحديث أنه كان مع رسول الله ﷺ رجل، فجاء ابن له فقبله وأجلسه على فخذه، ثم جاءت بنت له فأجلسها إلى جنبه، قال ﷺ: «**فهلا عدلت بينهما**» [السلسلة الصحيحة].

* قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾ [يوسف: ١٣].

إن الإنسان إذا ظن سوءاً بإنسان، فلا يصلح أن يلقنه حجة لأنه يستخدمها عليه، ولذلك يعقوب لما قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ هو لقن أبناءه حجة استعملوها بعد ذلك.

* وعندما رضي الأب بعد إلحاح بخروج يوسف وقبل بذلك، وحرَّصهم عليه.. انطلق الصبي معهم، فحانت الفرصة وتشاوروا في أمره والقضاء عليه، فمنهم من قال نقتله، ومن هم من أخذته الرأفة، فقال نلقيه في الجب يلتقطه من عبر على الطريق.. ثم كان منهم ما كان وغُيِّب الغلام في ظلمات الجب..

وهو في تلك المصيبة العظيمة، والوحشة.. يوحي الله - عز وجل - إلى وليه ليسري عنه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾ [يوسف: ١٥] وهذا من لطف اللطيف بأوليائه وأحبابه.

ثم لما جرى منهم ما جرى ليوسف وإلقاءه في الجب كان من إخوته:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦)﴾ [يوسف: ١٦].

هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

أي: جاؤوا على ثوب يوسف بدم كاذب، زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب «كاذب».

وصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه.

قال ابن عباس: ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص، فلما جاؤوا يعقوب قال: كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص. وروي أنه قال: ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه. وذلك أنهم لطخوا القميص بالدم ولم

يشتاقوه فلم يصدقهم أبوهم بذلك.

ـ قيل: كان في قميص يوسف ثلاث آيات: حيث بدأ حزن يعقوب مع قميص الكاذب: ﴿وجاءو على قميصه بدمٍ كذبٍ﴾ [يوسف: ١٨].

وانتهى حزنه بقميص الشفاء: ﴿ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٣].

وبينهما قميص البراءة: ﴿إن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ...﴾ [يوسف: ٢٦].

* قال تعالى: ﴿وقال ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

ولا يزال لطف الله بعبده، فبعد أن حجب الشيطان في قلوب إخوته معاني الأخوة، قذف الله في قلب عزيز مصر معاني الأبوة.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

والله غالب على أمره حيث أراد يعقوب أن لا يكيده إخوته فكادوا.

ثم أراد إخوة يوسف قتله، فلم يقدّر لهم.

ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة، فيندرس أمره، فعلا أمره.

ثم باعوه ليكون مملوكاً فغلب أمره حتى ملك، وأرادوا أن يعطفوا أباهم فأباهم.

ثم أرادوا أن يغروا يعقوب بالبكاء والدم الذي ألقوه على القميص فلم يخف عليه.

ثم أرادوا أن يكونوا من بعده قوماً صالحين، فنسوا ذنبهم إلى أن أقروا به بعد سنين فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم أرادوا أن يمحوا محبته من قلب أبيه، فازدادت.

ثم أرادت امرأة العزيز أن تلقي عليه التهمة بقوله: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥]، فغلب أمره، حتى شهد شاهد من أهلها.

وأراد يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقي، فنسي الساقي حتى لبث في السجن بضع سنين.

* قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾ [يوسف: ٢٢].

في الآية تنبيه على أنه كان محسناً في عمله متقياً في عنفوان أمره. ودل هذا على أن يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

ويرد كثيراً في سورة يوسف صفه الإحسان، فكان يوسف ـ عليه السلام ـ محسناً، مع ربه، ومع والديه، ومع إخوته، ومع الناس. ومن أحسن إلى الناس بأعماله أحسن الله إليه برحمته.

* لما ذكر ـ تعالى ـ ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر، ذكر هنا ما تعرض له ـ عليه السلام ـ من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز، وثباته أمام تلك الفتنة العارمة، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى آثر دخول السجن على عمل الفاحشة، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته. قال تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣)﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

هذه هي المحنة الثالثة، بعد محنة الجب والاسترقاق وهي أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة.

والمراودة: الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول.

والمعنى: طلبت امرأة العزيز التي كان في بيتها منه أن يواقعها، ودعته برفق ولين إلى فعل الفاحشة، وتوسلت إليه بكل وسيلة فهو غلامها وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

ولم يقل في الآية: امرأة العزيز، أو زليخا؛ بل قال ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ قصداً إلى زيادة التقرير، مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها.

* قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝﴾ [يوسف: ٢٣].

مع أن هذه الآيات تتعلق بقصة حب أعمى وشهوة جامحة إلا أنك تجد العفة أثناء التصوير الدقيق، والأسلوب البديع لم يحترق بتأجج النزوات وإثارة الشهوات من أجل الحبكة والإثارة الأدبية. بل تبرز معاني العفة وإظهارها. وبيان معانيها.

وفي آيات القرآن الكثير من الكلمات التي تؤدي المعنى، ولا تفضي إلى ما يجرح الشعور ويبرز الفعل بصورة أو بأخرى، ومن ذلك:

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٢١].

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

* قال ـ تعالى ـ عن يوسف وامرأة العزيز لما جرى بينهما من الحديث:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]. فيه مشروعية الفرار من الفتن مهما بلغ الإنسان من العلم والدين والعقل. كلاهما يجري، أحدهما يفر من المعصية، والآخر يلاحقها، الفعل واحد ويتفاوت الجزاء بالنية.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

والهم بالشيء أشد من الإرادة له.

قال الرازي: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف ـ عليه السلام ـ هذه الفضيحة، إن كانوا من أتباع دين الله ـ تعالى ـ فليقبلوا شهادة الله ـ تعالى ـ على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ـ يعنى قوله ـ تعالى ـ على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال ابن تيمية: يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يذكر الله ـ تعالى ـ عنه في القرآن أنه فعل مع المرأة ما يتوب منه، أو يستغفر منه أصلاً. وقد اتفق الناس على أنه لم تقع منه الفاحشة، ولكن بعض الناس يذكر أنه وقع منه بعض مقدماتها.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: وما ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ، ولا مستند لهم فيه إلا النقل عن بعض أهل الكتاب، وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضهم منهم، كما قالوا في سليمان ما قالوا، وفي داود ما قالوا. فلو لم يكن معنا ما يرد نقلهم لم نصدقهم فيما لم نعلم صدقهم فيه، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه.

والقرآن قد أخبر عن يوسف من الاستعصام والتقوى والصبر في هذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيره، فلو كان يوسف قد أذنب لكان إما مصرّاً وإما تائباً. والإصرار ممتنع، فتعين أن يكون تائباً. والله لم يذكر عنه

توبة في هذا ولا اســتغفاراً كما ذكر عن غيره من الأنبياء؛ فدل ذلك على أن ما فعله يوســف كان من الحســنات المبرورة، والمساعي المشكورة، كما أخبــر الله عنه بقولــه تعالــى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

و«المقصود» أن يوسف لم يفعل ذنباً ذكره الله عنه، وهو ـ سبحانه ـ لا يذكر عن أحد من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة؛ فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هذا؛ بل هم هماً تركه لله؛ فأثيب عليه حسنة في موضعه.

ومــن الأدلة علي عدم وقوع الهم منه، قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ [يوسف:٢٤].

وقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥].

* قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

الله ـ تعالى ـ يعين أولياءه في اللحظات العصبية بأمور تثبتهم، فهو كاد، لكن برهان من الله أراه إياه جعله ينصرف، ومهما كان المراد بهذا البرهان، فالإنسان لولا معونة الله وتوفيق الله وتسديده لا يثبت على الحق.

* قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

ولم يقل: سيدهما لوجهين:

الأول: أن يوســف ـ عليه الســلام ـ لم يدخل في رق قط، وإنما اشــتري ظلماً.

الثاني: لأن المســلم لا يُملك وهو الســيد، ولا تكون السيادة للكافر على المسلم.

ومن أســباب عدم ذكر (زوجها) بدل (ســيدها): أنها بفعلها لا تستحق وصف الزوجية.

* ولما شاع الخير وانتشر في أرجاء البلد ذكر الله ـ عز وجل ـ ما كان، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٠].

والتظاهر بالنصح واستنكار المنكر من أجل إظهار الفضل على الآخرين، أو الشماتة بهم، أو التنقص لهم ونشر أخبارهم، أمر شائع في زماننا هذا بين الرجل والنساء على حد سواء، وهو من الغيبة المحرمة التي تدل على ضعف التقوى، وقد سماه الله ـ تعالى ـ في هذه الآيات مكر.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ المرأة تمكر بالمرأة.

وتكيد بالرجل: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

* المرأة تمكر بالمرأة ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، وتكيد بالرجل ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

والمكر هو: الاحتيال والخديعة.

قال السيوطي: هو إيصال المكروه إلى الإنسان حين لا يشعر.

والكيد هو: إرادة مضرة الغير خفية. وهو: الخبث والمكر والاحتيال والاجتهاد.

والكيد: قد يكون في الخير أو في الشر.

ففي الخير: قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ذكر تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وفي الشر: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

قال السعدي: الحذر من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ماجرى بسبب توحدّها بيوسف، وحبها الشديد له؛ الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه: فسجن بسببها مدة طويلة.

قال ابن تيمية: وفي قول يوسف: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ٣٣]، عبرتان:

أحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه، ويصرفه إلى طاعته. وإلا فإذا لم يثبت القلب والا صبا إلى الآمرين بالذنوب، وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل، إذا ثبت على الإيمان والطاعة.

﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

من احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله ـ كما فعل يوسف ـ عليه السلام ـ وغيره من الأنبياء والصالحين ـ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً.

وبعد أن دعا يوسف ـ عليه السلام ـ ربه أن يصرف كيدهن عنه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [يوسف: ٣٤] حين دعاه.

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل حتى آيسها، وصرف الله عنه كيدها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾.

* ويوسف ـ عليه السلام ـ صبر في الجب والسجن صبر اضطرار، وصبر على موافقة امرأة العزيز والخوف من مقارفة الفاحشة صبر اختيار. فصبر الاضطرار لا يد له فيه، وصبر الاختيار هو ما رفعه وعظّم منزلته عند الله ـ عز وجل ـ.

قال ابن تيمية: فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذ أطاع الله، بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة، على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة، وزوجها في طاعتها، فاختار يوسف الذل والحبس، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية.

قد قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق، وإن أذاه بالحبس والكذب، فإنها كذبت عليه؛ فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك.

* ثم إن امرأة العزيز بلغها حديث النساء عنها فدعتهن، وقالت أخرج عليهن ليرين جماله فيعذرنها، قال تعالى:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢].

بالغت امرأة العزيز في التوكيد عندما هددته بالسجن؛ لأنها تملك أن تسجنه، فأكدت السجن بالنون الثقيلة: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ قيل: وذلك لتحققه، وما بعده بالنون الخفيفة: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ لأنه غير متحقق.

والمتصفح لسير العظماء على مر الزمان يلحظ بوضوح أن السجن لم يزدهم إلا رفعة، فالذلة والصغار، إنما تلحق من تلطخت سيرتهم بالمعاصي والظلم ولو لم يلحقهم العقاب لأن مجرد انقيادهم للشيطان غاية في الذل والصغار، ولهذا قال الحسن البصري: إنهم وإن هملجت بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال، ووطئت أعقابهم الرجال، فإن ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

* قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ٣٥].

ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه؛ فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

قال شيخ الإسلام: فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان، كل منهما مستقل بالتحريم. فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك، ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها، ويسعى في عقوبتها بالرجم، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها، وهو عنده أعظم من أخذ ماله.

* ولما دخل يوسف السجن، أحسن إلى من فيه بالدعوة إلى التوحيد والإحسان، فدعا ذلك الإحسان والفضل إلى أن يسألونه عن تعبير رؤيا وقعت لاثنين منهما. قال تعالى:

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: أخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤول إليه أمرهما، إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا، فأحسن إلينا كما أحسنت إلى غيرنا، وأخبراه عن رؤياهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا، وكان يوسف ـ عليه السلام ـ قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٣٦].

لجأ أهل السجن إلى يوسف لتعبير رؤياهم، وهم لا يعرفون أنه من أهل العلم، ولا يعلمون أنه معبر للرؤى من قبل، فهم من الكفار والملك كافر والبلدة كافرة؛ لأن أهل الصلاح يظهر صلاحهم على وجوههم، والناس

يحبونهم وينجذبون إليهم، فإن أهل السجن قالوا بعده.

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

حالتك وسيرتك وهيئتك وأفعالك تدل على أنك من المحسنين والصالحين.

قال في فتح المجيد: لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه، وعبادة الصنم، وتأمل قول الله ـ تعالى ـ عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ [يوسف: ٣٨].

فقوله: ﴿ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

* فأجابهما يوسف ـ عليه السلام ـ إلى طلبهما:

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ﴾.

أي: لا يأتيكما شيء من الطعام، إلا أخبرتكما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة المغيبات توطئة لدعائهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما. أراد أن يدعوهما إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه، كما هي طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير.

ثم دعاهما إلى التوحيد وعبادة الله وحده بقوله: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩].

* ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ... ﴾ [يوسف: ٣٧].

قال النسفي: المراد به ترك الابتداء، لا أنه كان فيها ثم تركها.

* ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

أي: قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً. اذكرني عند سيدك وأخبره عن أمري وشأني، لعله يخرجني مما أنا فيه.

أنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله ـ تعالى ـ، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف، الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه.

قوله: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ [يوسف: ٤١].

قال ابن كثير: ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك، لهذا أبهمه.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝﴾.

أي: مكث يوسف في السجن سبع سنين. قال المفسرون: وإنما لبث في السجن بضع سنين، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق ـ جل وعلا ـ.

قال وهب ابن منبه: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾.

أي: ولما رجع الساقي إلى الملك وعرض عليه ما عبَّر به يوسف رؤياه واستحسن ذلك. قال لمن عنده: احضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسي ولأبصره، فقد رغب في رؤيته ومعرفة حاله بعد أن علم من فضله وعلمه من وصف الرسول له ومن تعبيره لرؤياه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

أي: فلما جاء رسول الملك وأخبر يوسف بالأمر واستدعاه إلى حضرة الملك، وأمره بالخروج من السجن. امتنع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام، وقال يوسف للرسول: ارجع إلى سيدك الملك.

﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أي: سله عن قصة وشأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن هل يعلم أمرهن؟ وهل يدري لماذا حبست ودخلت السجن؟ وأني ظلمت بسببهن؟ أبى ـ عليه السلام ـ أن يخرج من السجن حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة والخيانة، ويصير إليه بعد زوال الشك عن أمره، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حبس بلا جرم.

وقوله ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ حيث سكت عن امرأة العزيز رعاية لذمام الملك العزيز، أو خوفاً من كيدها وعظيم شرها، وذكر السؤال عن تقطيع الأيدي، ولم يذكر مراودتهن له تنزهاً منه عن نسبة ذلك إليّهن، ولذلك لم ينسب المراودة إلى امرأة العزيز إلا بعد أن رمته بدائها وانسلت. واكتفى هنا بالإشارة بقوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

* قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: ٤٦].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه، وأن لا يجعل تعليمه لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف ـ عليه السلام ـ قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتيا عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه لتركه ذكره، بل أجابة عن سؤاله جواباً تاما من كل وجه.

* ولما علم يوسف من نفسه الأمانة والقوة:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥].

لا يلزم أن يكون كل من ذكر حقاً عن نفسه، وإن كان فيه مدح لها ـ مزكيا لها ـ فقد يذكر هذا الحق عن النفس لمصلحة الآخرين فيكون من

جملة قول الحق السائغ وإن انطوى على تزكية غير مرادة، فهنا توسل بها إلى إحقاق حق مطلوب، وهذا كثير في السنة، ومن ذلك قول النبي ﷺ: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»** أراد بذلك الخير الحاض على الثبات.

* في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

قال القصاب: عدة فوائد، منها: إطلاق الكل وإرادة البعض، فيوسف لم يمكن له في جميع الأرض، بل مكن له في أرض مصر ونواحيها. ومنها: أن الطاعة تثمر الرزق في الدنيا، ويعطى المؤمن الأجر عليها، ولا ينقص ذلك من ثوابه في الاخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف: ٥٦].

فبعد سجنه الضيق، عوضه الله بالأرض الوسيعة ملكاً وحاكماً يتصرف في خزائنها.

* ثم بدأ ـ عز وجل ـ بذكر قصة يعقوب وأبنائه لما أتوا إلى يوسف وهو على خزائن مصر، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾.

أي: فلما عادوا إلى أبيهم، قالوا له ـ قبل أن يفتحوا متاعهم ـ يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخينا بنيامين، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس، وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾.

أي: أرسل معنا أخانا بنيامين لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا. ثم التزموا له بحفظه، فقالوا:

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

أي: نحفظه من أن يناله مكروه، أو أن يعرض له ما يكره.

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: قال لهم يعقوب: كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه، ثم خنتم العهد، فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه؟ فأنا لا أثق بكم ولا بحفظكم، وإنما أثق بحفظ الله.

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾.

أي: حفظ الله خير من حفظكم فهو يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليَّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

أي: هو أرحم من والديه وإخوته، فأرجو أن يُمنَّ عليَّ بحفظه ولا يجمع عليَّ مصيبتين.

قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال الله ـ تعالى ـ وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما.

❋ ولكثرة أبناء يعقوب وحسنهم وجمالهم، قال لهم ـ عليه السلام ـ:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾.

أي: وقال لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده: لا تدخلوا مصر من باب واحد.

قال المفسرون: خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين لكونهم أبناء رجل واحد، إذ كانوا أهل جمال وهيبة، وفي الحديث «**إن العين تُدخل الرجل القبر، والجمل القدر**» [رواه مالك في الموطا] فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم.

﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾.

أي: وهذا سبب؛ ولا أدفع عنكم بتدبيري شيئاً مما قضاه الله عليكم، فإن الحذر لا يدفع القدر، والمقدر لا بد أن يكون.

* ثم ذكر - تعالى - ما جرى عندما أتى أخوة يوسف إليه ومعهم أخوهم بنيامين، فقال:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف: ٧٦].

فكاد الله له أحسن كيد، وألطفه وأعدله، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره.

وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء.

وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودته حتى شهدن ببراءته وعفته.

وكاد له تكذيب امرأة العزيز لنفسها واعترافها بأنها هي التي راودته وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد بغياً وعدواناً.

- قال ابن تيمية عن نبينا محمد ﷺ: واختيار النبي ﷺ له ولأهله الاحتباس في شعب بني هاشم بضع سنين، لا يبايعون ولا يشارون؛ وصبيانه يتضاغون من الجوع، قد هجرهم وقلاهم قومهم، وغير قومهم. هذا أكمل من حال يوسف - عليه السلام -.

فإن هؤلاء كانوا يدعون الرسول إلى الشرك، وأن يقول على الله غير الحق، يقول: ما أرسلني ولا نهى عن الشرك. وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف؛ فإنهم قالوا: أنه ساحر، وأنه كاهن، وأنه مجنون، وأنه مفتر. وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف؛ لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد. فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى، وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة؛ فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف.

وكذلك الكذب على أولى العزم، مثل نوح وموسى، حيث يقال عن الواحد منهم: أنه مجنون، وأنه كذاب، يكذب على الله، وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس، فإن يوسف حبس وسكت عنه. والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة. وهذا معنى الحبس، فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن بل المراد منعه من التصرف المعتاد.

* قال أخوه يوسف في طلب ذهاب يوسف معهم: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٤].

ثم لما تغيرت الحاجة وزال التلطف: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

* قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦].

في هذه الآية بيان فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية، وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

* ثم ما كان من أمر يعقوب ـ عليه السلام ـ إلا أن:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها، اتهمهم بالتآمر على بنيامين لما سبق منهم في أمر يوسف.

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

أي: لا أجد سوى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، محتسباً أجري عند الله.

ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت، فقال:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾.

عسى أن يجمع الله شملي بهم، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً يوسف وبنيامين، وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: العالم بحالي واحتياجي إلى تفريجه ومنته، واضطراري إلى إحسانه، الحكيم في تدبيره وتصريفه الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

وتولى يعقوب ـ عليه السلام ـ وأعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم وبما أخبروه، واشتد به الأسف والأسى.

وقال يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف، أضاف الأسف وهو أشد الحزن، والحسرة إلى نفسه. وإنما تأسف دون أخيه وكبيرهم لتمادي أسفه على يوسف دون الآخرين، وفيه دليل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضاً عنده طرياً.

﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾.

أي: فقد بصره وعشي من شدة البكاء على ولديه من شدة الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، إذ أكثر الاستعبار ومحقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض كدر.

قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

قال القرطبي: واستمر حزن يعقوب على ابنه يوسف حتى سقط حاجباه على عينيه كما جاء عن بعض السلف. فكان يرفعهما بخرقة فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمن وكثرة الأحزان.

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

أي: مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتم ذلك في نفسه، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء، فقد ظهر منه ماكمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخوية؛ لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه، ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما، وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله، والحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان.

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٨٤] هذا لفظ الشكوى، فأين الصبر الذي مدح به يعقوب؟

أحدهما: أنه شكا إلى الله لا منه.

والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى يا رب ارحم أسفي على يوسف.

قال ابن الأنباري: الحزن ونفور النفوس من المكروه والبلاء لا عيب فيه، ولا مأثم إذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم، ولم يشتك من ربه، فلما كان قوله: ﴿ يَٰأَسَفَىٰ ﴾ شكوى إلى ربه، كان غير ملوم.

ثم قال له أولاده متعجبين من حاله. ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾.

أي: قال أولاد يعقوب، ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه في جميع أحوالك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: قال لهم يعقوب: لست أشكو غمي وحزني إليكم. وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي تنفع الشكوى إليه فقولوا ما شئتم، فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ـ قيل: البث أشد الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه ويظهره.

ـ قال ابن الجوزي: فليجعل العاقل شغله خدمة ربه، فما له على الحقيقة غيره، وليكن أنيسه وموضع شكواه: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦] فلا تلتفت أيها المؤمن إلا إليه، ولا تعول إلا عليه، وإياك أن تعقد خنصرك إلا على الذي نظمها.

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: أعلم من رحمته وإحسانه ما لا تعلمون أنتم، فأرجو أن يرحمني ويلطف بي، ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب، ويردهم عليَّ، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾.

أي: يثيب المحسنين أحسن الجزاء. وتأمل في شؤوم المعصية التي فعلوها بأخيهم. فأصبحوا يمدون أيديهم إليه ليتصدق عليهم.

* ثم قال أخوه يوسف: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف: ٨٨].

وقعوا في الذنب حتى آل بهم الأمر إلى طلب الصدقة، وفي الحديث: «إن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه».

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: ٨٩].

قيل: من تلطفه بهم قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ كالاعتذار عنهم، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه، أسهل من فعله على علم، وهم ولو ضربوا في طرق الاعتذار لم يلقوا عذراً كهذا.

* ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركت يوسف ـ عليه السلام ـ الرأفة والرقة ففاض دمعه، ولم يتمالك أن باح لهم بما كان يكتمه من أمره:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

أي: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه. أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه. وإنما قاله نصحاً لهم، وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لا تشفياً واستعلاءً.

﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

حال شبابكم وطيشكم؟ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم أو توبيخ لهم، إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم، فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف.

وهنا قاعدة قرآنية محكمة، وشواهدها لا تحصى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠] لكن تنبه لشرطيها الكبيرين التقوى والصبر.

* ثم قال لهم يوسف:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝﴾
أي: قال لهم يوسف كرماً وجوداً: لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة، بل أصفح وأعفو. ثم دعا لهم بالمغفرة، وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم. وهو ـ جل وعلا ـ المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة، أرحم بعباده من كل أحد، فسمح لهم يوسف سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، لأنه يجرحهم ويحزنهم. ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

قال ابن جزي: أسقط حق نفسه بقوله: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ثم دعا الله أن يغفر لهم حقه.

* ذُكِرَ أن يوسف لما عرف نفسه وإخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه بذلك لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝﴾
أي: خرجت من عريش مصر إلى الشام.

قال يعقوب لمن حضر من قرابته، إني لأشم رائحة يوسف. لولا أن تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف، وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي.

قيل: هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمان ليال.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: فوقع ما ظنه بهم، فقال حفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب، قديماً في إفراط محبتك ليوسف.

قال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾.

أي: فلما جاء المبشر بالخبر السار، وطرح البشير القميص على وجه يعقوب، فعاد على حاله الأولى بصيراً، وعادت إليه قوته بعد الضعف لما حدث له من السرور والانتعاش.

قال مجاهد: كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم، فقال: أُفرحه كما أحزنته.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

قال يعقوب ـ عليه السلام ـ لأبنائه: ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف، وأن الله سيرده عليَّ لتحقق الرؤيا.

قال المفسرون: ذكرهم بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف: ٨٦] روي أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر، قال: ما أصنع بالملك! على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة، فأقروا بذنبهم ونجوا بذلك.

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترافوا بخطئهم بقولهم: أنا مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف حيث فعلنا ما فعلنا.

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ﴾.

قال يعقوب ـ عليه السلام ـ، مجيباً لطلبتهم، ومسرعاً لإجابتهم، ووعدهم بالاستغفار.

قال المفسرون: أخر الاستغفار إلى السحر الفاضل ليكون أقرب إلى الإجابة، وقيل: أخره إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قدم الثناء على ربه، ومعنى الغفور: الساتر للذنوب الرحيم بالعباد، ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته.

* ثم تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، وفي تلك السنوات الماضية دليل على ابتلاء الله ـ عز وجل ـ لأنبيائه وأصفيائه بالشدة والرخاء، والسرور والحزن، واليسر والعسر، ليستخرج منهم عبوديته في الحالين، بالشكر عند الرخاء، والصبر عند الشدة والبلاء، فتتم عليهم بذلك النعماء.

والآيات تتحدث عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه، واجتماع الشمل بعد الفرقة، وحلول الأنس بعد الكدر.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

أي: فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضم إليه أبويه واعتنقهما واختصها بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام شيئاً عظيماً.

وقال لجميع أهله، مُرحباً: ادخلوا بلدة مصر آمنين من كل مكروه، وقد كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ولا يدخلونها إلا بجواز منهم، وإنما قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبركاً وتيمناً، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

أي: أجلسهما على سرير الملك ومجلس العزيز بجانبه. وسجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه، وكان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة.

ومن الإحسان إلى الوالدين وإكرامهما أنه عندما تصيب خيراً ابدأ بوالديك، فهم أحق الناس برد الجميل مثلما فعل يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ورفع أبويه على ٱلعرش﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿قالوا يـٰأبانا ٱستغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خـٰطـِٔين ۝ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو ٱلغفور ٱلرحيم ۝﴾ [يوسف: ٩٧ ـ ٩٨].

قال المهايمي: صرحوا بالذنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره، وصرح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربى بها الكل، وهذا من دقائق لطائف التنزيل ومحاسنها فيه.

﴿وقال يـٰأبت هـٰذا تأويل رءيـٰى من قبل﴾.

أي: قال يوسف: لما رأى هذه الحال ورأى سجودهم له: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وذلك حين رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت.

قيل بين رؤيا يوسف وتحققها أربعين سنة.

﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من ٱلسجن﴾.

أي: أنعم عليّ بإخراجي من السجن، و هذا من لطفه وحسن خطابه فلم يذكر قصة الجب مع كونه أشد بلاء من السجن، تكرماً منه لئلا يخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

أي: جـاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم ببادية فلسـطين، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر، وذكر إتيانهم في البادية من إحسان الله إليه، فلم يقل: جاء بكم الجوع والنصب، ولا قال «أحسـن بكم» بل قال: ﴿أَحْسَنَ بِيٓ﴾ جعل الإحسـان عائداً إليه، وقد ذكـر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ﴾.

أي: أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء، وذكر هذا القدر من أمر إخوته؛ لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشـدة كانت أحسن موقعاً، ومن تمام أدبه لم يقل: «نزغ الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين.

إن ربي لطيف التدبير، يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها، وقد يوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها.

وحقيقة اللطيف الذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق.

ولمـا تقلبت الأحوال بيوسـف ـ عليه الصلاة والسـلام ـ وتطورت به الأطوار، عرف أن هذه الأشـياء وغيرها لطف من لطف الله له، فاعترف بهـذه النعمة، فقـال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

وهـذا من أعظم نعم الله على العبد، أن يعرض أحواله التي تمر به على معاني أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى؛ فإن هذا له فائدتان:

الأولى: زيادة الإيمان.

الثانية: سـهولة تلقي المصائب المؤلمة، وهـذا يزداد حين يبلغ العبد منزلة الرضا عن الله، بحيث يوقن أن اختيار الله خير من اختياره لنفسه.

وإن من أسماء الله الحسنى التي تكرر ذكرها في كتاب الله ـ تعالى ـ، ولها أثرها البالغ في حياة العبد ـ لمن فقه معناها وعمل بمقتضاها ـ: اسم الله (اللطيف) الذي تمدح ـ سبحانه ـ به في مواضع من كتاب الله، منها: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: قرأت سورة يوسف ـ عليه السلام ـ، فتعجبت من مدحه على صبره وشرح قصته للناس ورفع قدره، فتأملت خبيئة الأمر فإذا هي مخالفته للهوى المكروه، فقلت: واعجباً لو وافق هواه من كان يكون؟ ولما خالفه لقد صار أمراً عظيماً تضرب الأمثال بصبره، ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة فيا له عزّاً وفخراً، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب.

* ولما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، وجمع شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته، وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقراً بنعمة الله، شاكراً لها، داعياً بالثبات على الإسلام.

ولما تم أمره على أن نعيم الدنيا لا يدوم، تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق، وسأل الله ـ تعالى ـ حسن العاقبة:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أعطيتني العز والجاه والسلطان، وذلك من نعمة الدنيا حيث إنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها، ووزيراً كبيراً للملك. علمتني من تأويل أحاديث الكتب المنزلة، وتأويل الرؤيا، وغير ذلك من نعمة العلم.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

أي: أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدارين، اقبضني إليك مسلماً وثبتني عليه حتى تتوفاني عليه، واجعل لحاقي بالصالحين.

ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت.

* وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾.

ذلك النبأ الذي أخبرناك عنه ـ يا محمد ـ من أمر يوسف وقصته، من الأخبار الغيبية التي لم تكن تعلمها قبل الوحي، وإنما نعلمك نحن بها عن طريق الوحي، على أبلغ وجه وأدق تصوير، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾.

أي: وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب، وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، وهم في حالة لا يطلع عليها إلا الله ـ تعالى ـ، فإنك ـ يا محمد ـ لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير.

* ثم يخبر ـ تعالى ـ عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض، قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝﴾ [يوسف: ١٠٥ ـ ١٠٦].

تحذير من الشرك الخفي الذي يدب إلى قلب الإنسان أخفى من دبيب النمل، إن الآية تتحدث عن المؤمنين، لكنها لا تبرئهم من قوع الشرك منهم. فالتوحيد أعظم ما يحمله المرء في قلبه، إذا به دخول الجنة برحمة الله.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [يوسف: ١١١].

والعبرة من الاعتبار، والاتعاظ والتذكر، وإذا تأملت الآية السابعة ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝﴾ [يوسف: ٧] والآية الأخيرة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ وما بينهما وما قبلهما من آيات وجدت بعضها يصدق بعضاً، ووجدت في ما بينهما الأكبر الذي يمكن أن يكون له عظيم الأثر في حياة الأمة إذا أخذت به كما أخذ به محمد ﷺ، وإذا تأثرت به كما تأثر السلف.

ونختم بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوى إيمان المؤمنين فيها، يصح الاتساء بالأنبياء كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* ثم ختمت السورة الكريمة بخاتمة سعيدة بعدما جرى ليوسف ـ عليه السلام ـ، وفيها تصبير لرسول الله ﷺ على أذى قريش، كأنه يقول: إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوة؛ عملوا بيوسف

مــا عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك، فأنت مع مخالفة قومك إياك في الدين أحرى أن تصبر على أذاهم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأولي العقول النيرة يعتبرون بها، حيث نقل من غاية الحب إلى غيابة الجب، ومن الحصير إلى السرير، فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة، ونهاية المكر وخامة وندامة.

سورة الرعد (١٣)

سورة الرعد من السورة المدنية، موضوعها التوحيد، ومسرح آياتها السموات والأرض، وما فيها من بدائع الخلق ودلائل القدرة.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته ـ تعالى ـ، وعجيب خلقه في السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع.

وسميت سورة الرعد لتلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سبباً للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب. والسحاب جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء، وجمع النقيضين من العجائب.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٣].

من دلائل قدرة الله في الأرض أنه مدها ليستقر عليها البشر، وجعل لها جبالاً وأنهاراً.

والفرق بين الجبال والأنهار في حفظ توازن الأرض: أن الجبال توازنها وهي ثابتة، والأنهار تحدث توازنها وهي جارية، وكل ذلك يحتاج إلى تفكير عميق لإدراك عظيم القدرة، والوصول من أثنائها إلى الوحدانية.

* قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦].

وقد أكد ـ جل وعلا ـ مقطع المغفرة بثلاث مؤكدات وهي: إنّ، واللام، وإطناب المبالغة ـ ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ـ إذا هو إطناب اعتراضي أفاد الإمعان في المغفرة رغم الظلم. وأكد مقطع العقوبة بمؤكدين هما: إنّ، واللام، ليدل على أنه إلى المغفرة أقرب، خصوصاً وقد قدم المغفرة على العقوبة، فهو ـ جل جلاله ـ أهل التقوى وأهل المغفرة.

* قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

يعقب بعضهم بعضاً، كلما ذهب بدل جاء آخر يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥].

ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع نفسه في عداد ما يسجد لله طوعاً بإيقاعه السجود، وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله ـ تعالى ـ.

* قال جعفر بن محمد: صلة الرحم تهون على المرء الحساب يوم القيامة، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

* قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

ثم زاد في الترغيب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾؛ لأن الإكثار من ترداد رسل الملك أعظم في الفخر، وأكثر في السرور والعز.

قال أبو السعود: وفي التقييد بالصلاح قطع للأطماع الفارغة، لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦].

قال الألوسي: سعة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييق رزق بعض المؤمنين ليس لإهانة لهم، وإنما كل من الأمرين صادر منه ـ تعالى ـ لحكم إلهية يعلمها ـ سبحانه ـ وربما وسع على الكافر إملاء واستدراجاً له، وضيق على المؤمن زيادة لأجره.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن تيمية: فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره.

وقال ابن القيم: هذا لا يتأتى بشيء سوى الله ـ تعالى ـ وذكره البتة، وأما ما عداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز، قضى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شيء سواه أتاه القلق والانزعاج والاضطراب من جهته كائناً من كان، ليعلم عباده وأولياءه أن المتعلق بغيره مقطوع، والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

قال ابن كثير: وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها ـ أفضل الصلاة والسلام ـ.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ [الرعد: ٣٦].

ومــن بلاغة الجدل القرآني أنه لم يأت بذلك من أول الكلام؛ بل أتى به متدرجــاً فيه، فقــال: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ لأنه لا ينازع في ذلك أحد من أهل الكتاب، ولا المشــركين، ثم جاء بعده ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ لإبطال إشــراك المشركين، وللتعريض بإبطال إلهية عيسى ـ عليه السلام ـ.

سورة إبراهيم (١٤)

سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لمآثر أب الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين، وقد ذكرت الآيات دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد.

وتناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة: الإيمان بالله، الإيمان بالرسالة، الإيمان بالبعث والجزاء. وقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل، وبينت وظيفة الرسول، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية، فالأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ، جاؤوا لتشييد صرح الإيمان، وتعريف الناس بالإله الحق الذي تعنوا له الوجوه، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فدعوتهم واحدة، وهدفهم واحد، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة عند الحاجة إليها، وقصة يوسف في علم الأفعال النافعة عند الحاجة إليها.

* قال ـ تعالى ـ في مطلع السورة: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [إبراهيم: ١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: في ذكر ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

* قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

نزول القرآن بلسان عربي إيذان بأن الله ـ جل جلاله ـ سيحرس اللغة العربية ويحفظها إلى يوم القيامة، ويرد عن حماها كيد كل متآمر حقود على القرآن والإسلام، وهذا ما أثبتته الأحداث عبر القرون المتابعة، فقد انقرضت لغات رغم حرص أهلها عليها، وبقيت اللغة العربية رغم تفريط أهلها.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

قال البقاعي: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ وأكده لما للأنفس من التكذيب بمثل ذلك.. ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من نعمي، فإن الشكر قيد الموجود، وصيد المفقود.

قال العلماء: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها.

* قال ـ تعالى ـ واصفاً حال الكفار:

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢١].

* قال ـ تعالى ـ في وصف أعمال الكفار:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم: ١٨].

في تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم، وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير

الله، وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله ـ سبحانه ـ لهم من أعمالهم الباطنة ناراً وعذاباً. فَهُم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وَقُود النار.

* وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تتزلزل القلوب والأقدام، وفيه تسلية للمظلوم، وتهديد ووعيد شديد للظالم.

قال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم ٢١].

من اللطائف البلاغية في الآيات: تنوع الأساليب فيها على حسب أصحابها، فالضعفاء في أسلوبهم إنكسار كما كان حالهم من المذلة في الدنيا، والجملة التي يقولونها تعكس ذلك الانكسار: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾.

أما الذين استكبروا ففي أسلوبهم ضيق وسآمة كما كان فيهم أيام الحياة ضيق وسآمة، واستمع إلى الجملة التي يقولونها طافحة بذلك الضيق: ﴿ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ﴾.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، أن النبي ﷺ تلا قول الله ـ عز وجل ـ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقوله في عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: **«اللهم أمتي أمتي! وبكى، فقال الله ـ عز وجل ـ: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فسأله، فأخبر رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسُوءك».**

* قال تعالـــى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ [إبراهيم: ٣١].
قال قتادة: فلينظر رجل من يخالل؟ وعلام يصاحب؟ فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فليعلم أن كل خلة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة إلا خله المتقين: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].
* قـــال تعالـــى: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥].
قال البغوي: والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل بالأبدان.
* قال تعالـــى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].
فـــي الآيـــة دلالة علـــى أن الطاعة ســـبب لتثبيت الله لعبده فـــي الدنيا والآخرة.
* قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
كان الحسن يردد هذه في ليلة فقيل له في ذلك؟! فقال: إن فيها لمعتبراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر.
* ذكر ـ تعالى ـ في الســـورة قصة إبراهيم ـ عليه الســـلام ـ، لما أتى بهاجر أم إســـماعيل وبابنها إســـماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو في الرضاع من الشـــام، حتى وضعهما في مكـــة، وهي ـ إذ ذاك ـ ليس فيها ســـكن، ولا داع ولامجيـــب، فلما وضعهما دعا ربه بهـــذا الدعاء، فقال متضرعاً متوكلاً على ربه:
﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾.
أي: يا ربنا إني أســـكنت من أهلي وبعض أولادي ـ ولدي إســـماعيل وزوجي هاجر ـ؛ لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في

مكة إسماعيل وذريته، بواد ليس فيه زرع، وهو وادي مكة شرفها الله ـ تعالى ـ؛ لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة، في جوار بيتك المحرم.

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ .

لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، وهكذا رحل إبراهيم بأهله من الماء الوفير والزروع والثمار في الشام إلى واد غير ذي زرع للعبادة وطاعة الرحمن. وكرر النداء رغبة في الإجابة وإظهار للتذلل والالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ.

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ .

أي: يا ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي. فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم.

قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: ﴿ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فهم المسلمون؛ فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الإسلام، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد الترداد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته ـ تعالى ـ إلى نفسه المقدسة.

قال تعالى: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

قال السدي: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوي القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة.

﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حرماً آمناً يجبى إليها ثمرات

كل شيء رزقاً من عند الله، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوافرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب على مر الأزمنة والعصور.

* قال ـ تعالى ـ على لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾.

أي: الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق.

قال ابن عباس: ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة؛ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإياس من الأولاد، نعمة أخرى، وكونهم أنبياء وصالحين، أجل وأفضل.

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝﴾.

أي: مجيب لدعاء من دعاه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي.

قال ابن تيمية: وأما قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝﴾ فالمراد بالسمع ـ ها هنا ـ السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع.

ثم دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لنفسه وذريته:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾.

هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل ـ عليه السلام ـ، أي: يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة، واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده، فلا أحب له من أن يكون مقيماً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝﴾.

أي: تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝﴾.

هذه هي الدعوة السابعة، وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال المفسرون: استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة؛ لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه.

* ثم تأت الآيات تصف مشـــهد القيامة المهـــول والموقف العظيم حيث تبتدي حال الكفار في أسوأ حال، وأشد نكال، قال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾.

وفـــي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمـــين الذين وصفهم الإجرام وكثرة الذنوب مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال، مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾.

أي: ثيابهم التي يلبســـونها من قطران، وهي مادة يســـرع فيها اشـــتعال النار، تصلى بها الإبل الجرب، فيحرق الجرب بحره جلدته.

- وله أربع خصائص: حار على الجلد، وســـريع الاشـــتعال في النار، ومنتن الريح، وأســـود اللون، تطلى به أجســـامهم حتى تكون كالسرابل! ثـــم تذكر - أجارك الله من عذابه - أن التفـــاوت بين قطران الدنيا وقطران الآخرة، كالتفاوت بين نار الدنيا ونار الآخرة!

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: تعلوها وتحيط بها النار، جزاء المكر والاستكبار.

والوجوه هي أشـــرف ما في أبدانهـــم، وفيها الحواس المدركة، وإنما هذا عدل من الله - عز وجل - جزاء ما قدموا وكسبوا، ولهذا قال:

﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

أي: بـــرزوا يوم القيامة لأحكـــم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، عدل لا جور فيه بوجه من الوجوه. لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر، يحاســـب الخلق في

ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة.

* ثم قال ـ تعالى ـ عن حال الأرض وما يجري في ذلك اليوم العظيم: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لرسول الله ﷺ فأين يكون الناس يومئذ؟ فقال: «على الصراط» [رواه مسلم].

* ثم تنتقل الآيات إلى ذكر قصة موسى وما جرى له مع سحرة فرعون: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا۟﴾ [الأعراف: ١١٥ ـ ١١٦].

قال ابن كثير: الحكمة في طلب موسى أن يبدأ السحرة بسحرهم؛ لأن موسى أراد أن تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم.

سورة الحجر (١٥)

سورة الحجر من السور المكية، التي تدعوا إلى التوحيد والعقيدة، والنبوة، والبعث والجزاء، ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار، والتهديد، ملفعاً بظل من التهويل والوعيد.

عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما من نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من لدن بعثة شيخ الأنبياء نوح ـ عليه السلام ـ إلى بعثة خاتم المرسلين، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين، في كل زمان وحين.

سميت السورة الكريمة «سورة الحجر» لأن الله ـ تعالى ـ ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود ـ وديارهم في الحجر بين المدينة والشام ـ فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة، لا يعتريهم موت ولا فناء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: ٨٣ ـ ٨٤].

وهناك في القرآن خمس سور بدأت بـ ﴿الٓر﴾ وهي: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

* قال تعالى في أول السورة: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

* ثم قال ـ تعالى ـ عن الكفار:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

قال بعض أهل العلـــم ﴿ذَرْهُمْ﴾ تهديد، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين؟

* ثم قال ـ تعالى ـ عن القرآن العظيم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩].

يستعمل الحق ـ جل جلاله ـ أساليب المتلاحقة، فهنا كلمات فيها خمسة أســـاليب من أســـاليب التوكيد: فـ ﴿إِنَّا﴾ تفيد التوكيد، و﴿نَحْنُ﴾ يعرب توكيداً لفظيّاً، و﴿نَزَّلْنَا﴾ أســـلوب توكيد، وكلمـــة ﴿إِنَّا﴾ الثانية توكيد، لأن وزن فعـــل يفيد التوكيد، وفـــي تقديم كلمة ﴿لَهُۥ﴾ توكيد، واللام في ﴿لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ مؤكدة.

والمعنى: ونحن الحافظون لهذا القرآن، في حال إنزاله من اســـتراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه فيه، ثم في قلوب أمتـــه، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل.

ومن حفظه، أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يســـلط عليهم عدّواً يجتاحهم.

قال المفسرون: تكفل الله بحفظ هذا القرآن، فلم يقدر أحد على الزيادة فيها ولا النقصان، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظهـــا موكول إلى أهلها، لقوله تعالـــى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائـدة: ٤٤] وانظـــر الفرق بين هذه الآية ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية الســـابقة حيـــث وكل حفظه إلى الربانيين والأحبار فبدلوا وغيروا.

وقد صدق الله ـ جل جلاله ـ وعده بحفظ القرآن رغم كيد الإعداء في كل زمان ومكان عبر عصور التاريخ المختلفة.

* قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

قال ابن القيم: تدبر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ فهو متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيده، وإن طلب من غيره طلب ممن ليس عنده، ولا يقدر عليه.

* ولما ذكر - تعالى - حال الأشقياء من أهل الجحيم وما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم، وما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝﴾.

إن الذين اتقوا طاعة الشيطان، وما يدعوهم إليه من الفواحش والشرك، لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر والعسل، ويقال لهم حال دخولها: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت، ومن زوال هذا النعيم الذي هم فيه، أو نقصانه، ومن المرض والحزن، والهم وسائر المكدرات.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والعداوة، والبغضاء والشحناء، فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد، متصافية متحابة.

﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝﴾.

أي: حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجهاً لوجه، دل ذلك على تزاورهم واجتماعهم وحسن أدبهم فيما بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له؛ تواصلاً وتحابباً، زيادة في الأنس والإكرام؛ متكئين على تلك السرر المزينة بالفرش واللؤلؤ وأنواع الجواهر.

قال ابن عباس: على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد.

والآيـة أخبرت عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي الصحيحين: «**أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ ستون ذراعاً في السماء**» [رواه البخاري].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب، ولا مشـقة وأذى، لا ظاهراً ولا باطناً؛ وذلك لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات، ولا يخرجـون منها ولا يردون، نعيمهم خالـد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفوة والسرور.

وفي هذا الخلود الدائم، وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم.

ـ ولمـا ذكر ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه ـ تعالى ـ، فقال:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: أخبـر ـ يا محمـد ـ عبادي المؤمنين خبراً جازمـاً مؤيداً بالأدلة، بأني واسـع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب، فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته سـعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منهـا، لينالوا مغفرته، ومع هذا فلا ينبغـي أن يتمادى بهم الرجاء إلـى حال الأمـن والإدلال، فنبئهم بما يتضمن التخويـف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف. وأخبرهم أن عذابي شـديد لمن أصر على المعاصي والذنوب.

قال أبوحيان: وجاء قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجـه المقابلة (وإني المعذب المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة، وفـي هـذا تحذير وإبعـاد عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي

أن يكون قلبــه دائماً بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فـإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجـوده وإحســانه، أحدث لــه ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظــر إلــى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحــدث له الخوف والرهبة والإقــلاع عنها، روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهــم يضحكون، فقال: «أتضحكــون وبين أيديكم الجنة والنار؟ فشــق ذلك عليهــم فنزلت: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾».

وقال في ســورة المائــدة: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨].

قال الشــيخ محمد بــن عثيمين ـ رحمه الله ـ: فلما أمــر أن ينبئ بدأ بالمغفرة، ولما أخبر عن نفسه بدأ بالعقوبة، لأن المقام مقام سلطان وعلو.

* قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢].

أكثر المفســرين أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب ـ عز وجل ـ بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.

* قــال ـ تعالى ـ عن قوم لــوط: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ٧٤].

هذا من المناســبة بوضوح، فإنهم لما انقلبوا عن الحقيقة والفطرة، ونزلوا إلى أسفل الأخلاق جعل الله أعالي قريتهم سافلها.

* قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٥ ـ ٨٧].

قال الرازي: إنه ـ تعالى ـ لما صبَّره أذى قومه وأمره بأن يصفح الصفح الجميــل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خصه بها، لأن الإنســان إذا تذكر نعم الله عليه، سهل عليه الصفح والتجاوز.

* قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨].

قال القرطبي: ألن جانبك لمن آمن بك، وتواضع لهم، وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه: بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفاً لتقريب الإنسان أتباعه.

* قال تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥].

قال السعدي: دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة.

* قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨].

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾.

أي: لا تنظر إلى ما متعناهم به في الدنيا، كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني، والقرآن العظيم، فلا تنظر إلى الدنيا فإن الذي أعطيناك أعظم منها.

قال بعض العلماء: من أعطاه الله ـ جل وعلا ـ فهم القرآن، ثم ظن مع ذلك أن أحداً من أهل الدنيا أعطي أكثر مما أعطي فقد عظم صغيراً وصغر عظيماً، لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ ثم قال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٨].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: وفعل ـ تعالى ـ، فإنه ماتظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقتله شر قتلة.

* قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت، ثم لا يستعدون له، يعني كأنهم فيه شاكون.

سورة النحل (١٦)

سورة النحل من السور المكية، سميت هذه السورة الكريمة «سورة النحل» لاشـتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشـير إلى عجيب صنع الخالق، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب. وتسـمى سورة النِّعَم، فقد ذكر الله في هذه السـورة إنعامه على عباده، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: فذكر في أولها أصول النعم التي لا بد منها ولا تقوم الحياة إلا بها، وذكر في أثنائها تمام النعم.

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، فقد خلق في ذلك العالم الفسـيح السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل، إلى آخر تلك المشـاهد التي يراها الإنسان في حياته، ويدركها بسمعه وبصره، وهي صور حية مشـاهدة، دالة على وحدانية الله ـ جل وعلا ـ، وناطقة بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات.

وقد افتتحت سـورة النحـل بالنهي عن الاسـتعجال واختتمت بالأمر بالصبر. وافتتحت سورة الإسراء بالتسبيح واختتمت بالتحميد.

* قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾.

* قـال ـ تعالى ـ في تعداد بعض النعم: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾ [النحل: ٥ ـ ٧].

قيل قدم الإراحة ـ وهو وقت ردها من المراعي بالعشي ـ على التسريح ـ وهو وقت مسيرها إلى مرعاها بالغداة، لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها.

* قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

قال السعدي: أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل؛ لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل في الغالب للأكل.

* لما ذكر ـ عز وجل ـ النعم. قال:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٩].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: لما ذكر ـ تعالى ـ من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية. كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

* ثم عدد ـ سبحانه ـ نعم البحر التي خلقها لعباده وأوجدها، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤ ـ ١٨].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

وترى السفن العظيمة والمراكب تشق عباب البحر جارية فيه، وهي تحمل الأمتعة والأقوات من قطر إلى قطر.

قال قتادة: مقبلة ومدبرة وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل، والأخرى تدبر، تجريان بريح واحدة.

* قال ـ تعالى ـ في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

وقال ـ تعالى ـ في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

في سورة إبراهيم جاءت الآية في سياق وعيد وتهديد، عقب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم:٢٨] فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله.

وأما آية النحل: جاء خطاباً للفريقين، كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعاً بها كلاهما.

ثم كان من اللطائف أن قوبل الوصفان اللذان في آية سورة إبراهيم ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ بوصفين هنا ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ إشارة إلى أن تلك النعم سبب لظلم الإنسان وكفره، وهي سبب لغفران الله ورحمته، والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان.

فنعمة الهداية أعظم وأجل، ونعمة الإعانة والتوفيق لأداء العبادات من فضله وجوده، ونعمة الأمن والذرية وسعه الصدر وانشراحه من نعمه المتتالية. وإن نظرت يمنة أو يسرة لوجدت نعماً: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

* ولما استدل ـ سبحانه ـ على وجوده وكمال قدرته وبديع صنعته بعجائب أحوال الحيوانات، أراد أن يذكر الاستدلال على المطلوب بإنزال المطر وبغرائب أحوال النبات، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: إن في إنزال الماء، وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته وكمال قدرته، لقوم يتدبرون في صنعه ويستدلون بها عليه فيؤمنون.

وقد: ختم الآية بقوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل واستعمال فكره، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار، وهو الله ـ تعالى ـ.

* ثم بدأ يعدد نعماً أخرى أنعم بها على عباده لمنافعهم وأنواع مصالحهم، بحيث لا يستغنون عنها أبداً، فقال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

جمع ـ سبحانه ـ لعباده في هذا المقام بين التذكير لهم بآياته الأرضية والسماوية والبحرية، فأرشدهم إلى النظر والاستدلال بالآيات المتنوعة المختلفة الأمكنة إتماماً للحجة، وتكميلاً للإنذار، وتوضيحاً لمنازع الاستدلال ومناطات البرهان.

ولما ذكر ـ تعالى ـ ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العميمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد، ولا كفء له، ولا ند له. فقال:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ .

إن تحاولوا حصر نعم الله عليكم عدداً مجرداً عن الشكر لا تضبطوا عددها، لكثرتها وتنوعها، فضلاً عن أن تطيقوا شكرها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد ومما لايعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى، فالعباد عاجزون عن عد نعم الله ـ عز وجل ـ فضلاً عن القيام بواجب شكرها، وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: من لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه.

وكان ـ رحمه الله ـ يردد في ليلة قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم ٣٤، النحل: ١٨]، فقيل له في ذلك، فقال: إن فيها لمعتبراً، مانرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر.

وما أحسن ما ختم به هذا الامتنان الذي لا يلتبس على إنسان مشيراً إلى عظيم غفرانه، وسعة رحمته، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ .

أي: غفور لما صدر منكم من تقصير في أداء شكر النعمه، رحيم بالعباد حيث ينعم عليهم ولا يقطعها عنهم مع تقصيرهم وعصيانهم، ولهذا فهو ـ سبحانه ـ يرضى من عباده اليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: ٢٧].

وفي هذه فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه.

* قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

تكرر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها في أربعة مواضع لسر بديع، فإنها سورة النعم التي عدد الله ـ سبحانه ـ فيها أصول النعم وفروعها، فعرف عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وإن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعماً أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية.

* قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وذكر بعضهم أن تقديم ﴿فِيهَا﴾ للحصر و﴿مَا﴾ للعموم بقرينة المقام فيُفيد أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة فتأمله.

* قال تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

* قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

له ـ جل وعلا ـ الطاعة والذل والخضوع دائماً؛ لأنه لا يضعف سلطانه، ولا يعزل عن سلطانه، ولا يموت، ولا يغلب، ولا يتغير له حال بخلاف ملوك الدنيا، فإن الواحد منهم يكون مطاعاً، ثم بعد برهة من الزمن يعزل أو يموت.

* قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

العزيز: في ملكه الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها.

الحكيم: في تدبيره الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل إلا ما يحمد عليه، ويُثنى على كماله فيه.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١].

ذكر ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة أنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض. ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة، لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراده.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النحل: ٦٥].

أي: سماع تدبر وإنصاف ونظر؛ لأن سماع القلوب هو النافع، لا سماع الآذان، فمن سمع آيات القرآن بقلبه، وتدبرها وتفكر فيها؛ انتفع ومن لم يسمع بقلبه كأنه أصم لم يسمع؛ فلن ينتفع بالآيات.

* قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ألهم ربك ـ يا محمد ـ النحل إلى مصالحها وأرشدها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة، تأوي إليه في ثلاثة أمكنة: الجبال، والشجر، وفيما يبني الناس من البيوت والسقُف.

قال ابن القيم: تأمل كما طاعة النحل لربها، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة، فالإنسان أولى بالطاعة لربه.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: ابني البيوت، ثم كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل.

﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾.

أي: ادخلي الطرق في طلب الرزق حال كونها مسخرة لك في الجبال وخلال الشجر، لا تضلين في الذهاب أو الإياب، حيث يسر الله لها المراعي وإن بعدت.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

أي: كل هذه الأشربة يتجلى فيها إعجاز الصنعة، لأنها تخرج من أماكن لا يتصور خروجها منها كنزول الماء من السماء بعد برق شديد الحرارة، وخروج اللبن عذباً سائغاً من بين فرث ودم، وخروج العصير حلواً من تراب الأرض، وخروج العسل شافياً شهداً من حشرة، مع أن معظم الحشرات ضارة.

وفي الآية ذكر ـ تعالى ـ أنه يخرج من بطون النحل عسلاً لذيذاً مختلف الألوان، منه أحمر، وأبيض، وأصفر، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من الأمراض، فهذا دليل على كمال عناية الله ـ تعالى ـ، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يعبد غيره ويدعى سواه.

قال بعض المفسرين: فإن قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء؟ فالجواب: أنه ـ تعالى ـ لم يقل: إنه شفاء لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء.

وفي الآية تعديداً للنعم، وتعجيباً لكل سامع، وتنبيهاً على الغير، وإرشاداً إلى الآيات العظيمة الحاصلة من هذا الحيوان الشبيه بالذباب.

روي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض فقيل له: ألا نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ وائتوني بزيت، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥] فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٩].

قال ابن كثير: لا يغص به أحد فسبحان الخالق العظيم.

وجزم القرطبي ـ رحمه الله ـ أنه لم يَشْرَق أحد باللبن رغم إمكان الشَّرَق بالماء: لأن الله ـ تعالى ـ وهو أصدق القائلين يقول: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل: ٦٧].

قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾ قال: السكر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها.

* قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التين: ٥ ـ ٦]، قال: إلا الذين قرأوا القرآن [رواه الحاكم].

* ومن النعم التي امتن الله ـ عز وجل ـ بها على عباده الأزواج والذرية، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

قال الشنقيطي في أضواء البيان: ومعلوم أن أولاد الرجل، وأولاد أولاده من خدمه المسرعين في خدمته عادة.

* قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [النحل: ٧٨].

أي: خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه، وتفردونه ـ عز وجل ـ بالعبادة، وخص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح كل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاكم إياها لأجل أن تشكروه باستعمالها في طاعته، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

وقدم السمع على البصر؛ لأن أكثر ما ينسب الناس أقولهم إلى السمع، ولأن إدراك السمع أعظم وأشمل من إدراك البصر، وذلك أن البصر إنما يدرك به ما كان في مواجهته خاصة، أما السمع فيدرك به جميع المسموعات التي تطرقه من جميع الجهات، وأيضاً فإن البصر ـ لا يدرك به إلا الأجسام والأجرام، بخلاف السمع، فإن العبد يدرك به الأمور الحاضرة والغائبة مما أخبر عنه.

* ثم يذكر ـ تعالى ـ لعباده بعض نعمه وآلائه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

وقال في الآية بعدهـا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: جمع الله في آيات النحل بين المساكن والملابس؛ لأن المساكن من جنس الملابس، كلاهما جعل في الأصل للوقاية ودفـع الضرر، كما جعل الأكل والشـرب لجلب المنفعـة، فاللباس يتقي الإنسـان به الحر والبرد، ويتقي به سلاح العدو، وكذلك المساكن يتقي بها الحر والبرد ويتقي بها العدو.

* ولما ذكر ـ سـبحانه ـ بيوت المدن، وهي التي للإقامة الطويلة، عقبها بذكر بيوت البادية والرحلة، فقال:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

أي: وجعل لكم بيوتاً أخرى في سـفركم، وهي الخيام والقباب المتخذة من الشـعر والصوف والوبر. يخف عليكم حملها ونقلها في أسـفاركم، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

أي: وجعل لكم من صوف الغنم، ووبر الإبل، وشعر المعز، ما تلبسون وتفرشـون به بيوتكم، وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الآنية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة وغير ذلك. تنتفعون وتتمتعون بها في الدنيا إلى حين الموت.

ثم لما كان الإنسـان قد لا يكون له خيام، أو أبنية يسـتظل بها لفقر، أو لعارض آخر فيحتاج إلى غيرها، نبه ـ سبحانه ـ على ذلك، فقال:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾.

أي: جعل لكم من مخلوقاته التي لا صنعة لكم فيها من الشجر والجبال والأبنيـة وغيرها ظلالاً تتقون بها حرَّ الشـمس، وجعـل لكم في الجبال

مواضع تسكنون فيها كالكهوف والمغارات والحصون، تقيكم البرد والحر والأمطار والأعداء، ولما كانت بلاد العرب شديدة الحر، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة، فلهذا ذكر - تعالى - هذه المعاني في معرض النعمة العظيمة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾.

أي: جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر، ولم يذكر الله البرد؛ لأنه قد تقدم أن هذه السورة أولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها ومتمماتها، ووقاية البرد من أصول النعم، فإنه من الضرورة، وقد ذكره في أولها في قوله ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

وقيل خص الحر ولم يذكر البرد اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر؛ لأن ما وقي من الحر وقي من البرد. فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك.

وجعل لكم من الحديد دروعاً تشبه الثياب، تتقون بها شر وأذى أعدائكم في الحرب.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم من نعمه ما لا يدخل تحت الحصر؛ فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ببيان الصراط المستقيم.

وقد ذكر - تعالى - في أول السورة أصول النعم، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات، وذكر في أثنائها تمام النعمة، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات.

* قال - تعالى - في الآية الأخرى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال مسروق ـ رحمه الله ـ: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا علمه في القرآن، إلا أن علمنا يقصر عنه.

* قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

كثير من الناس لا ينصرف ذهنه عند قراءة هذه الآية إلا للمال أو الطعام ونحوه، والحق أنها تشمل السمع والبصر وسائر ما عند العباد من أمور حسية ومعنوية.

* قال ـ تعالى ـ موصياً عباده:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٠].

قال الفيروز أبادي: الإحسان فوق العدل؛ وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له؛ والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد عليه، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع، ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان.

قال القرطبي: إنما خص ذا القربى لأن حقوقهم أوكد، وصلتهم أوجب. لتأكد حق الرحم التي اشتق الله اسمها من اسمه وجعل صلتها من صلته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٠].

وقرأ الحسن هذه الآية ثم قال: إن الله ـ عز وجل ـ جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر، آية في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

قال ابن عاشـور: وخص الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسـان نوعـاً مهمّاً يكثر أن يغفل الناس عنـه، ويتهاونوا بحقه، أو بفضله، وهو أيتاء ذي القربى فقد تقرر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد، واتقاء شره، كما تقرر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل في حقوقه.

❁ قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل: ٩٦].

روي أن لحفصة بنت سيرين ابن عظيم البر بها، فمات، فقالت حفصة: لقـد رزق الله عليه من الصبر ما شـاء أن يرزق، غير أني كنت أجد غصة لا تذهب، قالت: فبينا أنا ذات ليلة أقرأ سـورة النحل، إذ أتيت على هذه الآيـة: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحـل: ٩٥ ـ ٩٦] قالت: فأعدتها، فأذهب الله ما كنت أجد.

❁ قال تعالـى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

قال ابن تيمية: ربط السعادة مع إصلاح العمل.

❁ قـال تعالـى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠].

قال ابن تيمية: يدخل في معناها كل من فتنه الشيطان عن دينه، أو أوقعه في معصيته، ثم هجر السـيئات وجاهد نفسـه وغيرها من العدو، وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك وصبر على ما أصابه من قول أو فعل.

* لما ذكر ـ تعالى ـ حال من كفر بلسانه، وحال من كفر بلسانه وجنانه، ذكر هنا الجزاء العادل الذي يلقاه الجاحدون، وما أعده من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٣].

أي: سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان، بسبب كفرهم ومعاصيهم وعدم شكرهم، وهذا مثل أهل مكة؛ لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به، وبالغوا في إيذائه، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام.

وفي إضافة اللباس إلى الجوع والخوف سر لطيف، تشعر وكأن ذلك ملازم للإنسان ملازمة اللباس للابسه.

قال القرطبي: سمى الجوع والخوف لباساً لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

وقد تقدم الأمن في الآية على الطمأنينة، فالطمأنينة لا تحصل بدون الأمن، كما أن الخوف يسبب القلق.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

التجرؤ على الفتوى تجرؤ على الله ـ عز وجل ـ، والتورع عن الفتوى بغير علم دليل على التقوى والورع، وقد كان السلف يكرهون التجرؤ على الفتيا والحرص عليها.

عن البراء قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم المسألة ما منهم من رجل إلا ود أن أخاه قد كفاه.

وفي رواية: فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى يرجع إلى الأول.

وقال عمر بن عبد العزيز: أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم، وأجهلهم بها أنطقهم.

قال أبي نضرة: قرأت هذه الآية فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا.

* قال ـ تعالى ـ مثنياً على إبراهيم ـ عليه السلام ـ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ...﴾ [النحل: ١٢٠].

ومع أنه ـ عليه السلام ـ رجل واحد إلا أنه على الحق وعلى طريق مستقيم، فسماه الله أمة لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

قال الزمخشري: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الكرامة، وأجل ما أولي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملته.

قيل: إنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة، من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليها بها.

* قال ـ تعالى ـ لنبينا محمد ﷺ مسلياً ومواسياً:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

خص النبي ﷺ بقوله ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: لا تعاقب انتقاماً ولو بالمثلية ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حيث آذوه

وجاءه جبريل ـ عليه السلام ـ ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أن قال: «لا، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون..» وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الليل: ٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: هذا الأصلان هما جماع الدين العام كما يقال، التعظيم لأمر الله، والرحمة لعباد الله، فالتعظيم لأمر الله يكون بالخشوع والتواضع وذلك أصل التقوى، والرحمة لعباد الله بالإحسان إليهم.

سورة الإسراء (١٧)

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشؤون العقيدة، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين: من الوحدانية، والرسالة، والبعث، ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو شخصية الرسول ﷺ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة، والحجج القاطعة، الدالة على صدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقد افتتحت السورة بالتسبيح وختمت بالتحميد.

سميت السورة الكريمة سورة الإسراء، إشارة لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء، التي خص الله ـ تعالى ـ بها نبيه ﷺ، فقد تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء، التي كانت مظهراً للتكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين، وآية باهرة تدل على قدرة الله ـ جل وعلا ـ في صنع العجائب والغرائب.

وإن كانت سورة النحل هي سورة النعم الكثيرة فإنها فصلت في سورة الإسراء أنوع النعم الخاصة والعامة.

* قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ [الإسراء: ١].

بدأ الله ـ تعالى ـ هذه السورة بالتسبيح، لأن هناك إشعار أن الحديث بعدها سيكون عن أمر عظيم لا يقدر عليه إلا الله، والعلماء يعدون التسبيح لله أحد طريقين أثنى الله ـ تعالى ـ بهما على نفسه: إما التسبيح أو الحمد.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

قال ابن عاشور: وجه الاقتصار عن وصف المسجد الأقصى في هذه الآية بذكر بركته، وعدم ذكرها في حق المسجد الحرام: أن شهرة المسجد

الحرام بالبركة وبكونه مقام إبراهيم معلومة للعرب، وأما المسجد الأقصى فقد تناسى الناس ذلك كله، فالعرب لا علم لهم به، والنصارى عفوا أثره من كراهيتهم لليهود، واليهود قد ابتعدوا عنه وأيسوا من عوده إليهم، فاحتيج إلى الإعلام ببركته.

* قيل سر قوله: ﴿لَيْلًا﴾ إفادة تقليل الوقت الذي كان الإسراء والرجوع فيه. أي أنه كان في بعض الليل أخذاً من تنكيره.

وفي تخصيص الليل إعلام بفضله لأن وقت السر والنجوى والتجلي الأسمى، ولذلك كان أكثر عبادته ﷺ بالليل.

والإسراء: هو إذهاب الله بنبيه محمداً ﷺ، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بمدينة القدس، في جزء من الليل ثم رجوعه من ليلته.

والمعراج: هو إصعاده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما دون السبع، حيث فرضت الصلوات الخمس ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ الإسراء في سورة الإسراء، وذكر المعراج في سورة النجم.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ حال بني إسرائيل، فقال:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤].

أما أولاهما: فبمخالفة التوارة وقتل الأنبياء.

والثانية: بقتل زكريا ـ عليه السلام ـ وقيل بقتل يحيى، والعزم على قتل عيسى ابن مريم.

* قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

إنما خص العنق؛ لأن عمله لا يخلو إما أن يكون خيراً أو شراً، وذلك مما يزين أو يشين كالحلي والغل، فأضيف إلى الأعناق.

* قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

قال بعض السلف: والله لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

* ثم ذكر ـ جل وعلا ـ في الآيات حال المترفين وقد ذمهم في آيات كثيرة، فقال:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦].

في إيثار (القرية) على أهلها زيادة تهويل وتفظيع، إشارة إلى التنكيل بهم بهدم صروحهم ودورهم، وطمس أثرهم، وهو أوجع للقلب وأنكى للعدو. ولذلك أتى إثره بالمصدر المؤكد، فقال: ﴿تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي: كلياً بحيث لم يبق لهم زرع أو ضرع.

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

وحقيقة السعي: المشي دون العدو، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة، فالعامل للصالحات كأنه يسير سيراً سريعاً إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه منها.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ عطائه وفضله على العالمين، فقال:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ٢٠].

تنبيه على أن الله ـ تعالى ـ لم يترك خلقه من أثر رحمته، حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة.

وذلك مصداق قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله فيما رواه عنه نبيه ﷺ: «إن رحمتي سبقت غضبي».

* لما نهى ـ تعالى ـ عن الشرك بـه وحذر منه، أمر بالتوحيد، وإفراد العبادة له وحده دونما سواه، ثم وصى بالبر بالوالدين، فقال:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

أي: حكم ـ تعالى ـ أيها الإنسان ـ وأمر وألزم بأن لا تعبدوا أحداً من أهل الأرض والسماوات الأحياء والأموات.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأمر ووصى بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً وعطافاً بالغاً، بجميع وجوه الإحسان القولي والفعلي، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه والقرب ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

قال المفسرون: قرن ـ تعالى ـ بعبادته بر الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد؛ لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة. وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك، وقد جعل ـ سبحانه ـ في آية أخرى شكرهما مقترناً بشكره، فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

والإحسان: هو البر والإكرام.

قال ابن عباس: لا تنفض ثوبك أمامهما فيصيبهما الغبار.

* ثم خص ـ سبحانه ـ حالة الكبر بالذكر، فقال:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

أي: قــد أوصينا بهما وبخاصة إذا كبــرا، أو كبر أحدهما، وإنما خص بحالــة الكبر؛ لأنهما حينئذ أحوج إلى البــر والقيام بحقوقهما لضعفهما، فهما يحتاجان من اللطف والإحسان ماهو معروف.

ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ أي في كنفك وكفالتك.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

أي: لا تســمعهما قولاً سيئاً، ولا أقل كلمة تظهر الضجر، كلمة أف، ولا تســمعهما قولاً ســيئاً حتى ولو بكلمة التأفف وهو أدنى مراتب القول السيء، ولا تؤذهما أدنى أذية.

قال ابن عقيل: من حســن ظني بربي، أن لطفه بلغ أن وصى بي ولدي إذا كبرت.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

ولا تزجرهما، وتتكلم لهما كلاماً خشناً، وقل لهما بدل التأفيف والنهر قولاً حســناً، ليناً طيباً، بأدب ووقــار وتعظيم وحياء، تطمئن له قلوبهما، وتنشرح به صدورهما.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

وكــن لأبيك وأمك ذليلاً متواضعاً وألــن جانبك، وتواضع لهما بتذلل وخضوع من فــرط رحمتك وعطفك عليهما، واحتســاباً للأجر والمثوبة.

وخفض الجناح دلالة على القرب والدنو وترك الارتفاع.

* ومن البر والإحسان أن تدعو الله ـ عز وجل ـ لهما:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: واتبع القيــام بحقهما الدعاء، فادع لهما بالرحمــة أحياءً وأمواتاً، وقل في دعائك: يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسنا إليَّ في تربيتهما في حال الصغر وأنا طفل ضعيف الحول والقوة.

وفُهِّم من هذا أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية، ولقد بالغ ـ سبحانه ـ في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ثم ضيق الأمر حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من التضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الإنسان معها، ولقد بالغ ـ سبحانه ـ في التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم.

قال الشيخ السعدي: والأمر بالإحسان إلى الوالدين وإطلاقه يدخل فيه كل ما عده الناس إحساناً، وذلك يختلف باختلاف الأوقات والأحوال والأشخاص.

وفيه النهي عن ضد الإحسان إليهما وهو أمران:

الإساءة والعقوق الذي هو إيصال الأذى القولي والفعلي إليهما، وترك القيام ببعض حقوقهما الواجبة.

والأمر الثاني: ترك الإحسان وترك الإساءة، فإن ذلك داخل في العقوق، فلا يسع الولد أن يقول: إذا قمت بواجب والديّ وتركت معصيتها فقد قمت بحقهما، فيقال: بل عليك أن تبذل لهما من الإحسان الذي تقدر عليه ما يجعلك في مرتبة الأبرار البارين بوالديهم.

ثم ارتقى في الوصاية بالوالدين إلى أمر الولد بالتواضع لهم تواضعاً حد الذل لهما لإزالة وحشة نفوسهما إن صارا في حاجة إلى معونة الولد، لأن الأبوين يبغيان أن يكونا هما النافعين لوالدهما.

والقصد من ذلك التخلق بشكره على إنعامهما السابقة عليه.

وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره على هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه إذ يخفض جناحه متذللاً.

عن هشام بن عروة عن أبيه في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ قال: لا تمتنع من شيء أحباه.

وقال عبد الله بن عون: النظر إلى الوالدين عبادة.

* قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

قال الشوكاني: وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، وأكد على ذلك في أكثر من سورة، فقال ـ تعالى ـ في سورة الروم ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨] وقال في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦] بعد الأمر بإعطاء ذوي القربى والمساكين حقوقهم، ليعلم أن هذا العطاء هو العطاء الموافق لحقوقهم، والنهي عن التبذير في غير ما شرع الله.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨].

فيه الحث على تعليق القلب والرجاء والطمع بالله، وصرف التعلق بالمخلوقين، فالموفق في حال الوجود، والغنى قلبه متعلق بحمد الله وشكره والثناء عليه، لا ينسى ولا يبطر النعمة، وفي حال الفقد والفقر صابر راض راج من الله فضله وخيره ورحمته، وهذا من أجلّ عبادات القلوب المقربة إلى علام الغيوب.

* قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: ٢٨].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا من لطف الله ـ تعالى ـ بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه؛ لأن انتظار ذلك

عبادة، وكذلك وَعْدُهُم بالصدقة والمعروف عند التيسير - عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه.

* ولما نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المستدعي لإفناء النسل، ذكر النهي عن الزنا المفضي إلى ذلك، لما فيه من اختلاط الأنساب، فقال:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا»؛ لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى، ودواعيه كاللمس، والقبلة، والنظر، والغمز، وغير ذلك مما يجر إلى الزنى، فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن مجرد فعله، ثم وصف - تعالى - الزنى وقبحه:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجرء على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد. وبئس الطريق طريق من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ٣٣].

وقع التحذير من الزنا بين نهيين عن القتل، لأن الزنا غالباً يجر إلى القتل، إما إجهاضاً أو بعد ذلك.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس ذنبا أعظم من الزنا.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

لما كانت هذه الأعضاء هي أشرف الأعضاء وملوكها، والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصها - سبحانه وتعالى - بالذكر في السؤال عنها، فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها.

* قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعل إيثار فعل ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ دون أن يقول: لا تعلمون، للإشارة إلى أن المنفي علم دقيق.

* قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال السعدي - رحمه الله -: والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

* ثم رد - عز وجل - على طائفة من المشركين كانوا يعبدون تماثيل على أنها صور الملائكة، وعلى طائفة من أهل الكتاب كانوا يقولون بإلهية عيسى ومريم، وعزير، قال تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، وهي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت، له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات، وأطاحت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل ما يقربه إلى الله وينافس في قربه، بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب.

* قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

الاحتناك هو: وضع الراكب اللجام في حنك الفرس ليركبه ويسيره، فهو هنا تمثيل لجلب ذرية آدم إلى مراده من الإفساد والإغواء بتسيير الفرس على حسب ما يريد راكبه.

* قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

لم يذكر ـ جل وعلا ـ الدنيا ولم يسمها في الآية صراحة استهانة بها وتحقيراً لشأنها.

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ـ رحمه الله ـ: من كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الحياة، فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

* قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

في الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه أن يثبته على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ فكيف بغيره؟ وجاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

* لما ذكر ـ تعالى ـ الإلهيات والمعاد والجزاء، أردفها بذكر ما يعين على الصبر، وتحمل المشاق، وهي أشرف الطاعات، فقال:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾.

أي: حافظ ـ يا محمد ـ على الصلاة في أوقاتها، من وقت زوال الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل، فيدخل في ذلك صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب والعشاء.

قال المفسرون: في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة، فدلوك الشمس زوالها، وهو إشارة إلى الظهر والعصر، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء، وقرآن الفجر صلاة الفجر، فالآية رمز إلى الصلوات الخمس.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

أي: وأقم صلاة الفجر، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله ـ عز وجل ـ، وملائكة الليل، وملائكة النهار. كما في الحديث: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر...**» الحديث.

ـ وقد ذكر الله في كتابه أوقات الصلوات، تارة ثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨].

وأما الخمس فقد ذكرها أربعة: في قوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم: ١٧ ـ ١٨]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠] والسنة فسرت ذلك وبينته وأحكمته.

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

أي: وقم ـ يا محمد ـ من نومك بعض الليل، فاقرأ القرآن في صلاة الليل. لعل ربك ـ يا محمد ـ يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة العظمى.

قال المفسرون: ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام الله للتحقيق؛ لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف.

قال ابن عباس: عسى من الله واجبة تفيد القطع.

وفي معنى النظم الكريم: كما انبعث من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة فيبعثك ربك من بعد الموت الأكبر مقاماً محموداً عندك وعند جميع الناس، وفيه تهوين لمشقة قيام الليل.

* قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠].

قال ابن القيم: هذه الدعوة من أنفع الدعاء.

* قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

و﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس لا للتبعيض فإن القرآن كله شفاء، ولم يقل: وننزل من القرآن ما هو دواء، فإن الدواء قد يصيب المحل وقد يتخلف أثره، لفقد شرط أو وجود مانع، أما القرآن: فهو شفاء.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾.

وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنين، كل واحدة منها تكفي لمن قصده اتباع الحق.

* في مسند الدارمي أبي محمد عن التيمي قال: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فقد أوتى من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله نعت أهل العلم فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

سورة الكهف ١٨

سورة الكهف من السور المكية، وهي إحدى سور خمس بدئت بـ «الحمد لله» وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله ـ جل وعلا ـ وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

بدأ المولى السورة بالحمد ولم يبدأها بالشكر؛ لأن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، أما الشكر فيخص ما وصل إليك فقط.

وسورة الكهف مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثاني من القرآن كما كان افتتاح النصف الأول «الحمد لله»، وكذلك الربع الرابع في سورة (فاطر).

وقد ورد في فضلها أحاديث كثيرة منها: قول النبي ﷺ: **«من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»** [رواه النسائي].

ومنها قوله ﷺ: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»، وفي رواية «من آخر سورة الكهف»** [رواه مسلم].

وسميت «سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية في تلك القصة العجيبة الغريبة، قصة أصحاب الكهف.

بدأت سورة الكهف بذكر القرآن وانتهت أيضاً به، وفي هذا إشارة واضحة أن من أهم عوامل الوقاية من الفتن هو التمسك بالقرآن.

ولاحظ بعض العلماء أن أفعال الحركة والسعي في السورة كثيرة، وتستفاد من: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾، ﴿فآمـرا﴾، ﴿قَامُواْ﴾، ﴿فقَالُواْ﴾، ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾، ﴿ٱبۡنُواْ﴾، ﴿بَلَغَا﴾، ﴿جَاوَزَا﴾، ﴿فَوَجَدَا﴾، ﴿ءَاتِنَا﴾ وكأن المعنى؛ أن المطلوب من الناس السعي في الأرض؛ لأنها تعصم من الفتن، ولهذا قال ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: دعاهم إلى الحركة والمساعدة.

وفي السورة ثلاثة أمثلة واقعية، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة:

المثل الأول: للغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه في قصة أصحاب الجنتين.

والثاني: للحياة وما يلحقها من فناء وزوال.

والثالث: مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وما ناله من الطرد والحرمان، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار.

قال ابن تيمية: قصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة.

وتحوي السورة إيحاءات ظاهرة في الإرشاد إلى كيفية النجاة والعصمة من الفتن بأنواعها، فإن في السورة أربعة أمثلة للفتن؛ تعتبر من أعظم الفتن التي يبتلى بها المرء.

الأولى: فتنة الدين في قصة أصحاب الكهف، وكيف اعتصم الفتية وفروا من كفر قومهم، فعصمهم الله ونجاهم.

والثانية: فتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وكيف كفر الرجل هذه النعمة فمحق الله ماله.

والثالثة: فتنة العلم في قصة الخضر مع موسى ـ عليه السلام ـ، وشكر الخضر هذه النعمة.

والرابعة: فتنة الملك في قصة ذي القرنين، وكيف نجح ذو القرنين من الابتلاء بشكر هذه النعمة العظيمة، واستعملها في طاعة الله.

وفيها بيان أن التمسك بالكتاب الذي أنزل يعصم من كل تلك الفتن.

* قال ـ تعالى ـ في أول السورة:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١]

قال البغوي: وخص رسوله ﷺ بالذكر؛ لأن إنزال القرآن عليه كان نعمة

عليه على الخصوص، وعلى سائر الناس على العموم.

* لما بدأت السورة بحمد الله مع إنزال القرآن العظيم. وخطت الآيات طريق النجاة من الفتن، وذكرت قصة فتية آمنوا بربهم، وقرروا الفرار من قومهم عصمة لدينهم فآووا إلى الكهف.

* قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝﴾.

هذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي، أي: لا تظنن ـ يا محمد ـ أن قصة أهل الكهف ـ على غرابتها ـ هي أعجب آيات الله، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على وحدانية الله ـ عز وجل ـ، وعلى قدرته ـ تعالى ـ، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء.

قال مجاهد: أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب منهم.

* ثم يذكر ـ عز وجل ـ قصة أصحاب الكهف.

والكهف هو المتسع في الجبل.

والرقيم: هو اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف.

وبدأت الآيات في ذكر سياق القصة، فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾.

أي: اذكر حين التجأ الشباب إلى الغار، وجعلوه مأواهم ليختفوا عن قومهم، يريدون التحصن من فتنة قومهم لهم وإرغامهم على عبادة الأصنام. فقالوا حين دخلوا سائلين الله رحمته ولطفه: أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة مغفرة، ورزقاً، وتثبيتاً، وتوفيقاً للخير وحفظاً من الشر، والأمن من الأعداء.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

طلب فتية أهل الكهف من الله أن يجعل لهم من ذلك العمل رشداً، مع كونه عملاً صالحاً، فما أكثر ما يقصر الإنسان فيه، أو يرجع على عقبيه، أو يورثه العجب والكبر.

والمراد: أصلح لنا أمرنا كله ويسره لنا، واجعلنا من الراشدين المهتدين، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبيّن تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله دعاءهم وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم، فقال:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

أي: ألقينا عليهم النوم في الغار حين دخلوه، فناموا سنين كثيرة وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة.

وقد ذكر ـ تعالى ـ الجارحة التي هي الآذان ـ التي منها يكون السمع ـ لأنه لا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع، وفي الحديث: «**ذلك رجل بال الشيطان في أذنه**» أي: استثقل نومه جداً حتى لا يقوم بالليل.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل، لنرى أيَّ الفريقين من أصحاب الكهف، أدق إحصاءً للمدة التي ناموها في الكهف؟

قال بعضهم: يوماً أو بعض يوم، وقال آخرون: ربكم أعلم بما لبثتم.

* قال تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٦].

من ثمرة الإيمان أن أصبح الكهف الضيق الذي لا يعد لسكنى: منشوراً بالرحمة والتهيئة والارتقاء، فاعلم أن الأمر كله لله، وأن الأمور بحقائقها،

لا بما يراه أهل الدنيا منها. وقولهم هذا دليل على اعتمادهم وتوكلهم على الله ـ عز وجل ـ.

* وكان من حفظهم وصيانتهم ما قصه الله ـ عز وجل ـ عن المحل الذي ناموا فيه، فقال:

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾.

أي: ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ولا يقع شعاعها، وهذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال.

وفيها أن الله ـ عز وجل ـ يسخر المخلوقات لعباده الصالحين.

﴿ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾.

وإذا غربت تقطعهم وتعدل عنهم جهة الشمال، والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها، كرامة لهم من الله لئلَّا تؤذيهم بحرها فتفسد أبدانهم بها.

﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ ﴾.

أي: في متسع من الكهف وفي وسطه، بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار، ولا في آخره، وليطرقهم الهواء والنسيم، فلا تؤذيهم حرارة الشمس، ولا ينقطع عنهم الهواء.

وذلك الصنيع الذي فعلناه بهؤلاء الفتية وأرشدناهم إليه، من دلائل قدرة الله الباهرة التي يُعتبر بها، فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولو أنهم لا يتقلبون لأكلت الأرض أجسامهم.

* ثم ذكر الله حالهم وهم في الكهف نائمين، فقال تعالى:

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ ﴾.

أي: لو رأيتهم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم، والحال أنهم نيام. ومن عنايتنا بهم، نقلبهم من جانب إلى جانب.

قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، ولو لم يقلبوا لأكلت الأرض أجسامهم.

ذكر بعض العلماء أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة كان أبقى لها.

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: تأمل قوله: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ ففيه دليل على أن فعل النائم لا ينسب إليه، فلو طلق، أو قال: في ذمتي لفلان كذا، لم يثبت؛ لأنه لا قصد له. وفي تقليبهم، وعدم استقرارهم على جنب واحد فائدة بدنية، وهي توازن الدم في الجسد.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾.

وكلبهم الذي صاحبهم، مادٌّ يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته. والوصيد: فناء الكهف، وقيل: عتبته أو بابه.

قال القرطبي: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله ـ تعالى ـ بذلك في كتابه ـ جل وعلا ـ، فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين. بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خير آل.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ حفظهم في الأرض، ذكر حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب الذي نشره عليهم، قال تعالى:

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: لو شاهدتهم ـ يا محمد ـ وهم على تلك الحالة، لفررت منهم هارباً رعباً منهم، وذلك لما ألقى الله عليهم الهيبة، فرؤيتهم تثير الرعب حتى لا يصل إليهم أحد ولا تمسهم يد لامس، إذ يراهم الناظر نياماً كالأيقاظ، يتقلبون ولا يستيقظون، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلها الله سبباً، فلم

يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة، والدليل أنهم لما استيقظوا أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره.

والحكمة من تقديم الفرار على الرعب أنه: قد يعترض الإنسان ما يخيفه فيفر منه وينتهي الأمر، وقد يفر مما يرهبه ويبقى الرعب ساكناً في قلبه؛ لذا أتبع التولي فراراً بالامتلاء رعباً.

* قال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ١٩].

الاحتراز عن الأمور الضارة، وكتمان السر الذي تضر إذاعته ضرراً عاماً أو خاصاً، كل ذلك من كمال العقل.

* ثم بعد ذلك ذكرت الآيات نهاية قصتهم وأنهم عثر عليهم: ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:].

أي: قال الذين لهم الأمر: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ نعبد الله فيه ونتذكر أحوالهم وما جرى لهم، وهذا لا يجوز في شريعتنا وذم النبي ﷺ فاعله، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم.

* قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٢].

﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٢].

الواو حالية عاطفة تفيد التوكيد والتحقيق، لأن الواو تأتي عند تباعد معنى الصفات للدلالة على التحقيق والاهتمام.

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: ولم يقل: رجماً بالغيب، بل سكت، فهذا يدل على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم؛ لأن الله عندما أبطل القولين الأولين، وسكت عن الثالث، صار الثالث صواباً

* قال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

روي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال، وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

* قال تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦].

قدم البصر على السمع هنا لأن الحديث عن أصحاب الكهف الذين فروا من قومهم لظلمة الكهف لئلاَّ يراهم أحد لكن الله يراهم.

* بعد أن ذكر ـ عز وجل ـ قصة أصحاب الكهف وكيف اجتمعوا على طاعة الله، وتعانقت قلوبهم وتآلفت أرواحهم على الحب في الله، واجتمعت كلمتهم على نصر دين الله. دعا ـ عز وجل ـ نبيه إلى أن يصبر نفسه مع أولياء الله المريدين لوجهه والمبتغين لفضله، فقال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

في هذه الآية إشارة إلى أهمية حضور القلب عند ذكر الله، وأن الإنسان الذي يذكر الله بلسانه لا بقلبه تنزع البركة من أعماله وأوقاته حتى يكون أمره فرطاً عليه.

وجاءت الآية بصيغة الجمع ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ شخص واحد كفيل بأن يخرجك من الجماعة الصالحة، وأهل الخير جماعة مترابطة عكس أهل الأهواء.

قال الشيخ ابن عثيمين: لم يقل لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان.

* ذكر الله ـ عز وجل ـ في سورة الكهف أربع فتن: الفتنة في الدين (أهل الكهف)، وفتنة المال (صاحب الجنة)، وفتنة العلم (موسى والخضر)، وفتنة السلطان (ذو القرنين).

وهنا الفتنة الثانية في قوله تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف: ٣٢].

قال ابن كثير: جاءت أن هذه القصة بعد أمر الله ـ تعالى ـ لنبيه أن يصير نفسه مع ضعفاء المؤمنين، خلافاً لكبراء قريش، الذين تكبروا عن الجلوس معهم، فكان عاقبتهم الخسار كما كان عاقبة صاحب الجنتين.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ مثلاً محسوساً ملموساً لحال الدنيا ونهايتها، فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

قال ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: في الحديث: **«ما أنعم الله ـ عز وجل ـ على عبد نعمة في أهل ومال وولد، فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، فيرى فيها آفة دون الموت، وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾»** [أخرجه أبو يعلى والبيهقي والطبراني وغيرهم].

* ثم ذكر مثلاً لهذه الدنيا الفانية، فقال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

شبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ الدنيا بالماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل؛ كذلك الدنيا لا يسلم

أحـــد دخلها مـــن فتنتها وآفتها، ولأن المـاء إذا كـان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جـاوز المقدار كان ضارّاً مهلـكاً، وكذلك الدنيا الكفـاف منها ينفع وفضولها يضر.

❁ قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا لكن مـع قرينة الصفة للمال والبنين، لأن المعنـى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحتقر فلا تتبعوها نفوسكم.

قيل: تقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق لأذهان الناس، ولأنه يرغب فيه الصغير والكبير.

❁ بعد التذكير بحقيقة الدنيا وزوالها، انتقلت المشـاهد إلى ذكر القيامة وأهوالها، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ٤٧].

إنما قال: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ ماضياً بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾، ﴿وَتَرَى﴾ وهما مستقبلان، للدلالة على أن حشـرهم قبل التسـيير والبروز ليعاينوا تلك الأهوال كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك.

❁ قال تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: ما شـأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها؟ وقد اشتكوا من العدل لا من الظلم.

قال قتادة: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتك أحد ظلماً، فإياكـم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع علـى صاحبها حتى تهلكه.

وقال عون بن عبد الله: ضج ـ والله ـ القوم من الصغار قبل الكبار.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو؟ ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب. وهو أني عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعاداة أن عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة؟

* قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: ومن حكمة الله ورحمته: أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

* وتنتقل الآيات إلى زمن موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مكن الله له في الأرض ونجاه من فرعون وجنوده جرت له قصة عجيبة مع الخضر، أبان فيها ـ عز وجل ـ أن العلم كله بيده ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال الخطيب البغدادي: إن فيما عاناه موسى من الدأب والسفر والصبر على العلم، مع محل موسى من الله وموضعه من كرامته وشرف نبوته: دلالة على ارتفاع قدر العلم، وعلو منزلة أهله، وحسن التواضع لمن يلتمس منه.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢].

فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه بثلاثين ليلة وأتمها بعشر، فلم يأكل فيها لم يجد مس الجوع ولا النصب فإنه سفر إلى ربه ـ تعالى ـ، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين.

* في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢].

قال القرطبي: دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط.

وردت ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥] بالقرآن للمؤمنين خاصة.

يقول نوح: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨] بينما ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨] تستعمل مع الكافر والمسلم.

وفي تقديم الرحمة على العلم: ما يدل على أهميتها للعالم والمتعلم؛ فإن صفة الرحمة صفة ملازمة للمعلم والمربي.

والعلم نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده. وعلم لدني، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده، لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

قال قتادة: لو كان أحد يكتفي من العلم بشيء لاكتفى موسى ـ عليه السلام ـ، ولكنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

* عندما أمر الله رسوله ـ في سورة الكهف ـ أن لا يقول لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا بعد أن يقول: إن شاء الله، بين له القدوة في فعل أخيه موسى حين قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

* قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١].

فيه دلالة على أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، وغير مالكة للصبر على احتماله؛ لأن موسى ـ عليه السلام ـ وعد الخضر أن يصبر على ما يراه منه، فلما رأى ما رأى أنكره عليه.

وهذا الإنكار من موسى على الخضر هو دأب الأنبياء في إنكار المنكر وعدم السكوت عليه.

* قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١].

أي: لم يصبر موسى ـ عليه السلام ـ لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة وسبب لغرق أهلها.

قال موسى ـ عليه السلام ـ حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل (لتغرقنا) فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحد فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياءه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم.

* قال موسى للخضر لما خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١] وقال له لما قتل الغلام: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤] فما الفرق بينهما؟ (الإمر) أهون من (النكر) وقد لا يكون منكراً كالنكر، وإنما يتعجب منه ومن الغرض منه. والنكر هنا أشد؛ لأنه فعل منكر قد وقع وهو قتل الغلام، بخلاف خرق السفينة فإنها لم تغرق بذلك.

* حين أنكر موسى على الخضر خرق السفينة، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الكهف: ٧٢].

وحين عاد موسى إلى الاعتراض على الخضر، وأنكر قتله للغلام ـ بعد أن أكد للخضر أنه لن يعود للاعتراض عليه ـ قال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥] فزاد لفظه ﴿لَّكَ﴾؛ ليفيد

التأكيد في بيان عدم صبر موسى على علمه، وهكذا عادة العرب: تزيد في التأكيد كلما زاد الإنكار.

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤].

استدل بهذه الآية طائفة من العلماء على أن الغلام كان بالغاً، واستدل آخرون بنفس الآية على أنه لم يكن بالغاً. فالذين قالوا: إنه لم يبلغ، فاستدلوا بوصف النفس بأنها: ﴿زَكِيَّةً﴾؛ أي: لم تذنب، واحتج من قال: إنه بالغ، بقوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ فهذا يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على أنه بالغ، وإلا فلو كان لم يحتلم لم يجب قتله بنفسه، ولا بغير نفس.

* قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

قال الخضر لموسى معاتباً مذكراً: ألم أقل لك أنت على التعيين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى من أفعالي مما لم تحط به علماً؟

قال المفسرون: وقره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطب، فلما خالف في الثاني واجهه بقوله: ﴿لَّكَ﴾ لعدم العذر هنا، ويعود موسى لنفسه ويجد أن خالف وعده مرتين، فبادر ـ عليه السلام ـ بالاعتذار.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧٦].

وهنا لم يعتذر موسى بالنسيان: إما لأنه لم يكن نسي، ولكنه رجح تغيير المنكر العظيم ـ وهو قتل النفس بدون موجب ـ على واجب الوفاء بالالتزام، وإما لأنه نسي وأعرض عن الاعتذار بالنسيان لسماجة تكرر الاعتذار به.

* من أدب الخضر مع الله ـ عز وجل ـ القيام بحقه وحسن الأدب في الألفاظ؛ فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وأما الخير فأضافه إلى الله بقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن

يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠] فنسب المرض إليه والشفاء إلى الله، وقالت الجن: ﴿لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]، مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

* ثم ذكر له سبب قتله للغلام، فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

أي: وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً، وكان أبوه وأمه مؤمنين، وفي الحديث: «**إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً، ولو عاش لأرهق أبويه طغياناً وكفراً**» [رواه مسلم].

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

أي: فخفنا لو بقي الغلام حيّاً، أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه، أو يجبرهما على ذلك، فقتله؛ لأن الله ـ تعالى ـ أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره، سلامة لدين أبويه المؤمنين.

قال مطرف بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠] إنا لنعلم أنهما قد فرحا به يوم ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو عاش لكان فيه هلاكهما، فليرض رجل بما قسم الله له، فإن قضاء الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وقضاء الله لك فيما تكره خير من قضائه لك فيما تحب.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠].

تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

* قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر، وأقرب برّاً ورحمة بوالديه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملها على الكفر والطغيان.

وقيل: أقرب رحماً: أي ابنة بشفقتها وحنوها.

* ثم ذكر ما الذي دفعه إلى بناء الجدار وإقامته، فقال:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾.

أي: وأما الحائط الذي بنيته وأقمته دون أجر، والذي كان يوشك أن يسقط، فقد خبئ تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين في القرية التي فيها الحائط، حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

أي: وكان والدهما صالحاً تقيّاً، فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد، وفيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم.

قال القرطبي: ففيها ما يدل على أن الله ـ تعالى ـ يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده، وإن بعدو عنه، وقد روي أن الله ـ تعالى ـ يحفظ الصالح في سبعة من ذريته.

قال ابن كثير: فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشتمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم.

قال المفسرون: إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، وتقوى الأصول تنفع الفروع.

قيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء.

وقال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فيه فوائد منها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وذريته وما يتعلق به، ومنها أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرهما، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

فأراد الله بهذا الصنيع، أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار لئلا يضيع ويفقد.

وفي قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

أسند الإرادة هنا إلى الله، لأنها في أمر مغيب مستأنف لا يعلم ما يكون منه إلا الله، وأسند الخضر إلى نفسه في قوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] لأنها لفظة عيب.

فتأدب بأن لا يسندها إلى الله، وذلك كقول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

أي: هذا فعلته رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما. ما فعلت يا موسى ما رأيت من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، عن رأيي واجتهادي، بل فعلته بأمر الله وإلهامه، وإنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالديّ الغلام، وولدي الرجل الصالح.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

أي: ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها، وعارضت فيها، قبل أن أخبرك عنها.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: من فوائد قصة موسى مع الخضر: أن من ليس له صبر على صحبة العالم والعلم، فإنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه.

* في سورة الكهف قال الخضر في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [٧٥]، وفي قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [٨١]، وفي بناء الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾ [٨٢]. فلماذا غير في نسبه الأفعال في كل واحدة؟ لما كان المقصود عيب السفينة قال: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، فأضاف إرادة العيب لنفسه لا إلى الله تأدباً معه، ولأن نفس العيب مفسدة.

ولما قتل الغلام قال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ بلفظ الجمع، تنبيها على أن القتل كان منه بأمر الله، وله حكمة مستقبلية، ولأنه مصلحة مشوبة بمفسدة.

ولما ذكر السعي في مصلحة اليتيمين قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، فنسب النعمة لله لأنها منه، ولأنها مصلحة خالصة.

ـ وفي قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع الخضر قاعدة عظيمة في الرضا والاستسلام للقضاء والقدر فإن الإنسان لا يعلم ما وراء الحجب وما في غيب الله، وأمر المؤمن كله له خير.

* تأمل في قول ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ ـ ٨٨].

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: إذ لما ذكر الشرك بدأ بتعذيبه ثم ثني بتعذيب الله، ولما ذكر المؤمن بدأ بثواب الله أولاً، ثم بمعاملته باليسر ثانيا؛ لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، بخلاف الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة.

ومـــن فوائد الآية أن من قدر على إعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تســكره لذة السلطة بســوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته.

* قــال القرطبي: في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝﴾ [الكهف: ٩٤].

دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون على ما هم عليه، بل يحبسون حتى يعلم انكفاف شرهم، ثم يطلقون كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ.

* قــال تعالــى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ۝﴾ [الكهف: ٩٧].

لما كان صعود السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه جاء الفعل قصيراً ليجانس النطق الزمن.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١].

قال ابن القيم: وهذا يتضمن معنيين:

أحدهمـــا: أن أعينهم في غطاء عمـــا تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.

والثاني: أن أعين قلوبهم في غطـــاء عن فهم القرآن وتدبره، والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً، ثم يسري منه إلى العين.

* قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٠].

قال الشيخ ابن عثيمين: وجاء كلمة ﴿وَعَرَضْنَا﴾ نكرة، والمعنى: عرضاً عظيماً تتساقط منه القلوب.

ومـــن الحكم في ذكر ذلك: أن يصلح الإنســـان مـــا بينه وبين الله، وأن يخاف من ذلك اليوم، ويستعد له، وأن يصور نفسه وكأنه تحت قدميه.

* وبعد الحديث في السـورة عن أحوال المفتونين بالهوى، الغارقين في الضلالة، كان مسك ختام السورة بشارة لأهل الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

الإنسـان ملـول بطبعه، قـد يمل الـدار الأنيقـة ويحـب أن ينتقـل من دار إلـى دار أخـرى، والجنـة على خلاف ذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١١٠].

العمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسـنة، وكان من دعاء عمر ابـن الخطاب - رضي الله عنه -: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً» [اخرجه الإمام احمد].

* وختمت السـورة بإعلان التوحيد: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

سورة مريم (١٩)

سورة مريم سورة مكية، ومضمونها تحقيق عبادة الله وحده، وتنزيه الله ـ جل وعلا ـ عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، والإيمان بوجود الله ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين، وأن خواص الخلق هم عباده.

وهذه السورة «سورة المواهب» وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة، والعمل الصالح، والعلم النافع.

سميت «سورة مريم» تخليداً لتلك المعجزة الباهرة والآية العظيمة، في خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ.

وكما أن سورة الكهف حوت قصصاً عجيبة كذلك جاءت سورة مريم فقد عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله زكريا وولده يحيى، الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد، ولكن الله قادر على كل شيء، يسمع دعاء المكروب، ويستجيب لنداء الملهوف، ولذلك استجاب الله دعاءه، ورزقه الغلام النبيه.

وقد تكرر في هذه السورة صفة الرحمن ست عشرة مرة، وذكر اسم الرحمة أربع مرات، فأنبأ بأن من مقاصدها تحقيق وصف الله ـ تعالى ـ بصفة الرحمن، والرد على المشركين الذين انكروا هذا الوصف، وهذا ليمتلئ قلب المؤمن ويفيض بالرحمات، ويعظم رجاؤه ويستبشر فؤاده برحمة الله، فيزاد من الله ـ تعالى ـ حبّاً وقرباً ورجاءً.

* قال تعالى:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾.

حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن.

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ .

أي: هـذا ذكر رحمة ربـك لعبده زكريا، نقصه عليـك ـ يا محمد ـ ونفصله تفصيلاً فإن في ذلك عبرة للمعتبرين.

وإضافـة رحمـة الرب ـ جل وعـلا ـ إلى النبي ﷺ إضافة تشـريف وتكريم، والآية تذكير للنبي ﷺ برحمة الله ـ عز وجل ـ بعبده ونبيه زكريا ـ عليه السلام ـ.

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ .

أي: حين ناجى ربه ودعاه سـرّاً، بصوت خفي لا يكاد يسـمع. وذلك أنه رأى من نفسه الضعف وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم.

قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أحب إلى الله، وأرجى للإجابة، وأدخـل في الإخلاص وأكمـل، وأبعد من الرياء، فـإن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي.

وإخفاء الدعاء والإسـرار بالمسألة: مناجاة للرب، وإيمان بأن الله سميع، وذل واسـتكانة، وسنة من سنن المرسلين. يقول قتادة: إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ .

أي: دعا في ضراعة، فقال يا رب: لقد كبرت، وضعف عظمي ورق، وذهبـت قوتي من الكبر، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن وقوامه، ضعف غيره.

﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ .

أي: انتشـر الشيب في رأسي انتشـار النار في الهشيم، والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره. وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى انتشـر فحسـب ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب في الرأس في

بطء وثبات، كما النار في الفحم مبطئة ولكن في دأب واستمرار، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة؛ وفيه التوسل إلى الله ـ تعالى ـ بضعفه وعجزه وشيبته، وهذا من أحب الوسائل إلى الله؛ لأنه يدل على التبرِّي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾.

أي: لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات ولم تحرمني من الإجابة قبل اليوم، بل عودتني الإحسان والجميل، ولم تزل ألطافك تتوالى عليَّ وإحسانك واصلاً إليَّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه وإحسانه إليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، وعوده بالإجابة وأطمعه فيها، أن يتمم إحسانه لاحقاً.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾.

أي: خفت من يتولى على بني إسرائيل بعد موتي، من بني العم والعشيرة أن يضيعوا الدين ولا يقوموا به، ولا يحسنوا وراثة العلم والنبوة، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا ـ عليه السلام ـ ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، وفطنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين من بعده، واشتكى من حال امرأته، فقال:

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

أي: عقيماً لا تلد، لكبر سنها أو لم تلد قط، ذكر الأسباب المانعة التي لا تستعصي على الله ـ عز وجل ـ، ثم طلبه ودعاه.

﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾.

أي: فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً يتولاني؛ لأن امرأتي لا تصلح للولادة، وهذه الولاية؛ ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾.

أي: ولداً يرثني ويرث أجداده آل يعقوب في العلم والنبوة، والمعنى: أنه يصلح لأن يوحى إليه، فإن الأنبياء لا يورثون المال.

﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾.

أي: اجعله يا رب مرضياً منك ومن عبادك، برّاً تقيّاً.

ـ وقد قدم زكريا ـ عليه السلام ـ على طلب الولد أمور ثلاثة:

أحدها: كونه ضعيفاً.

والثاني: أن الله ما رد دعاءه البتة.

والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين.

ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة.

* وبعد هذه الدعوات المخلصة رحم الله عبده زكريا واستجاب دعاءه، وبشره بغلام، قال تعالى:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾.

نبشرك بواسطة الملائكة بإجابة دعائك، وقد وهبنا لك غلاماً، وسماه الله يحيى تشريفاً له، وكان اسماً موافقاً لمسماه، يحيا حياة حسية، فتتم به المنة، ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح بالوحي والعلم والدين.

﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾.

أي: لم يسم أحد قبله بيحيى، فهو اسم غير مسبوق، سماه ـ تعالى ـ به، ولم يترك تسميته لوالديه.

قال مجاهد: ليس له شبيه في الفضل والكمال، وهذا دليل على أن الاسم الغريب جدير بالأثرة.

* وبعد أن ساق الله البشارة بهذا المولود الذي طلبه، فرح فرحاً شديداً واستغرب وتعجب زكريا من حاله وكبر سنه، وعدم تيسر الأمور الطبيعية للإنجاب.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

أي: كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجيب وسرور بالأمر العجيب، واستكشاف أنه بأي طريق يكون؟ والوجه الذي يأتيه منه الولد. والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابها، فكيف وهي الآن عجوز.

﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ أي: بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر، والمعنى: اليبس والجساوة في المفاصل العظام.

قال المفسرون: كان قد بلغ مائة وعشرين سنة، وامرأته ثمان وتسعين سنة، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام، وكأنه ـ عليه السلام ـ لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فإجابه الله بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾.

أي: قال الله لزكريا: هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين، وخلقه وإيجاده سهل يسير عليَّ، وإن كان الأمر مستغرب في العادة وفي سنة الله في الخليقة، لكن الأمر سهل وهين على الخالق ـ جل وعلا ـ، وفي التعبير بوصف الربوبية دلالة بالغة، فالرب هو الخالق المدبر المصرف لشؤون خلقه.

ـ ثم ذكر ـ تعالى ـ لزكريا ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

أي: وقد خلقتك أنت من قبل يحيى ولم تك شيئاً مذكوراً، فأنا قادر على خلق يحيى منكما.

قال المفسرون: ليس في الخلق هين وصعب على الله، فوسيلة الخلق للصغير والكبير، والجليل والحقير واحد ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وإنما هو أهون في اعتبار الناس، فإن القادر على الخلق من العدم قادر على الخلق من شيخين هرمين.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

قال القرطبي: قوله ـ تعالى ـ ذكره: وكان برّاً بوالديه مسارعاً في طاعتهما ومحبتهما غير عاق بهما.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يقول ـ جل ثناؤه ـ ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً، متذللاً، يأتمر لما أمر به، وينتهي عما نهي عنه، لا يعصي ربه ولا والديه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: أمان من الله له، من حين مولده إلى حين مبعثه، في يوم ولادته، وفي يوم موته، ويوم يبعث من قبره حيّاً، وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينهما، وأنه سالم من النار والأهوال.

وحياة في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف، والحاجة، والافتقار إلى الله.

قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في هذه الأحوال، يوم يولد فيخرج مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث حيّاً فيرى نفسه في محشر لم ير مثله، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلامة في هذه المواطن التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة.

* قال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢].

قال عبد الله بن المبارك قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا! فلهذا أنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾.

* قال ـ تعالى ـ عن يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥].

وقال ـ تعالى ـ عن عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ [مريم: ٣٣].

جاء السلام مُنكراً مع يحيى؛ لأنه دعاء من الله فيشمل كل أنواع السلامة. أما عيسى ـ عليه السلام ـ فالسلام منه على نفسه، وهو بشر له حدود معينة فلابد أن يكون سلاماً مقصوراً ومحدوداً وهذا ما يقوم به التعريف.

* ولما ذكر ـ عز وجل ـ قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدرجاً من الأدنى إلى الأعلى، وهذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة ميلاد يحيى؛ لأنها ولادة عذراء من غير بعل، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن. فعرضت السورة لقصة مريم العذراء وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاء الله ـ عز وجل ـ، أن يظهر تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمه الواحد القهار، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾.

أي: اذكر ـ يا محمد ـ في القرآن قصة مريم العجيبة الغريبة الدالة على كمال قدرة الله، وفيه الثناء على مريم، في حالها الحسنة، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل؛ فهذا من أعظم فضائلها أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل.

﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ .

أي: حين تنحت واعتزلت أهلها وقومها، في مكان شرقي بيت المقدس لتتفرغ لعبادة الله، وتقنت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله - تعالى -. وجعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً يسترها عنهم وعن الناس. فأرسلنا إليها جبريل - عليه السلام -، والإضافة للتشريف، وإنما سمي روحاً؛ لأن الدين يحيا به وبوحيه.

﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ .

أي: تصور لها في صورة إنسان تام الخلق، قال ابن عباس: جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوي الخلقة. قال المفسرون: إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة في الحسن، ونادته من بعيد.

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ .

أي: فلما رأته مريم فزعت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، فقالت له: إني احتمي وألتجئ إلى الله منك، وجواب الشرط محذوف تقديره: إن كنت تقيّاً، تخاف الله فاتركني ولا تؤذني، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ .

أي: أمنها جبريل مما خافت، وقال لها مزيلاً لما حصل عندها من الخوف: لست مما تظنين، ما أنا إلا ملك مرسل من عند الله إليك. لأهب لك بإذن الله - تعالى - أو لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع،

ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب، وهذه بشارة بالولد وزكائه.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: قالت مريم: كيف يكون لي ابن؟ وعلى أي صفة يوجد هذا مني؟ ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد، ولست بزانية، ولا يكون الولد عادة إلا من أحد هاذين.

قالت مريم ابنة عمران: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣] ولم تعلم أن في بطنها (نبي) سيكون من أولي العزم من الرسل، فكم من الكربات قد تحمل في طيها كرامات.

* ثم قال ـ تعالى ـ لمريم، وهي في حالة الضعف والوهن:

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

أمر الله مريم ـ المرأة الضعيفة النفساء ـ بهز جذع النخلة التي تثقل الرجال، والله قادر أن يكرمها برزق ـ كما في سورة آل عمران ـ، ليعلم الناس أهمية بذل السبب مع التوكل على الله ـ عز وجل ـ.

﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم: ٢٥].

الرطب الجني الغض قريب التناول.

قال غير واحد من السلف: ما من شيء خير للنفساء من الرطب، ولو كان لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى.

ـ جاء لفظ الصيام على الإمساك عن جميع المفطرات الحسية والمعنوية، وجاء لفظ الصوم على الإمساك عن الكلام فحسب. وقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦] أما الصيام فوردت مرات

* فلما ولدته وأُمرت أن لا تكلم الناس، وأنها ستُكفى أمرها، ويُقام بحجتها، أخذت وليدها وأتت به إلى قومها تحمله، قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: أتت مريم قومها من ذلك المكان البعيد، بعد أن طهرت من النفاس، تحمل ولدها عيسى على يديها، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة. فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه، وقالوا لها: لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً، وأرادوا بذلك البغاء، حاشاها من ذلك.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾.

أي: يا شبيهة هارون ـ وهو أخ لها ـ في الصلاح والعبادة، ما كان أبوك عمران رجلاً فاجراً يأتي الفواحش (وهارون ليس هو هارون بن عمران أخا موسى؛ لأن بينهما قروناً كثيرة).

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾.

أي: وما كانت أمك زانية، فكيف صدر هذا منك، وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة؟ وهكذا البيوت الصالحة يستهجن ويستغرب من أهلها طريقاً غير طريق الصلاح والفلاح.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾.

أي: إنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا منكرين عليها: كيف نكلم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبن أمه؟ ولم تجرِ به عادة ولا حصل من أحد في ذلك السن.

روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾.

قال عيسى وهو في مهده يرضع: أنا عبد الله خلقني بقدرته من دون أب، قدم ذكر العبودية، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية، فإن أول شيء

تكلم به أن نزه جناب ربه ـ تعالى ـ، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ .

أي: قضى ربي أن يؤتيني الكتاب، وهو: الإنجيل، ويجعلني نبيّاً، وإنما جاء بلفظ الماضي؛ لإفادة تحققه، فإن ما حكم به الله أزلاً لابد إلا أن يقع، وفي هذه تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه. ونبوته دليل على براءة أمه، لأن الأنبياء هم أطهر الناس نسباً. ثم ذكر تكميله لغيره، فقال:

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ .

أي: جعل فيَّ البركة والخير والنفع العظيم للعباد حيثما كنت وأينما حللت، فالبركة جعلها الله في من تعلم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مُصاحبه.

قال سفيان بن عيينة: جعلني مباركاً أينما كنت، قال: معلماً للخير.

وهذا يدل على تعليم الرجل هو البركة التي جعلها الله فيه، فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه، وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه، ولهذا سمى ـ سبحانه ـ كتابه مباركاً، ووصف رسوله بأنه مبارك.

﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ .

أي: وأمرني بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة ما بقيت حيّاً. وفي ذلك إشارة إلى أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن العبد ما دام حيّاً عاقلاً.

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٢].

أي: وأمرني أيضاً، أن أبر بوالدتي.

قال ابن عاشور: فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها. ذكر بره بوالدته بعد طاعة الله ـ عز وجل ـ؛ لأنه ـ سبحانه ـ كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين.

وقد خصه الله ـ تعالى ـ بذلك بين قومه؛ لأن بر الوالدين كان ضعيفاً في بني إسرائيل يومئذ وبخاصة الوالدة لأنها تستضعف، ولأن فرط حنانها ومشقتها قد يجرئان الولد على التساهل في البر بها.

ـ تقدم الشريعة حق الأم على حق الأب، وترد الآيات بالوالدة والأم. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] و﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

ولم تأت مفردة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] بل يجمع بينهما في التربية عند الصغر ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤] وكذلك ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وقوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤].

ويأت الأب كما في قول إسماعيل: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقول إبراهيم ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤].

والفرق بين الوالدة والأم: أن الوالدة هي التي تلد ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والوالدة لا ترضع حتى تلد، أما الأم فهي التي تلد وتربي ولا يشترط أن تكون هي التي ترضع، ولهذا كل والدة هي أم وليس كل أم والده. فقد تكون الأم مربية أو مرضعة، ولهذا لا يقال للأم المرضعة والده بل أم.

وقد اطلق الله ـ تعالى ـ (أم) على الأصل الطيب والنماء والزكاء والمقدس لكل شيء عظيم، مثل ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٢]، و﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] فكلمة ﴿أُمَّ﴾ هي الأشمل.

وتطلق الأم كذلك على المرضعة ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣] وقد وردت لفظ الأم في القرآن وهو الأكثر ثمان وعشرين مرة، ولم ترد بلفظ (الوالدة) إلا خمس مرات.

ـ وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ عن عيسى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] لإثبات النسب وفي قوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: ٧٥] ليثبت زكائها.

وقال ـ تعالى ـ عن أمهات المؤمنين ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٦] ولم يقل والداتهم؛ لأنهن لم يلدن المسلمين ولكنهم أصل لكل مسلم.

أما (الأب) فيطلق على الأب من الصلب ومن الرضاع؛ لأنه ينفق وزوجته ترضع، أما لفظ (الوالد) الذي خرج من صلبه حتى لو لم ينفق عليه ويثبت لك نسباً.

ـ إذا أمر ـ عز وجل ـ بالبر والدعاء، يستعمل الوالدين وليس الأبوين مثل: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ [العنكبوت: ٨]، ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨] لأن الوالد من الولادة، والتي تلد هي الأم، وهذا فيه إشارة إلى إنها أولى بالبر والصحبة.

﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾.

ولم يجعلني متعظماً متكبراً على أحد، شقياً عاقاً في حياتي، بل جعلني مطيعاً له، خاضعاً خاشعاً متذللاً، متواضعاً لعباد الله.

عن بعض أهل العلم: لا تجد عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً. ثم قرأ: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾.

قال: ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: ٣٦].

* وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله، فليس هو إلهاً، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى، إنما عبد ورسول، يحيا ويموت كسائر البشر، خلقه الله من أم دون أب، ليكون آية على قدرة الله الباهرة.

ثم أكد ـ عز وجل ـ بأن عيسى الموصوف بتلك الصفات هو قول الحق الذي لا شك فيه ولا مرية. ثم قال ـ تعالى ـ مخوفاً ومحذراً:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

قال الطبري: يوم حسرتهم وندمهم على ما فرطوا في جنب الله، وحسرتهم يوم أورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وحسرتهم يوم أدخلوا النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها من حسرة وندامة.

* لما ذكر ـ تعالى ـ قصة مريم واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبدوه من دون الله، أعقبها بذكر قصة إبراهيم وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد الرب الديان، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً، فالنصارى عبدوا المسيح، ومشركو العرب عبدوا الأوثان، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤٢].

في وصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالصديقية قبل وصفه بالنبوة إشارة إلى أن الصدق سجية فيه، وأنه كسائر الأنبياء ـ عليهم السلام ـ عرفوا بين الناس بالصدق قبل بعثتهم.

قال البغوي: والصديق: الكثير الصدق القائم عليه.

وقيل: ومن صدق الله في وحدانيته، وصدق أنبياءه ورسله، وصدق بالبعث وقام بالأوامر فعمل بها فهو الصديق.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: ناداه متلطفاً بخطابه، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان، ذاكراً أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج

السؤال، يا أبت لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، ولا يجلب لك نفعاً، أو يدفع عنك ضرّاً؟

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ كرر النصح باللطف، ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، وإنما ترفق وتلطف في كلامه، وعدل إلى ألطف عبارة تدل على هذا المعنى، أي: جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت. فاقبل نصيحتي، وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك، وهو دين الله الذي لا عوج فيه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾.

أي: لا تطع أمر الشيطان في ما يزين لك من الكفر وعبادة الأوثان، فإن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، ثم حذره من الشيطان فقال: إن الشيطان عاص للرحمن، مستكبر على عبادة ربه، فمن أطاعه أغواه.

قال القرطبي: وإنما عبر بالعبادة عن الطاعة؛ لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ تحذير من سوء العاقبة، والمعنى: أخاف أن تموت على كفرك فيحل بك عذاب الله الأليم، وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران، ومن تلطفه في الدعوة نسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب.

قال العلماء: وقد ابتدأ إبراهيم الخليل خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره، ولم يسمه باسمه، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال، ولم يقل:

لا تعبد، ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

ولم يقل: أنت جاهل، ونسب الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو ألطف من غيره، ثم نكر العذاب، ثم ذكر الرحمن، ولم يقل: الجبار ولا القهار، فأي خطاب ألطف وألين من هذا؟

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩].

وحين اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم للأوثان، وهجر الأهل والأوطان، لم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذرية وعوضه خيراً.

فوهب له إسحاق ويعقوب أولاداً أنبياء، فآنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار. ويعقوب ابن إسحاق وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل.

وقد دل على أن اعتزال الكفار والأوثان والبراءة منهم من فوائده: تفضل الله ـ تعالى ـ بالذرية الطيبة الصالحة على فاعله.

* لما ذكر ـ تعالى ـ إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ على وجه التبجيل والتعظيم، والتعريف؛ بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، وجاء ذكر موسى متناسباً مع السياق لأنه من ذرية يعقوب ـ عليه السلام ـ وهو من أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن. قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه؛ ووهبنا له من نعمتنا عليه وترؤفنا عليه، أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه يؤيده ويؤازره، وهذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في

أمره وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك.

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيّاً.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] وفي قوله تعالى: ﴿ مِن رَّحْمَتِنَآ ﴾ بيان: أن الأخوة رحمة من رحمات الله، ومن رحمة الله قول النبي ﷺ: «وددت لو أني رأيت إخواني».

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ في القرآن الكريم، إسماعيل ـ عليه السلام ـ، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم محمد ﷺ، قال تعالى:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ ﴾.

فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده، وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ [مريم: ٥٤].

قال مجاهد: لم يعد شيئاً إلا وفي به، وقال مقاتل: وعد رجلاً أن يقيم مكانه حتى يرجع إليه الرجل، فأقام إسماعيل مكانه ثلاثة أيام للميعاد؛ حتى رجع إليه الرجل.

قال السعدي: فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله؛ لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝ ﴾.

أي: قائماً لله بطاعته، فنال رضاه وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، وهذا نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ إدريس ـ عليه السلام ـ، على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال، فقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧].

أي: اذكر ـ يا محمد ـ في الكتاب الجليل خبر ـ إدريس ـ إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله، موحى إليه من الله.

قال المفسرون: إدريس هو جد نوح، وأول مرسل بعد آدم، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط، وكانوا من قبل يلبسون الجلود، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة.

* لما ذكر ـ تعالى ـ الأنبياء في الآيات السابقة، وذكر فضائلهم ومناقبهم، ومراتبهم، قال:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

أي: هؤلاء الذين قصصنا عليك خبرهم ـ يا محمد ـ هم أنبياء الله ورسله الكرام، الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة وهم عشرة، أولهم زكريا، وأخرهم إدريس. و﴿مِّنَ﴾ للبيان؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾.

أي: من نسل آدم كإدريس ونوح.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، كإبراهيم، فإنه من ذرية سام بن نوح.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

كإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب، كموسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى، فهذه خير بيوت العالم.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

أي: أخبر الله أن الأنبياء إذا سمعوا كلام الله سجدوا، وبكوا من خشية الله، خضوعاً واستكانة وحمداً وشكراً، على ما هم فيه من النعم العظيمة، مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو النفس، والزلفى من الله ـ تعالى ـ، وذلك لما في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة.

قال القرطبي: وفي الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب، وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دلالة على أن آياته من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة، وهنا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم.

قرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سورة مريم، فسجد، وقال: هذا السجود فأين البكي؟ يريد البكاء.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ بعض ذكر الأنبياء والصالحين قوم آخرون، فقال:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩].

قال العلماء: إضاعتها تتناول تركها، وترك وقتها، وترك واجباتها وأركانها، وأيضاً فإن مؤخرها عن وقتها عمداً متعد لحدود الله، كمقدمها عن وقتها.

سُئل ابن مسعود عن إضاعتها فقال: هو تأخيرها حتى يخرج وقتها، فقالوا: ما كنا نرى ذلك إلا تركها، فقال: لو تركوها لكانوا كفاراً.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ ثواب عباده، فقال:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦١ ـ ٦٣].

قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

ومن مظاهر تفرده - تعالى - أنك لا تجدُ على وجه الأرض ومر الزمان من تسمى باسم (الله) أو (الرحمن) سواه - تعالى -.

ذكر ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى أن هذه الآية: جمعت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

❁ لما ذكر - تعالى - طائفة من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار، وذكر أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، ذكر إثبات قدرته - تعالى - على الإحياء بعد الفناء، وإثبات يوم المعاد، وذكر هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور، المستبعدين لوقوعه، ورد عليها بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة، فقال تعالى:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد: أئذا مت وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حيّاً؟ هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء.

قال ابن كثير: يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، واللام «لسوف» للمبالغة في الإنكار، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، أي كان؟ وكيف كان؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

أي: أولا يلفت نظره، ويتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداءة على الإعادة؟ ولم يَكُ شيئاً، ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعده بعد الفناء وتشتت الأجزاء؟

قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً.

وفي قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها، ويكونوا وقوداً لها.

ثم أتت الآيات في سياق عام لسائر الخلائق برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فقال تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

أي: وما منكم أحد من بر أو فاجر إلا وسيرد على النار بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، المؤمن للعبور، والكافر للقرار. كان ذلك الورود قضاء لازماً لا يمكن خلفه.

روى الإمام أحمد: عن قيس بن حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: رأيت تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ [مريم: ٧١]، فلا أدري أنجو منها أم لا؟

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

أي: ننجي من جهنم بعد مرور الجميع عليها الذين اتقوا ربهم بطاعته، والبعد عن معصيته. ونترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في جهنم قعوداً على الركب، والآية دليل على أن المراد بالورود، الجثو حواليها، وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم.

* قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: ٧٤].

قال ابن تيمية: الأثاث: المال واللباس ونحوه، والرئي المنظر، فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صوراً، وأحسن أثاثاً وأموالاً، ليبين أن ذلك لا ينفع عنده، ولا يعبأ به.

* ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

قال ابن تيمية: ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خُذل.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: ٨٣].

فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وغُمَّة، وخاطر الحق يكون بروح وسكينة.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥].

يحشر المتقون بهذه الهيئة إلى الجنة كما تفدُ الملوك على الملوك تبجيلاً لهم، وتقدم لهم الهدايا والجوائز.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩٢].

نفى ـ سبحانه ـ عن نفسه الولد في التعبير باسم الله (الرحمن) في هذا المقام: إشارة إلى صبره ـ تعالى ـ على أذاهم وإمهاله لهم لعلهم يرجعون ويتوبون.

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

قال النسفي: وفي اختصاص الرحمن وتكريره مرات بيان أنه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن أصول النعم وفروعها منه، فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً

فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن.

* ثم قال ـ تعالى ـ مبشراً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦)﴾.

أي: إن الذيــن جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ســيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين في السماء والأرض محبة ومودة، يحبهم الله ويحببهم إلــى الناس، وإذا كان لهم في القلوب ودٌّ، تيســر لهم كثير من أمورهم، وحصل لهم من الخيرات والدعوات، والإرشاد والقبول والإنابة ما حصل، وبكل حال، فطلبُ شــرف الآخرة يحصلُ معه شرف الدنيا، وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبه، وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي على الفاني.

سورة طه (٢٠)

سورة طه سورة مكية، تركز على جانب العقيدة ونبذ الشرك وإخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ، واتباع رسوله ﷺ، والإيمان به، والإيمان بالبعث والنشور.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: سورة طه مضمونها تخفيف أمر القرآن، وما أنزل الله ـ تعالى ـ من كتبه فهي سورة كُتبه؛ كما أن مريم سوره عباده ورسله.

في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ، في شد أزره، وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يلقى إليه من الكيد والعناد، والاستهزاء والتكذيب، ولإرشاده إلى وظيفته الأساسية، وهي التبليغ والتذكير، والإنذار والتبشير، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان. وقد نزلت هذه السورة والمسلمون في عناء شديد من أذى الكفار، خاصة بعد إعلانهم الدعوة إلى الله والصدع بها، وقد كانت قراءة أول هذه السورة سبباً لإسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

❁ قال تعالى في أول السورة:

﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾.

الحروف المقطعة للتنبيه إلى أعجاز القرآن، وليس اسماً للنبي ﷺ. وقال ابن عباس: معناها يا رجل. ونزلت الآيات في «سورة طه» تطييباً لقلبه ﷺ، وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد، ومعنى الآية: ليس المقصود بالوحي وإنزال القرآن عليك ـ يا محمد ـ لتشقى بما لا طاقة لك به من العمل، إنما أنزلناه رحمة وسعادة، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة الأبدان.

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فنزلت هذه الآية.

قال قتادة في قوله تعالى ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ لا، والله ما جعله الله شقيًا، ولكن جعله الله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

* قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

قال ابن القيم: العرش أوسع المخلوقات، والرحمة أوسع الصفات، فتعالى من استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

أي: ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية، لا معبود بحق سواه، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن، ومن حسنها: أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من حفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، وفي الحديث: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة» [رواه الترمذي].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: إن معرفة أسماء الله وصفاته على الوجه الذي أخبر به ـ عز وجل ـ ورسوله ﷺ توجب على العبد القيام بعبوديته ـ سبحانه ـ على الوجه الأكمل، فكلما كان الإيمان بها أكمل، كان الحب والإخلاص والتعبد أقوى، وأكملهم عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فالإيمان بما تقتضيه الأسماء والصفات يوجد استقامة كاملة في العبد، وإن النفوس قد تهفو إلى مقارنة الفواحش والذنوب، فتذكر أن الله يراها ويبصرها، وتذكر وقوفها بين يدي الله ـ عز وجل ـ فترعوي وتتجانب المعصية، وقد يقع الإنسان في الذنب

والمعصية ثم يذكر سعة رحمه الله، فلا يتمادى في الخطيئة، ولا يوغل في طريق الهاوية، بل يعود إلى التواب الرحيم، قارعاً بابه فيجده تواباً رحيماً ودوداً.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝﴾ [طه: ١٥ ـ ١٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا تنبيه وإشارة إلى التحذير من كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك.

* موسى ـ عليه السلام ـ أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن لشبه حال قومه بكفار قريش، بل له الفضل الذي بوأه الله إياه. ولما بين ـ تعالى ـ لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه بتأييد الله له على عدوه، فقال تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝﴾.

أي: وما هذه التي بيمينك يا موسى؟ أليست عصا؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ، والتنبيه إلى ما سيجد من عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية، لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة. قال ابن كثير: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن؟

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾.

قال موسى: هي عصاي أعتمد عليها في حال المشي، وإذا عييت فيحصل فيها معونة. وأهز بها الشجرة، وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي، فذكر هاتين المنفعتين، الأولى منفعة لجنس الآدمي، والثانية منفعة للبهائم، وهذا الخلق الحسن من موسى ـ عليه السلام ـ، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله

له، واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

وفي قوله ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ نسبها لنفسه فعل الأجير الأمين فإن الغنم لوالد زوجته شعيب.

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أخر غير هذين الأمرين، مما يستعمل فيه العصا في السفر، فكان يحمل بها الزاد، ويشد بها الحبل فيستقي الماء من البئر، ويقتل بها الحيات وغير ذلك من المنافع.

قال المفسرون: كان يكفي أن يقول هي عصاي ولكنه زاد في الجواب؛ لأن المقام مقام مباسطة، وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة، فأراد أن يزيد في الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء، ومن أدب موسى ـ عليه السلام ـ، أن الله لما سأله عما في يده، ولما كان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها، أجابه بعينها، ومنفعتها.

* قال ـ تعالى ـ عن العصا: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

كانت نباتاً، ثم استحالت جماداً، ثم انقلبت حيواناً فتعالى من يصرف الأمور.

* ثم أمر ـ عز وجل ـ وأوحى إليه، أن يتوجه إلى فرعون رأس الكفر والطغيان.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: اذهب بما معك من الآيات إلى فرعون، إنه تكبر وتجبر وجاوز الحد في الطغيان حتى ادعى الألوهية، فامتثل موسى أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب؛ لأنه عرف أنه كلف أمراً عظيما يحتاج إلى صدر فسيح، ودعا ربه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾.

قال موسى: رب وسع صدري ليتحمل المشاق ورديء الأخلاق من فرعون وجنده، ونوره بالإيمان والنبوة. وسهل عليَّ القيام بما أمرتني به، من تبليغ الرسالة إلى فرعون.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

أي: حل وأزل هذه الكنة الحاصلة في لساني حتى يفهموا كلامي.

قال المفسرون: عاش موسى في بيت فرعون فوضعه فرعون مرة في حجره وهو صغير، فجر لحية فرعون بيده، فهم بقتله، فقالت له زوجته آسية: إنه لا يعقل وسأريك بيان ذلك؛ قدم إليه جمرتين ولؤلؤتين، فإن أخذ اللؤلؤة عرفت أنه يعقل، وإن أخذ الجمرة عرفت أنه طفل لا يعقل، فقدم إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه فكان في لسانه حبسة.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾.

أي: اجعل لي معيناً وظهيراً يساعدني ويكون من أهلي، لتقوي به يا رب ظهري، ويكون عوناً لي. واجعله شريكاً لي في النبوة، وتبليغ الرسالة كما جعلتني، وهو أخي هارون لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته. وهذا أصل في استصحاب المعاون على الأمر والنهي. ثم ذكر الفائدة في ذلك، فقال:

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: كي نتعاون على تنزيهك عما لا يليق بك، ونذكرك بالدعاء والثناء عليك، ونتعاون على البر والتقوى.

- وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [طه: ٢٥ - ٢٣]. أدب من آداب الدعاء، وهو نبل الغاية، وشرف المقصد.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

أي: عالماً بأحوالنا وضعفنا، وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، لا يخفى عليك شيء من أعمالنا. طلب موسى من ربه أن يعينه بأخيه يشد به أزره، لما يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يشركه معه في المهمة لما يعلم من طغيان فرعون وتكبره وجبروته.

* بعد أن أطال موسى سؤله وبسط حاجته، وكشف عن ضعفه، وطلب العون والتيسير من ربه، وهو العارف به، وبجوده وكماله وإحسانه، سئل سؤال فقير محتاج، ضعيف يطلب العون، فما كان من الجواد الكريم، إلا أن استجاب دعاء موسى، وأتم له مراده، قال تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: قال الله: أعطيت يا موسى جميع ما سألت، وما طلبت.

ثم ذكره ـ تعالى ـ بالنعم العظام عليه ليزيده اطمئناناً وأنساً بموصول رحمته وقديم رعايته. فإنه ـ عز وجل ـ لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى ابن عمران، في الدين والوحي، والرسالة وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال تعالى:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: ألهمناها ما يلهم، مما كان سبباً في نجاتك، ثم فسر ذلك الإلهام وعدد نعمه عليه، فقال:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

أي: ألهمناها أن اجعلي هذا الطفل في الصندوق، ثم اطرحيه في نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها، فاتخذت أم موسى تابوتاً ووضعت فيه موسى ثم ألقته في النيل،

وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فأمر الله اليم أن يلقيه النهر على شاطئه.

وفي فعل أم موسى مقتضى التسليم للأمر الشرعي، القته دون أن تسأل عن الحكمة مع شدة غرابة الأمر وخطورته.

وقيض الله أن يأخذه فرعون عدوي وعدوه، فبينما فرعون جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذ تابوت يجيء به الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوا رأسه، فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك، فذلك قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

أي: زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبك عدوك فرعون.

قال ابن عباس: أحبه الله وحببه إلى خلقه. ولعل إلقاء المحبة عليه أن أعجبت بنت شعيب بقوته وأمانته، فأومات إلى رغبتها فيه، فآواه شعيب وزوجه إحدى ابنتيه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾.

ولتربى بعين الله، بحفظه ورعايته.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ ما جرى من أخت موسى ـ عليه السلام ـ، حيث أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأباها. فقال:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾.

أي: حين تمشي أختك وتتبع أثرك، فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع: هل أدلكم على من يضمن لكم حضانته ورضاعته؟

قال المفسرون: لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة؛ لأن الله حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة، فأمرت أخته أن تتبع خبره، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته، قالت: هل أدلكم على

امـــرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هـــذا الطفل؟ فطلبوا منها إحضارها، فأتت بأم موســـى فلما أخرجت ثديها التقمه، ففرحت زوجة فرعون فرحاً شـــديداً، وقالت لها: كوني معي في القصر، فقالت: لا أستطيع أن أترك بيتـــي وأولادي ولكن آخـــذه معي وآتي لك به كل حـــين، فقالت: نعم، وأحسنت إليها غاية الإحسان، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أغنى وأجزل، فذلك قوله تعالى:

﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ .

أي: رددناك إلى أمك بعدما صرت في أيدي فرعون لكي تسر بلقائك، وتطمئن بسلامتك ونجاتك، ولكيلا تحزن على فقدك وفراقك.

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ .

هذه منّة أخرى على موســـى، أي: قتلـــت القبطي خطأ حين أصبحت شاباً، فنجيناك من غم القتل، وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته، وابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن، فوجدناك مستقيماً في أحوالك.

قـــال ابن عباس: إن الفتون وقوعه في محنة بعد محنة خلصه الله منها، أولها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في البحر في التابوت، ثم منعه الرضاع إلا من ثدي أمه، ثم أخذه باللحية فرعـــون حتى هم بقتله، ثـــم تناوله الجمرة بدل الـــدُّرَّة، ثم قتله القبطي، وخروجه إلى مدين خائفاً.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤله، ذكر هنا ما خصـــه به وأنعم عليه من الاصطفاء والاجتباء، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة، وسجودهم لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾.

أي: تجبر وتكبر، وبلغ النهاية في العتو والطغيان، والكفر، والعدوان. فقولا لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً، دون فحش ولا غلظة في المقال، أو فظاظة في الأفعال، وهذا اللين في الأسلوب والطريقة، ولم يكن في المضمون والعقيدة.

وفي هذه الآية عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين.

فسبحانه ما أعظمه وأحلمه، يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه.

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: لعله يتذكر عظمة الله، أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه، ويعرف ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه.

قرأ رجل عند يحيى بن معاذ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ فبكى يحيى، وقال له: إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، هذا رفقك بمن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] فكيف بمن قال: سبحان ربي الأعلى.

* ثم قال ـ تعالى ـ إخباراً عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، أنهما قالا مستجيرين بالله ـ تعالى ـ، شاكين إليه:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: قال موسى وهارون: يا ربنا إننا نخاف إن دعوناه الى الإيمان أن يعجل علينا العقوبة بالقتل، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة.

وفي هذا دلالة على أن الخوف من شر البشر لا يضير الإيمان، وليس دليلاً على نقصه، لأن هذا الخوف يتبعه الاستعداد للأمر والحذر والحيطة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: لا تخافا من سطوته وجبروت، إنني معكما بالنصرة والعون والحفظ والتأييد، أسمع جوابه لكما، وأرى ما يفعل بكما، أنتما بحفظي ورعايتي، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما.

ومع الطمأنينة والهداية إلى صورة الدعوة وطريق الجدال.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

أي: فأتيا فرعون بهذين الأمرين لدعوته، وقولا: إنا رسولان من عند ربك، أرسلنا إليك، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ علامه أنه مربوب وعبد مملوك لله إذ كان يدعي الربوبية، وفي ضمن الكلام: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا نشركك فيه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: أطلق سراح بني إسرائيل وخلِّ عنهم، ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة. قد جئناك بمعجزة وحجة تدل على صدق ما ادعيناه. والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله.

قال المفسرون: لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب، وإنما قصد به السلام من عذاب الله وسخطه، أو هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه. فجمعت الآية طلب الإنصاف، وإقامة الحجة، وبيان ما يستحقه السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي، بألطف خطاب، وألين قول، وأبلغ ترغيب وترهيب.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وقد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا، أن العذاب الأليم على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك.

وفي الآية تدرج عجيب، ففي البدء إيضاح قاعدة رسالتهما ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ليقر منذ اللحظة الأولى بأن هناك إلهاً هو ربه، ثم إيضاح لموضوع رسالتهما ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، ثم استشهاد على صدقهما في الرسالة ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ ثم ترغيب واستمالة. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ ثم تهديد وتحذير غير مباشرين كي لا يثيرا كبرياءه وطغيانه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾. وفي هذا بيان شاف لأصول الدعوة وأساليبها.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وهو الحفيظ: يحفظ أعمال العباد ويحصي أقوالهم، ويحفظ عباده من المهالك والمعاطب، حفظ يونس ـ عليه السلام ـ وهو في بطن الحوت في لجج البحار، وحفظ موسى ـ عليه السلام ـ وهو رضيع في اليم، فتوكل على الله في حفظ نفسك وأولادك، فلا تعاويذ شركية ولا تمائم ولا سحرة ولا كهان، وهو القوي؛ لا يعجزه شيء، قوي في بطشة.

قال ابن جرير ـ رحمه الله ـ: إذا بطش بشيء أهلكه، أمر جبريل ـ عليه السلام ـ بقلب قرية عاتية بالفواحش قوم لوط فعلا بها بطرف جناحه لهم قلبها بمن فيها وجعلها آية للاعتبار عبر القرون ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]، ومن تأمل قوة من عصى ترك ما عصى.

* ثم قال ـ عز وجل ـ:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

دليل على أن دفن الأموات في الأرض هو الطريقة الشرعية لموارة الموتى. خلاف ما يفعله بعض الأمم المنحرفة عن الطريق الشرعي بالإحراق أو الإغراق.

* ثم لما تكبر فرعون وعصى، وجمع كيده وسحرته ضرب بينهم:
﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.
قال موسى: موعدنا للاجتماع يوم العيد ـ يوم من أيام أعيادهم ـ وأن يجتمع رؤوس الأشهاد، وقت الضحى لتكون أبعد عن الريبة، وأبين، ولتحصل رؤية الأشياء على حقائقها ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزة للناس.
﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤].
لأن ذلك أهيب لهم وأوقع في قلب العدو.
* قال تعالى ـ في قصة موسى مع السحرة: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه: ٦٥].
قال ابن كثير: والحكمة في هذا ـ والله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له، وانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان.
* ولما ألقى موسى عصاه، خر السحرة سجداً:
﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ [طه: ٧٢].
فيها أن السجود من أعظم ما ينال العبد عظيم اليقين، فألقى في قلوب السحرة الإيمان واليقين ووجدوا حلاوته، رغم أنهم ليس لهم أيام ولا شهور ولا أعوام في الطاعة والإيمان والعمل الصالح، لكن تلك الحظوة الإلهية نالوها ببركة سجودهم، حتى يعلم أثر العمل الصالح على قلب العبد.
﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٩].
ولم يقل: (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعل مخرج العموم، أي إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البته. ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم، لكنه قال: ﴿وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ أي: ما هدى أحداً.

* ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

وهو الغفور، يمحو ذنوب من أناب إليه من عباده، وإن تناهت خطاياه، غفر لسحرة فرعون كفرهم وسحرهم ومبارزتهم لنبيهم، بسجدة واحدة لله مقرونة بتوبة.

من أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يصعب تصحيحها.

وقد جمعت هذه الآية الأسباب التي تدرك بها مغفرة الله.

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤].

قال ابن القيم: وظاهر الآية أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضى ربه، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره والعجلة إليها، ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل، سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك، قال: إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠].

اعلم أن هارون ـ عليه السلام ـ، سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم عن الباطل أولاً، بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾، ثم دعاهم لمعرفة الله ـ تعالى ـ ثانياً، بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة، بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾﴾.

* قال الشنقيطي: إذا ضممت قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ [طه: ٩٤] إلى قوله سبحانه ـ لما ذكر جملة من الأنبياء ومنهم

هـارون ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] تبين لزوم إعفـاء اللحية وعـدم حلقها؛ لأن هارون من الأنبيـاء الذين أمر نبينا ﷺ بالاقتداء بهم، وأمْرُه ﷺ بذلك أمر لنا.

❁ قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾ [طه: ٩٤].

قـال ابن كثير: ترقق له بذكر الأم مع أنه شـقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف.

وقال الشنقيطي: وإنما قال هارون لأخيه: قال: يا ابن أم؛ لأن قرابة الأم أشد عطفاً وحناناً من قرابة الأب.

❁ وفـي ثنايا السـورة الكريمة تبرز بعض مشـاهد القيامة، في عبارات يرتجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، ويعتري الناس الذهول والسـكون، فقد ذكر ـ تعالى ـ أهوال يـوم القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: فيدع أماكن الجبال من الأرض أرضاً ملسـاء مستوية، لا نبات فيها ولا بنـاء. لا يرى الناظر إليها من اسـتوائها ميلاً وانخفاضاً ولا ارتفاعاً، فتبـرز الأرض، وتتسـع للخلائق، ويمدها الله مـن الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: ذلت وسـكتت أصوات الخلائق هيبة من الرحمن ـ جل وعلا ـ، وإجلالاً له. ووصف الأصوات بالخشوع والمراد أهلها، فلا تسمع إلا وطء الأقدام، أو لا تسمع إلا صوتاً خفيّاً لا يكاد يسمع.

عن ابن عباس: هو همس الأقدام في مشيها إلى المحشر.

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر، حيث يتم الحساب العادل، ويعود الطائعون إلى الجنة، ويذهب العصاة إلى النار، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين. يذكر الله ـ عز وجل ـ في ذلك الموقف موقع الشفاعة وأثرها، وأنها لا تنفع إلا بشروطها، قال تعالى:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

أي: ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار، جبار السموات والأرض الذي لا يموت، القائم على تدبر شؤون خلقه.

وقيل: المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب، صار وجوههم عانية، أي: ذليلة خاضعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى.

قال القرطبي: وكنى عن الناس بالوجوه، لأن آثار الذل إنما تبين في الوجه.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢].

لأن العمل لا يقبل من غير إيمان.

* قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٤].

وفي وصفه بالحق إيماء إلى أن ملك غيره من المتسمين بالملوك لا يخلو من نقص.

وفيه تلطف مع النبي ﷺ، إذ أتبع نهيه عن التعجل الذي يرغبه بالإذن له بسؤال الزيادة من العلم، فإن ذلك مجمع كل زيادة سواء كانت بإنزال القرآن أم بغيره من الوحي والإلهام إلى الاجتهاد تشريعاً وفهماً، إيماء إلى أن رغبته في التعجل رغبة صالحة.

ويؤخذ منها الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر، حتى يفرغ المملـي والمعلم من كلامه، المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال، وقطع كلام ملقي العلم، فإنه سبب للحرمان.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقوله عز وجل: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ واضح الدلالة في فضل العلم، لأن الله ـ تعالى ـ لم يأمر نبيه بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم.

* ثم عرضت السورة لقصة آدم، ورعاية الله له وعنايته به أن حذره من عدوه إبليس عقب نشوزه وعصيانه، ثم برزت رحمة الله لآدم بعد الخطيئة، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥].

أي: نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عما نهيناه عنه، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم. ثم يذكر ـ تعالى ـ تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: واذكر ـ يا محمد ـ حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، فامتثلوا الأمر وأطاعوا إلا إبليس، فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه. وقد كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم.

* ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧].

أي: ونبهنـــا آدم فقلنا له إن إبليس شـــديد العداوة لك ولحواء حيث لم يسجد لك ولم ير فضلك، فاحذرا منه، ولا تطيعاه بمعصيتي. فيكون سبباً لإخراجكمـــا من الجنة فتتعبان وتنصبان، ، وإنما اقتصر على شـــقائه مراعاة للفواصل، ولاستلزام شقائه لشقائها.

قال ابن كثير: المعنى إياك أن يسعى في إخراجك من الجنة فتتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد، بلا كلفة ولا مشـــقة، وتأمل كيف شرك بينهما في الخروج من الجنة، وخص الذكر بالشقاء؛ لأن الأصل أن الذكر هو الذي يشتغل بالكسب والمعاش، وأما المرأة فهي في خدرها. ولا شـــك أن هذا من التكريم لها وصيانتها، ومراعاة ملكات وقدرات كل من الجنبين وما خلق له من أعمال الدنيا.

قيل: أسند الشقاء إلى آدم دون حواء؛ لوجهين.

أن في ضمن شـــقاء الرجل شـــقاء أهله، كما أن في سعادتهم سعادته؛ لأنه القيم عليهم. والثاني: من الشقاء التعب في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة؛ لأن الرجل هو الساعي على زوجته.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: إن لك يا آدم، ألا ينالك في الجنة الجوع، ولا العري عن الملابس؛ لأنهـــا معدة أبداً فيها، وقرن بين الجوع والعـــري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس، إذ ليس فيها شـــمس فأهلها في ظل ممدود؛ ولأن الجنة دار الســـرور والحبور، لا تعب فيها ولا نصب، ولا حر ولا ظمأ، بخلاف دار الدنيا، فضمن له اســـتمرار الطعام والشـــراب، والكسوة والماء، وعدم التعب والنصب، وقرن به الظمأ والضحى فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

مـــن عجائب هاتين الآيتين ـ رغم قصرهما ـ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩].

أنهما جمعتا أساســيات الحياة، وهما أكثر ما يشـــد الإنســـان إلى الحياة الهنية: الطعام، واللباس، والشراب، والسكن.

وفيها أن الحشمة والستر من نعيم الجنة الذي تتلذ به النفوس العفيفة في دنياها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها، فظهرت لهما عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما.

قال ابـــن عباس: عريا عن النور الذي كان الله ـ تعالى ـ قد ألبســـهما إياه حتى بدت فروجهما. وشرعا يأخذان من أوراق الجنة، وهو ورق التين ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها.

* قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢٣].

قـــال ابن الجوزي: فوجدته على الحقيقة أن كل من اتبع القرآن والســـنة وعمل بما فيهما، فقد ســـلم من الضلال بلا شـــك، وارتفع في حقه شقاء الآخرة بلا شك إذا مات على ذلك، وكذلك شقاء الدنيا فلا يشقى أصلاً، ويبين هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝﴾ [الطلاق: ٢].

قـــال ابن عباس: من قرأ القرآن واتبع ما فيـــه، هداه الله من الضلالة، ووقاه ســـوء الحساب، ولقد ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية.

وقال ابن تيميــة: من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون، ولا يشقى كما شَــقِيَ المغضوب عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

* قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

قال ابن كثير: أي ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس مـا شـاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة.

وقــد ذكر المعيشــة الضنك، في مقابلة التوسـيع علـى النفس والبدن بالشــهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشــة ضنكاً، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح.

* قــال تعالــى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

أي: اصبــر علــى ما تقوله قريش كما صبر موســى من قبل على إيذاء قومــه، وفي الآية: أمران كريمان: أمــر بالصبر، وأمر بعبادة الله وطاعته، وهــذان الأمران هما أعظم علاج لمشــكلات الحيــاة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

* وختمت الســورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله. قال تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٢٦].

فإضافة ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ إضافة تشريف، وإلا فالرزق كله من الله، ولكن رزق الكافرين لما خالطه وحف به حال أصحابه من غضب الله عليهم، ولما فيه من التبعة على أصحابه في الدنيا والآخرة لكفرانهم النعمة، جعل كالمنكور انتسابه إلى الله، وجعل رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران ومن تبعات ذلك.

قال ابن تيمية: ومن نظر إلى الخيل والبهائم والأشجار على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين، وإنما فيه راحة النفس فقط، كالنظر إلى الأزهار، فهذا من الباطل الذي قد يستعان به على الحق.

* قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

أي: لا نكلفك رزقاً لنفسك ولا خلقنا، إنما نأمرك بالعبادة ورزقك علينا. وكان بكر بن عبد الله المزني إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا فصلوا، ثم يقول: بهذا أمر الله ـ تعالى ـ ورسوله، ويتلو هذه الآية.

وفي قوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أمر زائد على الصبر، والآباء والأمهات يعلمون ذلك الجهد والتعب لحث أبناءهم على الصلاة والمحافظة عليها.

سورة الأنبياء (٢١)

سورة الأنبياء من السور المكية، وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة من الرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وتتحدث عن الساعة وشدائدها، والقيامة وأهوالها، وسورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، وفيها قصص الأنبياء والمرسلين.

سميت «سورة الأنبياء»؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها جملة من الأنبياء الكرام في استعراض سريع، يطول أحياناً ويقصر أحياناً، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله، وتفانيهم في تبليغ الدعوة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، بينما القيامة تلوح لهم، وهم في غفلة عن ذلك اليوم الرهيب، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب.

ومطلع السورة مؤثر حقاً في النفوس المؤمنة، ومما يزيدها تأثيراً أن نصفها إنذار للناس، والنصف الثاني توبيخ لهم على غفلاتهم.

قال ابن تيمية: وسورة الأنبياء سورة الذكر، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر، افتتحها بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

* قال ـ تعالى ـ في مطلع السورة:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ هذا تعجب من حالة الناس، وغفلتهم، وتنبيه من الله ـ عز وجل ـ على اقتراب الساعة ودنوها، وأنه قد قرب ودنا وقت محاسبة الله للناس على أعمالهم يوم القيامة.

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه، وقد أصاب أرضاً، فقال له: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝﴾.

* قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٠].

لم يقل: (يسبحون في الليل) لأن تسبيحهم مستمر في كل آن ولحظة!

قال ابن بطال: من كان كثير الذنوب، وأراد أن يحطها الله عنه بغير تعب! فليغتنم ملازمة مكان مصلاه بعد الصلاة؛ ليستكثر من دعاء الملائكة واستغفارهم له، فهو مرجو إجابتهم، لقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٣٦].

قال السعدي: وفي ذكر اسمه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن ـ مسدي النعم كلها ودافع النقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو ـ بالكفر والشرك.

* قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝﴾ [الأنبياء: ٣٢].

مناسبة موقع الجملتين: أن ذكر استهزاء المشركين بالنبي ﷺ يهيج حنق المسلمين عليهم، فيودوا أن ينزل بالمكذبين الوعيد عاجلاً فخوطبوا بالتريث

وأن لا يستعجلوا ربهم لأنه أعلم بمقتضى الحكمة في توقيت حلول الوعيد، وما في تأخير نزوله من المصالح للدين. وأهمها مصلحة إمهال القوم حتى يدخل منهم كثير في الإسلام.

* قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وذكر (الوجوه) خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسه، وهو أحرص على الدفاع عنه، ثم ذكر (الظهور) ليبين عموم النار لجميع أبدانهم.

* قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وقدم الليل؛ لأنه زمن المخاوف لأن الظلام يعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان، وعلل الأجسام.

* قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء: ٤٦].

تأمل هذا التهديد والوعيد بأسلوب بديع: (المس) هو الإصابة الحقيقة، و﴿مِّنْ﴾ القليل من الشيء، و﴿نَفْحَةٌ﴾ دالة على التبعيض، و(العذاب) أخف من النكال، و﴿رَبِّكَ﴾ هذا يدل على الشفقة.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١] وفي ضد ذلك من يرغب في ذلك ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

* قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم وهو يدعوه:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢].

قال العلماء: وليس العكوف على التماثيل على الصور الممثلة فقط، بل تعلق القلب بغير الله وانشغاله به والركون إليه، عكوف منه على التماثيل

التـي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا سـماه النبي ﷺ عبداً لها، ودعا عليه بالتعس والنكس، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش».

* ثم وصف - تعالى - ماذا صنع إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيـم إلا على وجـه إضافته لأصحابه، كمـا كان النبي ﷺ إذا كتب إلـى ملوك الأرض المشـركين، يقول: «إلى عظيم الفـرس»، «إلى عظيم الروم»، ونحو ذلك، ولم يقل: «إلى العظيم». ولعل هذا من إنزال الناس منازلهـم رغبة في دعوتهم وهدايتهم، وأسـرع نفاذاً لقبول الحق والدخول في الإسلام.

* فضل الله واسـع وعطاءه عظيم يعطي بدون سؤال، ويعطى من سئل ويفيض بالجود.

قـال تعالـى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

وقـال تعالـى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٩ - ٩٠].

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ۝ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا

وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٣ ـ ٧٥].

قال ابن تيمية: بالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات.

* قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهذه الآية أصل في اختلاف الاجتهاد، وفي العمل بالراجح، وفي مراتب الترجيح، وفي عذر المجتهد إذا أخطأ الاجتهاد، أو لم يهتد إلى المعارض، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾.

قال الحسن: لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه ـ تعالى ـ أثنى على سليمان بصوابه، وعذر داود باجتهاده.

* لما ذكر ـ تعالى ـ جملة من الأنبياء: إبراهيم، ونوح، ولوط، وداود، وسليمان، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن، في ماله وولده وجسده، ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى، وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسى بهم، قال تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾.

أي: واذكر ـ يا محمد ـ قصة نبي الله أيوب مثنياً، معظماً له، رافعاً لقدره، حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً، راضياً عنه، ومكث في مرضه مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله وذهب ماله، فصبر واحتسب، ودعا ربه بتضرع وخشوع.

﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾.

قيل: ليس شكاية وإنما هو دعاء، حيث توسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، أي: نالني البلاء والكرب والشدة.

قال المفسرون: كان أيوب نبيّاً من الروم، وكان له أولاد ومال كثير، فأذهب الله ماله فصبر، ثم أهلك الأولاد فصبر، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصبر، فمر عليه ملأ من قومه، فقالوا: ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم، فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: أكثرهم رحمة فارحمني، ولم يصرح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه، فكان فيه من حسن التلطف، ما ليس في التصريح بالطلب.

وقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه ـ سبحانه ـ وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلي هذا كشف عنه بلواه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾.

أي: أجبنا دعاءه وتضرعه. وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء، وضعف وسقم، إنعاماً عليه. وفي الآية من كمال التوحيد: التنزيه للرب ـ تعالى ـ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب والهم والغم، وأبلغ الوسائل إلى الله ـ سبحانه ـ في قضاء الحوائج، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كمال لله، وسلب كل نقص وعيب وتمثيل عنه، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله وإقاله عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه. فهاهنا أربعة أمور: قد وقع التوسل بها: التوحيد، والتنزيه، والعبودية، والاعتراف.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

أي: ورددنا عليه ما فقده من أهل وولد ومال مضاعفاً، وهذا من فضل الله وجوده، يعطي السائل فوق ما سئل. والمعنى: أعطيناه أهله في الدنيا،

ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع.

قال ابن مسعود: مات أولاده وهم سبعة من الذكور، وسبعة من الإناث، فلما عوفي أحيوا له، وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: من أجل رحمتنا إياه، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة. وجعلناه تذكرة وعظة وعبرة لغيره من العابدين، ليصبروا كما صبر، فيجعلوه أسوة وقدوة، عندما يصيبهم الضر، فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء، وفي هذا تذكير للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحنته وصبره؛ وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا، مثل ما فعل أيوب، وهو أفضل أهل زمانه. يروى أن أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة، فقالت له امرأته يوماً: لو دعوت الله ـ عز وجل ـ فقال لها: كم لبثنا في الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال: إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي.

* ثم قال ـ عز وجل ـ ذاكراً عباده المصطفين، وأنبياءه المرسلين، بأحسن الذكر، وأجمل الثناء، قال تعالى:

﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: واذكر لقومك قصة إسماعيل ابن إبراهيم، وإدريس بن شيث، وذا الكفل، وهما نبيان من أنبياء بني إسرائيل. كل من هؤلاء الأنبياء المذكورين، من أهل الإحسان والصبر، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى، فاستحقوا الذكر بالثناء الجميل.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: أدخلنا بصبرهم وصلاحهم الجنة، دار الرحمة والنعيم؛ لأنهم من أهل الفضل والصلاح، ويشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله،

وصلاح الجوارح، باشـتغالها بطاعـة الله، وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحهم أدخلهم الله برحمته.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ عبده ونبيه ذا النون، أي: صاحب الحوت وهو يونس بن متى ـ عليه السلام ـ، ذكره بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فقال تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

قال رسـول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له» [رواه الترمذي].

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا وعدٌ وبشارة لكل مؤمن وقع في شـدة وغم، أن الله ـ تعالى ـ سـينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف لإيمانه، كما فعل بـ (يونس) ـ عليه السلام ـ.

وقد ذكر ـ عز وجل ـ سـبب الإنجاء للأنبياء المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبيـاء: ٩٠] وقال ـ تعالى ـ في سـورة الأنعام: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٨٥].

قال القصاب: فالتهليل والتسـبيح يجليان الغموم، وينجيان من الكرب والمصائب، فحقيق على من آمن بكتاب الله أن يجعلها ملجأ في شـدائده، ومطية في رخائه، ثقة بما وعد الله المؤمنين من إلحاقهم بذي النون في ذلك،

حيث يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وكرم الرب يتجاوز طمع الأنبياء فيه ـ مع عظيم علمهم به ـ فهذا زكريا لهج بالدعاء ونادى ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ فاستجيب له وجاءته البشرى فلم يملك أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فلله فما أعظم إحسان ربنا! وما أوسع كرمه! فاللهم بلغنا ـ برحمتك ـ فوق ما نرجو فيك ونؤمل. وكثير ما ردد من حرم الذرية ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ فكانت الذرية عقباً عَقِب عقب.

❁ ثم ذكر ـ عز وجل ـ عبده ورسوله ذكريا، منوهاً بذكره، ناشراً مناقبه وفضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه للخلق، قال تعالى:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾.

أي: واذكر ـ يا محمد ـ خبر رسولنا زكريا، حين دعا ربه دعاء مخلص منيباً لما كبرت سنه، قائلاً: رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث، وذلك لما تقارب أجله خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله.

قال ابن عباس: كان سنة مائة، وسن زوجته تسعاً وتسعين.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت، وخير من يخلفني بخير، وفيه مدح له ـ تعالى ـ بالبقاء، وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء، واستمطار لسحائب لطفه ـ عز وجل ـ فهو دعاء وثناء مناسب للمسألة.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾.

أي: أجبنا دعاءه، ورزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته، وهو النبي الكريم الذي لم يجعل الله له سمياً.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾.

أي: جعلناها ولوداً بعد أن كانت عاقراً.

قال ابن عباس: كانت سيئة الخلق طويلة اللسان، فأصلحها الله ـ تعالى ـ فجعلها حسنة الخلق.

قال بعض العلماء: ينبغي للرجل أن يجتهد إلى الله في إصلاح زوجته، وكان من دعاء الأنبياء: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

تدل الآية على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس ـ عليه السلام ـ.

* ثم لما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كُلّاً على انفراده، أثنى عليهم عموماً، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء؛ لأنهم كانوا صالحين يجدون في طاعة الله، ويتسابقون في فعل الخيرات، ويبادرون لعمل الصالحات. ولم يقل: يسارعون إلى الخيرات، لأنهم الآن منهمكون في أعمال خيره، فهمهم المسارعة فيها، والازدياد منها، بخلاف من يسارع إلى شيء، فكأنه لم يكن فيه أصلاً، فهو يسرع إليه ليكون فيه، وهذا للاقتداء والائتساء بهم واتخاذهم قدوات.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: طمعاً ورجاء في رحمتنا، وخوفاً وفزعاً من عذابنا، لا غافلون، ولا لاهون، ولا مدلون. وكانوا متواضعين متذللين، خاضعين لله، يخافونه في السر والعلن، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

قال الحسن: دام خوفهم من ربهم فلم يفارق خوفه قلوبهم، إن نزلت بهم رغبة خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم، وإن نزلت بهم رهبة خافوا أن يكون الله ـ عز وجل ـ قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم.

قال أبو بكر الصديق: هذا كتاب الله، لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، واستضيئوا منه اليوم ليوم الظلمة، واستنصحوا كتابه وتبيانه، فإن الله قد أثنى على قوم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* ثم بعد هؤلاء الأنبياء، ذكر مريم ـ عليها السلام ـ، مثنياً عليها، مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها، منوها بعفتها وحصانتها فقال تعالى:

﴿وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

أي: واذكر مريم البتول التي أعفت نفسها عن الفاحشة وعن الحرام بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، ولا يذكر هنا اسم مريم؛ لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها ـ عليه السلام ـ وقد جاءت هي تبعاً له في السياق.

قال ابن كثير: ذكر ـ تعالى ـ قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيي؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها، وهذه أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، ولذلك ذكر قصة مريم بعدها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: أمرنا جبريل فنفخ في جيب ـ قميصها ـ فدخلت النفخة إلى رحمها، فخلق الله بذلك النفخ عيسى ـ عليه السلام ـ، فحملت به من غير زوج، وأضاف الروح إليه تشريفاً لعيسى ـ عليه السلام ـ.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

حيث حملت به دون زوج، ووضعته دون مسيس أحد. أي: وجعلنا

مريم مع ولدها عيسى، علامة وأعجوبة للخلق، تدل على قدرتنا الباهرة حيث خلق وولد من غير أب، ليعتبر بها الناس، ويتحدثون بها جيلاً بعد جيل.

قال ابن حزم في المحلى: إذا تأملت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠١] وأضفت له قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠] تبين لك أن الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً؛ لأن وعد أهل الحسنى بالإبعاد عن النار، وأخبر أن الصحابة سواء من أسلم قبل الفتح أو بعده موعود بالحسنى.

* قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

والفزع الأكبر: أهوال يوم القيامة، والبعث، وقال الحسن: هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار.

وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها وذبح الموت بين الجنة والنار.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ١١٠].

اختص الله ـ تعالى ـ بعلم الجهر من القول من جهة أنه إذا اشتدت الأصوات وتداخلت فإنها حالة لا يسمع فيها الإنسان، ولا يميز الكلام، أما الله ـ عز وجل ـ فإنه يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سمع كلام عن سمع آخر.

* قال ابن هبيرة: في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

المراد منه: كن أنت ـ أيها القائل ـ على الحق؛ ليمكنك أن تقول: احكم بالحق، لأن المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق!

سورة الحج (٢٢)

سورة الحج سورة مدنية، فيها من التوحيد والحكمُ والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره، ومنها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة وزكاة وصياماً. ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها طابع السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد، حاضر فيها، حتى ليكاد يخيل للقارئ أنها من السور المكية، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال، وأحكام الحج والهدي، والأمر بالجهاد في سبيل الله، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السورة المدنية، حتى لقد عدها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي.

سميت «سورة الحج» تخليداً لدعوة الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى الناس لحج بيت الله الحرام فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء «لبيك اللهم لبيك».

ولم تسم سورة باسم ركن من أركان الإسلام إلا (الحج) ولا يعرف لها غير هذا الاسم، ولم تجتمع سجدتان في سورة إلا فيها.

قال شيخ الإسلام: سورة الحج تضمنت منازل السير إلى الله بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها.

قيل: وهذا ظاهر من اسمها، فالحج لغة: هو القصد إلى معظم، ومن أعظم من الله؟!

ذكر القرطبي عن الغزنوي: أنه قال: سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، مكيّاً ومدنيّاً، سلميّاً وحربيّاً، ناسخاً ومنسوخاً، محكماً ومتشابهاً.

قال ابن تيمية: سورة الحج فيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بَيِّن لمن تدبره.

ابتدأت السورة الكريمة بمطلع مهيب مخيف، ترتجف له القلوب، وتطيش لهوله العقول، ذلك هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، ويزيد في الهول على خيال الإنسان؛ لأنه لا يدك الدُّور والقصور فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المسقطات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى من الخمر، وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب، الذي تتزلزل له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾.

تعليل للأمر بالتقوى، أي: إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله، ولا يقدر قدره، والزلزلة شدة التحريك والإزعاج، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾.

أي: تغفل وتذهل ـ مع الدهشة وشدة الفزع ـ كل أنثى مرضعة عن رضيعها، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل ـ لهول ما ترى ـ عن أحب الناس إليها ومن جبلت على شدة محبتها له، خصوصاً في هذه الحال التي لا يعيش إلا بها، وهو طفلها الرضيع.

والمرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ في هذا المقام، فإن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة؛ فإذا التقم الثدي برضاعة لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع.

قال الزمخشري ـ: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال

وصفهـا بـه، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهـول، إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها: نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾.

وتضع كل حبلى من شدة الفزع والهول ولدها قبل تمامه. تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾.

أي: تحسـبهم ـ أيها الرائي لهم ـ سكارى، يترنحون ترنح السكران من هـول ما يدركهـم من الخوف والفزع. وما هم على الحقيقة بسـكارى من الخمر.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾.

استدراك لما دهاهم، أي: ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم، فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

* ذكـر الله ـ عز وجـل أطوار ومراحل حياة الإنسـان، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝﴾ [الحج: ٥].

* ولما ذكر ـ تعالى ـ ما أعد للكفار من العذاب والدمار، ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب والنعيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية رجالهم ونساؤهم كحلية وزينة، يتزينون بها. ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم، ولباسهم في الجنة الحرير، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا، فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات، وذكر الأنهار السارحات، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: أرشدوا في الدنيا إلى الكلام الطيب، والقول النافع، الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله. وهدوا إلى صراط الله، وهو الجنة دار المتقين.

والحميد، هو الله المحمود في أفعاله. وذكر الحميد هنا، ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم، ومنته عليهم.

* وصف الله المسجد الحرام بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥].

للإيماء إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه؛ لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه، فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه، أي: المستقر في المسجد، والبادي - أي البعيد عنه إذا دخله.

* ثم يذكر - تعالى - عظمة البيت الحرام، وجلالته، وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، وفيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فقال:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

* ثم قال تعالى:

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: طهر بيتي من الشرك والمعاصي والأوثان والأقذار لمن يعبد الله فيه بالطواف والصلاة، وإضافه الرحمن إلى نفسه لشرفه وفضله، ولتعظم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب.

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة؛ لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد. والقائمون هم المصلون، وذكر - تعالى - من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.

* قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾.

أي: أعلم وناد في الناس داعياً لهم لحج بيت الله العتيق الذي أمرناك ببنائه.

قال ابن عباس: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له: أذن في الناس بالحج، قال يا رب: وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليَّ الإبلاغ، فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحجوا، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء: لبيك اللهم لبيك.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾.

أي: فإنك إذا دعوتهم أتوك مشاة على أقدامهم، أو ركباناً على كل جمل خفيف اللحم، قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة.

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: تأتي الإبل الضامرة من كل طريق بعيد.

قال القرطبي: ورد الضمير إلى الإبل ﴿يَأْتِينَ﴾ تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾ [العاديات: ١] في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله.

قال ابن القيم: وفي تقديم ذكر الرجال على الركبان فائدة جليلة؛ وهي أن الله ـ تعالى ـ شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، فقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً.

ومن الناس من يقول قدمهم جبراً لهم؛ لأن نفوس الركبان تزدريهم وتوبخهم فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة.

* بعد أن ذكر ـ عز وجل ـ المناسك ـ في سورة الحج ـ قال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] ففيه إشارة إلى أن الحج ليس أقوالاً وأعمالاً جوفاء، وأن الخير الكثير إنما هو لمن تنسك؛ معظماً لحرمات الله، متقياً معصيته، ولعل في افتتاح السورة بالأمر بالتقوى، واختتامها بالجهاد في الله حق المجاهدة تأكيداً على ذلك.

* قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝﴾ [الحج: ٣٢].

قال القرطبي: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب؛ ولهذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في الصحيح: «**التقوى ها هنا**» ثلاثاً، وأشار إلى صدره.

* قال ـ تعالى ـ في سياق آيات الحج: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

قال ابن القيم: ذكر للمخبتين أربع علامات: وجل قلوبهم عند ذكره ـ والوجل خوف مقرون بهيبة ومحبة ـ، وصبرهم على أقداره، وإتيانهم بالصلاة قائمة الأركان ظاهراً وباطناً، وإحسانهم إلى عباده بالإنفاق مما آتاهم.

قال ابن تيمية - رحمه الله -: ذكر الله - عز وجل - في سورة الحج القلوب الأربعة: الأعمى، والمريض، والقاسي، والمخبت الحي المطمئن إلى الله.

* ورد في آيات الحج من العناية بأمر القلوب ما لم يرد في أي ركن من أركان الإسلام؛ لما في أعمال الحج من مظاهر قد تصرف عن مقاصده العظيمة إلى ضدها، خاصة مع اجتماع الناس في صعيد واحد على هيئة واحدة، مع اختلاف خلفائهم وحالاتهم ومراكبهم وغير ذلك. قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

قال السعدي: فالعبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه.

* قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾ [الحج: ٣٦].

عن ابن عباس قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم ليهلكن، فنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الآية. قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لها كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر في هذه المجوس، ولا أهل الإشراك؛ لأن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله إلا عند أهل الشرائع.

قال السعدي: ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة، بعبادة الله، وعمرت مساجدها وأقيمت فيها شعائر الدين كلها من فضائل المجاهدين، وببركتهم دفع الله عنها الكافرين.

* قـال تعالـى: ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الحج: ٥٩].

وهـو الحليم لا يعجل العقوبة على عبـاده بذنوبهم، ولا يحبس إنعامه بخطيئاتهم، يعصونه ويرزقهم، يذنبون ويمهلهم، يجاهرون ويستر عليهم، فـلا تغتر بحلم الله وكرمه عليك، فقد يبغتك العـذاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار: ٦].

* قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج: ٦٠].

تعريض بالحث على العفو والمغفرة. فإنه ـ تعالى ـ مع كمال قدرته، لما كان يعفو ويغفر، فغيره أولى بذلك، وتنبيه على قدرته على النصر، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده. فظهر سر مطابقة (العفو الغفور) لهذا الموضع.

* قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [الحج: ٦٠ ـ ٦١].

والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، للإيماء إلى القلب أحـوال الزمان، فقد يصير المغلوب غالباً، ويصير ذلك الغالب مغلوباً. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة، وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي اسـتبطأه المشركون منوط بحلول أجله. وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار، ونهار في ليل.

* قـال تعالـى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: لطيـف بـأرزاق العباد واصل فضله إلى كل شـيء، يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسـرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر، خبير بسرائر الأمور، وخفايا الصدور والأمور، خبير بما في قلوبهم من القنوط.

ومن لطفه أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

والغرض من الآية: إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور، فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت.

* وفي ختام السورة ضرب مثلاً لعبادة المشركين للأصنام، وبقبح عبادة الأوثان وحقارتها، وبيان نقص عقول وسخافة من عبدها، وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة، فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾.

أي: يا معشر المشركين: بيّن الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فألقوا إليه أسماعكم، وتدبروه حق التدبر، واعقلوا ما يقال لكم؛ فإنه يقطع مواد الشرك من القلب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾.

أي: جميع ما تعبدون من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وحقارتها، وإن اجتمعت على ذلك فكيف بخلق ما هو أكبر، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله.

قال القرطبي: وخص الذباب لأربعة أمور: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأرباباً مطاعين؟ وهذا من أقوى الحجة وأوضح البرهان، بل وذكر أعظم من ذلك فقال:

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾.

أي: لو اختطف هذا الخلق الأقل الأذل ـ الذباب ـ وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه

منه رغم ضعفه وحقارته، وهذه غاية ما يصير من العجز.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾.

ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم، والمطلوب الذي هو الذباب، فكل منهما حقير ضعيف.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

أي: ما عظموه حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته، حيث جعلوا الأصنام ـ على حقارتها ـ شركاء للقوي العزيز، ولهذا قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

أي: هو ـ تعالى ـ قادر لا يعجزه شيء، غالب لا يُغلب، فكيف يسوون بين القوي العزيز، والعاجز الحقير؟!

* ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج: ٧٧].

قال ابن تيمية عن سورة الحج: فيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة، وزكاة وحجاً وصياماً، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ فيدخل في قوله: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ كل واجب ومستحب.

* ثم ختم ـ تعالى ـ السورة بقوله:

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

قال الحسن: إن الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضَرَبَ بسيف.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمر خاصًا قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: الزموها ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

سورة المؤمنون (٢٣)

سورة المؤمنون من السورة المكية التي تؤصل وتؤكد على توحيد الله - عز وجل - وإفراده بالعبادة، وتذكر بالرسالة وتجلي البعث والجزاء والحساب، وسميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون»؛ تخليداً لهم وإشادة بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

وقد جاء في الحديث، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، قال: «كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سمع عند وجهه دويّ كدويّ النحل، وأنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة فسري عنه، فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: **«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»** ثم قال: **«أنزل عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»** ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾ حتى ختم عشر آيات» [رواه الترمذي].

❋ قال - تعالى - في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١].

افتتاح بديع لأنه من جوامع الكلم، فإن الفلاح غاية كل ساع إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر متعلق بفعل الفلاح يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب، فكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه.

وفي الحديث: **«خلق الله - تبارك وتعالى - الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، فقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك»** [السلسلة الصحيحة].

وفي الآيات أهم صفات المفلحون، وهو إتقان العمل ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٢]، والمداومة عليه ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٩] وهما سر النجاح، وأساس الفلاح في كل الأمور.

ولأن من أعظم موانع الخشوع: كثرة اللغو، والحديث الذي لا منفعة فيه؛ ذكر ـ عز وجل ـ من صفات المؤمنين إعراضهم عن اللغو، بعدها ذكر خشوعهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

* ثم ذكر ـ تعالى ـ الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته، فذكر ـ تعالى ـ في الآيات اللاحقة، أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾.

اللام جواب قسم، أي: والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة استلت من الطين وخلاصته، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝﴾.

أي: ثم جعلنا ذرية آدم وبنيه منياً ينطف من أصلاب الرجال، في مستقر متمكن هو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: سلت، وأخذت من جميع الأرض ولذلك جاء بنو آدم على قدر الأرض: منهم الطيب والخبيث وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.

ثم صيرنا هذه النطفة ـ، وهي الماء الدافق ـ دماً جامداً يشبه العلقة بعد أربعين يوماً من النطفة.

ثم بعد أربعين يوماً، جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة، أي: قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط.

جاءت كلمة ﴿خَلْقًا﴾ نكرة لتدل على أن لكل إنسان في هذه الدنيا خلقاً خاصاً فما من إنسان في الدنيا يشبه إنساناً آخر شبهاً تاماً في شكل أذنيه أو عينيه أو بشرته، أو غرائزه أو أفكاره أو انفعالاته، لأن لكل إنسان خلقاً آخر، ولأن بين كل إنسان وإنسان فروقاً خَلْقية وخُلُقيه لا يمكن أن تتوحد توحداً تامّاً بين أي إنسانين بالدنيا.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

أي: صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن. أي: سترنا تلك العظام باللحم، وجعلناه كالكسوة لها وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح، فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم، ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب. قيل: جعلناه خلقاً مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصم، وبصيراً وكان أكمه، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرته، وغرائب حكمته لا يحيط بها وصف الواصفين.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

فتعالى وتعاظم الله في قدرته وحكمته، أحسن الصانعين صنعاً.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته، ذكر دلائل الإيمان في الآفاق في خلق السموات والأرض، وكلها أدلة ساطعة على وجود الله، وكثيراً ما يذكر ـ تعالى ـ خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

أي: أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة، وبقدر ما يكفيهم للمعيشة، لا كثيراً فيفسد الأرض، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار،

ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، ويقال لها: الأرض الجزر، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه؛ لأن أرضهم سبخة يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير، الرحيم الغفور.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ من النعم التي امتن بها على عباده:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝﴾ [المؤمنون:٢١ ـ ٢٢].

وعطف ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ إدماج وتهيئة للتخلص إلى قصة نوح.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

أمر الرسل بالأكل من الطيبات فيه ردٌّ على الغلاة الذين يمتنعون منها، وفيه ردٌّ على الجفاة الذين لا يقتصرون عليها.

وقد قَرَن الله بين أكل الطيبات وعمل الصالحات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] فأكل الحلال الطيب مما يعين العبد على فعل الصالحات، كما أن أكل الحرام أو الوقوع في المشتبهات مما يثقل العبد عن فعل الصالحات.

* وردت كلمة: (أمة) في مواضع، لها أربع إطلاقات في القرآن:

الأول: تأتي بمعنى الملة: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢].

الثاني: تأتي بمعنى المدة: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

الثالث: وتأتي بمعنى الجماعة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

الرابع: وتأتي بمعنى الإمام والقدوة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

* ولما ذم ـ تعالى ـ المشركين وتوعدهم. وذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، وعقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذابه حذرون، وخوفهم نابع أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله ـ تعالى ـ، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحق من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه.

قال بعض المفسرين: وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين، أي: يعطون العطاء من زكاة وصدقة، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر، وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم.

قال الحسن: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً، وقد كان السلف الصالح يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمون بعد ذلك بقبوله، ويخافون من رده.

قال سهل بن عبد الله: إنما خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة، وعند كل حركة. وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة.

يقول الحسن: يعملون ما يعملون من أعمال البر، وهم يخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم، إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

يقول ابن رجب في لطائف المعارف: وإنما أمر بسؤال العفو في ليلة القدر: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني» بعد الاجتهاد في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأن العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يرون لأنفسهم عملاً صالحاً ولا حالاً ولا مقالاً، فيرجعون إلى سؤال العفو كحال المذنب المقصر، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والله ـ سبحانه ـ وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن. ومن تأمل أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن.

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠)﴾.

وذلك لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة، ولاعتقادهم وعملهم ويقينهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب.

روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

أهو الذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر وهو يخاف الله ـ عز وجل ـ؟ فقال لها: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي، ويصوم، ويتصدق، ومع ذلك يخاف الله ـ عز وجل ـ» [رواه ابن ماجه].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

أي: أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، هم الذين يسابقون في الطاعات والأعمال الصالحات لنيل أعلى الدرجات، دأبهم المسارعة إلى كل عمل صالح.

﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾.

أي: هم الجديرون بالخيرات، والسابقون إليها، قد بلغوا ذروتها. وترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن.

فالصفة الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والثانية: دلت على التصديق بوحدانية الله.

والثالثة: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والرابعة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف والتقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله الوصول إليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٦١].

قال ابن العربي: هذا دليل على أن المبادرة إلى الأعمال الصالحة؛ من صلاة في أول الوقت ـ وغير ذلك من العبادات ـ هو الأفضل، ومدح الباري أدل دليل على صفة الفضل في الممدوح على غيره.

* قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: ٩٦].

أي: اسلك مسلك الكرام، ولا تلحظ جانب المكافأة، ادفع بغير عوض، ولا تسلك مسلك المبايعة، ويدخل فيه: سلم على من لم يسلم عليك، والأمثلة تكثر.

قال ابن عاشـــور: والتخلق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن يفوض أمر المعتدين عليه إلى الله، فهو يتولى الانتصار لمن توكل عليه، وأنه إن قابل السـيئة بالحسـنة كان انتصار الله أشفى لصدره وأرسخ في نصره، ومـاذا تبلغ قدرة المخلوق تجاه قدرة الخالـق؟ وهو الذي هزم الأحزاب بلا جيوش ولا فيالق.

* قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٥].

وفي قصة إلياس إنباء بأن الرسـول عليه أداء الرسالة ولا يلزم من ذلك أن يشاهد عقاب المكذبين ولا هلاكهم، وذلك في الرد على المشركين الذين قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨].

* قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وما دام الشيطان هو الذي يهمز الإنسان كما يهمز الراكب الدابة لتسرع، فليحذر المسلم من الأمور التي يرى نفسه مندفعاً إليها بقوة شديدة خشية أن تكون من همز الشيطان.

* قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

الكالح: هو الذي تقلصت شـفتاه حتى بدت أسنانه. والنار والعياذ بالله تحرق شـفاههم حتى تتقلص عن أسنانهم، كما يشاهد مثله في رأس الشاة المشوي في نار شديدة الحر.

* قـال تعالـى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [المؤمنون: ١١٠].

قال السعدي: وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر: اشتغالهم بالاستهزاء بالمؤمنين، كما أن نسيانهم للذكر، يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة.

عن يونس البلخي قال: كان إبراهيم بن أدهم من الأشـــراف، وكان أبوه كثيـــر المال والخدم والمراكب والجنائب والبزاة، فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله، عليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته وأخذ في عمل الآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

هـــذه الآية فيها حذف لكي تفيد العموم، فقد حذف المفعول له لكلمة: ﴿اغْفِرْ﴾ والمفعول به لكلمة ﴿وَارْحَمْ﴾ فلم يقل: رب اغفر الذنوب للعباد، وارحم الناس، بل أطلقها إطلاقاً ليكون طلب المغفرة عاماً لجميع الذنوب، وليكون الدعاء عاماً لجميع الخلائق.

وفيه دليل على أن ذلـــك الفريق الذي كانوا يقولون: ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنـــا وأنت خير الراحمين، موفقون فـــي دعائهم ذلك، ولذلك أثنى عليهم به، وأمر به نبيه ﷺ لتقتدي به أمته في ذلك.

أوصى ســـفيان الثوري رجلاً فقال: إياك أن تزاد بحلمه عنك جرأة على المعصيـــة، فإن الله لم يرضَ لأنبيائه المعصية والحرام والظلم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

ثـــم قال للمؤمنـــين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

ثـــم أجملها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

* بدأت ســـورة المؤمنون بـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وانتهت بـــ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وبين الآيات يتمعن القارئ

في صفات المؤمنين، ويسارع ويجتهد ليكن منهم. ويحذر الكافرين ويتولى عنهم.

فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة.

فتأمل ـ عبد الله ـ فـي الصفات التي جعلت أولئك المؤمنين يفحلون، وتأمل أواخر هذه السورة لتدرك لم لا يفلح الكافرون؟!

سورة النور (٢٤)

سورة النور من السور المدنية. وسميت «سورة النور» بهذا الاسم لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والأخلاق الفاضلة والآداب الاجتماعيـــة، ففي أولها أحكام الزنى والقذف والزجر عن ذلك، ثم آداب الاســـتئذان على البيوت وعلى النبي ﷺ وعلى أهل البيت، التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوضات رحمته وجوده.

هذه السورة الكريمة فيض رباني يلامس أخلاق الأمة وفضائلها ويحذر من سفاســف الأمور ورذائلها. فقد عالجت جانبا من أهم الجوانب الاجتماعية هي «مسألة الأسرة» وما يحفها من أخطار، وما يعترض طريقها من عقبات ومشـــكلات، تؤدي بها إلى الانهيـــار ثم الدمار، هذا عـــدا عما فيها من آداب ســـامية، وحكم عالية، وتوجيهات رشيدة، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمـــة، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أهل الكوفة يقول لهم: علموا نساءكم سورة النور.

قال القرطبي: مقصود السورة ذكر أحكام العفاف والستر.

* قال - تعالى - في أول الســـورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ١].

قال ابن العربي: فهذه الســـورة فيها حجج التوحيد، ودلائل الأحكام، والكل آيات بينات، فحجج العقول ترشـــد إلى مســـائل التوحيد، ودلائل الأحكام ترشد إلى وجه الحق، وترفع غمة الجهل، وهذا هو شرف السورة، فيكون شرفاً للنبي في الولاية، شرفا لنا في الهداية.

* قـــال تعالـــى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

قال ابن تيمية: نهى عن التهاون في إقامة العقوبات عموماً، والفواحش خصوصاً؛ لأن مبناها على المحبة والشهوة، فيزين الشيطان انعطاف القلوب على أهلها، حتى يدخل كثير من الناس في الدياثة وقلة الغيرة، وربما ظن أن هذا رحمة ولين جانب بهم ومكارم أخلاق، وإنما ذلك مهانة وضعف إيمان، وإعانة على الإثم والعدوان، وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر؛ وتدخل النفس به في الدياثة، كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان ما كانوا يتعاطونه من إتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النور: ٢] قدم ذكر الزانية على الزاني لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنى تمكينا.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

قال ابن كثير: وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك.

* قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [النور: ٢].

قال ابن تيمية: من المعلوم أن ألم العلاج النافع، أيسر وأخف من ألم المرض الباقي.

* قوله - تعالى - بعد ذكره أحكام القذف: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [النور: ١٠].

في الآية تذليل لما مرَّ من الأحكام العظيمة المشتملة على التفصيل والرحمة منه، والمؤذنة بأنه تواب على من تاب من عباده، والمنبئة بكمال حكمته - تعالى - إذ وضع الشدة موضعها والرفق موضعه، وكف بعض الناس عن بعض.

قال السيوطي: قد يقال: إن المتوقع أن يقال: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝﴾؛ لأن الرحمة مناسبة للتوبة لكن ختمت باسم الله ﴿حَكِيمٌ ۝﴾ إشارة إلى فائدة مشروعية اللعان وحكمته، وهي الستر عن هذه الفاحشة العظيمة.

* قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝﴾ [النور: ١٥].

فيه تشبيه الألسن في رواية الخبر بالأيدي في تناول الشيء. وإنما جعلت الألسن آلة للتلقى مع أن تلقي الأخبار بالأسماع، لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع.. وفيه تعريض بحرصهم على تلقي هذا الخبر، فهم حين يتلقونه يبادرون بالأخبار به بلا ترو ولا تريث.

قيل: وإن كان التلقي بالآذان لكن الله ذكر التلقي بالألسن بمعنى أنها لا تمر على الأذن وتسمع وتعي بل تأتي مباشرة من لسان المتحدث وتنقل من لسان المستمع.

* قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: هلا ظنوا الخير، ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قوله عائب ولا طاعن.

قال ابن كثير: هذا تأديب من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

روي أن امرأة أبي أيوب قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك.

* قال تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم؛ إنما قيد بالأفواه مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب.

قال ابن عاشور: وفي هذا من الأدب: أن المرء لا يقول بلسانه إلا ما يعلمه ويتحققه وإلا فهو أحد رجلين: ناقص الرأي، يقول الشيء قبل التبين، فيوشك أن يكذب، أو رجل مموه مراء يقول ما يعتقد خلافه.

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝﴾.

وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك. والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم؛ لأنه وقوع في أعراض المسلمين، وفيه الزجر البليغ عن التهاون في إشاعة الباطل، أو إتيان بعض الذنوب على وجه التهاون بها.

وقد عاتبهم - تعالى - على ثلاثة أشياء:

الأول: تلقيه بالألسنة؛ أي السؤال عنه.

والثاني: التكلم به.

والثالث: استصغاره حيث حسبوه هيناً وهو عند الله عظيم.

وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب؛ لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم.

* ثم قال - سبحانه - في تأديب آخر بعد الأول، الآمر بظن الخير:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

عتاب لجميع المؤمنين، أي: وهلا إذا سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له، وتقولوا: لا

ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد.

﴿ سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ (١٦) ﴾.

أي: سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح، أعظم الجرم. وهو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ تأديباً ثالثاً لمن سمع شيئاً من الكلام السيء، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فلا يكثر منه ولا يشيعه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾ [النور: ١٩].

قال الشيخ بكر أبو زيد ـ رحمه الله ـ: ومحبة إشاعة الفاحشة تنتظم جميع الوسائل القبيحة إلى هذه الفاحشة، سواء كانت بالقول، أم بالفعل، أم بالإقرار، أو ترويج أسبابها، وهكذا. وهذا الوعيد الشديد ينطبق على دعاة تحرير المرأة في بلاد الإسلام من الحجاب والتخلص من الأوامر الشرعية الضابطة لها في عفتها وحشمتها وحياتها.

وفي هذا وعيد لمجد محبة أن تشيع الفاحشة فكيف بإظهاره ونقله.

والعاقل هو الذي يتحسس معايب نفسه، وينظر معايب نفسه ليصلحها، لا أن ينظر معايب الغير ليشيعها ـ والعياذ بالله ـ، ولهذا قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ﴾ [النور: ١٩].

* سورة النور هي سورة الأسرة، تحدثت عن الزكاء والتزكية، تربية وتعليماً وحكماً، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ [النور: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

* قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾.

قال السعدي: وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أتى بأداة ﴿مِنْ﴾ الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال الحاجة، كنظر الشاهد والخاطب، ونحو ذلك.

* اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله ـ تعالى ـ.

وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وشرطها: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفريطه في حق الله ـ عز وجل ـ وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضرّ ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشروطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره ـ تعالى ـ عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة.

وقد ورد النص هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧] بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده.

وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سكت قليلاً ثم قال: «يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم» [البخاري ومسلم].

فهذا كله اتم معناه: ما حقهم على فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله ـ تعالى ـ شيء عقلاً؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق ـ سبحانه ـ خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه ـ سبحانه ـ.

وقد ذكرت الآية هنا لقبول قيدين: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، و﴿مِن قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت.

* وقال الله ـ تعالى ـ حكاية عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

والمراد هنا ظلم النفس، وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل، أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم.

وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوي بعضها بهذا المعنى؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة.

وروي عن مجاهد قال: كل من عصي ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

عطف على جملة ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ﴾ [النور: ٢١] عطف خاص على عام للاهتمام به؛ لأنه قد يخفى أنه من خطوات الشيطان، فإن من كيد الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير إذا علم أن الموسوس إليه من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه ممن يتعذر عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة.

لا تكن سبباً في منع أرزاق الناس، إذا أردت أن تؤدب أحداً أدبه بأي طريقة مشروعة إلا أن تمنعه رزقه، لأنه لو كان منع الرزق سائغاً لساغ في حق مسطح، لكن الله ـ جل وعلا ـ عاتب الصديق ـ رضي الله عنه ـ فيه.

* ثم توعد ـ عز وجل ـ فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾.

أي: يقذفون بالزنى العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة، ولم يخطر ذلك بقلوبهن.

وذكرهن بالغافلات وصف لطيف محمود يجسد المجتمع البريء، والبيت الطاهر الذي تشب فتياته على الفضيلة والستر والحشمة، لا يعرفن الأثم، أنهن غافلات عن ملوث الطباع السافلة، والأخلاق المستنكرة.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: المتصفات بالإيمان، مع طهارة القلب.

﴿لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة. واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير، وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين.

وقيل: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر.

قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ولهم مع اللعنة، عذاب هائل، ولا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ بالدليل القاطع، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر، وقد جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه، فلو لم تكن عائشة طيبة؛ لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ، ولهذا قال:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾.

أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا كالدليل على براءة عائشة؛

لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾.

أي: أولئك الفضلاء منزهون مما تقول أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان، ولهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في جنان النعيم.

قال ابن كثير: وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

* لما حذر ـ تعالى ـ من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات، أرشد ـ تعالى ـ إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول وبالتسليم بعده.

ووضحت السورة الآداب الشرعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة، كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء والأجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة والبيت المسلم من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله، صيانة لحرمتها، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي، والانهيار الخلقي، الذي يهدم الأمم والشعوب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

وفي ذلك من الآداب أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاً على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستثقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متآنسين وذلك عون على الأخوة الإسلامية.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٨].

قال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني فيقول: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا فَٱرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ لا يراد به مجرد الاستئذان، وإنما المراد به معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر ورغبتهم بزيارته.

والحكمة في تشريع أدب الاستئذان؛ هي الحيلولة بين النظر وبين عورات الآخرين، ولهذا أوصى ﷺ الزائر أن لا يستقبل الباب بوجهه بل يجعله عن يمينه أو شماله.

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم، وسلامة صدوركم، وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب، فإذا نهي عن ذلك لأدائه إلى الكراهة، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك.

وهو ـ تعالى ـ عالم بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها. وفيه توعد لأهل التجسس على البيوت.

* ثم وجه الخطاب للمؤمنات، فقال تعالى:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات.

قال المفسرون: أكد ـ تعالى ـ الأمر للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا للمحارم، فقال:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ .

أي: كالثياب الجميلة والحلي، وجميع البدن كله من الزينة، ولما كانت الثياب الظاهرة التي جرت العامة بلبسها لا بد لها منها، قال: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ إذا لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها، ولم يقل: إلا ما أظهرن منها.

قال ابن كثير: أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

قال ابن مسعود: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلي شيء منها إلا للضرورة.

﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ .

وهذا لكمال الاستتار، ويدل ذلك على أن الزينة التي يحرم إبداؤها يدخل فيها جميع البدن، أي: وليلقين الخمار وهو غطاء الرأس على فتحات صدورهن مغطيات وجوههن ليكمل سترهن، ولئلا يبدو شيء من النحر والصدر، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة والتستر.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول؛ لما أنزل الله: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

قال المفسرون: كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مكشوفة الصدر، بادية النحر، حاسرة الذراعين، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال، وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى صدورهن مكشوفة عارية، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطينها ويدفعن عنهن شر الأشرار.

﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ .

ولا يضربن بأرجلهن الأرض، لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض. قال ابن عباس: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع صوت خلخالها، فنهى الله ـ تعالى ـ عن ذلك؛ لأنه من عمل الشيطان.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً ولكنه يفضي إلى المحرم، أو يخاف من وقوعه فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض الأصل أنه مباح ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة منع منه، وإذا كانت المرأة منهية عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فتغطية الوجه وستره من باب أولى؛ لأنه موضع الجمال والفتنة.

* قال تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: أيهما أعظم فتنة أن يسمع الرجل خلخالاً بقدم امرأة لا يدري ما هي؟ وما جمالها؟ ولا يدري أشوهاء هي أم حسناء؟! أو أن ينظر إلى وجه سافر جميل، ممتلئ شباباً ونضارة، وحسناً وجمالاً وتجميلاً بما يجلب الفتنة، ويدعو إلى النظر إليها؟

* ثم أرشد ـ تعالى ـ إلى الآداب الرفيعة من غض البصر، وحفظ الفروج، حماية من الانزلاق في الرذيلة، أو الوقوع في الزنا لأن حفظ الفرج ثمرة طبيعية لغض البصر. قال تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

الأمر للجميع رجالاً ونساء بغض البصر.

قال العلماء: غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداهمـا: حـلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صَرّف بصره عنه وتركه لله ـ تعالى ـ.

والثانية: نور القلب وصحة الفراسة.

والثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته.

قال ابن القيم: غض البصر يكسب القلب نوراً، فقد أمر ـ سبحانه ـ بغض البصر ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] ثم قال إثر ذلك ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ذلك الغض والحفظ أطهر للقلوب، وأتقى للدين، وأحفظ من الوقوع في الفجور، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس وتدعوا إليه. وجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر.

قال السعدي: وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً؛ لأنه لا يباح في حالة من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أتى بأداة ﴿مِنْ﴾ الدالة على التبعيض؛ فإنه يجوز النظر في بعض الأحوال لحاجة كنظر الشاهد والخاطب ونحو ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

بدأ ـ تعالى ـ بالأزواج لأن اطلاعهم يقع على أعظم من الزينة، ثم ثنى بالمحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم في الحرمة بسبب ما في نفوس البشر، فالأب والأخ ليس كابن الزوج، فقد يُبدي للأب ما لا يبدى لابن الزوج.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [النور: ٣١].

التوبة وظيفة العمر، ولهذا قال الله ﴿جَمِيعًا﴾ ولم يستثن أحداً فإن الذنب لا يكاد يسلم منه أحد، ولما ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ هذه الأحكام علم ـ جل وعلا ـ أن عباده وإن حرصوا على الامتثال بها، إلا أنه لن يخلو أن يقع منهم شيء، فدلهم ـ جل وعلا ـ على ما يجبر ذلك الكسر وهو التوبة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

قال الشيخ بكر أبو زيد: تأمل هذا السر العظيم من أسرار التنزيل، وإعجاز القرآن الكريم، ذلك أن الله ـ تعالى ـ لما ذكر في فاتحة سورة النور شناعة جريمة الزنى، وتحريمها غائباً، ذكر ـ سبحانه ـ من فاتحتها إلى تمام الآية الثالثة والثلاثين: أربع عشرة وسيلة وقائية، تحجب هذه الفاحشة، وتقوم وقوعها في مجتمع الطهر والعفاف جماعة المسلمين، وهذه الوسائل الواقية: فعلية، وقولية، وإرادية.

* وبعد أن ذكر ـ عز وجل ـ وجوب غض البصر وحفظ الفرج وقاية من الزنا، وأمرت الآيات النساء بستر أجسامهن وعدم إبداء زينتهن إلا لطائفة خاصة من الرجال، أمر ـ عز وجل ـ بإنكاح الأيامى، وهم الذين لا أزواج لهم من الصنفين حتى يشتغل كل منهما بما يلزمه فلا يلتفت إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى

ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٢ ـ ٣٤].

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥] قال ابن تيمية: ذكر ـ سبحانه ـ آية ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ عقب آيات غض البصر، فمن غض بصره عن الحرام، اطلق الله نور بصيرته، وفتح عليه من العلم.

* قال تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [النور: ٣٥] شبه الله ـ تعالى ـ الزجاجة بالكوكب، ولم يشبهها بالشمس والقمر؛ لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف، والكواكب لا يلحقها الخسوف.

* قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

﴿رِجَالٌ﴾ قال ابن كثير: فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [النور: ٤١].

قال القرطبي: خص الطير بالذكر من جملة الحيوان، لأنها تكون بين السماء والأرض، فتكون خارجة عن حكم من في السماء والأرض.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

جاء رجل من دهاقين الروم مسلماً عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: ألهذا سبب؟ قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى، من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقى من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾، والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**».

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه، نطق بالبدعة.

* قال تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور: ٦٠].

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ أنهن قواعد تمشي على أربع لكبر سنها، وغير متبرجات بزينة، ومع ذلك قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ﴾.

قال القرطبي: إنما خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن مالم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب لهن.

* قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور: ٦١].

وهــذا الحرج المنفي عن الأكل من هذه البيــوت كل ذلك إذا كان بدون إذن.

قال الســعدي: والحكمة فيه معلومة من الســياق فإن هؤلاء المسمين قد جرت العادة والعرف بالمســامحة في الأكل منهــا لأجل القرابة القريبة، أو التصــرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المســامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل ولم يرتفع الحرج.

وذكر بيوت القرابات، وســقط منها بيوت الأبناء، قال المفسرون: ذلك لأنها داخلة في قوله ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيته.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

قــال القرطبي: قــرن الله ـ عز وجل ـ في هذه الآيــة الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة، لأن قرب المودة لصيق.

قــال ابن عباس ـ رضي الله عنهمــا ـ: الصديق أوكد من القرابة، ألا تــرى استغاثة الجهنميــين، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وصفها بالبركة؛ لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه.

* قــال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور: ٦٤].

فـإذا جعل من لوازم الإيمـان أنهم لا يذهبون مذهبـاً إذا كانوا معه إلا باسـتئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه أن لا يذهبوا إلى قول، ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه إذن فيه.

سورة الفرقان (٢٥)

سورة الفرقان سورة مكية، تكلم ـ سبحانه ـ في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم وأهم، ثم في النبوة لأنها الواسطة، ثم في المعاد لأنه الخاتمة، وساقت الآيات بعض القصص للعظة والاعتبار.

سميت السورة الكريمة: سورة الفرقان؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ، وكان النعمة الكبرى والمنة العظمى؛ لأنه النور الساطع والضياء المبين، الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان.

وفي الآيات إيناس لرسول الله ﷺ، وتسرية وتطمين له، وتقوية وهو يواجه مشركي قريش وعنادهم له، وتطاولهم عليه وتعنتهم معه.

* قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

ثم ردّ الله ـ عز وجل ـ على كفار قريش قولهم عن القرآن أنه أساطير الأولين، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦].

لقن الله رسوله ﷺ الجواب لرد القائلين إن هذا القرآن إلا إفك وإنه أساطير الأولين، بأنه أنزله الله على رسوله.

وجملة الصلة كناية عن مراقبته الله فيما يبلغه عنه. وفي ذلك إيقاظ لهم بأن يتدبروا في هذا الذي زعموه إفكاً أو أساطير الأولين ليظهر لهم اشتماله على الحقائق الناصعة التي لا يحيط بها إلا الله الذي يعلم السر.

* ثم ذكر - عز وجل - من صفات الأنبياء وكلها صفات بشرية لا تنطبق على إله يعبد مثل الحي القيوم، فذكر أن محمداً ﷺ كسابقه من الأنبياء، بشر يمشي ويأكل، وفي هذا نفي لمن أله الأنبياء، فقال:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة، فالفتنة كير القلوب، ومحك الإيمان، وبها يتبين الصادق من الكاذب.

قال ابن هبيرة: والآية تدل على فضل هداية الخلق بالعلم، وتبين شرف العالم على الزاهد المنقطع، فإن النبي ﷺ كالطبيب، والطبيب يكون عند المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا.

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

وجعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة، وهذا عام في جميع الخلق، ابتلى الله الرسول للمرسل إليه، وابتلى الله الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، والصحيح بالمريض، ليختبر صبركم وإيمانكم، أتشكرون فيثيبكم مولاكم، أم تكفرون ولا تصبرون فتستحقوا العقوبة.

قال الحسن: يقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان، ويقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان.

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾.

يعني: على هذه الحالة من الفقر والشدة والأذى، وتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة، فيثيبكم مولاكم، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

يعلـــم أحوالكم، عالماً بمن يطيع أو يعصي، وبمن يصبر أو يجزع، وبمن يشكر أو يكفر.

* لمـــا حكى ـ تعالى ـ إنكار المشـــركين لنبوة محمد ـ عليه الســـلام ـ وتكذيبهم للقرآن، أعقبه بذكر بعض شـــبههم الأخرى التي قدحوا بها في النبوة.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾.

هذا وعيـــد آخر؛ أي: وعمدنا إلى أعمال الكفـــار التي يعتقدونها برّاً، كإطعام المساكين وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، ويظنون أنها تقربهم إلى الله، ورجوا أن تكون خيراً، وتعبوا فيها.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: جعلناه مثل الغبار الخفيف المنثور في الجو لا ينفعهم؛ لأنه لا يعتمد على أســـاس ولا يســـتند على إيمان، وذلك أن العمل لا ينفع في الآخرة إلا إذا توافرت في صاحبه: الإيمان بالله، والإخلاص له، والمتابعة لرســـوله محمد ﷺ.

والهبـــاء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشـــمس من كوة. والمنثور المتفرق.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٨ ـ ٢٩].

قال ابن عاشـــور: وفيه إيماء إلى أن شـــأن الخلـــة الثقة بالخليل، وحمل مشورته على النصح، فلا ينبغي أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء.

* لما بين ـ تعالى ـ حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور والحبور، تنبيها على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله ـ عز وجل ـ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

أي: أصحاب الجنة في ذلك اليوم الهائل العصيب الشديد، وهو يوم القيامة، خير من الكفار مستقرّاً ومنزلاً ومأوى، فراحتهم تامة، ونعيمهم لا يشوبه كدر. وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة، وهي الاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم.

وقد استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير وأنه ينتهي في نصف نهار.

قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

* لما أكثر المشركون الطعن في القرآن وكانوا لا يصغون له ولا يستمعون، ضاق صدر الرسول ﷺ، وشكاهم إلى الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

قال المفسرون: وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون، بل المقصود منها تعظيم شكايته، وتخويف قومه؛ لأن الأنبياء إذا التجؤوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب، ولم يمهلوا.

وفيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم.

قال ابن القيم: وهجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به، والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته اللفظية لا تحصل العلم.

الرابع: هجر تدبره وفهمه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١ ـ ٤٢].

من خصائص أهل الأهواء أنهم يلجؤون إلى السخرية بالفضلاء والتهكم على المؤمنين العقلاء، وذلك لأنهم عدموا المنطق المقنع فلجأوا إلى اللغو المفزع.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥].

قال ابن عاشور: وفي مد الظل وقبضه نعمة معرفة أوقات النهار للصلوات وأعمال الناس، ونعمة التناوب في انتفاع الجماعات والأقطار بفوائد شعاع الشمس، وفوائد الفيء بحيث إن الفريق الذي كان تحت الأشعة يتبرد بحلول الظل والفريق الذي كان في الظل، ينتفع بانقباضه.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: ٤٧].

وفي الآية ذكر لثلاث من نعم الله ـ جل جلاله ـ: هي الليل الساتر، والنوم المريح، والنهار الباعث. وفي كل آية لمن تدبر ونظر، فالسواد تتشح به الأرض، والسبات قطع للأعمال والأشغال، والنهار سعي وكد وعمل.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠].

يؤخذ من الآية أن الماء المنزل من السماء لا يختلف مقداره، وإنما تختلف مقادير توزيعه على مواضع القطر، فعن ابن عباس: ما عام أقل مطراً من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء، وتلا هذه الآية.

* قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٢].

قال ابن القيم: هذه الآية في سورة الفرقان وهي مكية، ولم يشرع الجهاد بالسيف وقتها، فدل أن طلب العلم من سبيل الله؛ لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: فهذا فرض عين على كل مسلم أن يقوم بما يقدر عليه ويعلمه، وعلى أهل العلم من ذلك ما ليس على غيرهم.

* قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٥٥].

قال ابن القيم: هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، فالمؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

قال البخاري: ﴿خِلْفَةً﴾ من فاته من الليل عمل أدركه بالنهار، أو فاته بالنهار أدركه بالليل. وشاهد هذا حديث عمر عند مسلم مرفوعاً: **«من نام عن حزبه ـ أي: قيام الليل ـ، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»** [رواه البخاري].

* نعت الله ـ سبحانه ـ المؤمنين في القرآن بأحسن نعت، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال الحسن: حلماء لا يجهلون، وإذا جهل عليهم حلموا.

قال ابن القيم: لما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى.

* ثم ذكر ليلهم خير ليل، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤].

تجري دموعهم على خدودهم؛ خوفاً من ربهم، لأمر ما سهروا ليلهم، لأمر ما خشعو أنهارهم.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: أضاف عبودية أنبيائه وأوليائه إلى اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن، بأحسنها وألطفها، وأحكمها وأوقرها في قوله: ﴿هَوْنًا﴾، وقوله: ﴿سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ من صفاتهم:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

جعل الله ـ سبحانه ـ هذه الأمة وسطاً، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجود والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها.

وعن الحسن: ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وسمع رجل رجلاً يقول: لاخير في الإسراف، فقال: لا إسراف في الخير.

* وذكر كذلك صفة تالية لهم، فقال:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].
وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ ولم يقل: بالزور، لأن ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور فكيف بالتكلم به وفعله.
* وذكر ـ تعالى ـ دعائهم وتضرعهم لربهم، فقال:
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].
سأل رجل الحسن عن قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما القرة؟ أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: بل في الدنيا، هي والله أن يرى العبد من ولده طاعة الله، وما شيء أقر لعين المؤمن أن يرى حميمه في طاعة الله.
ومن أعظم أنواع البر إدخال السرور على الوالدين، وأعظم ذلك القيام بحقوق الله وطاعته فإنه يدخل السرور على الوالدين.
ومن دعائهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].
المؤمن لا يكفيه أن ينفع نفسه، بل يدعوا الله ـ عز وجل ـ أن يكون للمتقين إماماً يدعوهم ويرشدهم ويعلمهم، طمعاً في الأجر والمثوبة، وكثرة الحسنات ورفيع الدرجات.
* وذكر ـ تعالى ـ حالهم عند قراءة القرآن فقال:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٣].
قال ابن العربي: قال علماؤنا: يعني الذين إذا قرءوا القرآن قرأوه بقلوبهم قراءة فهم وتثبت، ولم ينثروه نثر الدقل؛ فإن المرور عليه بغير فهم ولا تثبت صمم وعمى عن معانيه ووعيده ووعده.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

قال ابن القيم: ووحّد - سبحانه - لفظ - إماماً - ولم يقل واجعلنا للمتقين - أئمة -. هو أن المتقين كلهم على طريق واحد؛ فدينهم واحد ونبيهم واحد، وكتابهم واحد ومعبودهم واحد، فكأنهم كلهم إمام واحد لمن بعدهم، فالإئتمام إنما هو بما هم عليه، وهو شيء واحد وهو الإمام في الحقيقة.

سورة الشعراء (٢٦)

سورة الشعراء سورة مكية، مقدمتها حول القرآن الكريم، وخاتمتها حول القرآن الكريم، وبين المقدمة والخاتمة قصص سبع من الأمم بُعث فيها الأنبياء فكذبت أنبيائها فهلكت. أولها: قصة موسى وهارون، وثانيها: قصة إبراهيم، وثالثها: قصة نوح، ورابعها: قصة هود، وخامسها: قصة صالح، وسادسها: قصة لوط، وسابعها: قصة شعيب، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقاه من المشركين وشد لأزره للقيام بتبليغ الرسالة.

سميت سورة الشعراء؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً، وأن ما جاء به من قبيل الشعراء، فرد الله عليهم ذلك الكذب والبهتان.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالإشارة إلى هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، ونوراً وهدى وشفاء، وذكر موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته، وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم، عناداً واستكباراً.

* ثم توالت الآيات حكاية عن موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى:

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٤].

خاف موسى أن يقتلوه به، فدل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء، والأولياء مع معرفتهم بالله، وأن لا فاعل إلا هو، إذ قد يسلط من شاء على من شاء، ولكن هذا خوف طبيعي يدفع بالتوكل والعزم.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ قول فرعون لموسى وإظهار منته عليه والسخرية، فقال:

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨].

السـخرية بالدعاة والمن والأذى والإهانة، وبالتذكير بالزلل سـمة قديمة، ومفردات متداولة لحجب الحق ورده.

* قـال - تعالى - في قصـة أصحاب موسـى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

فسماهم بالاسم الشريف: عبادي، فلما ضعف توكلهم، ولم يستشعروا كفاية الله لهم، سـلبهم هذا الوصف الشريف، وقال عنهم ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

* ثـم بدأ إبراهيم - عليه السـلام - يعدد بعضاً مـن آلاء الله ونعمه، وإظهار مقدرته وعظم فضله، وصلته به في كل حال، وفي كل حين:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: الله الذي خلقني في أحسن صورة، وهو الذي يرشدني إلى مصالح الدنيـا والدين، لا هـذه الأصنام. ثم خصص منهـا بعض الضروريات، فقال:

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

وهو - تعالى - الذي ينعم عليَّ بالطعام والشـراب، فهو الخالق الرازق الذي سـاق المزن، وأنـزل المطر، وأخرج به أنواع الثمـرات رزقاً للعباد، أضاف الإطعام إلى وليِّ الإنعام، لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾.

وإذا أصابنـي المرض فإنه لا يقـدر على شـفائي ولا يعافيني منه أحد غيره، وإنما أسـند المرض إلى نفسه وأسند الشـفاء إلى الله رعاية للأدب، وإلا فالمرض والشـفاء من الله - جل وعلا -، فاسـتعمل في كلامه حسن الأدب.

وهو - سـبحانه - الشـافي؛ يشـفي ويعافي من الأمراض والأسقام، والأدوية أسباب يجب أن لا يتعلق القلب بها.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝﴾.

وهو ـ تعالى ـ المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، يميتني إذا شاء، ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي، وكل هذه دلائل قاطعة، وحجج باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها وإنكارها، ثم بعد أن عدد بعضاً من نعمه وآلائه وفضله اتجه إليه بالضراعة والدعاء:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۝﴾.

أي: أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء، حيث يجازي العباد بأعمالهم، وفيه تواضع الأنبياء لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم، ويقروا بخطاياهم.

وإذا كان هذا حال الخليل ـ عليه السلام ـ طامعاً في غفران خطيئته، غير جازم بها على ربه، فمن بعده من المؤمنين أحرى أن يكونوا أشد خوفاً من خطاياهم.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقد فعل الله ذلك؛ إذ ليس يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات.

قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحاً، ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله، ولم يراء به، وهو الثناء الصالح؛ وقد قال الله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

في الآية ثناء الله على إبراهيم أنه أتى ربه بقلب سليم. قال ابن العربي في أحكام القرآن: ولا يكون القلب سليماً إذا كان حقوداً حسوداً، معجباً متكبراً، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والله الموفق برحمته.

قال السعدي: والجامع لمعناه أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملآن من الخير والبر والكرم، سليم من الشبهات القادحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء، والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملآن بالتوحيد والإيمان، والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين، والرغبة في عبودية الله، وفي نفع عباد الله.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ حال أهل النار، فقال: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٩١].

لم يقل (فكبوا)، وإنما كرر الكلمة دليلاً على التكرير في المعنى، كأن الواحد منهم إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١].

وإنما جمع الشافع لكثرة الشافعين، ووحد الصديق لقلته في العادة.

قال الحسن: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون.

* ترد الآيات القرآنية مرة بصفة الصاحب ومرة أخرى بصفة الصديق، والفرق بينهما أن الصديق من الصدق في التعامل وفي المحبة، فهو صديق صادق مقرب، وقد وردت كلمة الصديق مرتين، الأولى في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

فجعل بيت الصديق مثل البيت الذي تملك مفاتحة لما بينهم من العلاقة الحميمة.

وجاءت في المرة الثانية في حال الكفار في النار وهم يصطرخون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: ١٠١].

أما الصاحب فهو الذي يصحب الإنسان في الزمان والمكان وقد يكون صديقاً أو عدواً. وقد تكون الصحبة مؤقتة في الطريق مثل ما ذكر الله - تعالى - عن العبد الصالح مع موسى ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦].

وقد تكون الصحبة المؤقتة بين مسلم وكافر كما ذكر - عز وجل - عن صاحب الحديقة ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝﴾ ويرد عليه صاحبه ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٧].

وكما ذكر الله عن كفار مكة ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ [النجم: ٢] وقد تكون الصحبة مؤبدة مثل الوالدين ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

أو كحال الزوجة التي ذكر الله - عز وجل - حالها وزوجها يوم الفزع الأكبر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦]

وعلى كل حال ليس كل صاحب صديق، وكل صديق صاحب.

* قال تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٢].

قال الألوسي: والمراد: الأمر بوفاء الوزن، وإتمامه، والنهي عن النقص دون النهي عن الزيادة والظاهر أنه لم ينه عنها، ولم يؤمر بها في الكيل والوزن، وكان ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن، ومن لم يفعلها فلا عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء: ١٩٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: وتأمل كيف جمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، وعلى أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)﴾ [الشعراء: ٢١٣].

قال الألوسي: خوطب به النبي ﷺ مع استحالة صدور المنهي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص، فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه ـ عز وجل ـ سواه، وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه، فكيف بمن عداه.

* قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: ٢١٤].

إشارة إلى أن يبدأ الإنسان في كل دعوة خير بأهل بيته وأقاربه، لعل الله أن يهديهم فيشتد بهم أزره ويقوى أمره. ويكون عوناً على الطاعة والعبادة.

* قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧)﴾ [الشعراء: ٢١٧].

ختم بالعزيز فهو القوي القادر على أن يكفيك ويحميك، وبالرحيم؛ لأن فيه معنى العناية والرعاية ومعرفة ما ينفعك.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ حال الشعراء، فقال:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء: ٢٢٤].

وقوله ـ تعالى ـ في هذه الآية الكريمة ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤)﴾ يدل على أن أتباع الشعراء من أتباع الشيطان، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢)﴾ [الحجر: ٤٢].

روى مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى منخرية خير من أن يمتلئ شعراً»**.

والبعض يحفظ الشعر ورواته وقلَّ أن تجد في صدره من القرآن إلا سوراً معدودة.

* قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٦].

هذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون مالا يفعلون، بين في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده ـ جل وعلا ـ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

* ثم استثنى ـ عز وجل ـ فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ذكر ابن إسحاق: أنه لما نزلت: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤] جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، قال: **«أنتم»**.

* قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

قال الزمخشري: ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وإطلاقه وتعميمه، وقوله: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ وإبهامه وتهويله، وكان السلف الصالح يتواعظون بها.

سورة النمل ٢٧

سـورة النمل من السـور المكية، التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة خاصـة: التوحيد، والرسـالة، والبعث، وهي إحدى سـور ثلاث نزلت متلاحقـة، ووضعت في المصحـف متلاحقة وهي: الشـعراء، والنمل، والقصص، ويكاد يكون منهاجها واحداً، في سلوك مسلك العظة والعبرة، عن طريق قصص الغابرين.

سـميت سـورة النمل؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها قصـة النملة التي وعظت بني جنسـها، وذكرت، ثم اعتذرت عن سـليمان وجنوده، ففهم نبي الله كلامها وتبسـم من قولها، وشـكر الله على ما منحه من الفضل والإنعـام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان.

وتناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم.

وتحدثت الآيات بالتفصيل بعد قصة موسى عن قصة داود وولده سليمان، وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير، بالجمع بين النبوة والملك الواسع، ثم ذكرت قصة سليمان مع بلقيس ملكة سـبأ. وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسـلطان، والعظماء والملوك، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلة للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكماً جائراً ولاملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله، وهكذا كان شـأنه مع بلقيس حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسـلمة، مستجيبة لدعوة الرحمن، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ﴾.

والمعنى: والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين، وجمعنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة. وكذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقالا شكراً لله واعترافاً بمنته وفضله: الحمد لله الذي فضلنا بما آتانا من النبوة، والعلم، وتسخير الإنس والجن والشياطين على كثير من عباده المؤمنين، ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعاً منهم، وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته و ارتفاع أهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومنح شرفا جليلاً.

* قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾.

أي: ورث سليمان أباه في النبوة، والعلم، والملك دون سائر أولاده، وكان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه.

قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه، فكأنه ورثه؛ وإلا فالنبوة لا تورث، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواه.

وقال تحدثاً بنعمة الله وشكراً له ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة: يا أيها الناس: لقد أكرمنا الله فعلمنا منطق وكلام الطير، وأصوات جميع الحيوانات، وقدّم منطق الطير، لأنها نعمة خاصة به، لا يشاركه فيها غيره. وأعطانا الله من كل شيء ـ والمراد به كثرة ما أوتي ـ من خيرات الدنيا ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحداً من الآدميين، وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد نفسه، بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

أي: إن ما أعطانا، وما خصنا الله به من أنواع النعم لهو الفضل الواضح الجلي، الذي يميزنا على من سوانا، قاله على سبيل الشكر والمحمدة، لا على سبيل العلو والكبرياء.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾.

وجمع لسليمان جيوشه وعساكره، وأحضرت له في مسيرة كبيرة، فيها طوائف الجن والإنس والطير، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: فهم يكفون ويمنعون عن التقدم بين يديه. قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ﴾.

أي: حتى إذا وصلوا إلى وادٍ بالشام كثير النمل، قالت إحدى النملات منبهة لرفيقاتها وبني جنسها ادخلوا بيوتكم، خاطبتهم مخاطبة العقلاء؛ لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء.

جمعت النملة في هذه الجملة أحد عشر نوعاً من فنون الكلام: نادت ونبهت وسمت، وأمرت وأرشدت، وحذرت وخصت، وعمت وأشارات وعذرت.

قال بعض العلماء: هذه الآية من عجائب القرآن، لأنها بلفظه ﴿يَـٰٓ﴾ نادت، ﴿أَيُّهَا﴾ نبهت، ﴿ٱلنَّمْلُ﴾ عينت، ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ أمرت، ﴿مَسَـٰكِنَكُمْ﴾ نصت، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذرت، ﴿سُلَيْمَـٰنُ﴾ خصت، ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ عمت، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ عذرت.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: لا يكسرنكم سليمان وجيوشه بأقدامهم، وهم لا يشعرون بكم، ولا يريدون حطمكم عن عمد، حذرت ثم اعتذرت؛ لأنها علمت أنه نبي

رحيم، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها فإن قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان.

وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل بكل مخلوق لا فساد منه، أجراه الله على نملة ليعلم شرف العدل ولا يحتقر مواضعه، وأن ولي الأمر إذا عدل سرى عدله في سائر الأشياء وظهرت آثاره فيها، ويضرب الله الأمثال للناس، فضرب هذا المثل لنبيه سليمان بالوحي من دلالة نملة، وذلك سر بينه وبين ربه جعله تنبيهاً له وداعية لشكر ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الشعراء: ١٩]. فلما سمع سليمان ـ عليه السلام ـ منها.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾.

فتبسم سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده، ولفهمها واهتدائها إلى مصالحها ونصيحتها للنمل، وأكثر ضحك الأنبياء التبسم.

وقد أكد ـ تعالى ـ التبسم بقوله ﴿ضَاحِكًا﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان، وتبسم تبسم المستهزئين، وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسرّ نبي بأمر دنيا، وإنما سرّ بما كان من أمر الآخرة والدين وهذا حال الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب، وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه يدل على شراسة الخلق والجبروت، والرسل منزهون عن ذلك.

قال الزجاج: أكثر ضحك الأنبياء التبسم، وقوله ضاحكاً: أي مبتسماً.

* وقد استشعر سليمان نعمة الله عليه، فتوجه إليه داعياً:

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليَّ من النبوة والملك والعلم، وعلى أبويَّ؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد.

ومن تمام بر الوالدين: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] كأن هذا الولد خاف من تقصير والداه في الشكر، فقام بما وجب عليهما.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾.

أي: بحث وطلب سليمان وفتش عن جماعة الطير المسخرة له، وحال ما غاب منها، دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطير.

قال القرطبي: فيه دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف حاله على سليمان، فكيف بما هو أعظم؟ ويرحم الله عمر؛ فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسألن عنها عمر.

﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾.

أي: لم لا أرى الهدهد ههنا؟ قال المفسرون: كان الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها، فلما فصل سليمان عن وادى النمل ونزل في قفر من الأرض، عطش الجيش فسألوه الماء، وكان الهدهد يدله على الماء، فإذا قال: ههنا الماء، شقت الشياطين وفجرت العيون، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده، فقال: ما لي لا أراه.

﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝﴾.

أم منقطعة بمعنى: «بل» أي: بل هو غائب، ذهب دون إذن مني فحينئذ تغيظ عليه وتوعده، فقال:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: لأعاقبنه عقاباً أليماً بالسجن، أو نتف الريش، أو الذبح، أو ليأتيني بحجة واضحة تبين عذره.

* وبعد برهة من الزمن يسيرة، جاء الهدهد إلى سليمان بأمر عظيم، وشأن ذي بال، فقال:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

أي: فأقام الهدهد زماناً يسيراً غير طويل، ثم جاء إلى سليمان، فعاتبه على مغيبه وتخلفه، فقال الهدهد لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه، وعرفت ما لم تعرفه، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك.

وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك وتيقنه.

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: من عجائب ما رأيت، أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكه لهم باليمن، وهم يدينون بالطاعة لها. وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك، من أسباب الدنيا، من سعة المال، وكثرة الرجال، ووفرة السلاح والعتاد. ولها سرير كبير، عظيم القدر، تجلس عليه لإدارة ملكها، مكلل بالدر والياقوت.

قال قتادة: كان عرشها من ذهب، قوائمه من جوهر، مكلّل باللؤلؤ.

قال الطبري: وعني بالعظيم في هذا الموضع؛ العظيم في قدره وخطره، لا عظمه في الكبر والسعة.

ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر، فقال:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: هو ـ تعالى ـ المتفرد بالعظمة والجلال، رب العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود لا غيره، وخص العرش بالذكر؛ لأنه أعظم المخلوقات، وعرش ملكة سبأ وإن كان عظيماً فهو صغير وحقير في جنب عرشه ـ عز وجل ـ.

قال بعضهم حاثّاً على الدعوة: لا يكن الهدهد أغير منك على التوحيد، ومسكين من كان الهدهد خيراً منه. وإلى هنا انتهى كلام الهدهد.

❁ فرد عليه سليمان، متثبتاً لكمال عقله ورزانته، وتأنيه في الأمور:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قال سليمان للهدهد: سنتأمل في قولك، ونتثبت هل أنت صادق فيما أخبرت أم كاذب فيه؟

قال ابن الجوزي: وإنما شك في خبره؛ لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان.

ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه، ودفعه إلى الهدهد، وقال: أي: اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها، ثم تنح إلى مكان قريب، مستتراً عنهم لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك. فانظر ماذا يردون من الجواب وما يتراجعون به؟

قال المفسرون: أخذ الهدهد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها، فرفرف فوق رأسها ثم ألقى الكتاب في حجرها.

❁ قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل: ٢٩].

قال القرطبي: وقيل وصفته بذلك لما تضمن من لين القول، والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله ـ عز وجل ـ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبّاً ولا لعناً، ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا

مستغلق على عاده الرسل في الدعاء إلى الله ـ عز وجل ـ.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ .

أي: قالت بلقيس لأشــراف قومها وكبراؤهم: إنــه أتاني كتاب عظيم جليــل من أكبر ملوك الأرض، ثــم بينت المكتوب فقالت: إن هذا الكتاب مرسل من سليمان، ثم فتحته وبينت مضمونه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، وهو اســتفتاح شريف بارع فيه إعلان الربوبية لله، ثم الدعوة إلى توحيد الله والانقياد لأمره.

﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝﴾ .

أي: لا تتكبــروا عليَّ ولا تترفعوا كما يفعل الملوك، وجيئوني مؤمنين، موحديــن، طائعين. وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، وحصل المعنى بأيســر عبارة وأحســنها، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهــم التي هم عليهــا، والانقياد لأمره، ومجيئهــم إليه، ودعوتهم إلى الإســلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب.

❁ فمــا كان من بلقيس إلا أن جمعت كبــار دولتها، ورجال مملكتها، وذلك من حزمها، وعقلها.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝﴾ .

أي: قالت لأشراف قومها: أشيروا عليَّ في الأمر وأخبروني، وأجيبوني فيما أشاوركم فيه، ثم زادت في التأدب واستجلاب خواطرهم، فقالت: ما كنت لأقضي أمراً دون حضوركم ومشورتكم، قصدت بذلك تطيب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها ويشيروا عليها بالصواب.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝﴾ .

قالــوا مجيبين لها: نحن أصحاب كثــرة في الرجال والعتاد، وأصحاب شــدة في الحرب، وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك، ثم قالوا:

وأمرنا إليك وأنت صاحبة الرأي، فمرينا بما شئت نمتثل أمرك، مطيعون لكِ، وقولهم هذا دليل على الطاعة المفرطة، ودليل لعلمهم بصحة رأيها وقوة عقلها.

قال القرطبي: أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كل ما يعرض لها، فراجعها الملأ بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع، فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب، فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٣٤].

أي: فقالت لهم بلقيس مقنعة لهم عن رأيهم، مجيبة لهم عن التعريض للقتال، ومحذرة لهم من مواجهة سليمان بالعداوة، أن عادة الملوك أنهم إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً، خربوها وأسروا ونهبوا وأتلفوا.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه، وإن كان حبيباً قريباً، فصدق الله ـ عز وجل ـ كلمة بلقيس بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مع أنها كافرة.

* ولما قرب وصول ملكة سبأ إلى بلاده، أمر بأن تغير بعض معالم عرشها امتحاناً لها.

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال سليمان: غيروا بعض أوصاف سرير ملكها وهيئته بزيادة ونقصان، كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف. لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه، أم تكون من الجاهلين الذين لا يهتدون؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها وفطنتها.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ .

لما كانت بلقيس قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به قد خلفته في بلدها. قيل لها: أمثل هذا العرش الذي رأيتيه عرشك؟ ولم يقل: أهذا عرشك؟ لئلا يكون تلقيناً لها.

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ .

أي: يشبهه ويقاربه، ولم تقل: نعم خوفاً من أن تكذب، ولم تقل: لا، خوفاً من التكذيب، وهذا غاية في الذكاء والحزم. فقال سليمان متعجباً من هدايتها، وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها:

﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ .

أي: ادخلي القصر العظيم الفخم، وكان مجلساً مرتفعاً من قوارير تجري من تحته الأنهار. فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء، أي: ماء غمراً كثيراً ـ وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه ـ ومن عادة النساء والحرائر ذوات الخدور عدم إظهار الزينة وإبدائها من الساق أو غيره، فعلت ذلك وهي كافرة عفة وحشمة.

ومن عقلها وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام.

فلما استعدت للخوض.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ .

أي: قال سليمان: إنه قصر مملس من زجاج؛ لأن القوارير شفافة، يرى الماء الذي تحتها، كأنه بذاته يجري، ليس دونه شيء إلا الزجاج الصافي، فلا حاجة منك لكشف الساقين، فحينئذ لما وصلت إلى سليمان، وشاهدت

ما شاهدت، وعلمت نبوته ورسالته، تابت ورجعت عن كفرها. وقالت بلقيس حينئذ: رب إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس. وتابعت سليمان على دينه، فدخلت في الإسلام مؤمنة برب العالمين.

والغرض أن سليمان ـ عليه السلام ـ اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله ـ تعالى ـ وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله ـ عز وجل ـ.

* لما ذكر ـ تعالى ـ في أول السورة قصة موسى، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان، وما فيها من العجائب والغرائب، ذكر هنا قصة قبيلة ثمود، وما كان من أمرها مع نبيها صالح ـ عليه السلام ـ حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكل هذه القصص عرضها ـ سبحانه ـ للتذكير والاعتبار، وبيان سنة الله في إهلاك المكذبين، قال تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

قال الزمخشري: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده، وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما، على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب.

* قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢].

(المجيب) ـ جل جلاله ـ: الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، حتى ولو كان في حالة اضطراره مشركاً. فكيف إذا

كان الداعي مؤمناً موحداً؟ إن الله يخفى عليه شيء من أحوالنا لكنه يحب ـ وهو الغني عنا ـ أن يسمع دعاءنا وأن نظهر له اضطرارنا.

قال القرطبي: ضمن الله ـ تعالى ـ إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده ـ سبحانه ـ موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر.

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار: أوص. قال: إنما الوصية من المال، فلا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

والذي يؤيد أن هذه الدابة تنطق وتخاطب الناس بكلامه يسمعونه ويفهمونه هو أنه جاء ذكرها في سورة النمل، وهذا السورة فيها مشاهد وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان ـ عليه السلام ـ، فجاء ذكر الدابة وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وجوها العام.

وقد ذكر شيخ الإسلام أن القرآن قد أخبر بثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

والثانية: نفخة القيام والبعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

والثالثة: نفخة الصعق وهي هلاك جميع المخلوقات: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

* قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨].

قال القرطبي: ويقال إن الله ـ تعالى ـ وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه، فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنقوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝﴾ [المعارج: ٨ ـ ٩].

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن.

والحالة الرابعة: أن تنسف؛ لأنها مع الأحوال المتقدمة قارَّة في مواضعها، والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها لتبرز، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار، فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة، وهي بالحقيقة مارة إلا إن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة.

والحالة السادسة: أن تكون سرابا، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها كالسراب.

* قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [النمل: ٩٠].

أهل الحسنات لهم الحسنى وزيادة، حتى إن التمرة يربها بإخلاص صاحبها حتى تكون مثل أحد، أما أهل الآثام والظلم والفواحش، فتهان كرامتهم كما أهانوا أنفسهم بالمعاصي، ولهذا يبدأ في العقوبة بوجوههم التي هي أشرف الجسد.

سورة القصص (٢٨)

سورة القصص سورة مكية تهتم بجانب العقيدة وخاصة التوحيد، والرسالة، والبعث، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي النمل والشعراء، كما اتفقت في جو النزول، فهي تكمل أو تفصل ما أجمل في السورتين قبلها.

سميت سورة القصص، لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة، ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه، وخذلانه لأعدائه، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة والمشركون هم أصحاب الحول والطول، والجاه والسلطان فكانت نوراً وهداية وبلسماً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن، وهي أكبر من غيرها، وتبسط أكثر من غيرها.

ولهذا وردت في القرآن قرابة ثلاثين مرة، وسورة القصص أوسع سورة تحدثت عن موسى ـ عليه السلام ـ.

محور السورة الكريمة يدور حول الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين:

أولاهما: قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر، الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء، واستحيا النساء، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية.

والثانية: قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال، ممثلة في قارون مع قومه.

وكلا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال، أو الجاه، أو السلطان وكانت النهاية واحدة، هذا خسف به وبداره، وذاك أخذه اليم هو وجنوده.

* قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ مبدأ أمر موسى ـ عليه السلام ـ عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

بعد ذلك تحدثت الآيات عن بلوغ موسى سن الرشد، وعن قتله للقبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله. قال تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾ [القصص: ٤].

انظروا العبر والآيات العظيمات، كيف كان فرعون يقتل الأبناء خوفاً من موسى، فتربى موسى في بيته وفي كنفه ورعايته.

قال الشيخ السعدي: الظلم إذا عم وطم فإنه يؤذن بزواله وهلاك الظالم ودولته، وقد قال شيخ الإسلام: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة.

فمع أن فرعون قد جمع الموبقات، وأدعى الألوهية، وأنكر رب البرية، إلا أن الله ـ عز وجل ـ علل زوال ملكه ونصر المستضعفين بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

* وقد ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون، وعلوه وفساده في الأرض.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

أي: استكبر وتجبر وطغى، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، وجعل أهلها فرقاً وأصنافاً، وطوائف متفرقة في استخدامه وطاعته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝﴾.

أي: يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل ـ وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ـ، فيسومهم سوء العذاب، وبلغت به الحال إلى أنه: يقتل أبناءهم الذكور خوفاً من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك، ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط.

قال المفسرون: سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمة أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل، فسأل عن ذلك، فقالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل، يذهب ملكك على يديه، ويكون هلاكك بسببه، فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل، وفيه دليل على حمق فرعون، فإنه إن صدق لم ينفعه القتل، وإن كذب فما معنى القتل.

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وما جرى له في تلك الفترة، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

أي: وحين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل، فلما ضاقت بوليدها ذرعاً، وخشيت عليه ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها وقذفنا في قلبها بواسطة الإلهام أو الرؤيا، أن أرضعيه مطمئنة.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧].

وإنما أمرها الله بإرضاعه، لتقوى بنيته بلبان أمه، فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها، وليكون له من الرضاعة الأخيرة ـ قبل إلقائه في اليم ـ قوت يشد بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه، وإيصاله إلى بيت فرعون.

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾.

فإذا خشيت عليه أن يُعرف أمره ويقتله فرعون، فضعيه واجعليه في صندوق مغلق، وألقيه في نيل مصر بلا خوف ولا حزن. ألقيه ولا تخافي عليه الهلاك، ولا الغرق ولا الضياع، ولا تحزني لفراقه.

والفرق بين الخوف والحزن، أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع.

﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: فإنا سنرده إليك، ونعيده إليك بوجه لطيف لتربيته، ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه؛ فبشرها ـ تعالى ـ بأن سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولاً، وهذا من أعظم البشائر الجليلة لأم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به فألقته في اليم بعد أن وضعته في صندوق، وفي هذه الآية أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان، وهكذا قدر لهذه الأم مما كانت تخشاه وتخافه.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

أي: فأخذه وأصابه أعوان فرعون ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدوّاً، ومصدر حزن وبلاء وهلاك، فذكر الحال والمآل؛ لأنهم إنما أخذوا الحال بالمآل. فإن إصابة قوم فرعون بغتة من قبل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ﴾. مع قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [النمل: ٩].

* ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾.

أي: قالت زوجة فرعون لفرعون لما رأت أنه هم بقتله: هذا الغلام سيكون مصدر فرحة ومسرة لي ولك، لعلنا نسر به، فيكون قرة عين لي ولك.

وفي هذا فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجت من النفع؛ أما في الدنيا فهداها الله به، وجعل لها أحسن ثناء في الآخرين: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

واستعملها الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطاعته وصيّرها إلى فسيح جنته.

قال الطبري: ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون، قال لها: أما لك فنعم، وأما لي فليس بقرة عين.

قال ابن عباس: لو قال: قرة عين لي؛ لهداه الله به ولآمن، ولكنه أبى.

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾.

كناية عن السرور، وهي كناية ناشئة عن ضدها وهو سخنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن، فلما كُني عن الحزن بسخنة العين أتبعوا ذلك بأن كنوا عن السرور بضد هذه الكناية، فقالوا: قرة عين.

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ .

أي: قالت امرأة فرعـون لفرعون: لا تقتله، وأبقه لنا، لتقر به أعيننا، ونستمر به في حياتنا، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد.

عسـى أن ينفعنـا في الكبر، وقـد حصل نفعه لهـا، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقر به عيوننا، فإن فيه مخايل اليمن، ودلائل النفع.

قال المفسـرون: وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها، قال تعالى:

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ .

أي: وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته، سيكون على يديه وبسببه، فقد جرى بذلك القلم ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه ـ تعالى ـ، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠].

قال السعدي: فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

* ولما فقدت أم موسى وليدها، حزنت حزناً شديداً، حيث ذهب ولدها في البحر، وأصبحت في هم وغم، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله ـ تعالى ـ نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده، قال تعالى:

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: ١٠].

أي: صار قلبها خالياً من ذكر كل شـيء في الدنيا إلا من هم موسـى وذكره.

وقيل المعنى: طار عقلها من فرط الجزع والغم.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: إن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أنها كادت أن تكشف أمره وتظهر ما في قلبها، وأنه ابنها من شدة الوجد والحزن، وكادت تصيح وا ابناه، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، لولا أن ثبتناها بالعصمة وألهمناها الصبر. لتكون بذلك الصبر والثبات، من المصدقين بوعد الله برده عليها حين قال لها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه. وقد أمرت أم موسى بشيئين، ونهيت عن شيئين، وبشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقالت أم موسى لمريم أخت موسى حين ألقت موسى في اليم: اتبعي أثره حتى تعلمي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد وكيف يصنع به، وانظري ماذا يفعلون به؟ فخرجت لذلك. فأبصرته وتتبعت أثره عن بعد، وهم لا يشعرون أنها أخته؛ لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم، كأنها مارة لا قصد لها فيه وهذا من تمام الحزم والحذر.

ثم كان من لطف الله ـ عز وجل ـ بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة غير ثدي أمه، وهو تحريم منع لا تحريم شرع. قال تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومنعنا موسى أن يقبل ثدى أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه، وذلك لكرامته عند الله وصيانته

لـــه أن يرتضـــع غير ثدي أمه، ولأن الله ـ ســـبحانه وتعالى ـ جعل ذلك ســـبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه، وهـــي آمنة مطمئنة بعدما كانت خائفة وجلة.

قال المفسرون: بقي أياماً كلما أتي بمرضع لم يقبل ثديها، فأهمهم ذلك واشـــتد عليهم الأمر فخرجـــوا به يبحثون له عن مرضعـــة خارج القصر، فجاءت أخته، وهم بتلك الحال حائرون فيمن يرضعه.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فقالت أخت موســـى وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً: هـــل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه لكم؟ وهذا جُل غرضهم، فإنهم أحبوه حبّاً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت. لا يقصرون فـــي إرضاعه وتربيته، قالـــوا: نعم، فأتينا بها، فدلتهم على أم موســـى، فانطلقت إلى أمها، وأخبرتها بحال ابنها، وجاءت بها إليهم، والصبي على يد فرعون يعلله شـــفقة عليه وهو يبكي يطلـــب الرضاع، فدفعه إليها فلما وجـــد ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصـــه، فقال فرعون: من أنت منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، طيبة اللبن، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني، فدفعه إليها، فرجعت إلى بيتها من يومها، ولم يبق أحد مـــن آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر، فذلك قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: أعدنا موســـى إلى أمه تحقيقاً للوعد، كي تســـعد وتهنأ بلقاء ولدها، ولا تحزن على فراقه، وتأخذ الأجـــرة الكثيرة على ذلك، قد أبدلها الله بعـــد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق ودار. بـــل وتعود به إلى دارها؛ لأنه طلـــب منها أن ترضعه وتقيم عندهـــم، فأبت وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولا أقدر على المقام عندكم، ولكـــن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلـــت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكســـاوي والإحسان الجزيل، ولم

يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، فسبحان من جعل لمن اتقاه بعد كل هَمٍّ فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً، ولهذا قال:

﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: لتتحقق من صدق وعد الله برده عليها، وحفظه من شر فرعون، وجعله من المرسلين. ولكن أكثر الناس يرتابون، ويشكون في وعد الله القاطع، ولا يعلمون حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر.

ها هو موسى يعود إلى أمه الملهوفة، معافى في بدنه مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه أمه، وهو آمن مطمئن، يحميه ويحافظ عليه ممن يقتل أمثاله. فسبحان من يجري الأمور وفق تقديره ومشيئته.

قال السعدي - رحمه الله -: لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها بردِّه إليها، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمل موقع هذه البشارة، وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً، وتأخذ عليه أجراً، وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها، وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته أعطاه الله الحكمة عند كبر سنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص: ١٤].

* قال تعالــى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩].

قال أبو عمران الجوني: آية الجبابرة القتل بغير حق.

* فما كان من موســى إلا أن قبــل نصيحة ذلك الرجل الناصح، حين أخبره بما تمــالأ عليه فرعون ودولته في أمره، فخرج من مصر، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة، قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝﴾.

أي: قصد بوجهه ناحية مدين، بلدة شعيب ـ عليه السلام ـ وهي جنوبي فلسطين حيث لا ملك لفرعون ولا سلطان على تلك النواحي. دعا ربه أن يرشده إلى الطريق السوي الذي يوصله إلى مقصوده، فاستجاب الله دعاءه، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً.

قال المفسرون: خرج خائفاً بغير زاد ولا مركب، وكان بين مصر ومدين مســيرة ثمانيــة أيام، ولم يكن له علم بالطريق ســوى حســن ظنه بربه، فبعث الله إليه ملكاً فأرشــده إلى الطريق، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تتراءى من بطنه من الهزل؛ لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾.

ولما وصل إلى مدين بلدة شــعيب، وورد ماءهــا وجد على البئر الذي يســتقي منه الرعاة جمعاً كثيفاً من الناس، يســقون مواشيهم، وكانوا أهل ماشــية كثيرة. ووجد سوى الجماعة الرعاة، امرأتين تكفّان وتمنعان غنمهما عن الماء لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فلما رآهما موسى ـ عليه السلام ـ رق لهما ورحمهما مع ما هو فيه من التعب والمشقة وقال لهما: ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء؟ ولم لا تسقيان مع السقاة؟ قالت له المرأتان: من عادتنا التأني ولا نسقي غنمنا حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء، ولا نريد مخالطة الرجال، وأبونا رجل مسن لا يستطيع لضعفه أن يباشر سقاية الغنم، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا. وفيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتهما، فرق لهما موسى ـ عليه السلام ـ ورحمهما.

وقد أخبروه عن سبب خروجهما مع أنه لم يطلب منهم ذلك، وما ذلك إلا لأن هذا الخروج غير معتاد، فاستدعى ذكر السبب.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾.

أي: فسقى لهما غنمهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، ورحمة بهما غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة، وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار بدليل أنه تولى إلى الظل مستريحاً لذلك الظلال من التعب، ثم قال في تلك الحالة مسترزقاً ربه.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

أي: إني يا رب محتاج إلى فضلك وإحسانك، وإلى الطعام الذي أسد به جوعي، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، وفيها استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان عالماً بها؛ لأنه ـ تعالى ـ يحب

تضرع عبده من إظهار ذله ومسكنته. وفي هذا إشارة إلى سبب عظيم من أسباب إجابة الدعاء، وهو إظهار الافتقار إلى الله ـ عز وجل ـ. لأنه ـ تعالى ـ يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته.

قال الضحاك: مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعماً إلا بقل الأرض، وقال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

* ذكرت الآيات أن موسى بقي على تلك الحال يدعو ربه، أما المرأتان، فرجعتا إلى أبيهما، فاستنكر سرعة مجيئها، فسألهما، وكان من عادتهما الإبطاء، فأخبرتاه بما كان من أمر الرجل، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى. قال تعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

أي: جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل، قد سترت وجهها بثوبها استحياء، وهذا يدل على كرم عنصرها وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة وخصوصاً في النساء. قال عمر: لم تكن بسلفع من النساء خراجة ولاجة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

أي: جاءت تمشي على استحياء والقول كذلك على استحياء، قالت المرأة: إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا، قال ابن كثير: وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة، وقد ظهر لهما من عزة نفسه وحسن أخلاقه، ودعته ليجزيه والدها، لا ليمنَّ عليه؛ لأنه الذي ابتدأ بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، والمكافأة تسبب تآلف القلوب، ودفع المنن. فأجابها موسى، فمشت المرأة ومشى موسى خلفها، فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها، فكره موسى أن

يرى ذلك منها، فقال لها: امشـــي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت، ففعلت ذلك.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥].

ولما كان الحياء كأنه مركب لها وهي متمكنة منه، مالكة لزمامه، عبر بأداة الاســتعلاء فقــال: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: حياء موجود منها، لأنها كلفت بالإتيان إلى رجل أجنبي تكلمه وتماشيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فمضى موســى معها إلى أبيها، فلما جاءه وذكر له ما كان من أمره، وسبب هربه من مصر، قال له شعيب: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه، وقد نجاك الله من كيد المجرمين، فطب نفسها وقر عيناً.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قالت إحدى ابنتيه: اســتأجره أجيراً عندك لرعي أغنامنا وسقايتها، إن أفضل من تستأجره من كان قوياً على العمل وأداء الأمانة، فإنها شاهدت مــن أمانته وديانته، وأنه رحمهما فــي حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله ـ تعالى ـ.

روي أن شــعيباً قال لها: وما أعلمك بقوتــه وأمانته؟ فقالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشــرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني مــن ورائي ودليني على الطريق، ولما أتيته خفض بصره فلم ينظر إليّ، فرغب شــعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته. وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

قال الزمخشري: كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك.

* قال شعيب لموسى كما ذكر ـ عز وجل ـ:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾.

أي: قال صاحب مدين عند ذلك، لموسى: إني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين، الصغرى أو الكبرى. وفيه مشروعية عرض وليّ المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة في الإسلام، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر، وعثمان، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ﴾.

أي: بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي. فإن أكملتها عشر سنين من الرعي فذلك تفضل منك، وليس بواجب عليك، فجعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكلاً إلى المروءة. وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر إلا أن تتبرع، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير، لا مشقة فيه.

* قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

قال العلماء: جاء بحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ ليشعره بعظم المهر، ولو جاء باللام، لكان النفع لشعيب وحده.

* قال يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨].

ما بين التواضع والكبر: إلا نسبة الفضل لله أو منازعته فيه.

قال ابن القيم: ليحذر كل الحذر من طغيان: (أنا، ولي، وعندي) فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها (إبليس، وفرعون، وقارون) ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [ص: ٧٦] لإبليس، و﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] لقارون.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾.

ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة، لين الجانب، وفيّاً بالعهد، فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يُحسِّن خلقه مهما أمكن، وأن الذين يُطلب منه أبلغ من غيره.

* قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦].

قال ابن تيمية: أما أهل السنة فيقولون إن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله، ولكن العبد يقدر على أسبابه؛ وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، وهو المنفي عن الرسول ﷺ بقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

وأشار إلى سبب الإهلاك بقوله: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: وقع منها البطر في زمان عيشها الرخي الواسع، فكان حالهم كحالكم في الأمن، وإدرار الرزق، فلما بطروا معيشتهم، أهلكناهم، ومعنى بطرهم لها: أنهم شقوها بمجاوزة الحد في المرح، والأشر والفرح، إلى أن تعدوها، فأفسدوها، وكفروها؛ فلم يشكروها بل فعلوا في تلقيها فعل الحائر المدهوش، فلم يحسنوا رعايتها.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠].

دل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص: ٦٧].

قال ابن كثير: وعسى من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

* بعد أن ذكر ـ تعالى ـ قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى، وقصة الطغيان والعلو بالمال، يأتي التعقيب المباشر بخبر عن الدار الآخرة ونعيمها المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

الإشارة للتفخيم والتعظيم، أي: تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها، وبلغك وصفها، هي دار النعيم الخالد السرمدي، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نجعلها داراً وقراراً للمتقين، الذين لا يريدون التكبر والطغيان، ولا الظلم والعدوان والفساد في هذه الحياة الدنيا، وأشار إلى مجرد الإرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله.

روى ابن جرير عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾، وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل، فهذا لا بأس به.

قال الزمخشري: لم يعلق الموعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما، وميل القلوب إليهما. كما قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: ١١٣].

❁ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات، فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة، وهذا إخبار عن فضله وجوده وكرمه، وتمام عدله وهذا مقام الفضل. ومن جاء يوم القيامة بالسيئات، وهي كل ما نهى الشارع عنه نهي تحريم، فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات، وهذا مقام الفضل والعدل.

❁ وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة، وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام، وفي الآيات تسلية ومؤانسة للنبي ﷺ، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

سورة العنكبوت (٢٩)

سورة العنكبوت سورة مكية، سميت سورة العنكبوت؛ لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة، ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان، وسنة الابتلاء في هذه الحياة؛ لأن المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدة، ولهذا جاء الحديث عن حقيقة الإيمان، وسنة الفتنة والابتلاء، جاء في هذه السورة مطولاً مفصلاً، وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء.

فقد ذكر ـ سبحانه ـ أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم ليتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده، ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره، وذكر أحوال المتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا، وهم الرسل وأتباعهم وعاقبة أمرهم وما صاروا إليه.

* قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١ - ٤].

وهذه الآية وإن كانت واردة في شأن المشركين المؤذين للمؤمنين، فهي تشير إلى تحذير المسلمين من مشابهتهم في اقتراف السيئات استخفافاً بوعد الله عليها، لأنهم في ذلك يأخذون بشيء من مشابهة حسبان الانفلات، وإن كان المؤمن لا يظن ذلك ولكنه ينزل منزلة من يظنه لإعراضه عن الوعيد حين يقترف السيئة.

قال ابن القيم: لما علم الله ـ سبحانه ـ أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلقائه، ضرب لهم أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم، فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥].

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٧].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده ـ سبحانه ـ أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه، لأنه لما آمن به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله.

* قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ٨].

إذا أمر ـ عز وجل ـ بالبر والدعاء، يستعمل الوالدين وليس الأبوين مثل: ﴿بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾، ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨] لأن الوالد من الولادة، والتي تلد هي الأم، وهذا فيه إشارة إلى إنها أولى بالبر والصحبة.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ٨ ـ ٩].

قال ابن عاشور: ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة، فجعل الله جزاء عن وحشة تلك التفرقة أنساً بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۝﴾ [العنكبوت: ١٤].

اقتضت حكمته ـ سبحانه ـ أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها فيظهر من يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليخلص النفوس بكير الامتحان،

كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية فإن خرج في هذا الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد؛ ونقي أذن له في دخول الجنة.

قال الألوسي: والنكتة في اختيار السنة أولاً أنها تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام، فتناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى ـ عليه السلام ـ فيه ما قاسى من قومه.

* قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ وأشار بصيغة الافتعال إلى السعي فيه، لأنه أجرى عادته ـ سبحانه ـ أنه في الغالب لا يؤتيه إلا بكد من المرزوق وجهد، إما في العبادة والتوكل، وإما في السعي الظاهر في تحصيله بأسبابه الدنيوية، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

* قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

قال القرطبي: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ﴾ على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله.

* قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال ابن عاشور: وابتدئ بذكر العقاب؛ لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذي حظهم فيه هو التعذيب.

* لما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومن مناسبة هذا: أن القلوب متعلقة بمن يرزقها

كما في قول إبراهيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فدلهم على العبودية من الباب الذي يرغبونه.

* ثم قال ـ تعالى ـ مخبراً عن قوم إبراهيم وما جرى له من قومه، من كفرهم وعنادهم ودمغهم الحق بالباطل. إلا أنه آمن له بدعوته لوط.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فآمن مع إبراهيم لوط وصدقه، وهو الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه، وهو ابن أخيه، وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة.

وقال الخليل إبراهيم، حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: إني تارك دار قومي ومهاجر من بلدي، رغبة ورجاء في رضى الله، ملتجئ إلى حماه. فهاجر من سواد العراق إلى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره.

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ أقر الله عينه وعوضه عن قومه وعن أهله، فقال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾.

أي: وهبنا لإبراهيم ـ لما فارق قومه في الله ـ ولداً صالحاً هو إسحاق، وولد ولد وهو يعقوب بن إسحاق، ولم يذكر إسماعيل لشهرته.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾.

وخصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ونسله، فإن إبراهيم شجرة الأنبياء، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه.

قال ابن كثير: وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله إماماً للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده

يعقوب، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: أعطينا إبراهيم الزوجة الجميلة، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة به وإليه، والثناء الحسن له في جميع الأديان. وهو في الآخرة في الجنة، في عداد الكاملين في الصلاح، وهذا ثناء عظيم على أب الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

* قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وهذا مدح لمن يعقلها وأنه عنوان على أنه من أهل العلم.

وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه بكى، ويقول لست من العالمين.

وفي القرآن ثلاثة وأربعون مثلاً، لا يتدبرها إلا صاحب قلب حي، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم: ٥٨].

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ووجه الوصاية بالحسنى في مجادلة أهل الكتاب أن أهل الكتاب مؤمنون بالله غير مشركين به، فهم متأهلون لقبول الحجة، غير مظنون بهم المكابرة، ولأن آداب دينهم وكتابهم أكسبتهم معرفة طريق المجادلة، فينبغي الاقتصار في مجادلتهم على بيان الحجة دون إغلاظ حذراً من تنفيرهم.

* لما ذكر ـ تعالى ـ قصة نوح وإبراهيم، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة، ذكر هنا قصص الأنبياء: لوط، وشعيب، وهود، وصالح، على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين، وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله.

* قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قال الحسن: إنه القرآن، والذين أوتوا العلم: المؤمنون الذي حملوا القرآن على عهد الرسول ﷺ وحملوه بعده. وإنما أعطي الحفظ هذه الأمة، وكان من قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلا نظراً، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

أي: لا تدعوا أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشوهم في أمر الدين، إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه وبيناته، ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

أي: إلا من كان ظالما، محارباً لكم، مجاهداً في عداوتكم، فجادلوهم بالغلظة والشدة، فجالدوهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

* قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

قال ابن القيم: فمن لم يشفه القرآن، لا شفاه الله، ومن لم يكفه، فلا كفاه الله.

* قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ خطاب تشريف وتكريم للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أي: يا من شرفكم الله بالعبودية له، هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها، ولا تجاوروا الظلمة فأرض الله واسعة وخصوني بالعبادة ولا تعبدوا أحداً سواي.

قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: وكل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه لا محالة، كما يجد الذائق طعم المذوق، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله، وحيث أمرتم فهاجروا، فلا يصعب عليكم ترك الأوطان، ومفارقة الإخوان، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه. وقد خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة، ثم بعد الموت إلى الله المرجع والمآب.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

أي: والذين جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل، لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكننهم منازل رفيعة فيها، وفي هذا الترغيب إلى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غرف الجنة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هذا بيان للعاملين، أي: هم الذين صبروا على تحمل المشاق والشدائد، من الهجرة والأذى في سبيل الله، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل

الجهـد والطاقة في ذلـك، وعلى المحن والمصائب وعلـى الطاعات وعن المعاصي، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم، فالتوكل يقتضي شـدة اعتمادهم على الله، وحسـن ظنهم بـه. وهذان جماع الخير كله: الصبر، وتفويض الأمر إليه ـ تعالى ـ.

ولما أمر رسول الله ﷺ من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فقالوا: كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال، فمن يطعمنا بها ويسقينا، فلما هاجروا وتوكلوا كانوا في مهاجرهم أوسع رزقاً وأطيب، ثم بعد زمن يسير صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، فنزلت:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾.

أي: كـم من دابة ضعيفة ذات حاجة إلى غداء، لا تقدر على كسـب رزقهـا، ولا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شـيئاً لغد مثل البهائم والطير، ولكـن الله يرزقها مع ضعفها. فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكـم وتدبيركم، والله يرزقها كما يرزقكم، فهو الذي يقيض لها الرزق على ضعفها وييسره عليها، وقد تكفل برزق جميع الخلق، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم، فالرازق هو الله.

والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم.

عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشـركون فقال لهم: «**أخرجوا إلى المدينة وهاجروا، ولا تجاوروا الظلمة**»، قالوا: ليس لنا بها دار ولا عقار، ولا من يطعمنا ولا من يسـقينا، فنزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ...﴾ الآية.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: هو السميع لقولكم نخشى الفقر والعيلة؛ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية فإنه السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم وبما في ضمائركم.

* قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ذكر في الآية أسفارهم في البحر، لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتريهم فيها خوف يعم جميع السفر، لأنهم كانوا يسافرون قوافل معهم سلاحهم، ويمرون بسبل يألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هوله، ولا يدفعه عنهم وفرة عدد، ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلهم لا يدعون أصنامهم حينئذ.

* لم ترد في القرآن كلمة ديارهم إلا مع العذاب بالصيحة: لأنها تصيب عدداً أكبر، وتبلغ لقوة الصوت والتأثير دياراً عديدة، كما في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]، وفي قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

أما الرجفة فيكون تأثيرها في مكانها فقط، لذا جاء استخدام كلمة ﴿دَارِهِمْ﴾ مع الرجفة كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣٧].

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

علق - سبحانه - الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الإمامان عبدالله بن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ماذا عليه أهل الثغر، فإن الحق معهم، لأن الله. يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾.

قال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله، وهو الجهاد الأكبر.

قال شيخ الإسلام: وقد ذكر في غيره موضع من القرآن ما يبين أن الحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، وكذلك السيئة الثانية قد تكون من عقوبة الأولى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝﴾ [الروم: ١٠].

سورة الروم (٣٠)

* سورة الروم سورة مكية، توضح وتبين أسس العقيدة الإسلامية من الإيمان بالوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء.

سميت «سورة الروم» لذكر تلك المعجزة الباهرة، التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم.

فقد ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي مهم، أخبر عنه القرآن الكريم قبلٍ حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في المعركة التي ستقع قريباً بينهما، حيث كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول الكبرى، فكان ذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن أعظم معجزات القرآن.

وقد ختمت سورة العنكبوت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وافتتحت الروم بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر، وفرح المؤمنين بذلك.

* قال ـ تعالى ـ عن الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝﴾ [الروم: ٧].

قال الحسن: يعلمون متى زرعهم ومتى حصادهم، ولقد بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلي.

قال الشنقيطي: ولهذا يجب على كل مسلم في هذه الزمان أن يتدبر آية الروم هذه تدبراً كثيراً، ويبين ما دلت عليه لكل من استطاع بيانه له من الناس. ومن أعظم فتن آخر الزمان التي ابتلي الله بها ضعاف العقول من المسلمين شدة إتقان الإفرنج لأعمال الدنيا فظنوا أن من قدر على تلك الأعمال أنه على الحق، وهذا جهل فاحش.

* لما ذكر ـ تعالى ـ أحوال الناس في الآخرة، وقدرته على البدء والإعادة، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية، في خلق البشر، واختلاف الألسنة والصور، وإحياء الأرض بالمطر، وفي قيام الناس ومنامهم، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق، قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته، الدالة على البعث، أن خلق أصلكم آدم من تراب، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خَلَقَكُم﴾ لأن آدم أصل البشر. ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى بشر عقلاء، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم، فسبحان من خلقهم وسيرهم، وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

* قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾.

أي: من آياته الدالة على عظمته، وكمال قدرته، ورحمته وعنايته بعباده؛ أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم، نساءً آدميات مثلكم، تناسبكم وتناسبونهن، ولم يجعلهن من جنس آخر، ولو أنه ـ تعالى ـ جعل الإناث من جنس آخر، من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببني آدم.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

أي: لتميلوا إليهن، وتألفوهن بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما.

قال ابن عباس: المودة: حب الرجل امرأته. والرحمة: شفقته عليها أن يصيبها بسوء.

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية، والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان، الذي تخضع له الرقاب، وتعنوا له الوجوه، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن، وبين من يعبد الأوثان، قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ربط القرآن بين النوم ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣] وبين السمع ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فالحاسة الوحيدة التي تعمل أثناء النوم هي السمع. فعند النوم تفقد جميع الحواس إلا السمع، ولهذا اختتمت آية النوم بالإشارة إلى ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

* قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧].

وردت في ثلاث سور في القرآن يجمعها هذا البيت:

له المثل الأعلى أتت بثلاثة
هي النحل والشورى وفي الروم فاعلم

* قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

أمر بإيتاء ذى القربي لقرب رَحِمه، وقدمه على المسكين وابن السبيل. وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم. وقد فضل رسول الله ﷺ الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك في سورة البقرة، والإسراء.

فقال ـ تعالى ـ في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال في الإسراء: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

* قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم: ٣٦].

انظر كيف قال هنا: ﴿إِذَآ﴾، وقال في الشر: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ لأن ﴿إِذَآ﴾ للقطع بوقوع الشرط بخلاف ﴿إِن﴾ فإنها للشك في وقوعه ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشر.

* لما شنَّع على المشركين في عبادتهم لغير الله، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء، وهي الكفر، وانتشار المعاصي، وكثرة الفجور والموبقات، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة، تنبيهاً لقريش وأمراً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، لا يعتبرون ولا يتعظون؛ لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، والصبر حتى يأتي النصر، قال تعالى:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: استعلن الفساد وظهرت البلايا كالجدب وقلة الأمطار، وكثرة الأمراض والأوبئة، والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم.

وقيل المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق، ومحق البركات، وكثرة المظالم بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه، وكذلك النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قال ابن جزي: فظهور الفساد في البر بالقحط والفتن وشبه ذلك، وظهور الفساد في البحر بالغرق، وقلة الصيد، وكساد التجارات وشبه ذلك، وكل ذلك بسبب ما يفعله الناس من الكفر والعصيان.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

قال بعض العلماء: ولقد كان الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي عليه اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم.

وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليه: هذا كان ينبت أيام العدل.

* قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾.

أي: قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين سيروا في البلاد بقلوبكم وأبدانكم سير اعتبار وتأمل، فانظروا إلى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل، كقوم نوح، وعاد وثمود، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر، حيث كانوا كافرين بالله فأهلكوا وعذبوا.

* ثم تأتي التوجيهات الربانية آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات، قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾.

قال السعدي: وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ .

الضعف الأول: كون الإنسان من ماء مهين، وكونه ضعيفاً في حاله الطفولية.

والضعف الثاني: في الأخير الهرم.

* قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

قال الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن، رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه، يصعب عليه الصبر.

في أول الآية أمر، وفي آخرها نهي، وفي وسطها خبر.

سورة لقمان (٣١)

هذه السورة الكريمة، من السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة، تعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي: الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور، كما هو الحال في السور المكية.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأن الله ـ عز وجل ـ جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة، والإبداع العجيب، في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره، وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهد المرء من دلائل القدرة والوحدانية، مما يأخذ بالقلب، ويبهر العقل، ويواجه الإنسان مواجهة جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم.

وسميت «سورة لقمان»؛ لاشتمالها على قصة لقمان الحكيم ووصاياه التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسر معرفة الله ـ تعالى ـ وصفاته، وذم الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات، وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان.

ـ وهناك ست سور من القرآن الكريم بدأت بـ ﴿الٓمٓ ۝١﴾ وهي: (البقرة) و(آل عمران) و(العنكبوت) و(الروم) و(لقمان) و(السجدة).

* قال تعالى في مطلع السورة: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان: ١ ـ ٣].

* ثم نبه - تعالى - إلى دلائل قدرته، وآثار عظمته وجلاله، وعدد بعضاً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعماً من آثار رحمته، لإقامة البراهين على وحدانيته، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾.

أي: خلق السموات السبع في سعتها وعظمتها وإحكامها بغير عمد ودعائم ترتكز عليها، كما تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن تستند على شيء، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله العليّ الكبير.

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾.

أي: جعل فيها جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم، فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها. ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب، من مأكول ومركوب، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، وجعلها مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم - تعالى - أنه لا بد لها من رزق تعيش به.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

أي: وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب. فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية.

﴿ كَرِيمٍ ﴾.

أي: كثير المنافع، بديع الخلق والتكوين، فرتعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: ثم أخبروني، أيُّ شيء خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم

المزعومة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الواضح، فقال: بل المشركون في جهل وعمى، وخسران ظاهر، وضلال واضح ما بعده ضلال؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فهو أضل من الحيوان الأعجم؛ لأن من عبد صنماً جامداً، وترك خالقاً عظيماً مدبراً، يكون أحط شأناً من الحيوان.

* ثم ذكر هنا وصايا لقمان الحكيم، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءة بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب، وأعظم الجرائم عند الله.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾.

أي: واذكر ـ يا محمد ـ لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده، حين قال له واعظاً وناصحاً ومرشداً بكلمة فيها تحبب ورفق وتلطف: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشراً أو صنماً أو ولداً، وهذا توجيه للدعاة وللآباء أن يبدأوا بكلمة رقيقة فيها حنان وشفقة ورأفة؛ لأن الكلام اللين يفتح القلوب، وبدأ بالتحذير من الشرك؛ لأنه أهم من غيره، ثم بين له السبب في ذلك فقال:

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: إن الشرك لأعظم الكبائر وأبشعها، وهو ظلم صارخ؛ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فمن سوى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم فهو ـ بلا شك ـ أحمق الناس، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم، فهل أعظم من هذا الظلم شيء.

* ولما أمر ـ تعالى ـ بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

أي: عهدنا إليه، وأمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة، ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقد حملته مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين كان جنيناً في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، ومشقة على مشقة، من حين الحمل إلى حين الولادة؛ لأن الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت به ثقلاً وضعفاً، ثم وجع الولادة وكرباتها.

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾.

أي: وفطامه في تمام عامين وهو ملازم لحضانة أمه، وكفالتها ورضاعتها وعنايتها.

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

هو تفسير لوصينا، أي: وقلنا له: اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان، بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، واشكر والديك على نعمة التربية بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما، وإجلالهما، والقيام بمؤونتهما، فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن:

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾.

أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلفك بهذه الحقوق، إلى الله المرجع والمآب، فيجازى المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

قال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما.

* ثم قال عز وجل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

أي: وإن بذلا جهدهما، وأقصى ما في وسعهما، - أيها الولد المؤمن - ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما؛ إذ لا طاعة لمخلوق في

معصية الخالق، فإن هذا ليس من الإحسان إليهما؛ لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، فلاتطعهما بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه.

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

أي: وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، وبالخلق الجميل، والحلم والبر والصلة، والإحسان إليهما فيما لا إثم فيه ـ ولو كانا مشركين ـ؛ لأن كفرهما بالله لا يستدعي نسيان الإحسان والمتاعب التي تحملاها في تربية الولد، ولا التنكر بالجميل.

والتعبير بهذه اللفظة: ﴿وَصَاحِبْهُمَا﴾ من ألطف ما يكون في الحث على بر الوالدين، ذلك أن الصحبة في هذه الآية تقتضي الملازمة، ومن شأن الملازمة الدوام على تقلب الأحوال، فالصحبة الطويلة يعتريها الملل، والفتور، فإذا استحضر الولد هذا الإرشاد الإلهي علم أن لوالديه حقاً عظيماً، فيلزم صحبتهما بالمعروف.

* ثم عاد السياق إلى وصايا لقمان ليمتثلها الناس ويقتدوا بها، فقال تعالى:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر، وهي أصغر الأشياء وأحقرها. فتكن تلك السيئة ـ مع كونها في أقصى غايات الصغر ـ في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة الصماء، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض، يُحضرها الله ـ سبحانه ـ، ويحاسب عليها لسعة علمه، وتمام خبرته، وكمال قدرته، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: اصبر على المحن والبلايا؛ لأن الداعي إلى الحق معرض أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر، قيل: لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه ـ تعالى ـ وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك.

﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾.

أي: لا تمل وتعبس بوجهك عن الناس، تكبراً واحتقاراً وتعاظماً عليهم، وإعجاباً بنفسك؛ وتحقيراً لهم.

قال الزجاج: معناه: لا تعرض عن الناس تكبراً، يقال: أصاب البعير صَعَرٌ: إذا أصابه داء يلوي من عنقه.

وقال ابن عباس: هو الذي إذا سُلم عليه لوى عنقه كالمستكبر.

وفي الآية أدب رفيع: لا تمش بين الناس متبختراً متكبراً بطراً فخراً بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. لا تفعل ذلك فيبغضك الله، ولهذا قال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ ﴾.

تعليل للنهي، أي: لأن الله يكره المتكبر في نفسه وقوله، الذي يرى العظمة لنفسه، ويتكبر على عباد الله، وكذلك لا يحب المتبختر في مشيته، الفخور الذي يفتخر على غيره.

ثم لما نهاه عن الخلق الذميم، أمر بالخلق الكريم، فقال:

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾.

أي: توسط وتواضع في مشيتك، فامشي متواضعاً مستكيناً، واعتدل فيها بين الإسراع والبطء، عدلاً وسطاً بين بين. واخفض من صوتك أدباً مع الناس ومع الله، فلا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: إن أوحش وأبشع الأصوات صوت الحمير، فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح، وكان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة: أقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق.

قال ابن زيد: لو كان رفع الصوت خيراً ما جعله الله للحمير.

قال القرطبي: وفي هذه الآية أدب من الله ـ تعالى ـ بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير، وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ومن كان أخفض كان أذل، فنهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن هذه الخلق الجاهلي.

* ثم ذكر أثراً من آثار نعمته، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١].

ووجه إيثار خلقي الصبر والشكر هنا، أنهما أنسب بمقام السير في البحر، إذ راكب البحر بين خطر وسلامة، وهما مظهر الصبر والشكر.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ .

هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها، وهي خمس، كما جاء في الحديث الصحيح: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا الآية، والمعنى: عنده ـ تعالى ـ وحده لا غيره معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقع دائم. فكأنها حجب مغلقة بيده لا بيد غيره مفاتحها.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

أي: من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة أو الأنبياء، والجن، والإنس، ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد، وماذا يفعل من خير أو شر من كسب دينها ودنياها ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

أي: كما لا يدري أحد أين يموت، ولا في أي مكان يقبر، ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: مبالغ في العلم، يعلم كل الأمور، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها، لا يخفى شيء منها.

قال الزجاج: فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه.

ومعنى حصر مفاتح الغيب في هذه الخمسة، أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلقاً.

سورة السجدة (٣٢)

سورة السجدة، سورة مكية، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسل، والبعث والجزاء، والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو البعث بعد الفناء، الذي طالما جادل المشركون حوله، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

تدور آياتها حول بيان حقيقة الخلق وأحوال الإنسان في الدنيا والآخرة، ببيان شاف كاف، فهي تفصل كيف خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، وكيف خلق الإنسان الأول من طين، وخلق سلالته من ماء مهين، في تفصيل رائع يطمئن له القلب المؤمن، ويزداد إيماناً بربه، ولا يملك إلا أن يخر ساجداً بين يديه، ولذلك سميت سورة السجدة.

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]» [رواه البخاري].

ـ سميت سورة السجدة: لما ذكر ـ تعالى ـ فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝﴾ [السجدة: ١٥].

* تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل، ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراقة بيانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، فجاءت السورة الكريمة ترد هذا البهتان، بروائع الحجة والبرهان بدفع الشك والارتياب.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ شبهة المشركين الخفية في إنكارهم للبعث والنشور، ورد عليها بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن، وروائع الحجة والبيان، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

أي: ذلك الخالق المدبر لشؤون العالمين، أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقه، ووضع كل شيء في موضعه. وهذا أبلغ في الامتنان، ولهذا قال ابن عباس: ليست القردة بحسنة، ولكنها متقنة محكمة.

قال بعض العلماء: لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل، وأن للأرنب مثل رأس الأسد، وأن للإنسان مثل رأس الحمار، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً، وعدم تناسب وانسجام، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل، وشق شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه، لو علمت كل هذا لأيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، ولقلت: تبارك أحسن الخالقين.

وإذا إذا تأملت الأشياء رأيتها مصنوعة على ما ينبغي، فصلابة الأرض مثلاً للسير عليها، ورقة الهواء ليسهل انتشاقه للتنفس، وتوجه لهيب النار إلى فوق لأنها لو كانت مثل الماء تلتهب يميناً وشمالاً لكثرت الحرائق، فأما الهواء فلا يقبل الاحتراق.

* ثم خص ـ تعالى ـ الآدمي لشرفه وفضله. فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: جعل ذرية آدم يتناسلون من خلاصة من ماء ضعيف رقيق حقير، هو المنيُّ، وسميت الذرية سلالة، لأنها تسلّ من الأصل، وتنفصل عنه.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

أي: ثم أتم خلق الإنسان وأبدعه، وقوم أعضاءه، وعدل خلقته في رحم أمه، ونفخ بعد ذلك فيه الروح، وذلك بإرسال الملك له، لينفخ فيه الروح، فإذا هو في أكمل صورة وأحسن تقويم، وأضاف الروح إليه ـ تعالى ـ تشريفاً للإنسان، وإيذاناً بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأناً جليلة مناسبة إلى حضرة الربوبية.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: مازال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم وخلق لكم هذه الحواس: السمع لتسمعوا به الأصوات، وتميزوا بينها، والبصر لتبصروا به الأشخاص، والعقل لتدركوا به الحق والهدى، والنافع والضار.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝﴾.

أي: قليلاً شكركم لربكم، على ما أنعم به عليكم، و﴿مَّا﴾ لتأكيد القلة.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝﴾ [السجدة: ١٢].

وجيء في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب (لو)، حذفاً يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ۝﴾ [السجدة: ١٥].

جاء في الآية أسلوب بلاغي هو أسلوب الحصر ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥]. وكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ من أدوات الحصر، وكأن المؤمنين بالله هم هذا الصنف فقط، وهذا ميزان للعبد المسلم لينظر في حاله ويتدبر أمره.

وأوثرت صيغة المضارع في ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ لما تشعر به من أنهم يتجددون في الإيمان ويزدادون يقيناً وقتاً فوقتاً.

* ثم وصفهم - عز وجل - بصفات عظيمة، فقال:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

ذكر في الآية كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله - تعالى -: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذُخراً، بَلْهَ ما أطلعتم عليه** [أي: مدخراً لهم فوق النعيم الذي أخبرتم به]، **قال: اقرأوا - إن شئتم -:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]». [متفق عليه].

قال بعض العلماء: هذه لذة الخبر، فكيف بلذة النظر.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

قال ابن كثير: أي: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد لما اخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاء وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم؛ فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر.

* ثم ذكر - تعالى - أصحاب النار وحالهم، فقال:

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

قال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج؛ لأن الأرجل مقيدة والأيـــدي موثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهـــم مقامعها، نعوذ بالله من النار.

* قـــال تعالـــى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢].

قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشـــد العوز، وعظم من أعظم الذنوب، ولهذا قال ـ تعالى ـ متهدداً لمن فعل ذلك: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

* قـــال تعالـــى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قال سفيان: لا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا. وقال: لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً.

وقال بعض العلماء: بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين.

سورة الأحزاب ٣٣

سورة الأحزاب من السور المدنية، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، شأن سائر السور المدنية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة، فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والاستقرار، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل التبني، والظهار، واعتقاد وجود قلبين لإنسان، وطهرتُه من رواسب المجتمع الجاهلي، ومن تلك الخرافات والأساطير التي كانت متفشية في ذلك الزمان.

سميت «سورة الأحزاب»؛ لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفار مكة مع غطفان، وبني قريظة، وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

وجه اتصالها بسورة السجدة: تشابه مطلع هذا، ومقطع تلك، فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝﴾ [السجدة: ٣٠]، ومطلع هذه الأمر بتقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فصارت كالتتمة لما ختمت به تلك، حتى كأنهما سورة واحد.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

ناداه بوصفه دون أسمه تعظيماً له؛ فإن مواجهة العظماء بأسمائهم في النداء لا تليق.

* قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢].

هذا تمهيد لما يرد من الوحي في شأن أحكام التبني وما يتصل بها، وفيه إيذان بأن ما سيوحى إليه قريباً هو ما يشق عليه وعلى المسلمين من إبطال حكم التبني؛ لأنهم ألفوه واستقر في نفوسهم. ولذلك ذيلت جملة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ تعليلاً للأمر وتانيساً به.

* ثم قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

فأنت تجد تحت هذا اللفظ: أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس له إلا قلب واحد. فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه، وإلا انصرف ذلك إلى غيره.

* قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

الحق أن النبي ﷺ هو أولى بكل مؤمن من نفسه، لأن النفس قد تجر الإنسان إلى المهالك في دروب الشهوات، أما رسول الله ﷺ فلا يدل إلا على خير.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣].

قال السعدي: إن المناداة بالوطنية وترك الأخوة الإيمانية والرابطة الإسلامية من أعمال الجاهلية وليست من الإسلام.

* قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾.

أي: أخذ الله ذلك العهد من أولئك الرسل؛ ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، والحكمة في سؤال الرسل مع علمه ـ تعالى ـ بصدقهم هو التقبيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم وتوبيخهم.

وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم.

* قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: ١٧].

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى. واعتبر ذلك بحال إبليس فإنه امتنع من السجود لآدم فرار أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته، فلم يرض بالسجود له ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته.

قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته، أمشاه الله ـ تعالى ـ أكثر منها في غير طاعته.

* قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾.

أي: لقد علم الله ـ تعالى ـ ما كان من أمر أولئك المنافقين، المثبطين للعزائم، الذين يعوقون الناس عن الجهاد، ويصدونهم عن القتال.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق الذين خرجوا: تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا، ولا تقاتلوا معهم، فإنا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه، وهم مع تعويقهم وتخذيلهم من أجبن الناس وأشدهم حرصاً على التخلف، ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياء وسمعة وخوف الفضيحة، وعدم وجود الداعي لذلك في نفوسهم من الإيمان والصبر، فهم يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه، فقتالهم رياء ليس بحقيقة.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

أي: بخلاء عليكم ـ أيها المؤمنون ـ بالمودة والشفقة والنصح، والنفس والجهد والمال، لما في نفوسهم من العداوة والحقد حبّاً في الحياة وكراهة للموت؛ ولأنهم لا يريدون لكم الخير ولا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

أي: فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها، من شدة الجبن الذي خلع قلوبهم، والقلق الذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم يميناً وشمالاً، كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً.

قال القرطبي: وصفهم بالجبن، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره، وربما غشي عليه من شدة الخوف.

* قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

معلوم أن الرسول ﷺ أسوة حسنة، وإنما جيء بكلمة ﴿حَسَنَةٌ﴾ لتأكيد الأمر، وزيادة في الإيضاح، ودفعا لأهل الهمم؛ حتى يقتدوا برسولهم ﷺ فقد كان يحمل التراب، ويرابط ويقاتل، ويبدأ بنفسه قبل أن يبدأ بغيره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

* قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

أي: من تفعل منكن كبيرة من الكبائر، أو ذنباً تجاوز الحد في القبح، وقد عصمهن الله عن ذلك، وبرأهن وطهرهن.

قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق. يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة والشرف.

وكان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله، لا يمنعه منه كونهن أزواج ونساء النبي ﷺ.

وفي الآية تلوين للخطاب، فبعد أن كانت المخاطبة لهم على لسان رسول الله ﷺ، وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن.

وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن، وعظم قدرهن عند الله ـ تعالى ـ؛ لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن، لشـــدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ عدله وفضله في قوله:

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

أي: ومن تواظب منكن على طاعة الله وطاعة رسوله، وتتقرب إلى الله بفعل الخير، وعمل الصالحات. نعطها الثواب مضاعفاً، ونثيبها مرتين: مرة على الطاعة والتقوى، وأخرى على طلبهن رضاء رســول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة. وقد هيأنا لها في الجنة ـ زيادة على ما لها من أجر ـ رزقاً حسناً مرضيّاً لا ينقطع.

والعبــد كلما كملت نعمــة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، وشكره له أتم، ومعصيته له أقبح.

وشـــدة العقوبة تابعــة لقبح المعصية، ولهذا كان أشـــد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه.

وقد عبر ـ تعالى ـ عند العذاب بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ فلم يصرح بالمعذب، فلما ذكر إيتاء الأجر قال: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ للتصريح بالمؤتي وهو الله، إشارة إلى كمـــال الرحمة والكرم، ولأن الكريم عند النفع يظهر نفســه وفعله، وعند الضر لا يذكر نفسه.

* ثم أظهر فضيلتهن على النساء وذكر آداباً أمر الله ـ عز وجل ـ بها نساء النبي، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

الخطاب لنساء النبي ﷺ كلهن، أي: أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن، لكونكن زوجات خاتم الرسل، وأفضل الخلق محمد ـ عليه الصلاة والتسليم ـ، فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء.

﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله، أي: إن خفتن الله، فأنتن بأعلى المراتب فلا تتحدثن مع الأجانب.

قال القرطبي: بيّن ـ تعالى ـ أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين.

وقال ابن عباس: يريد إن اتقيتن، فشرط عليهن التقوى بياناً فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال:

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

أي: فلا ترققن الكلام عند مخاطبة الرجال. فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة، وحب لمحادثة النساء.

إذا كان هذا الطمع في أمهات المؤمنين، فلا بد أن يكون في غيرهن بطريق الأولى، فإن الله اختار لنبيه أفضل النساء وأعفهن، ومع ذلك أمرهن بالحجاب ونهاهن عن الخضوع بالقول صيانة لهن، فغيرهن أولى بالصيانة والتحفظ والبعد عن أسباب العهر والفتنة.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله:

﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾.
أي: وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال. ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، ولا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها، وهذا أدب واجب على كل امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر.
﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.
أي: الزمن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة؛ لأنه أسلم وأحفظ لكن، ولا تكثرن الخروج مظهرات محاسنكن، متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.
وذكر أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تبلّ خمارها.
وقيل لسودة ـ رضي الله عنها ـ: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني أن أقرّ في بيتي.
ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، فقال تعالى:
﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.
أي: عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم، ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، فلطفه وخبرته يقتضي حثهم على الإخلاص وإسرار العمل، ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال ابن كثير: لما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ناسب أن يذكر بعده حفظ الفرج.

* قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

قال ابن تيمية: وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف. إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئًا سواه.

* قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ذكر الله له محملان: أحدهما ذكره اللساني فيدخل فيه قراءة القرآن وطلب العلم ودراسته. والمحمل الثاني: الذكر لقلبي، وهو ذكر الله عند أمره ونهيه، كما قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

قال السعدي: من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

* قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

واستدراك قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ لرفع ما قد يتوهم من نفي أبوته، من انفصال صلة التراحم والبر بينه وبين الأمة، فذكروا بأنه رسول الله ﷺ، فهو كالأب لجميع أمته في شفقته ورحمته بهم، وفي برهم وتوقيرهم إياه، شأن كل نبي مع أمته.

* لم يذكر أحد من الصحابة باسمه العلم في القرآن إلا واحداً وهو (زيد) ذكر في سورة الأحزاب في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

أمر الله ـ تعالى ـ عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل ـ تعالى ـ ذلك دون حد لسهولته على العبد، ولعظم الأجر فيه.

قال ابن عباس: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله.

إن الذكر يوجب صلاة الله ـ عز وجل ـ وملائكته على الذاكر، ومن صلى الله ـ تعالى ـ عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح، وفاز كل الفوز.

وإذا حصلت لهم الصلاة من الله ـ تبارك وتعالى ـ وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله!

﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

اشترط الله الكثرة في الذكر حينما أمر به بخلاف سائر الأعمال، والذكر يكون بالقلب وباللسان وهو على أنواع كثيرة من التهليل، والتسبيح، والحمد، والتكبير، وذكر أسماء الله ـ تعالى ـ.

قال مجاهد: لا يكون العبد ذاكراً لله ـ تعالى ـ كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً.

وقال أبو سعيد الخدري: من أيقظ أهله بالليل وصليا أربع، كانا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وقدمت البشارة على النذارة؛ لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين، ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

في هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة وطعام الضيافة ملك للمتضيف وليس ملكاً للمدعوين ولا للأضياف، لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة ولم يملكوه، فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء من ذلك الطعام معه.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥٢].

في آية الأحزاب: ﴿تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقال في آية النساء: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٢]، ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟﴾ من دون حذف التاء، ذلك أن آية الأحزاب حكمها مقصور على الرسول ﷺ فهو منهي عن أن يتبدل بأزواجه أزواجاً.

أما الآية الثانية، فهي حكم عام للمسلمين على مر العصور، فجاء بالصيغة القصيرة للحدث القصير، وبالصيغة الطويلة للحدث الطويل الممتد.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال أبو سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله ـ تعالى ـ يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمومنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

إذاية الله وهي بالإشراك به، ونسبة الصاحبة والولد له، وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى؛ لأنه ـ تعالى ـ لا يضره شيء ولا ينفعه شيء، وقيل: إنها على حذف مضاف تقديره، يؤذون أولياء الله، والأول: ارجح؛ لأنه ورد في الحديث يقول الله تعالى: **«يشتمني ابن آدم وليس له أن يشتمني، ويكذبني وليس له أن يكذبني، أما شتمه إياي فقوله: إن لي صاحبة وولداً، وأما تكذيبه إياي فقوله: لا يعيدني كما بدأني»** [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ألحقت حرمة المؤمنين بحرمة الرسول ﷺ تنويها بشأنهم، وذكروا على حدة للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول ﷺ. وهذا من الاستطراد، معترض بين أحكام حرمة النبي ﷺ وآداب أزواجه وبناته والمؤمنات.

* لما فرغ ـ سبحانه ـ من الزجر لمن يؤذي رسوله، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده، ساقت الآيات آية عظيمة تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته؛ لأنهن آكد من غيرهن، ولأن الآمر لأهله، ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لزوجاتك ـ أمهات المؤمنين ـ وبناتك الكريمات، وسائر نساء المؤمنين، قل لهنك يلبسن الجلباب الواسع، الذي يستر جميع بدن المرأة ويغطي رؤوسهن ووجوههن وصدورهن وسائر أجسامهن؛ لأن ذلك يستر محاسنهن وزينتهن، ويدفع عنهن ألسنة السوء، ويحفظهن ويحميهن من النظرات الفاجرة، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية.

روى الطبري عن ابن عباس أنه قال في الآية: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة.

وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبراز عينه اليسرى.

ـ ثم ذكر ـ تعالى ـ حكمة ذلك، فقال:

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾.

أي: ذلك التستر وإدناء الجلابيب أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد، وقيل: أقرب بأن يعرفن

أنهن حرائــر، ويتميزن عن الإماء والعواهر، فالاحتجاب حاســم لمطامع الطامعين فيهن.

* وأما من جهة أهل الشــر والمنافقين الذين يظهــرون الإيمان ويبطنون الكفر، فقد توعدهم بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

أي: مبعدين عن رحمته ـ تعالى ـ. أينما وجدوا وأدركوا، أخذوا على وجه الغلبة والقهر، ثم قتلوا لكفرهم بالله تقتيلاً. وهذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك.

قال القرطبي: أي ســن الله ـ عز وجل ـ فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل. ولن تتغير أو تتبدل ســنة الله؛ لأنها سنة ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف.

وفــي الآية تســلية للنبي ﷺ، أي فلا تحزن علــى وجود المنافقين ـ يا محمد ـ، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان.

* قــال ـ تعالى ـ عن أهل النار: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧].

يمد (الرســول) و(السبيل)، وهو لم يمد (الســبيل) في أول السورة وإنما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤].

والفــرق بينهما: أن آيتي المــد هما من قول أهل النار، وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناســب المد. في حين

أن الآيــة الأخرى ليســت كذلك، وإنما هي قول الله مقــرراً حقيقة عقلية معلومة.

* قــال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

قال القرطبي: وعد ـ جل وعز ـ بأن يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب، وحسبك بذلك درجة ورفعة ومنزلة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات وترك المعاصي، وقيل: هي الأمانــة في الأموال، وقيل: غســل الجنابة، والصحيــح العموم في التكاليف.

* قال تعالــى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وعطــف الجبال على ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وهي منها؛ لأن الجبال أعظم الأجزاء المعروفة من ظاهر الأرض. وهي التي تشاهد الأبصار عظمتها.

سورة سبأ (٣٤)

* سورة سبأ من السور المكية، التي تشع نوراً وهداية، وتتناول أصل الدين، من إثبات الوحدانية والنبوة، والبعث والنشور.

سميت سورة سبأ؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء، وسرور وهناء، وكانت مساكنهم حدائق وجنات، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

وجه اتصالها بما قبلها: لما ختمت سورة الأحزاب بقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٣].

ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله ـ جل وعلا ـ، الذي أبدع الخلق، وأحكم شؤون العالم، ودبر الكون بحكمته، فهو الخالق المبدع الحكيم، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين.

افتتحت سورة سبأ بأن له ما في السماوات والأرض، وهذا وصف لائق بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك.

وقد افتتحت السورة بالحمد، وهي خامس سورة افتتحت بالحمد: سورة الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

* قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [سبأ: ١].

افتتحت السورة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للتنبيه على أن السورة تتضمن من دلائل تفرده بالإلهية واتصافه بصفات العظمة ما يقتضي إنشاء الحمد له، والإخبار باختصاصه به.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله ـ تعالى ـ بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك حتى أهل العقاب ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

* قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ [سبأ: ٢].

قال ابن تيمية: وهنا ختمت الآية بتقديم الرحيم على الغفور، خلاف باقي الآيات لارتباط العلم بالرحمة.

* قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝﴾ [سبأ: ٦].

وهذا دليل ظاهر أن الذي نراه معارضاً للعقل، ويقدم العقل عليه ليس من الذين أوتوا العلم في قبيل ولا دبير، ولا قليل ولا كثير.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝﴾ [سبأ: ١٠].

ذكر ابن العربي من معاني الفضل في هذه الآية: حسن الصوت، وقال: والأصوات الحسنة نعمة من الله ـ تعالى ـ، وزيادة في الخَلْق ومنه.

وأحق ما لبست هذه الحلة النفيسة والموهبة الكريمة كتاب الله، فنعم الله إذا صرفت في الطاعة فقد قضي بها حق النعمة.

* وتناولت السورة قصص بعض الرسل، فذكر ـ تعالى ـ قصة داود وما خصه الله به من الفضل العظيم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾.

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم، إذا يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ فضله على داود ـ عليه السلام ـ ذكر فضله على ابنه سليمان ـ عليه السلام ـ، حيث آتاه من الفضل الواسع العظيم، من النبوة والملك والجاه العظيم، فقال:

﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

أي: وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر.

قال المفسرون: سخر الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد إلى بلد، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد.

قال الحسن: لما شغلت نبي الله سليمان الخيلُ عن الصلاة فعقرها، أبدله الله خيراً منها وأسرع، وهي الريح.

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

أي: وأذبنا له النحاس، حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض.

قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة.

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾.

أي: وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره. ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان، نذقه النار المستعرة في الآخرة.

ثم أخبر ـ تعالى ـ عما كلف به الجن من الأعمال، فقال:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ .

أي: يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يرد من القصور الشامخة، والأبنية الفخمة. والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج.

قال الحسن: ولم تكن يومئذ محرمة، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تعبد من دون الله.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ .

أي: وقصاع ضخمة تشبه الأحواض، والبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام؛ لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره. ويعملون له قدوراً كبيرة ثابتات لا تتحرك، ولا تتحول عن أماكنها لعظمها وكبرها وضخامتها، فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال:

﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ .

وهم داود وأولاده وأهله؛ لأن المنة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم، أي: وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض، واعملوا بطاعة الله شكراً له ـ جل وعلا ـ، على ما أعطاكم، ومقابلة لما أولاكم. أي: وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه، وكان داود وآله من القليل، وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله. والشكر: اعتراف القلب بمنَّة الله ـ تعالى ـ، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله ـ تعالى ـ وصونها عن صرفها في المعصيه.

وفيه وجوب الشكر وأنه يكون بالعمل ولا يختص باللسان؛ لأن حقيقة الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله.

(والشكور):

المتوفِّر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفي حقه لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

قال الزركشي: الحمد لله الذي ما قال: (الشاكر)، لأن الشاكر هو المثني بالقليل والكثير، أما ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ فصيغة مبالغة بمعنى: الموفي نعم الله حقها من الشكر، ولذلك وصف الشكورين بالقلة.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ: ١٥].

إنها - والله - عبرة العبر، في وصل المبتدأ بالخبر، أين الجنتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطيبة؟ إنها رمال! وأين القرى الظاهرة والعمارة المتكاثرة؟ إنها اليوم قفار! وأين تقدير السير بالأميال لتيسير الاتصال؟ إنها اليوم مجاهل يضل فيها القطا، أجدبت الخمط والأثل، فضلاً عن العنب والنخل.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبا ١٨].

قال ابن عاشور: وتقديم الليالي على الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبا: ٢٠].

قال الحسن: لم يسل عليهم سيفاً، ولا ضربهم بسوط، وإنما وعدهم ومناهم فاغتروا.

* قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: والعجب أن المشرك استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٢٥].

قال بعض أهل العلم: دائماً تأتي مع الهدى (على) وفي الضلال (في)؛ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، ولأن صاحب الضلال منغمس فيه ومحتقر.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤].

إن هذه الآية الكريمة تقر أن المال كثيراً ما يعمي صاحبه على الحقيقة الملموسة المشاهدة، فيوهمه أن الحياة الدنيا هي الباقية، وهو يرى كل حين كيف تتساقط الأجيال، فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

وهو الفتاح؛ يفتح أبواب الرزق والرحمة وأسبابها لعباده، ويفتح عليه المتغلق من أمورهم وأحوالهم.

وهو العليم؛ يعلم السرائر والخفيات، لايخفى عليه قول ولا فعل مما يجترحه العباد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

* قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ: ٢٦].

وإنما أتبع ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ بـ ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ للدلالة على أن حكمه عدل محض؛ لأنه عليم لا تحف بحكمه أسباب الخطأ والجور الناشئة عن الجهل والعجز، واتباع الضعف النفساني الناشئ عن الجهل بالأحوال والعواقب.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا، ويقتر على هذا رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١]، وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» [رواه مسلم].

* وهو ـ سبحانه ـ الرازق، يرزق العبد من السماء والأرض، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]. عم برزقه كل شيء، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، رزق الأجنة في بطون الأمهات، ورزق السباع في القفار، والطيور في أعالي الأوكار، والحيتان في قعر البحار.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: ٣٦].

إخبار يتضمن الرد عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله، فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي، ويضيق على المؤمن المطيع وبالعكس، فليس في ذلك دليل على أمر الآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سبأ: ٤٠].

والاقتصار على تقرير الملائكة واستشهادهم على المشركين؛ لأن إبطال إلهية الملائكة يفيد إبطال إلهية ما هو دونها، ممن عبد من دون الله بدلالة الفحوى، أي بطريق الأولى. فإن ذلك التقرير من أهم ما جعل الحشر لأجله.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

قال القرطبي: هذه إشـــارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كان النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء ســـواء في الإجابة أو التكفير أو الادخار.

* قـــال تعالـــى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

إنما قال: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل، فأوفرهم عقلاً أوفرهم حظاً من الله، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة، وإذا كانـــوا مثنـــى تقابل الذهنـــان فتراءى من العلم لهمـــا ما أضعف على الانفراد.

* قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: ٤٨].

وتخصيص وصف ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ من بين الأوصاف الإلهية للإشارة إلى أنه عالم بالنوايـــا، وأن القائل يعلم ذلك، فالذي يعلم هذا لا يجترئ على الله بدعائه باطلاً أنه أرسله إليكم.

* قال تعالـــى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤].

شرب عبد الله بن عمر ماء بارداً فبكى فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فعرفت أن أهل النار لا يشـــتهون إلا الماء البارد، وقد قال الله عز وجل: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٠].

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ [سبأ: ٥٤].

عن قتادة: إياكم والشـــك والريبة فإن من مات على شـــك بعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

سورة فاطر (٣٥)

سورة فاطر سورة مكية، نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ، فهي تسير في الغـرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسـالة كل رسول، وهو الدعوة إلى توحيد الله، وإقامة البراهين على وجوده، وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق.

سـميت سـورة فاطر، لذكر هذا الاسـم الجليل، والنعت الجميل في طليعتهـا، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سـابق، ولما فيه من التصوير الدقيق، المشـير إلى عظمة ذي الجلال، وباهـر قدرته، وعجيب صنعه، فهو الـذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب.

وفي السـورة عتاب ونداء للإنسـان: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩]، ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ...﴾ [فاطر: ١٥].

* وفي القرآن خمس سـور بدئـت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ذكر فيها النعم وأعظمها نعمة الإسـلام، قـال تعالـى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ وهي: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسور الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر.

مناسبة وضعها بعد سورة سبأ: تآخيهما في الافتتاح بالحمد، مع تناسبهما في المقدار.

* تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع، الذي فطر الأكوان، وخلـق الملائكة والإنس والجـان، وأقامت الأدلة والبراهـين على البعث والنشـور، في صفحات هذا الكون المنظور، إذا بـالأرض تحيا بعد موتها

بنزول الغيث، وبخـروج الزروع والفواكه والثمار، بتعاقب الليل والنهار، وفي خلق الإنسـان في أطوار، وفي إيـلاج الليل والنهار، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية.

* قـال تعالـى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [فاطر: ١].

افتتاحهـا بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مؤذن بأن صفات من عظمة الله سـتذكر فيها وأجراء صفات الأفعال على اسـم الجلالة من خلقه السـماوات والأرض، وأفضـل ما فيها من الملائكة والمرسـلين مؤذن بأن السـورة جاءت لإثبات التوحيد وتصديق الرسول ﷺ.

* قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [فاطر: ٢].

قال صاحب الظلال: إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض، وتصلـه بقوة الله، وتيئسـه من مظنة كل رحمة في السـماوات والأرض، وتصله برحمة الله، وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض، وتفتح أمامه باب الله، وتغلق كل طريق في السماوات والأرض، وتشرع له طريقه إلى الله. وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تتغلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة تحفها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة، ينام الإنسان مع الشوك مع رحمة الله فإذا هو مهاد، وينام على الحرير ـ وقد أمسكت عنه ـ فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر، ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر.

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان، ولا في أي حال!

وجدها إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ في النار، ووجدها يوسـف ـ عليه السـلام ـ في الجب، كما وجدها في السـجن، ووجـدها يونس ـ عليه

السلام ـ في بطن الحوت وظلمات ثلاثة، ووجدها موسى ـ عليه السلام ـ في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة! كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له، ويبحث عنه.

ووجدها رحمة الله أصحاب الكهف في الكهف، حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦].

ووجدها رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار، والقوم يتعقبونها ويقصون الآثار.

ووجدها كل من أوى إليها؛ يائساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها، ومن ثم فلا مخافة من أحد، ولا رجاء في أحد ولا مخافة من شيء، ولا رجاء في شيء، ولا خوف من فوت وسيلة، ولا رجاء مع الوسيلة، إنما هي مشيئة الله! والأمر مباشرة إلى الله، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾، يُقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك. ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [فاطر: ١٢].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: إخبار عن قدرته، وحكمته، ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتاً، سائغاً شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا

يفسد الهواء المحيط بالأرض، بروائح ما يموت في البحر، من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣].

أي: لا يملكون شيئاً لا قليل ولا كثيرا حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء فكيف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم: العبد له في كل نفس ولحظة وطرفة عين عدة حوائج إلى الله، لا يشعر بكثير منها، فأفقر الناس إلى الله من شعر بهذه الحاجات، وطلبها من معدنها بطريقها.

* قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني احمل عني بعض ذنوبي فيقول: لا استطيع حسبي ما علي.

* قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٢ - ٢٣].

أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه، وهو القرآن.

* ثم أخبر - تعالى - عن جزاء الذين أورثهم الكتاب، فقال:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ .

أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة؛ لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ينعمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوته، حسب تفاوت الأعمال، وإنما ﴿جَنَّٰتُ﴾؛ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة، فهناك جنة الفردوس: وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتب ونزل، بحسب مراتب العاملين.

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ .

أي: يزينون في الجنة بأساور من ذهب، مرصعة باللؤلؤ، وهو الحلي الذي يجعل في اليدين. وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير، بل فرشهم وستورهم كذلك.

قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ .

أي: ولما تم نعيمهم، وكملت لذتهم، وطاب مقامهم، قالوا عند دخولهم الجنة: الحمد لله الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان.

قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿أَذۡهَبَ﴾ لتحقق وقوعه.

والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وغير ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

عن ابن مسعود: كفى بخشية الله ـ تعالى ـ علماً، وبالاغترار وجهلاً.

* قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

عن إبراهيم التيمي قال: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الطور: ٢٦].

فالطالب الصادق في طلبه، كما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه، وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

* الاصطفاء أمره عظيم، اصطفاء للملائكة، والرسل، والشهداء، وحملة كتاب الله - عز وجل - ومن حملة كتاب الله - عز وجل - وحفظه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢]. وفي الشهداء، قال تعالى: ﴿ويصطفي منكم شهدا﴾ ومن الملائكة والرسل: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥].

وإذا أردت أن تلقي نظرة سريعة على هذا الاصطفاء، فكم تجد من الأمم الكثيرة والأعداد المتتالية من خريجي الجامعات كل عام، لهم أكثر من ستة عشر عاماً يدرسون ويتعلمون وليسوا من أهل الاصطفاء، وتجد رجلاً اعجمياً أمياً يحفظ القرآن بالتلقين في سنة أو سنتين. هذه حقيقة الاصطفاء.

قال ابـن كثيـر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

وإنما قدم الظالمين للإيذان بكثرتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل.

وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله، وقيل: إنما قدمه ليعرفه أن ذنبه لا يبعده عن ربه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات لئلا يغتر بعمله بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله ـ تعالى ـ ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله ـ تعالى ـ على ما أنعم به عليه.

* قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

قيـل: أن مـن أرجى آيـات القرآن العظيـم هذه الآيـات، فالواو في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شـاملة: للظالم، والمقتصد، والسـابق، على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

واسع المغفرة للمذنبين، شكور لطاعة المطيعين، وكلا اللفظتين للمبالغة، أي: واسع الغفران يغفر الجنايات وإن كثرت، عظيم الشكر والإحسان، يقبل الطاعات وإن قلت.

* قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

نفى النصب واللغوب؛ لأنه لو نفى أحدها لربما توهم أن الثاني يقع وهذا من كمال نعيم الجنة.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ معناه: لا يجهز، لأنهم لو ماتوا: لبطلت حواسهم فاستراحوا.

* قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

قال ابن الجوزي: من عرف شرف العمر وقيمته لم يفرط في لحظة منه، فلينظر في حراسة بضاعته، وليحتفظ الكهل بقدر استطاعته، وليتزود الشيخ للحاق جماعته، ولينظر الهرم أن يؤخذ من ساعته.

قال ابن القيم في الفوائد: إنما حسن طول العمر ونفع؛ ليحصل التذكر والاستدراك، واغتنام الفرص، والتوبة النصوح، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه، وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

قال ابن القيم: وقد شاهد الناس عياناً أن من عاش بالمكر مات بالفقر.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ ثلاث هن راجعات إلى أهلها: المكر، والنكث، والبغي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

[فاطر: ٤٣]، وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾ [فاطر: ٤١].

في الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما ياتي به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره ـ تعالى ـ.

﴿حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾.

الحليم: هو الذي لا يعجل بالعقوبة والانتقام، ولا يحبس إنعامه عن عباده لأجل ذنوبهم، بل يرزق العاصي والمطيع مع القدرة على المحاسبة والعقاب.

وقد ورد اسم (الحليم) في القرآن أحد عشر مرة، منها أربع مرات مقروناً بالمغفرة.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝﴾ [فاطر: ٤٥].

تذكير لهم عن أن يغرهم تأخير المؤاخذة؛ فيحسبوه عجزاً أو رضى من الله بما هم فيه، فهم الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [الأنفال: ٣٢] فعلمهم أن لعذاب الله أجلاً اقتضتها حكمته، فيها رعي مصالح أمم آخرين أو استبقاء أجيال آتين.

سورة يس (٣٦)

سورة «يس» سورة مكية، تناولت بناء العقيدة خلال مواضيع أساسية ثلاثة، وهي: الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية الله ـ عز وجل ـ.

سميت السورة «سورة يس»، لأن الله ـ تعالى ـ افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

وقد ابتدأت السورة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي، وصدق رسالة محمد ﷺ، ثم ذكرت كفار قريش، الذين تمادوا في الغي والضلال، وكذبوا سيد الرسل محمد بن عبدالله، فحق عليهم عذاب الله وانتقامه.

* قال تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [يس: ١ ـ ٢].

قال السعدي: القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾ [يس: ٥].

فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده، رحمة اتصلت بهم؛ حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز، الرحيم.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [يس: ٧].

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: من فوائد الآية الكريمة الإشارة إلى أن يجب على الإنسان اللجوء إلى الله ـ عز وجل ـ، لأنه هو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً، وتعتقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان، ولن يتسرب

إليك هوى النفس الأمارة بالسوء، بل كن دائماً لاجئاً إلى الله ـ تعالى ـ سائلاً الثبات لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧]، فالأمر كله بيد الله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [يس: ١١].

إن خشية الرحمن بالغيب واتباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب، والأجر الكريم، فإن: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مقابل الذنوب. ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝﴾ في مقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝﴾ [يس: ١١].

والتمييز بوصف ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ دون اسم الجلالة لوجهين:

أحدهما: أن المشركين كانوا ينكرون اسم الرحمان، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

والثاني: الإشارة إلى أن رحمته لا تقتضي عدم خشيته، فالمؤمن يخشى الله مع علمه برحمته فهو يرجو الرحمة.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾

ونكتب ماقدموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها.

قال الشيخ السعدي: هذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾.

التي كانوا سبباً فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير، كالولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية، ومن شر كالشرك، والعصيان.

وقيل: ﴿وَءَاثَرَهُمْ﴾ أي: وآثار خطاهم بأرجلهم إلى المساجد، وفي الحديث عن جابر قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد - والبقاع خالية - فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم»** فقالوا: ماكان يسرنا أنا كنا تحولنا. [رواه مسلم].

وهو - سبحانه - يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، وفي الحديث أنه ﷺ قال: **«من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»** [رواه مسلم].

قال الإمام الشاطبي: وطوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل لمن مات وبقيت ذنوبه مائة سنة ومئتي سنة.

* قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٢٠].

قال ابن عاشور: وبهذا يظهر تقديم ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة، إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة.

* قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله. وأعظم أمنيات الداعية الصادق تحقيق السعادة للمدعوين.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً، لا تلقاه غاشاً؛ لما عاين ما عاين من كرامة الله تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله له.

قال القرطبي: وفي هذه الآية تنبيه عظيم ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في اقتدائه، والإشغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام؟!

قال ابن القيم: فليعلم المؤمن أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك، ويا فرحته إذ يقول: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧].

* قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝﴾ [يس: ٢٨ - ٢٩].

كان جزاء الإيمان أن كان الموت خطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، وأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره، فهو ضعيف ضعيف.

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم.

* قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [يس: ٤٠].

جيء بضمير ﴿يَسْبَحُونَ ۝﴾ ضمير جمع مع أن المتقدم ذكره شيئان هما الشمس والقمر، لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن.

* قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾.

أي: إلا أن نرحمهم فننجيهم ونمتعهم إلى أجل، لعلهم يرجعون ويستدركون ما فرطوا فيه، وفي الآيات السابقة؛ بيّن ـ تعالى ـ أن ركوبهم السفن في البحر من الآيات العظيمة، فإن سير السفينة بما فيها من الرجال والأثقال فوق سطح الماء آية باهرة، فقد حملتهم قدرة الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه بحكم خواص السفن، وخواص الماء، وخواص الريح، وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره، والسفينة في البحر الخضم كالريشة في مهب الهواء، وإلا تدركها رحمة الله فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار، والذين ركبوا البحار، وشاهدوا الأخطار، يدركون هول البحر المخيف، ويحسون معنى رحمة الله وأنها وحدها هي المنجي لهم من بين العواصف والتيارات.

ومع تلك الآيات الواضحات البينات فالعباد في غفلة وإعراض، لا تتوجه أنظارهم، ولا تسيقظ قلوبهم، ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم.

وذكر الذرية لضعفهم عن السفر، فالنعمة فيهم أحكم.

* قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس: ٤٩].

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: من فوائد هذه الآية الكريمة بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة، وتأخذهم الصيحة، وهي الخصومة والتنازع، مما يدل على سوء أحوالهم، وسوء أخلاقهم، وأنه لا هم لهم إلا هذه المخاصمة والمنازعة، شحّاً وطمعاً في الدنيا، وغفلة عن الآخرة، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق**».

* قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس: ٥٠].

وخص الأهل بالذكر؛ لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأجنبيين، وأوكد في نفوس البشر.

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝﴾ [يس: ٥٢].

قال السعدي: ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع المجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون ولا حسب به الحاسبون كقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] ونحو ذلك مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝﴾ [يس: ٥٢].

قيل: إن الكفار لما قال بعضهم لبعض: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ صدقوا الرسل لما عاينوا ما أخبروهم به، ثم قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝﴾ فكذبنا به، أقروا حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝﴾ [يس: ٥٥].

قال ابن عاشور: هذا يؤذن بأن أهل الجنة عجل بهم إلى النعيم، قبل أن يبعث إلى النار أهلاً، وأن أهل الجنة غير حاضرين ذاك المحضر.

* قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝﴾ [يس: ٦٥].

جعل ـ سبحانه ـ ما تنطق به الأيدي كلاماً، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي ـ غالباً ـ تكون بالأيدي، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدي من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بحاله، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعل.

قيل: أسند ـ سبحانه ـ فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الإيدي والأرجل، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبراً، أو قهراً، والإقرار مع الإجبار غير مقبول. فقال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ

أرجُلُهُم﴾، أي باختيارهـــا بعد إقــدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور المذنب منهم.

* قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨].

يخبر ـ تعالى ـ عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط. . . والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار.

والشيخوخة نكســة إلى الطفولة بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة، وما يزال الشـــيخ يتراجع، وينســى ما علم، وتضعف أعصابه، ويضعف فكــره، ويضعف احتماله، حتى يرتد طفلا. ولكن الطفل محبوب اللثغة، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة، والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة، وشـــتان بين من يرجى خيره وبره ونفعه، وبين من ينتظر رحيله وموته.

* قـــال تعالــــى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩].

روى ابن القاســم عن مالك أنه ســئل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه، فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

* ثم ذكر ـ ســبحانه ـ قدرته العظيمـــة، وإنعامه على عبيده، وجحد الكفار لنعمه وفضله، وأعاد ذكر دلائل القدرة والوحدانية، ليســتدلوا على وجوده ـ جل وعلا ـ، في إطار من مشـــاهدات القوم، وهم لا يشكرون، قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾.

الهمزة للإنــكار والتعجيب، أي: أولم ينظروا نظــر اعتبار، ويتفكروا فيما أبدعته أيدينا ـ من غير واسطة، ولا شريك ولا معين ـ، فآية الله هنا مشهودة منظورة، قريبة محسوسة، إنها مما خلقناه لهم ولأجلهم من الأنعام،

وهي الإبل والبقر والغنم، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قدرتنا؟!
وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالخلق.

﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: فهم متصرفون فيها كيف يشاؤون، تصرف المالك بماله.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وسخرناها لهم، وجعلناهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه وهو ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائه بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير، فسبحان من سخر هذا لعباده.

فمن هذه الأنعام ما يركبونه في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال كالإبل التي هي سفن البر، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

ولهم فيها منافع عديدة ـ غير الأكل والركوب ـ كالجلود والأصواف والأوبار، أثاثاً ولباساً وغير ذلك، ولهم فيها مشارب أيضاً يشربون من ألبانها. أفلا يشكرون ربهم على هذه النعم الجليلة؟ التي أنعم بها عليهم، ويخلصون له العبادة، والغرض من الآيات تعديد النعم وإقامة الحجة عليهم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧٣].

فرع على هذا التذكير والامتنان قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ استفهاماً تعجبيا؛ لتركهم تكرير الشكر على هذه النعم العدّة، فلذلك جيء بالمضارع المفيد للتجديد والاستمرار؛ لأن تلك النعم متتالية متعاقبة في كل حين.

* ثم أقام ـ تعالى ـ الدليل القاطع، والبرهان الساطع، على البعث والنشور، ورد الشبه في ذلك، بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾.

استفهام إنكاري للتوبيخ، أي: أولم ينظر هذا الإنسان الكافر المنكر للبعث والشاك فيه، نظر اعتبار، فيستدل به على معاده، ويتفكر في قدرة الله، فيعلم أنا خلقناه من شيء مهين حقير هو النطفة، «المني» الخارج من مخرج النجاسة، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشبَّ، وتم عقله واستتب.

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فإذا هو شديد الخصومة والجدال بالباطل، يخاصم ربه وينكر قدرته، ويكذب بالبعث والنشور، أفليس الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة، قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث؟

والآية نزلت في «أبي بن خلف» جاء بعظم رميم، وفتته في وجه النبي الكريم وقال ساخراً: أتزعم ـ يا محمد ـ أن الله يحيينا بعد أن نصبح رفاتاً مثل هذا؟ فقال ﷺ له: **«نعم يبعثك ويدخلك النار»**.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾.

أي: ضرب مثلاً لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدره المخلوق، وهو تكميل للتعجب في حال الإنسان، وبيان جهله بالحقائق، فقد ضرب لنا هذا الكافر المثل بالعظم الرميم، مستبعداً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ونسي أنا أنشأناه من نطفة ميتة، وركبنا فيه الحياة، نسي خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر، وفسر المثل ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يس: ٧٨].

سورة الصافات ٣٧

سورة الصافات سورة مكية، ترسخ بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله.

سميت السورة «سورة الصافات» تذكيراً للعباد بالملأ الأعلى من الملائكة الأطهار، الذين لا ينفكون عن عبادة الله وبيان وظائفهم التي كلفوا بها.

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن الملائكة الأبرار، الصافات قوائمها في الصلاة، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله، الزاجرين للسحاب يسوقونه حيث شاء الله.

* ثم قال ـ تعالى ـ عن السماء:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝ وَحِفۡظًا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧].

زينت السماء وحفظت من استراق السمع.

قال الرازي: دلت التواريخ على أن حدوث الشهب كان حاصلاً قبل مجيء النبي ﷺ، فإن الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي ﷺ بزمان طويل، ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه، وإذا ثبت أن ذلك كان موجوداً قبل مجيء النبي ﷺ امتنع على مجيء النبي ﷺ، والأقرب أن هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي ﷺ، لكنها كثرت في زمان النبي ﷺ فصارت بسبب الكثرة معجزة.

وخص ـ تعالى ـ السماء الدنيا بالذكر؛ لأنها التي تباشر بأبصارنا، وأيضا فالحفظ من الشيطان إنما هو فيه وحدها.

* قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝﴾ [الصافات: ٢٤].

قال رجل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال: يحاسبهم في يوم كما يرزقهم في يوم.

* ثـم ذكر ـ عز وجل ـ عقاب الكفار المكذبين، واتبعه بذكر حال أهل الجنة وجزاءهم ونعيمهم، قال تعالى:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

الاستثناء منقطع أي: لكن عباد الله المخلصين الموحدين، فإنهم لا يذوقون العذاب، ولا يناقشون الحساب، بل يتجاوز الله عن سيئاتهم، يجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. ثم أخبر عن جزائهم وما اختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أولئك الأخيار الأبرار لهم رزقهم في الجنة صباحاً ومساء، معلوم في حسنه وطيبه، وعدم انقطاعه، معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه.

ثم فسره بفواكه متنوعة من جميع ما يشتهون، تتفكه بها النفس، للذاتها في لونها وطعمها، وهم في الجنة معززون، مجلون، يخدمون، ويتنعمون. وخص الفواكه بالذكر، لأن كل ما يؤكل في الجنة إنما هو على سبيل التفكه والتلذذ.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: رياض وبساتين ينتعمون فيها، ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على مجالس مرتفعة مكللة بالدّر والياقوت، تدور بهم كيف شاؤوا، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحاباً، متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح، متقابلين فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على مقابلة قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض،

فتم ما بينهم كمال السرور، وكمال الأدب، وصفاء النفس وقرار العين. وهذا أتم للأنس، لأن فيه أنس الاجتماع، وأنس نظر بعضهم إلى بعض، فإن رؤية الحبيب والصديق تؤنس النفس.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾.

لما ذكر الطعام أعقبه بذكر الشراب، أي: يطوف عليهم خدم الجنة بكأس من الخمر، من نهر جار خارج من عيون الجنة. وهذه الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فهي: بيضاء أشد بياضاً من اللبن ذات لذة للشاربين، يلتذ بها وقت شربها وبعده.

قال ابن عباس: كل كأس في القرآن فهي الخمر.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾.

أي: ليس فيها ما يغتال عقولهم فيفسدها، ولا هم يسكرون بشربها كما تفعل خمر الدنيا.

قال ابن كثير: نزه الله ـ سبحانه ـ خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، فخمر الجنة طعمها طيب كلونها، وتلك أجمل أوصاف الشراب، التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا خمر يصدع الرؤوس، ولا سكر ولا عربدة يذهب لذة الاستمتاع، كما هي الحال في خمرة الدنيا. ثم فصل في أنواع النعيم لتعلم النفوس ذلك فتشتاق إليها، فذكر أزواجهم، فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾.

أي: وعند أهل دار النعيم الحور العين، العفيفات اللواتي قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن حياء وعفة، فهن عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

﴿عِينٌ (٤٨)﴾.

أي: وهنَّ مع العفة، واسعات جميلات حسان الأعين.

قال الطبري: أي: نجل العيون، جمع عيناء، وهي المرأة الواسعة العين مع الحسن والجمال، وهي أحسن ما تكون من العيون.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الصافات: ٤٨].

قال السعدي: قصرت طرفها على زوجها؛ لعفتها، وعدم مجاوزته لغيره ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به.. هذا يدل على جمال الرجال في الجنة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: كأن الحور، اللؤلؤ المكنون في أصدافه، المصون الذي لم تمسّه الأيدي، والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّر في أصدافه، مع رقة ولطف ونعومه ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

لا تبتذله الأيدي، ولا العيون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها.

- وقد ذكر - تعالى - في هذه الآيات:

أولاً: الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام.

وثانياً: الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس.

ثم ذكر المحل: وهو جنات النعيم.

ثم لذة التأنس والاجتماع: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وهو أتم للسرور وآنس.

ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس ولا يتناولونها بأنفسهم.

ثم ختم باللذة الجسدية - أبلغ الملاذ - وهي التأنس بالنساء.

* لما ذكر الله - عز وجل - نعيمهم وتمام سرورهم، بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وكيف كانوا في الدنيا، فأخبر - تعالى -

عمـا يتحدث به أهل الجنة للأنس والسـرور، وهم على موائد الشـراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث، قال تعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ۝﴾.

* خاطب الله العرب بتشـبيهات من جنس ما درجوا عليه مما هو مقرر لديهم كالشـيطان لغاية القبح، فوصف لهم شـجرة الزقوم ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝﴾ [الصافات: ٦٥].

* قـال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝﴾ [الصافات: ٥ ـ ٥٢١].

قال السعدي: من المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية فـي أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافـر، ويحصل لهم من انكشـاف الحقائق العلميـة في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

* قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝﴾ [الصافات: ٥٥].

قـال بعض العلماء: لـولا أن الله ـ جل وعز ـ عرفه إياه لما عرفه، لقد تغير حبره وسبره. وفي هذه الآية عبرة من الحذر من قرناء السوء ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك.

* قـال تعالـى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝﴾ [الصافات: ٦٩ ـ ٧٠].

الإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على آثارهم.
وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير نظر وبحث، بل مجرد تقليد وترك اتباع دليل.

قال الرازي: ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ نجاه إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فقال:

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٦ ـ ٧٧].

وإنجاء الله إياه نعمة عليه، وإنجاء أهله نعمة أخرى، وهلاك ظالمية نعمة كبرى، وجعل عمران الأرض بذريته نعمة دائمة لأنهم يدعون له، ويذكر بينهم مصالح أعماله وذلك مما يرحمه الله لأجله.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ عن إبراهيم لما أيس من دعوة قومه:

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾.

والمعنى: إني مهاجر من بلد قومي إلى حيث أمرني ربي، وهو أول من هاجر من الخلق مع سارة إلى الأرض المباركة أرض الشام، وقد هجر وهو الموحد لربه أصنامهم وتبرأ منها.

﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي. وفي هذه الحالة وهو وحيد لا عقب له، وترك وراءه أواصر الأهل والقربى، اتجه إلى ربه يدعوه، يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح الذي تقر به عينه، وتوكل على ربه، وقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وذلك عندما أيس من قومه ولم ير فيهم خيراً، دعا الله أن يرزقه ولداً من الصالحين يونسه في غربته، يريد أولاداً مطيعين يكونوا عوضاً عن قومه

وعشيرته الذين فارقهم، ينفع الله به في حياته وبعد مماته، دعا ربه وهو في هجرتـه دعاء العبد الصالح المتجرد الذي ترك وراءه كل شـيء، وجاء إليه بقلب سليم، فاستجاب الله له.

﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾.

أي: فاستجبنا دعاءه وبشرناه بغلام يكون حليماً في كبره، وهو إسماعيل ـ عليه السلام ـ، ودل على أن الحلم من أعلى مآثر الصلاح.

وقد جمع الله له في بشـارات ثلاث: بشـارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحُلم، وأنه يكون حليماً؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك. وجمهور المفسرين على أن هذا الغلام المبشر به هو إسماعيل؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال بعد تمام قصة الذبيح ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢)﴾ فدل ذلك على أن الذبيح هو إسماعيل.

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: من فوائدها تبشير المرء بما ولد له من ولد ولا سـيما إذا كان ذكـراً، لأن الله عبر عن إخباره إبراهيم بأنه سيولد له بالبشارة.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات: ١٠٢].

فلما كبر وترعرع وشـب الغلام، وبلغ السن الثالثة عشرة، وهي السن التي يمكنه أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه، في سن يكون غالباً أحب ما يكون لوالديه، وقد ذهبت مشقته وأقبلت منفعته.

وفي تلك الفترة وإبراهيم على كبر، مقطوع من الأهل والقرابة، مهاجر في الأرض والوطن، مفـارق للأهل والأصحاب، يرزق بغلام طالما تطلع إليه، ودعا أن يرزقه ربه إياه، حتى جاءه ابتلاء من الله ـ عز وجل ـ واختبار وامتحان.

وينبغي لمن أراد أن ينفذ شيئاً مكروها لشخص أن يأتي بأسلوب يدل على أنه لا يريد الإضرار به، وإنما هو أمر لا بد منه لقوله.

﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾.

أي: إني أمرت في المنام أن أذبحك، ورؤيا الأنبياء حق.

قال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله ـ تعالى ـ أيقاظاً ورقوداً؛ لأن الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم.

﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

أي: فانظر في الأمر، ما رأيك فيه، فإن أمر الله ـ تعالى ـ لابد من تنفيذه؟ وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله ـ تعالى ـ وطاعة أبيه.

فإن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب:

﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (١٠٢)﴾.

قال إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: امض لما أمرك الله به من ذبحي، فستجدني صابراً إن شاء الله، وقرن ذلك بمشيئة الله ـ تعالى ـ؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله ـ تعالى ـ فهو لم يأخذ الأمر بطولة أو حمية وشجاعة، بل أخذها طاعة واستسلاماً لله ـ عز وجل ـ؛ وهو جواب من أوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضا بقضاء الله.

وقد عدل عن قول: اذبحني، إلى ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ للجمع بين الإذن وتعليله، أي أذنت لك أن تذبحني لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾.

أي: فلما استسلما - الأب إبراهيم وابنه إسماعيل - لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه ورضا والده.

وجذب إبراهيم إسماعيل وكبه على وجهه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

أي: ناديناه يا إبراهيم في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش، قد نفذت ما أمرت به وفعلته، وحصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وقد رأى إبراهيم في المنام أنه يذبحه ويتهيأ لك ولم ير في المنام أنه ذبحه فعلاً، لذا قيل له ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

قال ابن عباس: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه، قال الابن: يا أبت أشدد رباطي حتى لا أضطراب، واكفف ثيابك لئلّا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحِّد شفرتك وأسرع بها على حلقي ليكون الموت أهون عليَّ، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن ترد قميصي عليها فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني.

فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

روي أنه أمرَّ السكين بقوته على حلقه مراراً فلم يقطع.

قال ابن القيم: والحكمة في هذه القصة أن إبراهيم اتخذه الله - تعالى - خليلاً، والخلة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبوب، فلما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأراد الله - تعالى - أن يصفي وُدّه، ويختبر خلته، فأمره بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه وآثره على هواه، وقدم محبته على محبة ولده، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .
تعليل لتفريج الكربة، أي: كما فرجنا شدتك، كذلك نجازي المحسنين بتفريج الشدة عنهم، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً.
﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .
أي: إن هذا الذي امتحنا به إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ابن يذبح، ويكون الذبح بيده، لهو الابتلاء والامتحان الشاق الواضح، الذي يتميز فيه المخلص من المنافق، والذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فلهذا قال:
﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .
أي: صار بدله، ذبحٌ من الغنم عظيم من الجنة فداءً عنه، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنَّة إلى يوم القيامة.
قال ابن عباس: كبش عظيم قد رعى في الجنة أربعين خريفاً.
﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .
أي: وأبقينا عليه ثناءً حسناً إلى يوم الدين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فإنه فيه محبوب، معظم، مثنى عليه.
﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ .
أي: كما جزينا إبراهيم على طاعته لنا وامتثاله أمرنا، نجزي المحسنين من عبادنا، كرَّر ذكر الجزاء مبالغة في الثناء، ثم علَّل ذلك بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع اليقين والاطمئنان.
﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .
أي: وبشرناه بغلام آخر بعد تلك الحادثة، هو إسحاق الذي سيكون نبيّاً، الذي ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبيّاً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ ﴾ .

أي: أفضنا على إبراهيم وإسحاق بركات الدنيا والدين، التي هي النمو والزيادة، في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق.

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١١٣].

قال القرطبي: لما ذكر البركة في الذرية والكثرة قال: منهم محسن، ومنهم مسيء، وأن المسيء لا تنفعه بنوة النبوة، فاليهود والنصارى وأن كانوا من ولد إسحاق، والعرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فلابد من الفرق بين المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر.

وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر، وعلى أن فساد الأعقاب لا يعد غضاضة على الآباء وأن مناط الفضل هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات وأما كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتسام بفضائل الخلال.

* ولما ذكر قصة الخليل إبراهيم، وقصة الذبيح والفداء، أعقبها بذكر قصص بعض الأنبياء، كموسى وهارون، ويونس ولوط، وما في هذه القصص من العظات والعبر، وختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

* ثم مدح ـ سبحانه ـ عبده ورسوله إلياس ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ (١٢٩) سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾.

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾.

أثنى الله عليه، كما أثنى على إخوانه ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ، وإنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان والإيمان، وأن هؤلاء الرسل الكرام كانوا جميعاً من المتصفين بهذه الصفات، فلذلك استحقوا التحية والسلام، والذكر الحسن بين الأنام ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

* ثم أثنى الله ـ عز وجل ـ على عبده ورسوله لوطاً بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى قومه، ونهيهم عن الشرك، وفعل الفاحشة، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾.

* ثم أثنى الله ـ عز وجل ـ أيضاً على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٣٩) ﴾.

أي: وإن يونس ذو النون، وهو ابن مَتَّى، لأحد رسلنا المرسلين لهداية قومه.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٠].

أي: أذكر حين هرب وركب سفينة مملوءة ركاباً وأمتعة، فلما أحاطت بها الأمواج العظيمة، فقارع أهل السفينة فكان من المغلوبين بالقرعة فألقوه في البحر. قال المفسرون: إن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغضباً لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة، فناوأتها الرياح والأمواج، فقال الملاحون: هينا عبد أبق من سيده، ولا بد لنجاة السفينة من إلقائه في الماء لتنجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيَّأ أسبابه، فألقوه في البحر.

قال السعدي: ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝﴾.

فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخليه عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً لهم، وخروجه بغير إذن من ربه.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾.

أي: لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً في حياته في وقت الرخاء قبل وقوعه في بطن الحوت وبعده، لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وأصبح بطنه قبراً له فلم ينج أبداً، ولكنه سبح الله واستغفره، وناداه وهو في بطن الحوت بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٧] فاستجاب الله تضرعه ونداءه، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد والمضائق.

عن ميمون بن مهران قال: سـمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذكراً، فلما أصابته الشـدة دعا الله، فقال الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [يونس: ١٤٣].

قال القرطبي: أخبر الله ـ عز وجل ـ أن يونس كان من المسبحين، وأن تسـبيحه كـان سـبب نجاته، ولذلك قيل: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر.

قال الحسن: ما كان له صلاة في بطن الحوت ولكنه قدم عملا صالحاً في حال الرخاء؛ فذكره الله به في حال البلاء.

* قـال ـ تعالى ـ عن يونس ـ عليه السـلام ـ: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾.

أي: فاسـتجبنا له، فألقيناه من بطن الحوت على السـاحل، بأن قذفه الحوت من بطنه بالأرض الفضاء التي لا شـجر فيها ولا ظل، وهو سـقيم مريض، ضعيف البدن مما ناله من الكرب.

قـال عطاء: أوحى الله ـ تعالى ـ إلـى الحوت إني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء. وأنبتنا فوقه شجرة لتظله وتقيه حرَّ الشمس، وهي شجرة القرع، وإنما خص القرع بالذكـر؛ لأنه يجمع كبر الورق، وبرد الظل، وأنه أسـرع الأشـجار نباتا وامتـداداً وارتفاعاً، والذبـاب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب، وهذا من تدبير الله ولطفه به وبره، فلما اسـتكمل قوته وعافيته امتن عليه منَّة عظمى، حيث إنه رده الله إلى قومه.

قال ابن كثير: وذكر في القرع فوائد، منها: سـرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومتـه، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل

نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء، ويتتبعه من حواشي الصحفة.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝﴾.

أي: وأرسلناه بعد ذلك إلى قومه الذين هرب منهم، وهم مائة ألف من الناس، بل يزيدون. فآمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وعدوا به فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، فأبقيناهم ممتعين في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم. روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وناحوا وتضرعوا إلى الله، فرفع الله العذاب عنهم.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٦٥ ـ ١٦٦].

عن أبي نضرة قال: كان عمر إذا أقيمت الصلاة أقبل على الناس بوجهه، فقال: يا أيها الناس استووا إن الله إنما يريد بكم هدي الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝﴾ استووا؛ تقدم أنت يا فلان تأخر أنت أي هذا، فإذا استووا تقدم فكبر.

* قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٨٠].

لما ذكر في هذه السورة كثيراً من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾.

سورة ص (٣٨)

سورة «ص» سورة مكية، تعالج قضية التوحيد، والوحي إلى محمد ﷺ، وأمر الآخرة، والجزاء والحساب.

تسمى السورة الكريمة «سورة ص»، وهو حرف من حروف الهجاء للإشادة بالكتاب المعجز، الذي تحدى الله به الأولين والآخرين، وهو المنظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن المعجز المنزل على النبي الأمي، المشتمل على المواعظ البليغة، والأخبار العجيبة، على أن القرآن حق، وأن محمد نبي مرسل.

* بدأت سورة «ص» بتعظيم: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝﴾ [ص:١]، وختمت بـ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [ص: ٨٧]. وفي ثناياها تقريع للمشككين فيه، وحض على لزوم اتباعه وتدبره.

واشتملت سورة (ص) على الخصوصات المتعددة: فأولها: خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصم الملأ الأعلى في العلم، ثم مخاصمة إبليس.

* قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝﴾ [ص: ٢].

والتعبير بـ ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝﴾ للإشعار بأن ما هم عليه من عناد ومن مخالفته للحق، قد أحاط بهم من كل جوانبهم، كما يحيط الظرف بالمظروف.

* قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝﴾ [ص: ١٦].

في سورة (ص) ذكرت كلمت (قطنا) وهي تعني: القسط من الشيء الحسن.

فذكــرت هذه الكلمة في سـياق الآية لتوضح اسـتهزائهم بالنبي ﷺ، فجعلوا العذاب شـيئاً حسناً لهم. فمن خلال كلمة واحدة فهم أن الغرض كان الاستهزاء.

* ثم تناولت الآيات قصص بعض الرسـل الكرام، تسلية للنبي ـ عليه الصـلاة والسـلام ـ، عما يلقاه من كفار مكة من الاسـتهزاء والتكذيب، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه، فذكرت قصة نبي الله داود، وولده سليمان، الذي جمـع الله له بين النبوة والملك، وما نال كلاً منهما من الفتنة والابتلاء، ثم أعقبتها بذكر فتنة أيوب، وإسـحاق، ويعقوب، وإسماعيل، وذا الكفل، هكذا في عرض سـريع لبيان سـنة الله، في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه، فقال لرسـوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشـراً لـه على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: اصبـر ـ يا محمد ـ على تكذيبهم وأقوالهم الباطلة، كما صبر من قبلك من الرسل، فإن الله ناصرك عليهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار، ولما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحـده، ويتذكر حال العابدين، ومن أعظم العابدين، نبي الله داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾.

أي: وتذكـر عبدنا داود ذلك النبي الشـاكر الصابر، ذا القوة في الدين والعلم، والقوة في البدن والقلب، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يقوم نصف الليل، وفي الصحيحين عن رسول ﷺ أنه قال: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وأنه كان أواباً..**».

قال السـعدي: من الفوائد والحكم في قصـة داود ـ أن الله ـ تعالى ـ يمدح ويحب القوة في طاعته قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار

الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلقة بالقوى المضعفة للنفس.

ـ ثم ذكر الله صفة من صفات نبيه داود، فقال عنه:

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: كثير الرجوع والإنابة إلى الله.

والأَوَّابُ: الرجاع إلى الله، في جميع الأمور بالإنابة إليه، والحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء.

ولا يكون أواباً إلا من كان قوياً في دينه خائفاً من ربه.

ولما كانت مقالة المشركين تقتضي الاستخفاف بالدين، أمر ـ تعالى ـ نبيه بالصبر على أذاهم، وذكر قصصاً للأنبياء «داود، وسليمان، وأيوب» وغيرهم، وما عرض لهم فصبروا حتى فرج الله عنهم، وصارت عاقبتهم أحسن عاقبة، فكذلك أنت تصبر ويؤول أمر إلى أحسن مآل.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ومن شده إنابته لربه وعبادته، أن سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح، وتسبيح الجبال معجزة لداود ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه، كل من الجبال والطير، فهو رجاع إلى طاعته ـ تعالى ـ بالتسبيح والتقديس، وكانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مرَّ به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف في الهواء ويسبح معه، وكذلك الجبال الشامخات كانت ترجع معه وتسبح تبعاً له. قال قتادة: ﴿أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ أي مطيع وهذه منة الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منته عليه بالملك العظيم.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

وجعلنا له ملكاً كاملاً، وقوينا ملكه وثبتناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود. ثم ذكر منته عليه بالعلم، فقال: وأعطيناه النبوة والعلم العظيم، والفهم والإصابة في الأمور.

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝﴾.

أي: الكلام البين الذي يفهمه من يخاطب به، وقيل: يعني إصابة القضاء وفهمه.

قال المفسرون: كان ملك داود قوياً عزيزاً، وكان يسوسه بالحكمة والحزم معاً، ويقطع ويجزم برأي لا تردد فيه مع الحكمة والقوة، وذلك غاية الكمال في الحكم والسلطان.

قال السعدي: إن العبد إذا رزقه الله نعمة فاستعملها في طاعة الله بارك الله له فيها وزاده من خيرها، فداود ـ عليه السلام ـ لما استعمل قوته في إعزاز الدين وكثرة العبادة والطاعة؛ ألان الله ـ عز وجل ـ له الحديد.

ـ من الفوائد والحكم في قصة داود أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتن الله به عبده داود ـ عليه السلام ـ.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ قصة خصمان تحاكما إلى داود، فقال:

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝﴾ [ص: ٢٢].

قال السعدي: المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النصيحة، والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين.

* قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤ ـ ٢٥].

الاستغفار والعبادة؛ خصوصاً الصلاة من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

* قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦].

جاء في الحديث: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من عمل يده». وخصه الله ـ عز وجل ـ بذلك بأن كان خليفة في الأرض، فلم يكن بحاجة إلى العمل بيده.

* قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

قال ابن القيم: لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم.

قال في مفتاح دار السعادة: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

* القرآن الكريم نور، ولكن لا يشاهد ذلك إلا من جمع بين أمرين: التدبر والتذكر، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝﴾ [ص: ٢٩].

وقد جعل التذكر بعد التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يتعظ الإنسان بالشيء إلا إذا عرف معناه.

* قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ۝﴾ [ص: ٣٢].

قال البغوي: وسميت الخيل خيراً؛ لأنه معقود بنواصيها الخير؛ الأجر والمغنم.

* قال سليمان ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥].

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: فبدأ بطلب المغفرة قبل طلب الملك العظيم؛ وذلك لأن زوال أثر الذنوب هو الذي يحصل به المقصود، فالذنوب تتراكم على القلب، وتمنعه كثيراً من المصالح، فعلى المؤمن أن يسأل ربه التخلص من هذه الذنوب قبل أن يسأل ما يريد.

* قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٥].

قدم الاستغفار على طلب الملك؛ لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا، فقدم الأولى والأهم.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ قصة عبده أيوب، وهي القصة الثالثة في هذه السورة، وما فيها من ابتلاء له حيث أصابه الضر في جسده، وماله وولده، قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾.

الإضافة للتشريف، أي: اذكر ـ يا محمد ـ عبدنا الصالح أيوب ـ عليه السلام ـ، بأحسن الذكر، واثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه ولا لجأ إلا إليه.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: حين نادى ربه متضرعاً إليه، قائلا: إني مسني الشيطان بتعب ومشقة، وألم شديد في بدني، وكان أن سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله.

قال المفسرون: وإما نسب ذلك إلى الشيطان فهو تأدباً مع الله ـ تعالى ـ وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله ـ تعالى ـ، وكان أيوب قد أصيب في ماله وأهله وبدنه، وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة.

وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل، فاستجاب ربه لدعائه وأمره:

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: وقلنا له أضرب برجلك الأرض، فضربها فنبعت له عين ماء صافية. وقلنا له هذا ماء تغسل به، وشراب تشرب منه، فاغتسل منها فذهب ما كان بظاهر جسده. وشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده، والجمهور على أنه نبعت له عينان، شرب من إحداهما، واغتسل من الأخرى، فشفي بإذن الله.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾.

أي: أحيا الله من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم.

قال المفسرون: الأقرب أن الله ـ تعالى ـ متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك. رحمة منا بعبدنا أيوب، لصبره وإخلاصه، فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً.

﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: وعبرة لذوي العقول المستنيرة، ليعلموا أن عاقبة الصبر: الفرج والمخرج، وكشف الضر.

والله ـ عز وجل ـ جواد كريم يعطي ما سُئل، ويفيض بجوده وكرمه فقد قال عن دعاء أيوب: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٣].

وكذلك أفاض بكرمه على أيوب، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ

أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤].

* قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

وقلنا له خذ بيدك حزمة من القضبان الرفيعة - شماريخ -، فاضرب بها زوجتك لتبر بيمينك ولا تحنث. قال المفسرون: كان أيوب قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوط إذا برئ من مرضه، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتد به البلاء، وطالت به المدة، وسوس إليها الشيطان: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر، فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب من هذا الكلام وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود، ويضربها بها ضربة واحدة ويبرَّ في يمينه، رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته، وصبرت على بلائه، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولهذا قال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾.

أي: ابتليناه، فوجدناه صابراً على الضراء.

قال الشيخ ابن عثيمين: إن الله - تعالى - يمن على العبد بأكثر مما فقد إذا صبر واحتسب، لأن أيوب - عليه الصلاة والسلام - وهب الله له أهله ومثلهم معهم، فأنت اصبر، تظفر.

﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: نعم العبد أيوب الذي كمل مراتب العبودية في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، وكان كثير الرجوع إلى الله بالتوبة، والإنابة والعبادة.

* قال - تعالى - في الثناء على أيوب - عليه السلام -: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

فأطلق عليه: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ بكونه وجده صابراً، وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلي فإنه: بئس العبد.

سُئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأن الله ـ تعالى ـ أثنى على عبدين، أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناءً واحداً، فقال في وصف أيوب: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وقال في وصف سليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ مخبراً عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين، فقال:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝ هَٰذَا ذِكْرٌ﴾.

* ثم ذكرت، الآيات مكان ومنزلة المتقين وحالهم ومآلهم، وما يتنعمون به في الجنة، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي: وإن لكل متق الله، مطيع لرسله، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، لحسن مرجع ومنقلب. فسّره وفصّله، بقوله:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

أي: جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، قد فتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم.

قال المفسرون: إن الملائكة الموكلين بالجنان إذا رأوا المؤمنين فتحوا لهم أبوابها، وهذا دليل على الأمان التام، وأنه ليس في جنان عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها، وحيوهم بالسلام، فيدخلون كذلك محفوفين بالملائكة على أعز حال، وأجمل هيئة.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

أي: متكئين متربعين في الجنة على الأرائك، وهي السرر الوثيرة والمجالس المزخرفات.

وهم متكئون على الأسـرة يطلبون أنواع الفواكه، وألوان الشراب كعادة الملـوك في الدنيا، ومهما طلبوا وجدوا، ومن أي أنواعه شـاؤوا أتتهم به الخدام.

والاتكاء: من علامات الراحة والأمان.

والاقتصـار على دعاء الفاكهـة للإيذان بأن مطاعمهـم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، لأنه لا جوع في الجنة.

﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

وعندهم الحور العين، اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

وأتراب: أي في سن واحدة، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

* ولمـا ذكر ـ تعالى ـ مآل السـعداء المتقين، ثنى بذكر حال الأشـقياء المجرمين، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم، وحسابهم، قال تعالى:

﴿هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

الاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها، وهذا من كلام خزنة جهنم لرؤساء الكفرة عن أتباعهم، والعـرب تقول لمن يحتفون بهم: مرحباً، إي؛ إتيت رحباً في البلاد لا ضيقاً، ثم يدخلون عليها كلمة (لا) في دعاء السوء.

* قال الله ـ تعالى ـ على لسـان إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧٦].

قال فـي أضواء البيان: بل الطـين خير من النـار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعة الطين الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة، والنواة فيعطيكها نخلة.

وإذا أردت أن تعـرف قدر الطين فانظر إلـى الرياض الناضرة، وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة، تعلم أن الطين خير من النار.

أقسـم في بدء السـورة بالقرآن ذي الذكر ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِی ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ [ص: ١] وختمهـا بالكلام عن القرآن أيضاً، وقـال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرࣱ لِّلۡعَـٰلَمِینَ ۝٨٧﴾ فبين ما أجمله في الافتتاح.

فالتناسـب بين مفتتح السـورة وخاتمتها ليس شـيئاً عارضاً ولا موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذه الكتاب الكريم وأمر مقصود في هذا الكلام الرفيع.

سورة الزمر (٣٩)

سورة الزمر، سورة مكية، تحدثت عن عقيدة التوحيد بالإسهاب والتفصيل، حتى لتكاد تكون هي المحور الرئيس للسورة الكريمة لأنها أصل الإيمان، وأساس العقيدة الصحيحة، وأصل كل عمل صالح.

وسميت «سورة الزمر» لأن الله ـ تعالى ـ ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة، وزمرة الأشقياء من أهل النار، أولئك مع الإجلال والإكرام، وهؤلاء مع الهوان والصَّغار.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن، المعجزة الكبرى الدائمة الخالدة لمحمد بن عبدالله ﷺ، وأمرت الرسول بإخلاص الدين لله، وتنزيهه ـ جل وعلا ـ عن مشابهة المخلوقين، وذكرت شبهة المشركين في عبادتهم للأوثان واتخاذهم شفعاء، وردَّت على ذلك بالدليل القاطع.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر». [رواه أحمد].

* قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

قال العلماء: إن العمل لا يقبل حتى يكون الدافع إخلاص العمل لله.

قال ابن القيم: لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت.

* قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤].

وهو القهار: الخلق تحت قهره وقبضته، ينزع روح من شاء متى شاء، لا يقع في الكون أمر إلا بمشيئته ولو سعى العبد إلى تحقيقه.

* قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَٰخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٦].

قال ابن عاشور: وتخصيص الليل بقنوتهم؛ لأن العبادة بالليل أعون على تمحض القلب لذكر الله، وأبعد عن مداخله الرياء وأدل على إيثار عبادة الله على حظ النفس من الراحة والنوم، فإن الليل ادعى إلى طلب الراحة، فإذا آثر المرء العبادة فيه؛ استنار قلبه بحب التقرب إلى الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

في الآية إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولا بـ (القانت) ثم نفى المساواة بينه وبين غيره، ليكون تأكيداً له، وتصريحا بأن غير العامل كأن ليس بعالم.

قال الإمام الرازي: واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم.

أما العمل فهو القنوت، والسجود، والقيام. وأما العلم، ففي قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومن تأمل في سياق الله وجد أن الرحمة من الله واصله، والحذر من الحذر وليس من رب جواد كريم بر رحيم.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه من ذلك الصبر، إلا كان ما عاضه الله أفضل مما انتزع منه.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [ص: ١٨].

قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن والقبيح فيتحدث بالحسن وينكف عن القبيح فلا يتحدث به، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن.

* لما ذكر ـ تعالى ـ بعض دلائل وحدانيته وقدرته الموصلة إلى الإيمان به، بين هنا أنه لا ينتفع بهذه الآيات الكونية إلا من شرح الله صدره ويسر له أمر الهدى، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿مَّثَانِىَ﴾ أي تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، وهذه المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله ـ تعالى ـ عليه.

وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

* قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

قيل: في سبب ذكر الجلود وحدها، ثم قرنت القلوب بها ثانياً: أن ذكر الخشية التي تحملها القلوب مستلزم لذكر القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم في أول الأمر. فإذا ذكروا الله ـ تعالى ـ وذكروا رحمته وسعتها، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة لينا في جلودهم.

ولما كان من هذا وصفه هو أعلى الخلق في كل حالة، ذكر جزاءه أعلى الجزاء وأفضله، فقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٤ ـ ٣٥].

وخواص أهل هذا الوصف هم الصديقون الذين ليس بعد درجة النبوة أعلى منهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١].

قال ابن عباس: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره.

* ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، فقال:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾.

أي: يقبضها من الأبدان عند نهاية آجالها، وهي الوفاة الكبرى. ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي الوفاة الصغرى.

قال ابن كثير: أخبر ـ تعالى ـ بأنه المتصرف في الوجود كما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة ـ الملائكة ـ الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ فيمسك من هاتين النفسين، النفس التي قضى على صاحبها الموت، فلا يردها إلى البدن. ويرسل الأنفس النائمة إلى بدنها عند اليقظة إلى وقت محدود، وهو أجل موتها الحقيقي.

قال ابن عباس: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها، أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها.

وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته ـ تعالى ـ، وانفراده بالألوهية، وأنه يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء لا يقدر على ذلك سواه، ولهذا قال:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

قال المفسرون: الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه، وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئاً يتقونها به إلا وجوههم.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥].

قال المفسرون: العدل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات، ثم يكون الجزاء. والفضل هو الذي يتجلى به الله على عباده المتقين، فيكفر عنهم أسوأ أعمالهم، فلا يبقى لهم حساب في ميزانهم، وأن يجزيهم أجرهم بحساب أحسن الأعمال، فتزيد حسناتهم وتعلوا وترجح كفة الميزان، وهذا من زيادة الكرم والإحسان.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر: ٣٣].

قال السعدي: أمر الله بالصدق وأثنى على الصادقين، وذكر جزاء الصادقين في آيات كثيرة، والمراد بالصدق أن يكون العبد صادقاً في عقيدته، صادقاً في خلقه، صادقاً في قوله وعمله، فهو الذي يجيء بالصدق في ظاهره وباطنه، ويصدق بالصدق لمن جاء به.

* قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾ [الزمر: ٣٦].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: الكفاية على حسب العبودية، فكلما ازدادت طاعتك لله ازدادت كفاية الله لك.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: ٣٨].

الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به، ومعنى ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ انقبضت من شدة الكراهية. وهذا مشاهد في عباد القبور ونحوهم.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧].

قال مجاهد: عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات، فإذا هي سيئات.

وقال سفيان الثوري: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء، هذه آيتهم وقصتهم.

جاء في ترجمة محمد بن المنكدر أنه كان ذات ليلة قائماً يُصلي، إذ استبكى، فكثر بكاؤه حتى فزع له أهله وسألوه، فاستعجم عليهم وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء إليه، فقال: ما الذي أبكاك؟ قال: مرت بي آية، قال: وما هي؟ قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧]؛ فبكى أبو حازم معه، فاشتد بكاؤهما.

وجاء عنه أنه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب!

* لما ذكر ـ تعالى ـ أحوال الفجرة المشركين، وذكر ما يكونون عليه في الآخرة من الذل والهوان، دعا المؤمنين إلى الإنابة والتوبة قبل فوات الأوان، وجاءت الآيات طريَّة نديَّة تدعو العباد إلى الإنابة لربهم، والرجوع إليه، قبل أن يداهمهم الموت بغتة، أو يفاجئهم العذاب من حيث لا يشعرون، وحينئذ يتوبون ويندمون، في وقت لا ينفع فيه توبة ولا ندم.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

لا تيأسوا من مغفرة الله ورحمته، وتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها،

فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، ولكن تأملوا في فضل الله، وتعرضوا لرحمته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنه ـ تعالى ـ يعفو عن جميع الذنوب لمن تاب وعاد، وإن كانت مثل زبد البحر.

هذه الآية أرجا آية في كتاب الله ـ سبحانه ـ لاشتمالها على أعظم بشارة، فإنه أولاً: أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم. ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب.

ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب، فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى، وبفحوى الخطاب.

ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

قال ابن مسعود: ما في القرآن آية أعظم فرجاً من آية في سورة الفرق ـ أي الزمر ـ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: عظيم المغفرة واسع الرحمة، وظاهر الآية أنها دعوة للمؤمنين إلى عدم اليأس من رحمة الله، لقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ﴾.

قال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت.

* بعد أن أطنبت آيات الوعيد بإفنانها السابقة إطنابا يبلغ من نفوس سامعيها، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

أي: مبلغ من الرعب والخـوف، على رغم تظاهرهم بقلة الاهتمام بها وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله ببعث الرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب.

* وبعد هذه البشـارات العظيمة دعاهم ـ سبحانه وتعالى ـ إلى العودة والأوبة، فقال:

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ارجعوا إلى الله، واستسلموا له بالطاعة والخضوع، والعمل الصالح، وأنيبوا له بقلوبكم، وأسـلموا له بجوارحكم، وفي هذا دليل على وجوب الإخـلاص لله ـ عز وجل ـ وإفراد العبادة له وحده دون سـواه، من قبل حلول نقمته ـ تعالى ـ بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

قال حميد بن هشـام: قلت لأبي سليمان بن عطية: يا عم، ولم تشدد علينا وقد قال الله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، فقال: اقرأ بقية الآيات، فقرأت: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ...﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥]، فمسـح رأسـي، وقال: يا بني، اتق الله وخفه وأرجه.

* قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: ٦٦].

ولم يقـل: (بل اعبد الله) لأنه إذا تقدم وجـب اختصاص العبادة دون غيره.

قال السـعدي: فكما أنه ـ تعالى ـ يُشـكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسـم وعافيته، وحصول الرزق، وغير ذلك، كذلك يشـكر ويثنى عليه بالنعـم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة.

وفي تدبر أنها من الله - تعالى - والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين بسبب جهلهم، وإلا فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

* قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

قال السعدي: علم من هذا أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل وهو كذلك فإن الله أخبر أن الشمس تكور والقمر يخسف والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها عندما يتجلى ويتنزل للفصل بينهم.

* قال - تعالى - في حق الكافرين ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

وقال - تعالى - في حق المؤمنين: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ دون التي قبلها، أن أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجئها أصحاب الجرائم، فتفتح لهم ثم تُغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها، فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

وجعلهم زمراً بحسب مراتب التقوى.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝﴾

قيل لهم على وجه الإهانة والإذلال: ادخلوا جهنم لتصلوا سعيرها ماكثين فيها أبداً، بلا زوال ولا انتقال، كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. فبئس المقام والمأوى جهنم للمتكبرين عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

* وبعد أن ذكر - عز وجل - حال أهل النار، انتقل إلى حال أهل الجنة في ذلك اليوم المهول، فقال تعالى:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣].

قال ابن كثير: لم يذكر الجواب ههنا وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرُّوا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ﴾.

وسيق الأبرار المتقون لله إلى الجنة جماعات جماعات، راكبين على النجائب، سوق إكرام وإعزاز وتشريف.

المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

قال القرطبي: سوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان، كما يفعل بالمجرمين الخارجين على السلطان، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، كما يفعل بالوافدين على الملوك فشتان ما بين السوقين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

أي: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها.

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً، من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم، كل زمرة على حدة، كمشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً، ويفرح بعضهم

بعضـــاً. وكذلك أصحـــاب الدار الآخرة، النار يســـاقون إليها زمراً، يلعن بعضهم بعضاً، ويتـــأذى بعضهم ببعض، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة من أن يساقوا واحد واحداً.

قال ابن عثيمين: في خواتيم سورة الزمر، قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٢] بينما قال في أهل الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

الســـبب: أن في هذه الآية إشارة إلى الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ، التي يشفع فيها لأهل الجنة حين يأتون فيجدون باب الجنة مغلقاً؛ فيشفع لهم لله في دخولها، فيدخلونها.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٤ ـ ٧٥].

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

حـــذف فاعل القـــول، لأنه غير معين، بل كل أحـــد يحمده على ذلك الحكـــم الذي حكم فيه، فيحمده أهل الســـماوات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار.

قال الحســـن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً.

قـــال ابن كثير: نطق الكـــون أجمعه، ناطقه وبهيمـــة، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يســـند القول إلى قائل، بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له ـ سبحانه ـ بالحمد.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧١].

ختم كل عمل بالحمد لله، فقد ابتدأ الله الخالق بالحمد، فقال الحمد لله، الذي خلق السموات والأرض، وختم بالحمد وقيل: الحمد لله رب العالمين.

سورة غافر (٤٠)

سـورة غافر سـورة مكية، تعنى بأمور العقيـدة. ويكاد يكون موضوع السورة البارز هو المعركة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولهذا جاء جو السـورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، وكأنه جو معركة رهيبة، يكون فيها الطعن والنزال، ثم تسفر عن مصارع الطغاة فإذا بهم حطام وركام.

سميت «سورة غافر» لأن الله ـ تعالى ـ ذكر هذا الوصف الجليل ـ الذي هو من صفات الله الحسـنى ـ في مطلع السورة الكريمة ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣] وكرر ذكر المغفرة في دعوة الرجل المؤمن: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝﴾ [غافر: ٤٢].

وتسمى «سورة المؤمن» لذكر قصة مؤمن آل فرعون.

وسـورة غافر هي أول سـبع سـور تبدأ بحرفي ﴿حمٓ﴾ فتسمى ذوات الحاميم أو الحواميم.

والحواميم سبع يجمعها هذا البيت:

مـؤمـن فـصـلـت وشـورى تـلـيـهـا
زخـرف والـدخـان جـاث وأحـقـاف

وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحواميم ديباج القرآن».

وفي سـور الحواميم بث الله ـ عز وجل ـ فيهـا آياته وقدرته، وعظمة صنعه:

قـال تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝﴾ [غافر: ١٣].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [غافر: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ

ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الجاثية: ٣ ـ ٦].

* ابتدأت السورة الكريمة بالإشادة بصفات الله الحسنى، وآياته العظمى، ثم عرضت لمجادلة الكافرين في آيات الله، فمع وضوح الحق وسطوعه، جادل فيه المجادلون، وكابر فيه المكابرون.

وعرضت السورة لمصارع الغابرين، وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم يفلت منهم إنسان، قال تعالى:

﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾ [غافر: ١ ـ ٣].

عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى عمر فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟ قال: نعم، أعمل ولا تيأس. ثم قرأ: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾.

* والسورة كثر فيها مجادلة الكفار والمشركين وإيضاح الدليل.

قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝﴾ [غافر: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ [غافر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾ [غافر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى: ١٦].

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

في ثنايا هذا الجو الرهيب، يأتي مشهد حملة العرش، في دعائهم الخاشع المنيب للملك الديان، يغمرهم رهبة وخشوع، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع، وفي ذلك الموقف الرهيب واليوم العصيب، يلقى الإنسان جزاءه إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

ويخبر ـ سبحانه ـ عن كمال لطفه ـ تعالى ـ بعباده المؤمنين وما قيض من الأسباب لسعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة

المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم، وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله؛ لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾.

إخبار عن الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله ـ تعالى ـ، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي.

﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: هؤلاء العباد المقربون ـ حملة العرش ـ ومن حول العرش من أشراف الملائكة وأكابرهم، ممن لا يحصي عددهم إلا الله، هم في عبادة دائبة لله، ينزهونه عن صفات النقص، ويثنون عليه بصفات الكمال. ويصدقون بوجوده ـ تعالى ـ، وبأنه لا إله لهم سواه، ولا يستكبرون عن عبادته، فهم خاشعون له، أذلاء بين يديه، ولا يخفى أن حملة العرش وجميع الملائكة يؤمنون بالله؟ لكن ذكر أنهم يؤمنون به، لإظهار فضيلة الإيمان وشرفه والترغيب فيه.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وهم مع عبادتهم واستغراقهم في تسبيح الله وتمجيده، يطلبون من الله المغفرة للمؤمنين، وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، قائلين: يا ربنا وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، فرحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم وسكناتهم.

وفي وصف الله ـ تعالى ـ بالرحمة والعلم ـ وهو ثناءٌ قبل الدعاء ـ تعليم العباد أدب السؤال والدعاء، فهم يبدؤون دعاءهم بأدب، ويستمطرون إحسانه وفضله وإنعامه.

﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ .

أي: فاصفح عن المسيئين المذنبين، التائبين عن الشرك والمعاصي، المتبعين لسبيل الحق الذي جاء به أنبياؤك ورسلك.

قال ابن الجوزي: علمت الملائكة أن الله ـ عز وجل ـ يحب عباده المؤمنين، فتقربوا بالشفاعة فيهم، وأحسن القرب أن يسأل المحب إكرام حبيبه، فإنك لو سألت شخصاً أن يزيد في إكرام ولده لارتفعت عنده، حيث تحثه على إكرام محبوبه ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ . وزحزحهم عن عذاب جهنم واحفظهم من أسبابه.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ .

وأدخلهم جنات النعيم والإقامة التي وعدتهم إياها على ألسنة رسلك. وأدخل الصالحين من الآباء والأزواج والأولاد في جنات النعيم أيضاً ليتم سرورهم بهم، وأجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالإجتماع في الجنة بمنازل متجاوره.

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ .

أي: العزيز الذي لا يغلب ولا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة.

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

هذا من تمام دعاء الملائكة، أي: احفظهم يا رب من فعل المنكرات والفواحش التي توبق أصحابها. ومن حفظته من نتائجها وعواقبها يوم القيامة، فقد لطفت به ونجيته من العقوبة. وذلك الغفران ودخول الجنان، هو الظفر العظيم الذي لا ظفر مثله.

وفي نظم استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم، إيذان بكمال اعتنائهم به، وإشعار بوقوعه عند الله ـ تعالى ـ في موقع القبول.

قال خلف بن هشام: أتيت سليم بن عيسى لأقرأ عليه، فكنت أقرأ عليه حتى بلغت يوماً سورة غافر، فلما بلغت إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]. بكى بكاء شديداً، ثم قال لي: يا خلف ألا ترى ما أعظم حق المؤمن؟ تراه نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

* ولما تحدث ـ جل وعلا ـ عن أحوال المؤمنين، ذكر شيئاً من أحوال الكافرين أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وذكر ـ سبحانه ـ أحوالهم بعد دخولهم النار من الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾.

لما قرر ـ سبحانه ـ أن الملك له وحده في ذلك اليوم، ـ يوم القضاء والفصل بين العباد ـ عدد نتائج ذلك في ثلاثة أمور، تجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر، وهذا أول الأمور. لا يظلم أحد شيئاً، لا بنقص ثواب، ولا بزيادة عقاب، وهذا ثاني الأمور.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

ثالث الأمور: أي: سريع حسابه، لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق جميعاً في وقت واحد.

قال القرطبي: كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وفي الحديث: «**لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار**» [رواه الحاكم].

* قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الرجل يكون جالساً مع القوم، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: وهو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره. وقد علم الله ـ عز وجل ـ منه أن يود لو نظر إلى عوراتها.. قال ابن عباس: ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝﴾ أي: هل يزني بها لو خلا بها أو لا؟

* قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝﴾ [غافر: ٢٠].

وهو السميع، يسمع النجوى وما أعلن، والسر وما أخفى، إن جهرت بقولك سمعه، وإن أسررت به لصاحبك سمعه، وإن أخفيته في نفسك علمه.

وهو البصير؛ يرى خوافي الأمور وإن دقت، لا يعزب عنه مثقال ذرة وإن خفيت، يرى في ظلم الليل ما تحت الثرى، ويبصر قعر البحار في الدهماء. الذي أحاط بصره بكل شيء.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

أي: قال فرعون متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء، اتركوني حتى أقتل لكم موسى، وليناد ربه حتى يخلصه مني، وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء، وكأنه يقول: لا يهولنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى، وغرضه أن يوهمهم بأنه إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه.

قال بعض المفسرين: والظاهر أن فرعون وكان قتَّالاً سفَّاكاً للدماء لأهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه يخاف إن هَمَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفزع، ثم ذكر الحامل على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض، فقال:

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٦﴾ .

أي: وإني أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لي، إلى عباده ربه، أو أن يثير الفتن والقلاقل في بلدكم، ويكون بسببه الهرج، وخرج بهذا واعظاً لقومه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٧﴾ .

ردّاً على مقالة فرعون تلك المقالة الشنيعة، التي أوجبها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره، قال موسى مستعيناً بربه؛ إني استجرت بالله واعتصمت به، ليحفظني من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله، لا يصدق بالآخرة.

وإنما قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره، وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح.

* قال تعالى: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ۝٣٧﴾ [غافر: ٢٧].

وجملة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ معترضة للاحتراس من أن يظن (هامان) وقومه أن دعوة موسى أوهنت منه يقينه بدينه وألهته، وأنه يروم أن يبحث بحث متأمل ناظر في أدلة المعرفة، فحقق لهم أنه ما أراد بذلك إلا نفي ما ادعاه موسى بدليل الحس.

* قال تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٥].

في الآية دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء. وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل.

قال ابن تيمية: العبد مأمور أن يصبر على المقدور، ويطيع المأمور، وإذا أذنب استغفر، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

(البصير) تقدس اسمه: الذي أحاط بصره بكل شيء، فيرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويرى جميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى نياط عروقها، ويرى ما هو أصغر وأدق من ذلك.

والمسلم إذا علم أن الله ـ عز وجل ـ مطلع على أعماله بصير بها أورثه ذلك خشية وخوفا.

* قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٥].

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ﴾.

دليل على أن من فوض أمره إلى الله ـ عز وجل ـ كان الله معه.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

قال الرازي: وهو أمر مطلق، يشمل دعاءه ـ سبحانه ـ لسؤال حاجات الدنيا وحاجات الآخرة، كما أن إطلاقه يناسب سعة فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكرمه، وأنه لا يتعاظمه بشيء يعطيه، ولو أعطى كل واحد مسألته ما نقص من ملكه شيء. فيسأل العبد ربه جميع مصالحه دينه ودنياه، من طعام وشراب وكسوة وغيرها، وفي الحديث: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع**».

قال عروة بن الزبير: إني أسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح إلى أهلي.

يقول المناوي في فيض القدير: لا طريق إلى حصول أي مطلوب من جلائل النعم ودقائقها إلا بالتطفل على موائد كرم من له الأمر.

وفي الحديث عن النعمان بن البشير - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾».

وتدل الآية على أن ترك العبد دعاء ربه يعد من الاستكبار، وتجنب ذلك لا شك في وجوبه.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦١].

ولما كان المقصود الأول من هذه الآية الامتنان كما دل عليه قوله ﴿لَكُمُ﴾ قدمت الأرض على السماء لأن الانتفاع بها محسوس، وذكرت السماء بعدها كما يستحضر الشيء بضده.

* قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦١].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾.

يعني: المستلذات لأنه جاء ذكر الطيبات في معرض التحليل والتحريم؛ فيراد به الحلال والحرام.

* قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥].

قال ابن جرير: وكان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: (لا إله إلا الله) أن يتبع ذلك (الحمد لله رب العالمين) تأولاً منهم هذه الآية، بأنها أمر من الله يقبل ذلك.

سورة فصلت (٤١)

هذه السورة الكريمة سورة مكية، وهي تتناول جوانب العقيدة الإسلامية، من الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء، وهي الأهداف الأساسية لسائر السور المكية التي تهتم بأركان الإيمان، وساقت الآيات الكريمات طريقة الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة.

سميت «سورة فصلت» لأن الله ـ تعالى ـ فصَّل بها الآيات، ووضع فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن المنزل من عند الرحمن، بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، الدالة على صدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهو المعجزة الدائمة الخالدة للنبي الكريم.

* ثم قال ـ تعالى ـ في الآيات التالية مبيناً حقيقة التوحيد ووجوب ذلك:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦].

في قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: ثم قصد إلى السماء وهي دخان فخلقها سبعاً شداداً وسقفاً مرفوعاً، ثم جعل لها وللأرض قانوناً وسنة وناموساً لا تحيد عنه ولا تميد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: لما احتج قوم عاد بقوله ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وهكذا كل ما في المخلوقات من قوة وشدة تدل على أن الله أقوى وأشد، وما فيها من علم يدل على أن الله أعلم، وما فيها من علم وحياة يدل على أن الله أولى بالعلم والحياة، فمن تمام الحجة الاستدلال بالأثر على المؤثر.

* قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣].

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعمال ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي يحمله على العمل حسن الظن.

عن معمر قال: تلا الحسن ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣] فقال: إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن، فأساء العمل.

* قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمموا أفواه الناطقين بالحق، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب، ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس، عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو، لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام الصالح باللغو.

وجمع قولـه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ أصليّ الكمال الإسـلامي فقوله ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مشير إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به، ومعرفة الخير لأجل العمل به.. وأشار قوله: ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة، وهو الاستقامة على الحق.

❁ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وذلك بتعليم الجاهل، ووعـظ الغافل، ومجادلة المبطلين، والدفاع عن الإسـلام والملة، باللسـان والبيان. والدعوة إلى الله هي وظيفة المرسـلين وأتباعهم.

﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: المنقادين لأمره، السـالكين في طريقه، هذا اسـتفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا أحد أحسـن قولاً مما دعا إلـى توحيد الله وطاعته، بقوله وفعله وحاله، وفعل الصالحات، وجعل الإسلام دينه ومذهبه.

والآية عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث: أن يكون مؤمناً معتقداً لدين الإسلام، عاملاً بالخير، داعياً إليه، وماهم إلا طبقة العلماء العاملين.

والاعتـزاز بالدين عمـل صالح ولكنه خص بالذكـر لأنه أريد به غيظ الكافرين، ومثال هذا ما وقع يوم أحد حين صاح أبو سـفيان: أعل هبل، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجل»، فقال أبو سـفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

عـن معمر قال: تلا الحسـن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. قال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب الخلق إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، فهذا خليفة الله.

قال ابن القيم: تبليغ سـنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم.

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

فالملك يتولى من يناسـبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت، والتعليم وإلقاء الصواب على لسـانه، ودفع عدوه عنه والاسـتغفار له إذ زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نـام عنها، وتحذيره من الركون إلى الدنيـا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله، فهو أنيسـه في الوحدة، ووليه ومعلمه ومثبته ومسـكن جأشه، ومرغبه في الخير ومحذره من الشـر، يستغفر له إن أساء ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

❁ قـال تعالـى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا يتساوى فعل الحسنة مع فعل السيئة، بل بينهما فرق عظيم في الجزاء وحسن العاقبة.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال: ادفع السيئة بالخصلة التي هي أحسن، مثل أن تدفع الغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإسـاءة بالعفو، ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك، خصوصـاً من لهم حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، وإذا قابلت الإساة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فإذا فعلت ذلك صـار عدوك كالصديق القريب، الخالص الصداقة في مودته ومحبته لك. وهذا أثر حسن الخلق مع من يعاديك، فكيف يكون أثره مع من يحبك.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وما ينال هذه المنزلة الرفيعة، والخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالحسنة، إلا من جاهد نفسه بكظم الغيظ واحتمال الأذى.

وما يصل إليها ويناله إلا ذو نصيب وافر من السعادة والخير، لكونها من خصال خواص الخلق، ومن أكبر خصال مكارم الأخلاق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، فقال:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

أي: وإن وسوس إليك الشيطان بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن، وأراد أن يحملك على البطش والانتقام، فاستعذ بالله من كيده وشره، واسأله مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، فإنه هو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم وأحوالهم.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

قيل: والحكمة في تصدير النعمة (إذا) والبلاء بـ (إن) هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ...﴾ [فصلت: ٥٠].

في الآية كناية عن صفة من صفات النفس المستكبرة في السراء حين تعرض عن خالقها حتى تطغى.

سورة الشورى (٤٢)

سورة الشورى سورة مكية، توضح وتبين أمور العقيدة وتركز كثيراً على الوحي والرسالة، والإيمان بهما.

وسميت سورة الشورى، تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليماً للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع من تأليف القلوب وجمع الكلمة وحسن الرأي.

تبتدئ السورة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فالله ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنس والجن من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، .

* قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى: ٣].

وأجرا وصفي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ على اسم الجلالة دون غيرهما؛ لأن لهاتين الصفتين مزيد اختصاص بالغرض المقصود من أن الله يصطفي من يشاء لرسالته.

* قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥].

وتقديم التسبيح على الحمد إشارة إلى أن تنزيه الله عما لا يليق به أهم من إثبات صفات الكمال له؛ لأن التنزيه تمهيد لإدراك كمالاته - تعالى -.

وقــال القرطبي: أي: تــكاد كل واحدة منها تنفطر فوق التي تليها، من قول المشركين ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦].

* قــال تعالى: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشورى: ١ ـ ٥].

قال بعض العلماء: هيَّبْ وعظم جل وعز في الابتداء: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾.

وألطف وبشر في الانتهاء: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشورى: ٥].

قــال مطرف: وجدنا أنصح عباد الله الملائكــة، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشياطين.

* قــال تعالــى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

أم القرى: أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها؛ لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه.

* قــال تعالــى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝﴾ [الشورى: ١٠].

قال ابن عاشور: وجيء في فعل ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ بصيغة الماضي، وفي فعل ﴿أُنِيبُ ۝﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أن توكله على الله كان سابقاً من قبــل أن يظهر له تنكر قومه له، فقد صادف تنكرهم منه عبداً متوكلاً على ربه.. وأما فعل ﴿أُنِيبُ ۝﴾ فجيء فيه بصيغة المضارع للإشــارة إلى تجدد الإنابة، وطلب المغفرة.

* قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝﴾ [الشورى: ١٠].

قال السعدي: وهذان الأصلان كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

* ثم بيّن ـ تعالى ـ صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية، فقال:

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

أي: هو ـ جل وعلا ـ خالقهما ومبدعهما، بقدرته وحكمته ومشيئته، على غير مثال سابق. وأوجد لكم بقدرته من جنسكم نساء من الآدميات، لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل، وكل ذلك منّه عليكم وتفضلاً.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

أي: وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة. ويكثركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى، لما كان ثمة تناسل ولا توالد.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

أي: ليس له ـ تعالى ـ مثيل ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد. والغرض: تنزيه الله ـ تعالى ـ عن مشابهة المخلوقين، والكاف هنا لتأكيد النفي، أي: ليس مثله شيء.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾.

وهو ـ تعالى ـ السميع لأقوال وأصوات العباد، البصير بأفعالهم.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات.

وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

له ملك السموات والأرض، وبيده ـ جل وعلا ـ مفاتيحهما وخزائنها من المطر والنبات وسائر الحاجات، فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال ليس بيد أحد من الأمر شيء، ولأن مفاتيح الرزق بيده، فهو: يوسع الرزق على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وكل هذا تابع لعلمه وحكمه، فهو ـ جل وعلا ـ يعلم أحوال عباده، يعلم إذا كان الغنى خير للعبد أو الفقر، وكل ذلك بحكمته ومشيئته.

* قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ترد كلمة ﴿وَصَّىٰ﴾ بالتشديد في الدين كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله ـ تعالى ـ، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحُسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦].

* قال تعالى: ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ [الشورى: ١٤].

قال القرطبي: بغيا من بعضهم على بعض طلباً للرياسة، فليس تفرقهم لقصور في البيان والحجج، ولكن للبغي والظلم والاشتغال بالدنيا.

* قال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ [الشورى: ١٥].

ولم يقل (ولا تتبع دينهم) لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

* قال تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ۝﴾ [الشورى: ١٥].

قال في المصباح المنير: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها.

قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه.

* قال تعالى: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ۝﴾ [الشورى: ١٧].

قال ابن جزي: فإن قيل: وما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟ فالجواب أن الساعة يوم الجزاء والحساب، فكأنه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل يوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم.

* قال تعالى: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ۝﴾ [الشورى: ١٩].

قال ابن عاشور: وعطف ﴿وهو القوي العزيز ۝﴾ على صفة ﴿لطيف﴾ أو على جملة ﴿يرزق من يشاء﴾ وهو تمجيد لله ـ تعالى ـ بهاتين الصفتين،

ويفيـد الاحتراس من توهم أن لطفه عن عجز أو مصانعة، فإنه قوي عزيز لا يعجز ولا يصانع، أو عن توهم أن رزقه لمن يشاء عن شح أو قلة فإنه القوي، والقوي تنتفي عنه أسباب الشح، والعزيز ينتفي عنه سبب الفقر، فرزقه لمن يشاء بما يشاء منوط الحكمة علمها في أحوال خلقه عامة وخاصة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشوري: ٢٧] الآية.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩].

قال محمد بن علي الكناني: اللطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق وتوكل عليه ورجع إليه فحينئذ يقبله ويقبل عليه.

وقيل: اللطيف الذي ينشر من عباده المناقب ويستر عليهم المثالب.

وقيل: هو الذي يقبل القليل ويبذل الجزيل.

وقيل: هو الذي جبر الكسير وييسر العسير.

وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيب من رجاه.

وقيل: هو الذي لا يرد سائله ويوئيس آمله.

وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو.

وقيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾.

قال السعدي: ومن لطفه أن قيض بعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه - تعالى - إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا تقطع عبده عن طاعته أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، قدر عليه رزقه ولهذا قال هنا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

❁ ثم ساق ـ تعالى ـ آيات ذكر فيها أكبر نعمة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام. ثم ذكر لطفه بعباده فقال:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: بار رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، بالغ الرأفة لهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم، ومن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك.

وألطافه على عباده المؤمنين كثيرة متوالية بل هو ـ سبحانه ـ لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم؛ فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً، ومن لطفه في الرزق وجهين، أحدهما: أنه جعل الرزق من الطيبات، والآخر: أنه لم يدفعه إلى العبد مرة واحدة.

فهو يوسع الرزق على من يشاء، وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعض إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغني بالفقير، والفقير بالغني.

وهو القادر على كل ما يشاء، لا يعجزه شيء، الغالب الذي لا يُغالب ولا يدافع.

أوصى ابن قدامة ـ رحمه الله ـ أحد إخوانه قائلاً: واعلم أن من هو في البحر ـ على اللوح ـ ليس بأحوج إلى الله وإلى لطفه ممن هو في بيته بين أهله وماله، فإذا حققت هذا في قلبك فاعتمد على الله اعتماد الغريق الذي لا يعلم له سبب نجاة غير الله.

❁ قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى: ٢٢].

من لطائـف هذا الوجه أنه جاء على الترتيـب المعهود في الحصول في الخارج، فإن الضيف أو الوافد ينزل أول قدومه في منزل إكرام، ثم يحضر إليه القرى، ثم يخالطه ربِ المنزل ويقترب منه.

* ثم لما بين كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسـان إليهم، أشـار إلى أن الإنسـان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسـعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

إن هذه الآية الكريمة تفتح باب الرجاء دوماً أمام العبد، وتدعوه لينسـى ماضي الغفلات، ويشتري نفسـه بالطاعات مهما اقترف العبد من ذنوب، فإن باب التوبة لا يوصد في وجهه، ومهما عظم الذنب فعفو الله أعظم.

وما يكاد يعلق العبد توبته حتى يرى ربه وقد عفا كل ما كسب من الآثام، بل إن عفوه ليبلغ القمة حتى لا يكتفي بمحو الآثام، وإنما يبدلها حسنات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي ذكر اسم العباد دون نحو: الناس أو التائبين أو غير ذلك، إيماء إلى أن الله رفيق بعباده لمقام العبودية فإن الخالق والصانع يحب صلاح مصنوعه.

* ثم يُذكرهم ـ سـبحانه ـ بجانب من فضلـه على عباده، وقد غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهـم المطر، ووقفوا عاجزين، فتداركهم برحمته، وفيض إحسانه وإنعامه، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾.

تعديد لنعمه على العباد، أي: هو ـ تعالى ـ الذي ينزل المطر، الذي هو أنفـع أنواع الرزق، وأعمها فائدة، وأكثرها مصلحة، فيغيثهم من الجدب، من بعد ما انقطع عنهم مدة ويئسوا من نزوله.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

قال القرطبي: قد يعلم من حال عبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوي عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هوانا، ولا سعته فضيلة.

وروي إن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليم أن لو اعطيته إياه لدخله العجب فافسده، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو فقراته لأفسده الفقر، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو اغنيته لأفسده الغنى.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

وخصها بالذكر دون غيرها من النعم الدنيوية، لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها، لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب.

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ﴾.

أي: ويبسط خيراته وبركاته على العباد، من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون، فيعرفون بهذا الإنزال للمطر بعد القنوط مقدار رحمته لهم، ويشكرون له ما يجب الشكر عليه.

وفي الآية ذكر الغيث امتداد لطلب الغوث والنجدة من منقطعين، الموت اقرب إليهم من الحياة، ثم تأتي بعده نشر الرحمة، رحمة عامة للأرض والدواب والبشر، فتدخل على النفس الأنس والراحة والطمأنينة في الأقوات والأرزاق. فكما تتفتح الأرض وتهتز بالنبات، فالقلوب تحيا بالغيث والمطر أنساً وفرحاً، وسروراً وحبوراً.

﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

وهو الوليُّ الذي يتولى عباده بأنواع الإحسان والتدبير، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء.

وهو الحميد؛ مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجل الأعمال، قال ﷺ: **«والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض»** [رواه مسلم].

قال ابن عاشور: ومناسبة ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ دون غيرهما؛ لمناسبتهما للإغاثة؛ لأن الولي يحسن إلى مواليه، والحميد يعطي ما يحمد عليه.

* يفرق القرآن الكريم في الاستعمال بين المطر والغيث، فنرى المطر في مواطن العذاب والانتقام، كقوله ـ تعالى ـ في سورتي الشعراء والنمل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٨] وقوله ـ تعالى ـ في سورة الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [٨٤].

أما الغيث فيغلب وروده في مواطن الرحمة والخير، المقترن بالبشرى والخصب والنماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

وفضل الله في الآخرة بلا حساب، وبلا حدود ولا قيود، فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود، فذكر ـ سبحانه ـ أن من لطفه بعباده أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة تضر بأديانهم، فقال تعالى:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولو وسع الله الرزق على عباده وأغناهم، لطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، لأن الغنى يوجب الطغيان.

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ .

ولكنه ـ تعالى ـ ينزل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، كما جاء في الحديث القدسي: «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» [رواه الطبراني].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما يقتضيه علمه وحكمته، ولو أغناهم جميعاً لغووا، ولو أفقرهم لهلكوا.

* ثم بدأ ـ سبحانه ـ يعد جُملاً من نعمه، ويذكر بعضاً من آلائه على عباده، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ .

ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلق السموات والأرض بهذا الشكل البديع مع عظمها، وما نشر وفرق في السموات والأرض من مخلوقات، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم. والدابة اسم لكل مادبّ. وهو ـ تعالى ـ قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أي وقت شاء، فقدرته ومشيئته صالحان لذلك.

* قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ .

يخبر ـ سبحانه ـ أنه ما أصاب العباد من مصيبة من المصائب في النفس أو المال، فإنما هي بسبب معاصيهم التي اكتسبوها، وعبر بالأيدي لأن أكثر

الأفعال تزاول بها. ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم، لهلكتم، وفي الحديث: «**لا يصيب ابن آدم خدش عود، أو عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر**» [رواه البيهقي].

وفي الآية يتجلى عدل الله، وتتجلى رحمته بهذا الإنسان الضعيف، فكل مصيبة تصيبه لها سبب مما كسبت يداه، ولكن الله لا يؤاخذه بكل ما يقترف، وهو يعلم ضعفه، وما ركب في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان، فيعفو عن كثير، رحمة به وسماحة منه.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله ـ عز وجل ـ، وإذا كان يكفر عني بالمصائب ويعفو عن كثير، فما يبقى بعد كفارته وعفوه.

قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عمن أساءهم، قال: إنهم علموا أن الله إنما ابتلاهم بذنوبهم، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝﴾ [الشورى: ٣٠].

وكانت أسماء ـ رضي الله عنها ـ تخشى شؤم الذنب ووبال المعصية، فكانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول: بذنبي وما يغفر الله أكثر.

* وبعد أن عدد ـ سبحانه ـ جملة من نعمه على عباده في البر، ساق نعماً أخرى في البحر، دلالة على وحدانيته واستحقاقه للعبادة، قال تعالى:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ۝﴾.

أي: ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم وعنايته بعباده، السفن الجارية السائرة في البحر، كأنها الجبال من عظمها وضخامتها، وهو الحافظ لها ـ سبحانه ـ في لجج البحار، وهو الذي سخرها لعباده، تحملهم وتحمل امتعتهم إلى بلاد بعيدة.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ﴾.

أي: لو شاء ـ تعالى ـ لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري، لأن من شروط مشيها وجود الريح.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكر في الرخاء، وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله ـ تعالى ـ في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها.

والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن، الصبر على الابتلاء، والشكر على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة في الضراء والسراء.

﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾.

أي: وإن يشأ يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها، بسبب ما اقترفوا من جرائم. ويتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم الله من الهلاك، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: المعاصي كلها إذا ظهرت ولم تنكر ضرت العامة، وهي من أسباب الخذلان، وتسليط الأعداء، وحصول الكثير من المصائب، كما أنها من أسباب قسوة القلب وانتكاسه، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

* قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وإذا غضبوا على أحد ممن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا، لأن

الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، وخص الغضب بالغفران، لأن استيلاءه على طبع الإنسان، وغلبته عليه شديدة، فلا يغفر عند سورة الغضب إلا من شرح الله صدره، وخصه بمزية الحلم، ومن مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخل بالمروءة ولا واجباً؛ كما إذا انتهكت حرمات الله، فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم، وقد جمع في اجتناب الإثم والفواحش مع الصفح والعفو لمن ظلمهم، جمع لهم بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أدوها بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها، ويتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة، وهذا من أسباب الاجتماع والألفة والتواد، والتحاب وكمال العقول.

قال الحسن ـ رحمه الله ـ: ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا، وأرشد أمرهم، ثم تلا: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

قال ابن العربي: الشورى أنفة للجماعة ومسبار للعقول وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم قط إلا هدوا.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: ينتقمون ممن بغى عليهم وظلمهم، لقوتهم وعزتهم ولا يستسلمون لظلم المعتدي، وهو وصف لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فإن كلاً في موضعه محمود.

وقد ذكر ـ سبحانه ـ هؤلاء المنتصرين في معرض المدح، كما ذكر الغفران عند الغضب في معرض المدح، لأن التذلل عن بغي ليس من صفات من جعل الله له العزة. والآيات الكريمة تحرص على صيانة النفس

من الحقد والغيظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي، وتعلقها بالله ورضاه في كل حال، وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفواً، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا عفول ذل وعجز ومهانة، وهذا هو الكمال الذي مدح ـ سبحانه ـ به نفسه في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩].

وما زاد الله بعفو إلا عزاً، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما إنتقم رسول الله ﷺ قط.

جاء في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أن ابنه صالحاً قال: سمعت أبي يقول: لقد جعلت الميت في حل من ضربه إياي، ثم قال: مررت بهذه الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فنظرت في تفسيرها، فإذا هو ما أخبرنا هاشم بن القاسم، أخبرنا المبارك بن فضالة قال: أخبرني من سمع الحسن يقول: إذا كان يوم القيامة جثت الأمم كلها بين يدي الله رب العالمين، ثم نودي أن لا يقوم إلا من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا. قال؛ أي ابن حنبل: فجعلت الميت في حل، ثم قال: وما على رجل أن لا يعذب الله بسببه أحداً؟!

* ثم ذكر ـ تعالى ـ، مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم، فقال:

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

أي: وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة، والاقتصار على المساواة، وهذه مرتبة العدل، ولما ذكر أنهم ينتصرون على من بغى عليهم، أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون

مقيداً بالمثل دون زيادة، وإنما سمى ذلك سيئة لأنها تسوء من تنزل به.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل، وشرط الله في العفو، الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم.

وهذه هي المنزلة الثانية: العفو والإصلاح عن المسيء، وقد أبهم ـ سبحانه ـ الأجر تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً على جلالته.

قال ابن كثير: شرع ـ تعالى ـ العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: **«وما زاد الله ـ تعالى ـ عبداً بعفو إلا عزاً»** [رواه مسلم].

كان الحسن يدعو ذات ليلة: اللهم اعف عمن ظلمني، فأكثر في ذلك؛ فقال له رجل: يا أبا سعيد، لقد سمعتك الليلة تدعو لمن ظلمك! حتى تمنيت أن أكون فيمن ظلمك، فما دعاك إلى ذلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هذه هي المرتبة الثالثة. أي: إنه ـ جل وعلا ـ يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام، ويقابلون الجاني بأكثر من جنايته، فالزيادة ظلم.

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار، الآية ضمن الأجر في العفو، وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ [الشورى: ٤١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾.

أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم، ثم رغب ـ سبحانه ـ في الصبر، والعفو، فقال:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝﴾.

ولمن صبر على ما يناله من الأذى، وغفر لمن ظلمه، وترك الانتصار لوجه الله ـ تعالى ـ، فإن ذل الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وحث وأكد عليها، اهتماماً به وترغيباً فيه، وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة لا يوفق إليها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

* ولما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدها، أخبر ـ سبحانه ـ عن سعة ملكه ـ تعالى ـ، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، وإنه يُقسِّم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما يشاء فيخص بعضاً بالإناث، وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويجعل البعض عقيماً، والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، ولهذا ذكرها ـ سبحانه ـ مظهراً قدرته ومنته، قال تعالى:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾.

أي: هـو ـ تعالى ـ المالك للكون كله، علوية وسفليه، والمتصرف فيه بالخلق والإيجاد، كيفما شاء، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك لله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السموات والأرض، يعطي ويمنع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾.

أي: يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين. ويخص من شاء بالذكور دون الإناث. قيل من يُمن المرأة تبكيرها بالأنثى قبل الذكر، لأن الله ـ تعالى ـ بدأ بالإناث.

قال ابن القيم: بدأ بذكر الإناث، فقدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات؛ حتى كانوا يئدونهن، أي: هـذا النوع المؤخر عندكم، مقدم عندي في الذكر و ـ سبحانه ـ الإناث، وعرف الذكور؛ فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر التأخير بالتعريف فإن التعريف تنويه.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

أي: ويجعلهم إن شاء من النوعين، فيجمع للإنسان بين البنين والبنات.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة، على مقتضى المشيئة، فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى، أو الصنفين جمعاً، ويُعقم آخرين.

قيل: هذا في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فلوط لم يولد له ولد وله ابنتان، وإبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يولد له أنثى ورزق الذكور، ومحمد له بنون وبنات، ويحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ لم يولد لهما، وهذا على وجه التمثيل، والآية عامة في حق كافة الناس.

والمراد من الآية: بيان نفاذ قدرته ـ تعالى ـ في الكائنات كيف يشاء، ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أي: مبالغ في العلم والقدرة، يفعل ما فيه مصلحة وحكمة، وقد جعل ـ تعالى ـ الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد، فسبحان العليم القدير.

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

استعملت الآية لفظ (البشر) بدلاً عن (الإنسان) للتأكيد على بشرية الأنبياء، والتبشير بالخير وحسن الهيئة.

* قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قال القرطبي: هو القرآن وسماه روحاً لأن فيه حياة من موت الجهل. وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

* قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

ذكر ـ سبحانه ـ صفة رسوله قبل أن يوحى إليه، فقال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: أي شيء هو لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك أدخل في الإعجاز وأدل على صحة ثبوته.

سورة الزخرف (٤٣)

سورة الزخرف سورة مكية، تناولت أسس العقيدة الإسلامية، وأصول الإيمان بالوحدانية، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء، كشأن سائر السور المكية.

وسميت سورة الزخرف، لما فيها من التمثيل الرائع ـ لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع ـ بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار، وينالها الأخيار والأشرار، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين، فالدنيا دار الفناء، والآخرة دار البقاء.

وعرضت السورة لإثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي، وتعرضت الآيات إلى جوانب في الدعوة إلى الله في بدايتها وما تلاقيه من مصاعب وعقبات، ومن جدال واعتراضات، وفي السورة تصحيح لانحرافات عقدية، ورد للنفوس إلى فطرتها، وإظهار قدرة الله ـ تعالى ـ ودلائل وحدانيته.

* قال تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

بين ـ سبحانه ـ شرف القرآن في الملاء الأعلى، ليشرفه ويعظمه أهل الأرض، أي: وإن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رفع حين رده الأوائل لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة.

* قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف: ١٢].

انتقل من الاستدلال والامتنان بخلق الأرض إلى الاستدلال والامتنان بخلق وسائل العيش فيها، وهو ماء المطر الذي تنبت الأرض ما يصلح لاقتيات الناس.

قال ابن عباس: أي لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدر، لا طوفان مغرق ولا قاصر عن الحاجة، حتى يكون معاشا لكم ولأنعامكم.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٢].

قدم الفلك على الأنعام لأن إظهار القدرة يتضح في الفلك أكثر، فالفلك تجري على الماء، والجريان على الماء أعظم إظهاراً لقدرة الله من مشي الأنعام على أرض مستقرة.

* لما ذكر الباري نعمته على العباد بتيسير الركوب للأنعام والفلك، قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤].

فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور، واتصالاً بأسباب من أسباب التلف، أمر ألا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة، فمنقلب إلى الله ـ عز وجل ـ غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه.

وقد ذكر في الآية أركان الشكر الثلاثة، وهي:

الاعتراف والتذكر لنعمة الله، والتحدث بها والثناء على الله بها، والاستعانة بها على عبادته.

* ثم بين أنه ـ سبحانه ـ هو الذي قسم بينهم ما يعيشون به من أمور الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٤].

أي: راجعون؛ وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير، ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب إلى الله ـ تعالى ـ، فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتي بما ينافيها، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع، وفيه إشارة إلى أن الركوب مخطرة فلا ينبغي أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة.

* قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة ـ وهو تافه حقير ـ لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة ـ وهو عظيم وخطير ـ لأهوائهم ومشتهياتهم.

وفي قوله ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ تزهيد في الإكباب على طلب الدنيا، وعون على التوكل على الله، ومن قسمة الله ـ عز وجل ـ أنك تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عيي اللسان؛ وهو موسع عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتر عليه في الرزق.

قال حاتم الأصم: رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت أصل ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فعلمت أن القسمة كانت من الله في الأزل، فما حسدت أحداً، ورضيت بقسمة الله.

* قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

أي: فاضلنا بين الخلق في الرزق والعيش، وجعلناهم مراتب: هذا غني، وهذا فقير، وهذا متوسط الحال. ليكون كل منهم مسخراً للآخر، ويخدم بعضهم بعضاً، لينتظم أمر الحياة، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

أي: وإنعامه ـ تعالى ـ عليك بالنبوة، خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني من الأموال والمتاع.

* قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

في الآيات درس جليل بأن الغنى ليس مقياساً لكرامة المرء عند ربه، فرب طاغوت يبعثر الذهب، ورب نبي لم يكن يجد الكفاف، ورب عاص يتمرغ في النعيم، ونقي لا يجد ما يسد رمقه، ومن هنا فقد جاءت خاتمة الآية مبينة له، وأن كل ذلك زخرف الحياة الدنيا وبهجتها: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها وما فعل ذلك! فكيف لو فعل؟!

وقد سيقت الآيات لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لولا الفتنة لخصُّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة. ولكنه ـ تعالى ـ رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم.

قال الزمخشري: فإن قلت لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليه التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكان الحكمة فيما دبِّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

* قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٨].

قال: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ ولم يقل: بيننا، لأنه أراد قمة البراءة، فيسعى حثيثاً للتخلص منه، ففصل حتى الألفاظ.

* قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: ٣٩].

لما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته، حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله ـ سبحانه ـ أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة.

* قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٠].

ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعَشا ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

وهو النظر الذي لا يتبين الشيء المنظور إليه، ثم وصفهم هنا بالصُّمِّ العُمي، إشارة إلى أن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال، وهو معنى قول النبي ﷺ: «**لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**».

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾.

الذكر هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك.

وهذا القرآن شرف لمن تبعه وسار على نهجه كما قال ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠].

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكل ما جاء في القرآن من الأسف على معناه الحقيقي، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] من التأسف؛ إلا في هذه الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أغضبونا.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٤].

وتقديم نفسه على قومه في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ لقصد سد ذرائع الغلو في تقديس عيسى وذلك من معجزاته، لأنه الله أعلم أنه ستغلو فيه فرق من اتباعه فيزعمون بنوته من الله على الحقيقة.

* قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

جمع - عز وجل - بهاتين اللفظين ما لو اجتمع الخلق كلهم على وصف ما فيها على التفصيل لم يخرجوا عنه.

* قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢].

قال ابن كثير: لما ذكر الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

* قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

قال المفسرون: إلا من شهد بـ لا إله إلا الله، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: معنى ما شهدوا به في قلوبهم وألسنتهم.

سورة الدخان (٤٤)

سورة الدخان سورة مكية، تتناول أهداف السور المكية من التوحيد، والرسالة، والبعث، لترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

سميت السورة بسورة الدخان، لأن الله ـ تعالى ـ جعل الدخان آية لتخويف الكفار، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، وبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

أشبه افتتاح هذه السورة فاتحة سورة الزخرف من التنويه بشأن القرآن العظيم وشرفه وشرف ابتداء نزوله، فقد تحدثت عن إنزال الله ـ تعالى ـ له في ليلة مباركة من أفضل ليالي العمر هي ليلة القدر، وبينت شرف تلك الليلة العظيمة التي تفصل وتدبر فيها أمور الخلق، والتي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

❁ قال تعالى:

﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾ [الدخان: ٣].

أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذا القرآن العظيم الذي أنزله الله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ﴾ [الدخان: ٣].

في كثرة خيراتها، مباركة في سعة فوائدها ومبراتها، ومن بركتها: أنها تفوق ليالي الدهر، وأن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

ووصف الليلة (بالبركة) لما نزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب.

عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم، وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد منهم ولا ينقص منهم.

وعنه أيضاً في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى.

* قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ [الدخان: ٤].

في قوله ﴿حَكِيمٍ ۝﴾ ليتبين للمؤمن أن أوامره محكمة متقنة، ليس فيها خلل ولا نقص ولا سفه ولا باطل، ذلك تقدير العزيز العليم.

* قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩].

قال سعيد بن جبير: لم تبك عليهم السماء؛ لأنهم لم يكونوا يرفع لهم فيها عمل صالح، ولم تبك عليهم الأرض؛ لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح.

وقال علي وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ـ يعني المؤمن ـ ومصعد عمله من السماء.

* قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝﴾ [الزخرف: ٥٣].

وصف نعيم نفوسهم بعضهم مع بعض في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله: ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝﴾ لأن الحديث مع الأصحاب والأحبة نعيم للنفس، فأغنى قوله ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ ۝﴾ عن ذكر اجتماعهم وتحابهم وحديث بعضهم مع بعض، وأن ذلك شأنهم أجمعين، بأن ذكر ما يستلزم ذلك وهو صيغة متقابلين.

والتقابل: يعني صفاء القلوب، ومحبة النظر إلى من يتحدث إليه، والإقبال عليه، والاستئناس برؤيته وحديثه.

* قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٥٨ ـ ٥٩].

وفي هذه الخاتمة رد العجز عن الصدر، إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين، وأنه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد ﷺ، وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى.

فكانت خاتمة السورة خاتمة عزيزة المنال، اشتملت على حسن براعة المقطع، وبديع الايجاز.

سورة الجاثية (٤٥)

سورة الجاثية سورة مكية، تناولت العقيدة الإسلامية في إطارها الواسع: الإيمان بالله ـ تعالى ـ ووحدانيته، والإيمان بالقرآن ونبوة محمد ـ عليه السلام ـ، والإيمان بالآخرة والبعث والجزاء، ويكاد يكون المحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين.

سميت سورة الجاثية، للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب، حيث تجثوا الخلائق من الفزع على الركب في انتظار الحساب، ويغشى الناس من الأهوال ما لا يخطر على البال.

تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن القرآن ومصدره، وهو الله العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه، الذي أنزل كتابه المجيد رحمة بعباده، ليكون نبراساً مضيئاً ينير للبشرية طريق السعادة والخير.

ثم ذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السموات البديعة آيات، وفي الأرض الفسيحة آيات، وفي خلق البشر وسائر الأنعام والمخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله، وقدرته ووحدانيته.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الجاثية: ٣ـ ٥].

قال الشنقيطي: ذكر ـ جل وعلا ـ في هذه الآيات الكريمة من أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده ـ تعالى ـ.

الأول منها: خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين إنما ينتفع بها المؤمنون المؤقنون الذين يعقلون عن الله حججه وآياته، فكانهم هم المختصون بها دون غيرهم.

ولذا قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ثم قال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

* قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل ـ إنما يراد به ذكر أحوال سابقة، لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق، لا في وقت نزول القرآن.

* قال ـ تعالى ـ في آيات السورة: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال بشير: بت عند الربيع بن خيثم ذات ليلة، فقام يصلي فمر بهذه الآية، فمكث ليلة حتى أصبح، لم يعدها، ببكاء شديد.

وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيراً ما رأيت الفضيل بن عياض يردد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟! فكانت هذه الآية تسمى: مبكاة العابدين.

* قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢)﴾ [الجاثية: ٢٢].

مناسبتها لما قبلها: أن خلق السماوات والأرض تبين كونه في تمام الإتقان والنظام بحيث إن دلائل إرادة العدل في تصاريفها قائمة، وما أودعه الخالق في المخلوقات من القوى مناسب لتحصيل ذلك النظام الذي فيه صلاحهم، فإذا استعملوها في الإفساد والإساءة كان من إتمام إقامة النظام أن يعاقبوا على تلك الإساءة، والمشاهد أن المسيء كثير ما عكف على إساءته حتى الممات، فلو لم يكن الجزاء بعد الموت حصل اختلال في نظام خلق المخلوقات وخلق القوى الصادر عنها الإحسان والإساءة.

* قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾ [الجاثية: ٢٣].

الغشاوة: هي غطاء العين، وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب، فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

قال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه.

* قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٦) وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣٧)﴾ [الجاثية: الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

قال السعدي: والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله والذل له، وهما ناشئتان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

الآيتان أجمل تعليق لما بدأت به السورة من الآيات والنعم، فالآيات تنطق بكبرياء الله وعزته وحكمته، والنعم تتطلب شكر هذا الرب المنعم.

سورة الأحقاف (٤٦)

سورة الأحقاف سورة مكية، أثنى الله ـ عز وجل ـ فيها على كتابه العزيز وأظهر وبين تعظيمه له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه، والعمل بإحكامه، والإلتزام بآدابه، وقد ورد في السورة ما يلقاه الرسل من عناد الكافرين وإعراضهم، وختمت بحث لرسول الله ﷺ أن يصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل.

* وقد افتتحت سورة الأحقاف مثل سورة الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه نزل من عند الله. ولما ذكر ـ تعالى ـ في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، فمن لطف الله ـ عز وجل وعنايته ساق آيات عظيمة وصى فيها الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان، براً بهما في حياتهما وبعد مماتهما، فقال سبحانه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾.

أي: أمرنا الإنسان أمراً جازماً مؤكداً بالإحسان إلى الوالدين والحنو عليهما، أي: أحسن إليهم إحساناً، والإحسان أعلى مراتب الإيمان، وكما قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة:: ٨٣] ثم بيّن السبب، فقال:

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾.

أي: حملته بكرهٍ ومشقة، لما تجده من تعب ووحم وغثيان، ووضعته بكره ومشقة من الطلق وشدته، وقاست بسبب ذلك آلاماً وتعباً.

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾.

أي: ومـــدة حمله ورضاعه عامان ونصـــف، فهي لا تزال تعاني التعب والمشـــقة طيلة هذه المدة، فقد قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم، وغثيـــان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنـــال الحوامل من التعب والمشـــقة، ووضعته بمشقة أيضاً من الطلق وشـــدّته، وفي ذكر المشاق التي تتحملهـــا الأم دون الأب، دليل علـــى أن حقها على ولدها أعظم من حق الأب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

أي: حتى إذا عاش هذا الطفل وبلغ كمال قوته وعقله، وشب وارتجل، واســـتمر في الشباب والقوة حتى بلغ أربعين سنة، وهو نهاية اكتمال العقل والرشد، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات.

وإنما حصل زمان بلوغه الأشد لأنه زمن يكثر فيه الكلف بالسعي للرزق إذ يكـــون له فيه زوجة وأبناء، وتكثـــر تكاليف المرأة فيكون لها زوج وبيت وأبناء، فيكونان مظنة أن تشـــغلهما التكاليف من تعهد والديهما والإحسان إليهما، فنبها بأن لا يفترا عن الإحسان إلى الوالدين.

وفي هذه السن للأبناء يكون والديهما حينها بلغا من العمر عتيا فهما إلى العون أحوج وإلى الإعانة أقرب، وإلى الإحسان أولى وأحرى.

واعتبر الرازي مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

المرتبة الأولى: سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: سن الوقوف وهو سن الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي الأخيرة، ســـن النقصان وهو على قسمين: النقصان الخفي، وهو سن الكهولة، والنقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة.

* قـــال تعالـــى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

أي: قال بلسان الشاكر العارف لنعمة ربه: رب وفقني وألهمني شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والدي حتى ربياني صغيراً.

وفي إدماج تلقين الدعاء بإصلاح ذريته مع أن سياق الكلام في الإحسان إلى الوالدين، إيماء إلى أن المرء يلقى من إحسان أبنائه إليه مثلما لقي أبواه من إحسانه إليهما، ولأن دعوة الأب لابنه مرجوة الإجابة.

﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

قال السعدي: والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها خصوصا نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾.

أي: ووفقني لكل عمل صالح يرضيك عني. واجعل ذريتي ونسلي صالحين. وهي رغبة قلب المؤمن أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه.

وقد سئل الله ثلاثة أمور:

الأول: أن يوفقه الله للشكر على النعمة.

والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله.

والثالث: أن يصلح له في ذريته، وقدم بين يدي دعائه التوبة الخالصة والإسلام، فقال:

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب والمعاصي، وإني من المستمسكين بالإسلام، وفي الآية إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ ويعزم عليها.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

أولئك الموصوفون بما ذُكر، نتقبل منهم طاعاتهم، ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها. وفي هذا إيماء إلى أن هذا الدعاء مرجو الإجابة، لأن الله تولى تلقينه مثل هذا الدعاء الذي في سورة الفاتحة ودعاء آخر سورة البقرة.

﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ونصفح عن خطيئاتهم وزلاتهم، في جملة أصحاب الجنة الذين نكرمهم بالعفو والغفران. بذلك الوعد الصادق الذي وعدناهم به على ألسنة الرسل، بأن نتقبل من محسنهم ونتجاوز عن مسيئهم.

عن مالك بن مغول قال: شكى أبو معشر أحد أبنائه إلى طلحة بن مطرف، فقال: استعن عليه بهذه الآية: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

* ولأهمية بر الوالدين وعظم حقها أوصى الله بالوالدين في سبع آيات:

الأولى: في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

الثانية: في سورة النساء: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

الثالثة: في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الرابعة: في سورة الإسراء: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

الخامسة: في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

السادسة: في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [لقمان: ١٤].

السابعة: في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

* قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فالمؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل إنه يترك بعض طيباته للآخرة، وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها في الدنيا.

أتي عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ وهو من العشرة المبشرين بالجنة، بطعام ـ وكان صائماً ـ، فقال: قُتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة؛ إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، وجعل يبكي حتى ترك الطعام. [رواه البخاري].

وذكر أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: لو شئت كنت أطيبكم طعاماً، وألينكم لباساً، ولكني استبقي طيباتي.

وليس في الآية ما يقتضي منع المسلم من تناول الطيبات في الدنيا، إذا توخى حلالها وعمل بواجبه الديني فيما عدا ذلك، وإن كان الزهد في الاعتناء بذلك أرفع درجة وهي درجة رسول الله، وخاصة أصحابه.

قال القرطبي: والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: على المرء أن يأكل ما وجد طيباً كان أو قفاراً (وهو الطعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة.

وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلاً ولا يجعله ديدنه.

* قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣١ - ٣٢].

قال ابن كثير: دعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجع في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً.

قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.

* قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ووقوعها (قصة الجن) إثر قصة هود وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى، لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة كما حكي عنهم في غير آية، والجن توصف بذلك أيضا كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩]، ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسب ما قبلها.

* قال - تعالى - مخاطباً نبيه محمداً ومسلياً له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

سورة محمد (٤٧)

سورة محمد من السور المدنية، وتسمى سورة القتال، لأنها تتناول أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، وغالب آياتها تتحدث عن موضوع الجهاد في سبيل الله.

ابتدأت السورة الكريمة بدءاً عجيباً، بإعلان حرب سافرة على الكفار أعداء الله، وأعداء رسوله، الذين حاربوا الإسلام، وكذبوا الرسول ﷺ، ووقفوا في وجه محمد ﷺ، ليصدوا الناس عن دين الله.

ثم بيّنت طريق العزّة والنصر، ووضعت الشروط لنصرة الله لعباده المؤمنين، وذلك بالتمسك بشريعته، ونصرة دينه.

لا يخفى وجه ارتباط أول سورة محمد بقوله في آخر الأحقاف: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥]، واتصاله وتلاحمه، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه، لكان متصلاً اتصالاً لا تنافر فيه كالآية الواحدة، أخذاً بعضه بعنق بعض.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ١].

قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها.

* قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد: ٦].

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً.

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم.

* قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وبدئ بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه، ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المعطم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يتلذذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتب.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝﴾ [محمد: ١٧].

بين حال المهتدين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ شكراً منه ـ تعالى ـ لهم على ذلك.

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع والعمل الصالح.

* قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فالتوحيد يذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه، فأبلغ الثناء قول: لا إله إلا الله. وأبلغ الدعاء قول: استغفر الله.

وفي الآية أمر بالعلم قبل الأمر بالعمل في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قال ابن عيينة لما سئل عن فضل العلم: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

قال السعدي: وإذا كان العبد مأموراً بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فمن لوازم ذلك أن يكون ناصحاً لهم، يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويحثهم على الخير وينهاهم عن الشر،

ويعفو عن معايبهم ومساوئهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعادة والنفاق، فإنه بالائتلاف تقل الذنوب، وبالافتراق تكثر الشرور والمعاصي.

* قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢].

هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب، ليكون أبلغ في التوبيخ، والمعنى: هل يتوقع منك إلا فساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم.

قال النبي ﷺ: «**ما من ذي رحم يأتي رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع، يتلمظ:** (تتبع بلسانه)، **فيطوق به**» [السلسلة الصحيحة].

* قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ [محمد: ٢٠].

ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدواً خفيّاً يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة في الوجه يراها أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس، ثم يقوى حتى يمسخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

قال عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وقد قال ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ﴾ [محمد: ٢٠] ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾.

وقال ابن تيمية: عند قوله ـ تعالى ـ عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ﴾ فهذا مقسم عليه، محقق لا شرط فيه، وذلك أن ظهور ما في

قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدوا خفيّاً يعلمه الله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٦].

قال قتادة: قد علم الله ـ تعالى ـ أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

* قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى ويردد: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾، وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

سورة الفتح (٤٨)

سورة الفتح سورة مدنية، سميت «سورة الفتح» لأن الله ـ عز وجل ـ بشر المؤمنين بالفتح المبين، وهو فتح مكة، وآيات السورة تُعنى بجانب التشريع شأن السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات، والعبادات، والأخلاق، والتوجيه.

وذكر ـ تعالى ـ في السورة الكريمة «صلح الحديبية» الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية للفتح الأعظم «فتح مكة»، وبه تم العز والنصر والتمكين للمؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقد نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية، ولما نزلت هذه السورة قال ـ صلوات الله عليه ـ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١]» [رواه أحمد].

وقد قرأها ﷺ يوم فتح مكة، كما روى ذلك عبد الله بن مغفل ـ رضي الله عنه ـ حيث قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرجِّع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجعت كما رجَّع» [رواه البخاري].

* تفتتح هذه السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝﴾ [الفتح: ١ ـ ٣].

يقول الزهري عن فتح مكة: فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة الآف.

* قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

قال ابن عاشور: فمن جنود السماوات؛ الملائكة الذين أنزلوا يوم بدر، والريح التي أرسلت على العدو يوم الأحزاب، والمطر الذي يوم بدر فثبت الله به أقدام المسلمين، ومن جنود الأرض جيوش المؤمنين وعديد القبائل الذين جاءوا مؤمنين مقاتلين مع النبي ﷺ يوم فتح مكة مثل بني سليم، ووفود القبائل الذين جاءوا مؤمنين طالعين دون قتال في سنة الوفود.

* قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ [الفتح: ١٤].

وقدمت المغفرة هنا بقوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ليتقرر معنى الإطماع في نفوسهم فيبتدروا إلى استدراك ما فاتهم.

وهذا تمهيد لوعدهم الآتي في قوله: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

* قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧].

ذكر ـ تعالى ـ الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمي والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه

ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

* ثـم يذكر الله في آيات عظيمة جهاد المؤمنين، و«بيعة الرضوان» التي بايع فيها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ رسـول الله ﷺ على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وكانت بيعة جليلة الشأن ولذلك باركها الله، ورضي عن أصحابها، وسجلها في كتابه العظيم في سطور من نور.

* قـال تعالـى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

اللام موطئة لقسم محذوف، أي: والله لقد رضي الله عن المؤمنين حين بايعوك ـ يا محمد ـ «بيعة الرضوان» تحت ظل الشجرة بالحديبية.

وسـبب هذه البيعة أن رسـول الله ﷺ لما بلغ الحديبية أرسل عثمان بن عفـان ـ رضي الله عنه ـ إلـى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء معتمراً، وأنه لا يريد حرباً، فلما ذهب عثمان حبسـوه عندهم، فجاء الخبر إلى رسـول الله ﷺ أن عثمـان قد قُتل، فدعا رسـول الله ﷺ الناس إلى البيعة على أن يدخلـوا مكة حرباً، وبايعوه علـى الموت، فكانت بيعة الرضوان، فلما بلغ المشـركين ذلك أخذهم الرعب، وأطلقـوا عثمان، وطلبوا الصلح من رسـول الله ﷺ على أن يأتي في العـام القابل، ويدخلها ويقيم فيها ثلاثة أيام، وكانت هذه البيعة تحت شـجرة سـمرة بالحديبية، وقد سميت «بيعة الرضوان».

ولما رجع المسـلمون يعلوهم الحزن والكآبة، أراد الله تسـليتهم وإذهاب الحزن عنهم، فأنزل هذه السورة على رسوله ﷺ بعد مرجعه من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١].

وكان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفاً وأربعمائة رجل، وفيهم نزلت الآيـة الكريمة ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ ولم يتخلف عن البيعة إلا «الجد بن قيس» من المنافقين، وحضر هذه البيعة

روح القدس جبريل الأمين، ولهذا سطرت في الكتاب المبين.

* قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ٢٠].

قال ابن عاشور: وفائدة وصف المغانم بجملة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ تحقيق حصول فائدة هذا الوعد لجميع أهل البيعة قبل أن يقع بالفعل، ففيه زيادة تحقيق لكون الفتح قريباً، وبشارة لهم بأنهم لا يهلك منهم أحد قبل رؤية هذا الفتح.

والآية دليل على أن الله ـ جل جلاله ـ قد يثيب المؤمن رزقاً في الدنيا على العمل الصالح، ولا يحط ذلك من درجة فضله، ويجعل ذلك من أطيب وجوه، ألا ترى أن الغنائم أطيب وجوه الكسب، وأمطر الله على نبيه أيوب حين عافاه من بلائه جراداً من ذهب لم تبتذله الأيدي.

* من بلاغة القرآن الكريم وإعجاز لفظه: أنه أتى بلفظ بكة كاسم من أسماء مكة المكرمة في سورة آل عمران، وأتى بلفظ مكة في سورة الفتح.

فكان لفظ بكة مناسباً لسياق الآيات التي جاء في سورة آل عمران، والتي تتحدث عن الحج، لأن لفظ بكة من ألبك. أي: الزحام.

ولفظ مكة الذي جاء في سورة الفتح مناسباً لسياق نصرة النبي وعودته لتلك البقاع التي طرد منها فجاء لفظها كما اشتهرت به (مكة).

* قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [محمد: ٢٥].

في الآية تفضيل للصحابة، وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملة عن جند سليمان ـ عليه السلام ـ في قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

* قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وإضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية، فإن ذلك انتساب ذم في اصطلاح القرآن كقوله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

* قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: ٢٩].

قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

في الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية.

قال الرازي: وصف الله الصحابة بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] ولم يقل: (يبتغون أجراً) ففيه اعتراف منهم بالتقصير، وطمع بالفضل الإلهي الذي لا منتهى ولا حد له، والذي هو أعظم من الأجرة التي يستحقونها على عملهم.

* تكرر ذكر اسم نبينا محمد ﷺ في أربعة مواضع من كتاب الله ـ تعالى ـ:

الأولى: في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الثانية: في سورة الأحزاب. في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الثالثة: في سورة محمد، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢].

الرابعة: في سورة الفتح، في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد جُمعت في هذا البيت:

وفي الفتح والأحزاب جاء محمد
محمد أيضاً ثم جاء بعمران

وما نودي ﷺ في القرآن باسمه العَلم، بل نودي بالنبوة تكريماً وتشريفاً له، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾ [المزمل: ١]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝﴾ [المدثر: ١]، بينما بقية الأنبياء ينادون بأسمائهم: يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، وذلك لعظم منزلته، وشرف مكانه، ورفيع درجته ﷺ.

* وآخريات سورة الفتح جمعت كل حروف اللغة العربية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝﴾.

سورة الحجرات (٤٩)

هذه السورة الكريمة سورة مدنية، وسميت «سورة الحجرات» لأن الله - تعالى - ذكر فيها حرمة بيوت النبي ﷺ، وهي الحجرات التي كان يسكنها أمهات المؤمنين - رضوان الله عليهن -، والسورة على وجازتها جليلة ضخمة، تتضمن حقائق التربية الخالدة وأسس المدنيَّة الفاضلة، وفيها الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب، حتى سمَّاها بعض المفسرين «سورة الأخلاق».

وفي السورة منهج التعامل مع الناس: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، ﴿فَأَصْلِحُواْ﴾، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، ﴿لَا يَسْخَرْ﴾، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ﴾، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾، ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، ﴿وَلَا يَغْتَب﴾، وكلها قواعد أساسية في صدق التعامل.

لما أثنى الله على أصحاب رسوله في خاتمة سورة الفتح جعل سورة الحجرات في تكميل إيمانهم وتأديبهم، فبدأ بالأدب مع الله، ثم مع رسوله، ثم مع المؤمنين، سواء من حضر منهم، ومن غاب، ومن تلبس بفسق.

* ابتدأت السورة الكريمة بالأدب الرفيع الذي أدَّب الله به المؤمنين، تجاه شريعة الله وأمر رسوله، وهو ألا يُبرموا أمراً، أو يُبدوا رأياً، أو يقضوا حكماً في حضرة الرسول ﷺ، حتى يستشيروه، ويستمسكوا بإرشاداته الحكيمة.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝﴾ [الحجرات: ١ - ٢].

قال القاضي أبو بكر العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حيّاً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر أن لا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به.

ذكر بعض المفسرين: أن هذا الأدب وعاه السلف حيث تجاوزوا به شخص رسول الله ﷺ إلى كل شيخ وعالم من العلماء، احتراماً لهم، حيث أنهم يحملون ميراث رسول الله ﷺ وهو سنته.

قال أبو عبيد: ما دققت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات: ٤].

قال السعدي: أدب العبد عنوان عقله، وأن الله مريد به خيراً.

* عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قبض رسول الله ﷺ أنكرنا أنفسنا، وكيف لا ننكر أنفسنا، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفي قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ وتقديمها ﴿فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ تتضمن تشريفاً، فقد اختصكم الله ـ عز وجل ـ بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

وإنما كان الفاسق معرضاً خبره للريبة والاختلاق، لأن الفاسق ضعيف الوازع الديني في نفسه، وضعف الوازع يجرئه على الاستخفاف بالمحظور، وبما يخبر به في شهادة أو خبر، يترتب عليهما إضرار بالغير أو بالصالح

العام، ويقوي جرأته على ذلك دوماً إذا لم يتب ويندم على ما صدر منه ويقلع عن مثله.

* قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧].

أي: لشقيتم، والعنت المشقة، وإنما قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل لو أطاعكم، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب يطيعوه هم، لا أن يطيعهم هو، وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خير وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ الآية.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.

قال محمد بن مناذر: كنت أمشي مع الخليل بن أحمد، فانقطع نعلي، فمشيت حافياً، فخلع نعليه وحملها يمشي معي، فقلت له: ماذا تصنع؟ فقال: أواسيك في الحفاء.

* قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة فيكون الجزاء عليها من جنسها.

* وفي قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩].

دل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

* حذّرت الآيات من السخرية والهمز واللمز، ونفّرت من الغيبة والتجسس، والظن السيء بالمؤمنين، ودعت إلى مكارم الأخلاق، والفضائل الاجتماعية، وحين حذرت من الغيبة، جاء النهي في تعبير رائع عجيب، في غاية الإبداع، في صورة رجل يجلس إلى جنب أخ له ميت ينهش منه ويأكل لحمه، ويا له من تنفير عجيب، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾.

أي: يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله وبرسوله، لا يهزأ جماعة بجماعة، ولا يسخر أحد من أحد، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأبره.

﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾.

ولا يسخر نساء من نساء، فعسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة، وأفراد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر.

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾.

أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ لأن المسلمين كأنهم نفس واحدة.

قال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جمة فتأمل عيّاباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب.

﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

بئس أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن صار مؤمناً، وفي الآية دلالة على أن التنابز فسقٌ، والجمع بينه وبين الإيمان مستقبح.

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: ومن لم يتب عن اللمز والتنابز، فأولئك هم الظالمون بتعريض أنفسهم للعذاب.

قال الزمخشري: ينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رأى رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لبيق في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله، والاستهانة بمن عظمه الله.

* ثم تتوالى الآيات الكريمات وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضمره. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ [الحجرات: ١٢].

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: إذا قال قائل: ما هي مناسبة الغيبة لمثل هذا المثل؟ قلنا: لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه، ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده فإن ذلك لا يسمى غيبة بل يسمى سبّاً وشتماً.

* ولما كان مقتضي الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، أمر ـ سبحانه ـ بما يبقي هذه العلائق، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: ابتعدوا عن التهمة والتخون، وإساءة الظن بالأهل والناس، وعبَّر بالكثير ليحتاط الإنسان في كل ظن ولا يسارع فيه، بل ويتأمل ويتحقق، وفي الحديث عنه ﷺ، أنه قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**» [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١٢].

قال العلماء: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك، وأن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواه، أن كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

أي: إن في بعض الظن إثم وذنب، يستحق صاحبه العقوبة عليه.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: لا تبحثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوا معايبهم، والتجسس قد يكون هو الحركة اللاحقة للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات. ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته بما يكرهه.

والغيبة الذكر بالعيب في ظهر الغيب، قال ﷺ: **«أتدرون ما الغيبة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذكرك أخاك بما يكره»**، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **«إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»** [رواه مسلم].

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: فكما تكرهون الغيبة طبعاً، فاكرهوها شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا، وقد شبَّه ـ تعالى ـ الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان ـ فضلاً عن كونه أخاً، وفضلاً عن كونه ميتاً، وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

أي: خافوا الله واحذروا عقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. فإنه - تعالى - كثير التوبة، عظيم الرحمة، لمن اتقى الله وتاب وأناب، وفيه حث على التوبة، وترغيب بالمسارعة إلى الندم، والاعتراف بالخطأ، لئلا يقنط الإنسان من رحمة الله.

* قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

لما كان قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ يدل على استواء الناس في الأصل؛ لأن أباهم واحد وأمهم واحدة، وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب تطاول بعض الناس على بعض، بين - تعالى - أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي يعرف بعضهم بعضا، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: ﴿ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل.

* وهكذا كتاب الله - عز وجل - يربي المسلم على الخلق الرفيع والأدب الجم، فمثلاً في:

الصوت: ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾ [لقمان: ١٩].

المشية: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨].

النظرة: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ ﴾ [الحجر: ٨٨].

والطعام: ﴿ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وهكذا آداب عامة وشمائل متوالية.

* وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ومنزلته؛ وذلك في الرد على الأعراب الذين قالوا: آمنا، وظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان، وجاؤوا يمنون على الرسول إيمانهم، فتبين الآيات حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام، وشروط المؤمن الكامل، وهو الذي جمع الإيمان والإخلاص، والجهاد والعمل الصالح. قال تعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: زعم الأعراب أنهم آمنوا، قل لهم ـ يا محمد ـ: إنكم لم تؤمنوا بعد، لأن الإيمان تصديق مع ثقة واطمئنان قلب، ولم يحصل لكم، وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة، ولكن قولوا استسلمنا خوف القتل والسبي.

والآية نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة مُجدبة، وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وفلان، يريدون الصدقة ويمنون على الرسول ﷺ، وقد دلت الآية على أن الإيمان مرتبة أعلى من الإسلام، الذي هو الاستسلام والانقياد بالظاهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

وفيها وجوب شهود منَّه الله على العبد أن وفقه لطاعته، وخطورة تسرب شيء من الشعور يمنه العبد على الله، وهذا محبط للعمل ومذهب للإيمان.

وقد يكون الشعور بالمنة على الله ـ نعوذ بالله من ذلك ـ إما بالقول أو بالعمل، وأخطره ما كان بالقلب لصعوبة الإحساس به ودقته وخفائه، فهو أخطر من الرياء.

وذكر ابن القيم: أن من شروط قبول العمل شهود المنة، أي منة الله على العبد، فلولا فضله ومنته ما كان هذا العمل، وشهود المنة يكون قبل العمل وأثناء العمل وبعده.

سورة ق (٥٠)

سـورة «ق» سـورة مكية جمعت من أصول الإيمان ما يكفي ويشـفي؛ حيـث تتركز على إثبات البعث والنشـور، حتى ليـكاد يكون هو الطابع الخاص للسـورة الكريمـة، وقد أوردته الآيات بالبرهـان الناصع، والحجة الدامغة. وهذه السـورة رهيبة، شديدة الوقع على الحس، تهز القلب هزّاً، وترج النفس رجّاً، وتثير فيها روعة الإعجاب، ورعشـة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب.

وقـد وردت عدة أحاديث تبـين مدى حرص النبـي ﷺ على قراءتها في المجامع العامة، كالجمع والأعياد لاشـتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشـور، والمعاد والقيام، والحسـاب، والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

عن أم هشـام بنت حارثة ابن النعمان ـ رضي الله عنها ـ قالت: «لقد كان تنورنا وتنور رسـول الله ﷺ واحداً سـنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝﴾ [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس». [رواه مسلم].

ومن سـورة (ق) إلى سـورة (الناس) يسمى المفصل، وهي سور القرآن القصيرة التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سمي مفصلاً لكثرة فواصله.

والمفصل ثلاثة أقسـام: طوال، وأوساط، وقصار. فطواله من الحجرات إلى سـورة البروج. وأوساطه من سورة الطارق إلى سورة البينة، وقصاره من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن.

* ابتدأت السـورة بالقضية الأساسية التي أنكرها كفار قريش، وتعجبوا منها غاية العجب، وهي قضية الحياة بعد الموت، والبعث بعد الفناء.

قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤﴾ [ق: ١ ـ ٤].

أي: قد علمنا بما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله.

وسماه الله حفيظاً، لأنه لا يدرس ما كتب فيه ولا يتغير ولا يتبدل. وفي الآية إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»، كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض، منه يركب الإنسان ويعاد خلقه.

* قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥].

قال ابن عثيمين: وفي هذه الآية أن مما يفتح الله به على العبد في معرفة الأحكام الشرعية أن يكون مصدقاً موقناً، فكلما كنت مصدقاً موقناً فاعلم أن الله سيفتح لك ما لا يفتحه لغيرك، وعليه: فالواجب على المرء أن يقبل الحق فور علمه به لئلا يقع في أمر مريج.

* قال تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾ [ق: ٨].

دعاهم إلى النظر في العالم العلوي ثم إلى السفلي، وأن ذلك تبصرة تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد.

فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

* قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: ٩].

الله ـ عز وجل ـ حكم وقضى وأخبر أن المطر الذي ينزل من السماء مطراً مباركاً ولهذا كان ﷺ يسارع إليه، يحسر ثوبه عن ذراعه حتى يصيبه المطر ويقول «**إنه حديث عهد بربي**».

* قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٠].

خص النخل بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، وأهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه وأنيق جماله.

وشبه بها المؤمن، كما قال ﷺ: «**إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة**»؛ ولهذا جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**لا يجوع أهل بيت عندهم التمر**».

قال ابن عاشور: وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى.

* قال تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝﴾ [ق: ١٠].

ذكر الله النخيل ومنافعها، وفي الآية إشارة إلى جمال هيئتها، فضلاً عن حلاوة ثمرتها، مما يزيد الناظر بهجة ومتعة.

* قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝﴾.

أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم، وهذه الأرض الميتة كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت، فكما أحيا الله الأرض الميتة كذلك يحيي الله الموتى.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ كفار مكة بما حل بمن سبقهم من المكذبين من الأمم السالفة، وما حلّ بهم من الكوارث وأنواع العذاب، إنذاراً لهم وإعذاراً فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾.

أي: كـذب قبل هؤلاء الكفار، قوم نوح. وأصحاب البئر وهم بقية من ثمود، رسـوا نبيهم فيها، أي: دسّوه فيها. ومن جملة من كذب قوم عاد وفرعون، وإخوان لوط، سمّاهم إخوانه لأنه صاهرهم، وتزوج منهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾.

أي: وأصحاب الشجر الكثير الملتف، وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ، نُسـبوا إلى الأيكـة، لأنهـم كانت تحيط بهـا البساتين والأشجار الكثيرة، الملتف بعضها على بعض. هو تُبع اليماني ملك كان باليمن، أسـلم ودعا قومه إلى الإسلام، فكذبوه.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: جميع هؤلاء المذكورين كذبوا رسولهم، وإنما جمع الرسل لأن من كذب رسـولاً فإنما كذب جميع الرسـل. فوجب عليهم وعيدي وعقابي، وحـل بهـم ما قدره الله عليهم من الخسـف، والمسـخ، والإهلاك بأنواع العذاب.

والآية تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفرة المجرمين، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصاب من كذب الرسل.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: أفعجزنا عن ابتداء الخلق حتى نعجز عن إعادتهم بعد الموت؟ وهو توبيخ لمنكري البعث، وجواب لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ ومراده أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسـهل منـه، فكيف يتوهم عجزنا عن البعث والإعادة؟ بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث والنشور.

وهذه الآية من براهين البعث؛ لأن من لم يعي بخلق الناس، ولم يعجز عن إيجادهم الأول، لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى؛ لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء.

* ثم نبه - تعالى - على سعة علمه، وكمال قدرته. وتحدثت الآيات عن سكرة الموت، ووهلة الحشر، وهول الحساب، وما يلقاه المجرم في ذلك اليوم العصيب من أهوال وشدائد، تنتهي به بإلقائه في الجحيم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: خلقنا جنس الإنسان ونعلم ما يجول في قلبه وخاطره، لا يخفى علينا شيء من خفاياه ونواياه.

والوسوسة الصوت الخفي، ووسوسة النفس ما يخطر ببال الإنسان ويحبس في ضميره من حديث النفس.

ونحن أقرب إليه من حبل وريده، وهو عرق كبير في العنق متصل بالقلب، والمراد ملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه.

قال ابن عاشور: وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله - تعالى - بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم.

ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان، فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد.

* قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: حين يتلقى الملكان الموكلان بالإنسان، ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات.

وفي الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه.

قال مجاهد: وكل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحواله ـ ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فإذا علم العبد ذلك ـ مع علمه بإحاطة الله تعالى بعلمه ـ زاد رغبة في الحسنات، وانتهاء عن السيئات.

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: ما يتلفظ كلمة من خير أو شر، إلا وعنده ملك يرقب قوله ويكتبه. حاضـــر معـــه أينما كان، مهيأ لكتابه ما أمر به، فـــإذا مات ابن آدم طويت صحيفته، وقيل له يوم القيامة: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٤].

* ثم قال ـ تعالى ـ يصف مشهداً عظيماً، وموقفاً عصيباً:

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾.

أي: وجاءت هذا الغافل المكذب بآيات الله، غمرة الموت وشـــدته، التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله، بالأمر الحق من أهوال الآخرة حتى يراها المنكر لها عياناً.

وإنما قال: جاء بالماضي لتحقق الأمر وقربه.

وقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ شدة الموت في أربع آيات:

الأولى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ [ق: ١٩].

الثانية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الثالثة: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣].

الرابعة: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القيامة: ٢٦].

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾.

ذلك ما كنت تفر منــه وتميل عنه وتهرب منه وتفزع، وفي الحديث عن عائشــة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات» [رواه البخاري]. ومن سكرة الموت، إلى وهلة الحشر، وهول الحساب.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝﴾.

أي: ونفــخ في القرن نفخة البعث الثانية، ذلك هو اليوم الذي وعد الله الكفار به بالعذاب، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝﴾.

أي: وجاء كل إنســان برّاً كان أو فاجراً، ومعه ملكان: أحدهما يسوقه إلى المحشر، والآخر يشهد عليه بعمله.

قال ابن عباس: الســائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم وهي الأيدي والأرجل.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝﴾.

أي: يقــال للمعرض المكذب يوم القيامة، هذا الــكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفــاً، لقد كنت مكذباً بهذا تاركاً للعمل له. فأزلنا عنك الحجاب الذي على قلبك، وســمعك وبصرك في الدنيا. فبصرك اليوم قويٌّ نافـذ، ترى بــه ما كان محجوباً عنك، لزوال الموانع بالكلية، ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

لما احتضر أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، تمثلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ ببيت مــن الشــعر، فكشــف أبو بكر عن وجهــه، وقال: ليس كذا ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝﴾ [ق: ١٩].

* وبعد هذا الترهيب الشديد يأتي الترغيب، يقول عز وجل:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝﴾.

أي: رجاع تائب مقلع يحفظ العهد ولا ينكثه.

وعندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ قد يتوهم أن هناك تعارضاً. والرد على هذا: أن هناك فرقاً بين الذين اتقوا، والمتقين.

فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا العقل، وهو التقوى، أما المتقون فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا، ولذا فقد اختلف الجزاء.

ثم ذكر ـ تعالى ـ من صفاتهم:

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

قال ـ تعالى ـ من خشي ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ لأن هؤلاء الصالحين إذا ذكروا رحمة الله خشوه لمعرفتهم بمغفرته وجوده وكرمه، فكيف إذا ذكروا جبروته وسطوته.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق: ٣٧] ولم يقل: (استمع) لأن إلقاء السمع، أي: يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع.

أي: تحصل الذكرى لمن له سمع، وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه.

وفي قوله ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴿٣٧﴾﴾ إشارة إلى مجرد الإصغاء لا يفيد ما لم يكن المصغي حاضراً بفطنته وذهنه.

وفي الآية ترتيب حسن؛ لأنه إن كان ذا قلب ذكي يستخرج المعاني بتدبره وفكره؛ فذاك وإلا فلا بد أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر؛ ليحصل له التذكير.

قــال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فإن من يؤتى الحكمة وينتفع بالعلم على منزلتين: إما رجل رأى الحق بنفسه فقبلـه فاتبعه ولم يحتج إلى من يدعوه إليه، فذلك صاحب القلب، أو رجل لم يعقله بنفسه بل هو محتاج إلى من يعلمه ويبينه له ويعظه ويؤدبه فهذا أصغى، فـ ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: حاضر القلب ليس بغائبه.

* قــال تعالــى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩].

أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠].

وهــي على هذا إشــارة إلى الصلوات الخمس، فقبل طلوع الشــمس: الصبح. وقبل الغروب: الظهر والعصر. ومن الليل: المغرب والعشاء.

قال الرازي: من الســنة قراءة سورة (ق) في صلاة العيد، ومناسبة ذلك قوله ـ تعالى ـ فيهــا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: ٤٢]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ١١]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤٤].

بعث وجمع وســوق يســير. فخروج المرء للعيد يوم الزينة ينبغي أن لا ينسيه خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم بطراً فخوراً، ولا يرتكب فسقاً ولا فجوراً.

* قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ﴾.

أي: اســتمع يا محمد صيحــة يوم القيامة، يوم ينــادى بها منادينا من موضع قريب.

التعبير بـ ﴿قَرِيبٍ﴾ للإشـــارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة ﴿قَرِيبٍ﴾ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من مكان بعيد.

سورة الذاريات (٥١)

سورة الذاريات سورة مكية، والسور المكية يرد فيها الحديث كثيراً عن العقيدة ووسائل تثبيتها في النفوس، ووجوب التفكر في عظيم صنع الله - عز وجل -، ومن ذلك ما ذكره - سبحانه - عن جملة من المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع، ومنها الرياح التي تذرو الغبار، وتسير المراكب في البحار، وعن السحب التي تحمل مياه الأمطار، وعن السفن الجارية على سطح الماء بقدرته - سبحانه -، وعن الملائكة الأطهار المكلفين بتدبير شؤون الخلق، وكل ذلك لبيان وتوكيد أن الحشر والمعاد كائن لا محالة وأنه آت.

تندرج هذه السورة تحت قسم المفصل، وهو من أول سورة (ق)، وقيل من أول الحجرات وينتهي بآخر سورة من القرآن الكريم.

لما ختمت السورة السابقة؛ سورة ق بذكر البعث، واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك من أحوال يوم القيامة، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك الصادق، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع.

ثم انتقلت الآيات الكريمة إلى ذكر إبراهيم - عليه السلام - وما جرى له مع ضيوفه، تسلية لقلب النبي ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء - عليهم السلام - كان مثله.

واختار - تعالى - إبراهيم لكونه شيخ المرسلين، وفيها إنذار لقومه بما جرى ومن إنزال الحجارة على المذنبين المضلين.

* ولما ذكر - سبحانه - حال الكفار، بدأ في ذكر حال المؤمنين الأبرار، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾.

أي: إن الذين اتقوا الله بطاعة أوامره، واجتناب نواهيه، في بساتين؛ فيها عيون جارية سارحة. راضين بما أعطاهم ربهم من النعيم والكرامة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: أن هذا الجزاء، كان لإحسانهم في الأعمال الصالحة، التي منها أنهم: كانوا ينامون قليلاً من الليل، ويصلون أكثره.

وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل، وأنه من أعظم الإحسان؛ لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل، فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان.

والتصريح بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ للتذكير بأنهم تركوا النوم في الوقت الذي من شأنه استدعاء النفوس للنوم، فيه زيادة في تصوير جلال قيامهم الليل وإلا فإن قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ يفيد أنه من الليل.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

وفي آخر الليل قبيل الفجر وبعد صلاتهم؛ يستغفرون الله من تقصيرهم، فهم مع عملهم يعدون أنفسهم مقصرين، ولذلك يكثرون من الاستغفار، وهذا مدح ثان لهم. وأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

والأسحار وقت إجابة الدعاء، وقال أكثر المفسرين في قول يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.

وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً، وأمره الله ـ سبحانه ـ أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

قال: هذه سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ويستقله، ويعتذر من التقصير.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

والغرض من الآية أنهم يكابدون العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس ولا يستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً.

قال الحسن: كابدوا قيام الليل فلا ينامون منه إلا قليلاً.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٨].

وخص هذا الوقت لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان فيه، فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب من صلاتهم واستغفارهم في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرر قيامهم في كل سحر.

❁ قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وفي الأرض دلائل واضحة، وعلامات وعبر ظاهرة وشاهدة على عظمة الله ـ عز وجل ـ وقدرته، مما فيها من النباتات والحيوانات، والجبال والبحار، والمهاد، والقفار، والأنهار، وغيرها كثير، تدلكم على وحدانية خالقكم، وأنه لا إله لكم يستحق العبادة سواه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد من الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء أثرت نداوة الطين فيه، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفقلت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق.

ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله ـ سبحانه ـ في الأم (الأرض).

* قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ (٢١)﴾ [الذاريات: ٢١].

قال الحسن: وفي الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد.

وقيل: المعنى في خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات البالغة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار وسائر الجوارح.

* قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات: ٢٣].

قال بعض الحكماء يعنى كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

* قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٤)﴾ [الذاريات: ٢٤].

فيه مشروعية الضيافة وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله هنا النبي وأمته أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

* ولما وصفهم ـ سبحانه ـ بالصلاة وكثرة الاستغفار، ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال:

﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ (١٩)﴾ مدح ثالث، أي: وفي أموالهم نصيب معلوم قد أوجبوه على أنفسهم بمقتضى الكرم للسائل المحتاج، وللمتعفف الذي لا يسأل الناس لتعففه.

* ثم خص أمراً آخر وهو التفكر. قال تعالى:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾.

أي: وفي خلق أنفسكم آيات وعبر في كل حركة وسكنة، وعرق ومفصل، ولغة ولون، وغيرها تدل على عظيم صنع الله.

قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنت مفاصلة للعبادة.

أفلا تنظرون بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق المتفرد بالألوهية، وأنه لا شريك له ولا ضد ولا ند.

* ثم تحدث ـ عز وجل ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع ضيوفه، فقال واصفاً إياه بالكرم:

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ [الذاريات: ٢٦].

الروغان هو الذهاب في الخفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف، فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاء بالطعام.

قال السعدي: في الآية ترغيب في أن يكون أهل الإنسان ـ ومن يتولى شؤون بيته ـ حازمين مستعدين لكل ما يراد منهم من الشؤون والقيام بمهمات البيت، فإن إبراهيم في الحال بادر إلى أهله، فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا إلى تقديمه.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧].

أدنى لهم العجل المشوي هو بنفسه، ولم يأمر من يقدمه لهم من خادم أو غيره، ولم يأمرهم أن يقوموا ويقربون إليه، وهذا كرم منه وتلطف مع ضيوفه، وهذا لا شك أبلغ في الإكرام.

* قال تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٣٠].

أي: إنه من رب حكيم في صنعه، عليم بمصالح خلقه.

وقدّم في هذه الآية ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك ـ والله أعلم ـ للتأمل في حكمة الله ـ عز وجل ـ في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

أي: قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك، ثم بشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه، والمبشر به هو إسحاق ـ عليه السلام ـ.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي: فلما سمعت ـ سارة ـ البشارة أتت وأقبلت نحوهم في صيحة وضجة، أرادت أن تستطلع الأمر. فلطمت وجهها على عادة النساء عند التعجب، وقالت لهم: أنا عجوز عقيم؛ فثم مانعان فكيف ألد؟!

وفي الآية حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام ما يتأدى به الحاجة، فإنها قالت: «عجوز عقيم»، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، ولم تذكر غيره.

* قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

دون أن يقول: فأخرجنا لوطاً وأهل بيته؛ قصداً للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي: أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم، لا لأجل أنهم أهل لوط.

عن قتادة قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قال: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

يؤخـذ منها عدم الاغترار بما عليه الكثير من الناس، فهـذا نبي الله لوط ـ عليه السلام ـ لم يؤمن من قومه إلا أهل بيته فقط ما عدا امرأته.

قـال عبد الله بن مسـعود ـ رضي الله عنه ـ: لا تغتـر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين.

* قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ [الذاريات: ٤١].

﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ وصفها بالعقم، لأنها لا بركة فيها من إنشـاء المطر أو إلقاح الشجر.

* قـال تعالـى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

المراد التذكر بجميع ما ذكر لأمر الحشر والنشر، لأن من قدر على إيجاد ذلك فهو قادر على إعادة الأموات يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات: ٥٠].

سـمى الله الرجوع إليه فـراراً؛ لأن في الرجوع لغيـره أنواع المخاوف والمـكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب، والأمن والسـرور، والسـعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره.

* قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥].

والنفع الحاصل من الذكرى هو رسوخ العلم، بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد فيما لم يسمعوه أو غفلوا عنه.

آية غليظة على من لا ينتفع بالموعظة، لما يخشى عليه من النفاق إذا زالت عنه منافع المواعظ.

* قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتقديم الجن في الذكر، للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله ـ تعالى ـ.

سورة الطور (٥٢)

سورة الطور سورة مكية، وسميت بالطور لأن الله ـ تعالى ـ بدأ السورة الكريمة بالقسم بجبل الطور الذي كلم الله ـ تعالى ـ عليه موسى ـ عليه السلام ـ، وقد أقسم ـ سبحانه ـ بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له.

في الحديث عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: «قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝﴾ فلما قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾ فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝﴾ كاد قلبي أن يطير» [رواه البخاري].

قال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه الله ـ: إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية؛ لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطف طبعه، واستشف معناها بذكي فهمه.

❋ قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝﴾ [الطور: ٧].

قال ابن عثيمين: هذا هو جواب القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسماً بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرات، والثاني: بإن، والثالث: باللام، يعني لا بد أن يقع عذاب الله الذي وعد به، هذه والله جملة عظيمة مؤثرة، لكنها لا تؤثر إلا على قلب لين كلين الزبد أو أشد، أما القلب القاسي فلا يهتم بها، تمر عليه وكأنه حجارة. وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا قرأ هذه الآية يمرض حتى يعاد.

* قال تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝﴾ [الطور: ٤].

عـن أنس بن مالك بـن صعصعة رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ «رفـع إلي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل ما هـذا؟ قال البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

* ثـم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝﴾ [الطور: ١١ - ١٣].

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مسـتلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعـون إليها دعاً، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفـع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝﴾ [الطور: ١٤].

* ثـم قـال - تعالى - عن أهل الجنـة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

قال السـعدي: ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها وحسـن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم بحسـن معاشرتهم، ولطف كلامهم بعضهم لبعض.

* قال تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

قـال الرازي: دلت هذه الآية على أن شـفقة الأبـوة كما هي في الدنيا متوفـرة كذلك في الآخرة، ولهذا طيب الله - تعالى - قلوب عباده بأنه لا يولههم بأولادهم بل يجمع بينهم.

* قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝﴾ [الطور: ٢٢].

قدم الفاكهـة على اللحم كما في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝﴾ [الواقعـة: ٢٠ - ٢١]، ممـا يـدل على أن الفاكهة

تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك هو الأنفع للجسم، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس.

* قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٦ ـ ٢٧].

قال بعض السلف: لأن تصحب أناساً يخوفونك حتى تدرك الأمن، خير من أن تصحب أناساً يؤمنونك حتى تدرك المخاوف.

* وقد فتح المولى أبواب الرحمة للتائبين والعابدين، وبسط فضله وإحسانه للداعين والمتضرعين، فالدعاء من أرجى الأعمال عند الله، ولهذا لما تبوأ أهل الجنة منازلهم في جنات النعيم، قالوا مبينين السبب الذي وقاهم عذاب السموم، وأوصلهم إلى هذا الخير العميم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

وهو الخالق؛ أوجد الكون وأبدعه، فأبهر من تأمله، خلاق أتقن ما خلق، فتبارك الله أحسن الخالقين.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٤٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

نعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وفي الأثر الإلهي: كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله ـ تعالى ـ: يا عبدي كم أعافيك وأنت لا تدري؟

* تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨].

قال ابن عطية: هذه الآية ينبغي أن يقررها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضايق الدنيا.

سورة النجم (٥٣)

سورة النجم سورة مكية، محور آياتها في تأصيل العقيدة والإيمان بالبعث والنشور، وذكر الله ـ عز وجل ـ فيها المعجزة العظيمة للنبي ﷺ، معجزة الإسراء والمعراج.

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف».

* قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝﴾.

أقسم الله ـ عز وجل ـ بالنجم ووقت سقوطه من علو، والخالق ـ سبحانه ـ يُقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا يجوز له أن يُقسم إلا بالخالق.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾.

جواب القسم، أي: ما ضل ـ محمد ـ عن طريق الهداية، ولا حاد عن طريق الاستقامة.

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه فيه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

﴿وَمَا غَوَىٰ ۝﴾.

أي: وما اعتقد باطلاً قط، بل هو في غاية الهدى والرشد، والخطاب لقريش.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝﴾ [النجم: ٢].

قال ابن عطية: الضلال يكون من غير قصد من الإنسان إليه، والغي كأنه شيء يكتسبه الإنسان ويريده، فنفى الله ـ تعالى ـ عن نبيه ﷺ هذين

الحالين، فلا هو ضل عن جهل، ولا غوى عن قصد.

قال ابن تيمية: فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل، ولا غاو وهو الظالم، فإن صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو، ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملاً، ومن أولي الأبصار علماً.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝﴾.

أي: وما يتكلم ﷺ عن هوى نفسي، ورأي شخصي.

ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي ولا الضلال.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾.

أي: لا يتكلم إلا عن وحي من الله - عز وجل -.

وقوله: ﴿يُوحَىٰ ۝﴾ صفة الوحي تفيد الاستمرار التجددي.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٧].

قال الشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله -: من كمال أدب النبي ﷺ وحياؤه أنه لا يصرف بصره فيما لا يعنيه. جرت العادة أن الإنسان إذا دخل منزلاً غريباً، تجده ينظر يميناً وشمالاً في هذا المنزل، وخصوصاً إذا تغير تغيراً عظيماً، في هذه اللحظة لا بد أن ينظر ما الذي حدث، لكن لكمال أدب النبي ﷺ ورباطة جأشه، وتحمله ما لا يتحمله بشر سواه، صار في هذا الأدب العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤].

* قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝﴾ [النجم: ٢٣].

قال شـــيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: كل من خالف الرسول ﷺ، فلا بد أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس.

* قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ٢٥].

بدأ بالآخرة، لأن ملك الله في الآخرة يظهر أكثر مما في الدنيا، فالدنيا فيها ملوك، وفيها رؤساء، وفيها زعماء، يرى العامة أن لهم تدبيراً، لكن الآخرة لا يوجد فيها هذا ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

* قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

النهي في الآية عن تزكية النفس، وعن تزكية الغير، لما يترتب على تزكية النفس من بطلان العمل وحبوطه؛ لأن معنى العبادة بل لبها هو الخضوع والذل والافتقار إلى الله، والمزكي لنفسه بمقام المعجب بعمله المدل على الله فيه.

أما تزكية الآخرين فقد نهى الله عنها لما قد يتسبب عنها من اغترار المزكى بعمله، فيكون ذلك ســـبباً لهلاكه، ويسهل الأمر إذا كان من باب تشجيعه على الخير، فقد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن.

- طلب بعض الولاة رجلاً، فأفلت منه، فأخذ أخاه، وقال له: إن جئت بأخيـــك وإلا ضربت عنقك، قال الرجل: أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين، تخلي ســـبيلي؟ قال الوالي: نعم، قال الرجل: فإنا أتيك بكتاب من العزيز الرحيم، وأقيم عليه شـــاهدين: موســـى وإبراهيم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٨] قال الوالي: خلو سبيله، هذا رجل لقن حجته.

* قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٢].

وإنما قدم في الآية ذكر عاد وثمود على ذكر قوم نوح مع أن هؤلاء أسبق لأن عاداً وثموداً أشـــهر في العرب، وأكثـــر ذكراً بينهم، وديارهم في بلاد العرب.

* قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝﴾ [النجم: ٥٢].

ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

قال الطبري: لأن قوماً لم يتاثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم.

* قال تعالى: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ۝﴾ [النجم: ٦٢].

قال في تيسير الكريم الرحمن: الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله، والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

سورة القمر ٥٤

سورة القمر، سورة مكية، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن العظيم، ويرد فيها التهديد والوعيد، والإعذار والإنذار مع صور شتى من مشاهد العذاب والدمار.

في الحديث عن عمر - رضي الله عنه - أنه سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾» [رواه ابو داود].

وسبب نزولها: إن كفار مكة قالوا للرسول ﷺ: إن كنت صادقاً فشقَّ لنا القمر فرقتين، ووعدوه بالإيمان إن فعل، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه أن يعطيه ما طلبوا، فانشقَّ القمر نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان المقابل له، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: سحرنا محمد، ثم قالوا: إن كان سحرنا، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم! فقال أبو جهل: اصبروا حتى تأتينا أهل البوادي، فإن أخبروا بانشقاقه فهو صحيح، وإلا فقد سحر محمد أعيننا، فجاؤوا فأخبروا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل والمشركون: هذا سحرٌ مستمر، أي دائم، فأنزل الله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝﴾ [القمر:١].

* قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر: ٢].

ذكر الله - عز وجل - أنهم اليوم معرضين عن الداعي: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝﴾ [القمر: ٢].

وغداً تراهم: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

واليوم تراهم يكذبون: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝﴾ [القمر: ٣].

وغداً يصدقون، حين لا ينفعهم تصديقهم: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾ [القمر: ٨].

* ثم قال ـ تعالى ـ عن بعثهم:

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝﴾ [القمر: ١٧].

قال الشيخ ابن عثيمين: هذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يميناً ويساراً، لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الإجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجه يعرفون طريقهم؛ وإن كان طريقاً فاسداً.

الخشوع في البصر: الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان.

* قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢].

ولم يقل: (وفجرنا عيون الأرض)، فكأن الأرض كلها كانت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠].

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾ [القمر: ١٧].

وكررها مرة أخرى بقوله ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝﴾ [القمر: ٤٠] علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه.

قال بعض السلف: فهل من طالب علم فيعان عليه.

وقد يراد أيضاً أن الله ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله الانتفاع به، والعمل بمقتضاه، فيكون سبباً لهدايته ولدخول الجنة بذلك.

وقد ييسر لطالب العلم علوماً أخر ينتفع بها، وتكون موصلة إلى الجنة كما قيل: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

وكما قيل: ثواب الحسنة الحسنة بعدها. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧] وقد يدخل في ذلك أيضاً تسهيل طريق الجنة الحسي - يوم القيامة، وهو الصراط، وما قبله وما بعده من الأهوال، فييسر ذلك على طالب العلم للانتفاع به، فإن العلم يدل على الله من أقرب الطرق إليه، فمن سلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلى الله، وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها فسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا والآخرة.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢].

أي: يسرناه للحفظ، وهذا معلوم بالمشاهدة فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظاً بالغاً بخلاف غيره من الكتب.

وقيل: معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة.

وقد روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن.

* وبعد أن أخبر - سبحانه - عن قوم عاد التي في جنوب جزيرة العرب، ذكر - سبحانه - قبيلة ثمود التي في الشمال والتي خلفت عاد في القوة والتمكين، فأخبر - تعالى - عن قوم ثمود المكذبين لرسولهم صالح - عليه السلام -، فقال:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

كذبت ثمود بالإنذارات والمواعظ التي أنذرهم بها نبيهم صالح.

* قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فنادت قبيلة ثمود أشقى القوم، واسمه - قدار بن سالف - لقتل الناقة، فتناول الناقة بسيفه فقتلها غير مكترث بالأمر العظيم. فكيف كان

عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعاً شديداً لمن عصى رسلي؟! ثم ذكر ـ عز وجل ـ هذا العقاب فقال:

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ .

أي: أهلكناهم بصيحة واحدة، صاح بها جبريل ـ عليه السلام ـ فلم تبق منهم عين تطرف فبادوا عن آخرهم. فصاروا هشيماً متفتتاً كيابس الشجر إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام.

والمحتضر: هو الذي يجعل لغنمه حظيرة من يابس الشجر والشوك يحفظهن فيها من الذئاب والسباع، وما سقط من ذلك فداسته فهو الهشيم.

* ثم ساق ـ سبحانه ـ في مواعظ متلاحقة قصص الأنبياء مع أقوامهم، وذكر في الآيات قوم لوط حين كذبوا رسولهم ـ لوط ـ عليه السلام ـ، وما جرى لهم بعد ذلك من العذاب الأليم، قال تعالى:

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۝ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ۝ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ۝ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ۝ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ۝ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ .

* وبعد قوم لوط ـ عليه السلام ـ ذكر ـ سبحانه ـ فرعون وقومه، وما جرى لهم، فقال:

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ۝ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ۝ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ .

* ثـم بعد ذكر الأمم الغابرة، وما نالهـا ونزل بها من العذاب والنكال بتكذيبهم الرسل، ذكر ـ سبحانه ـ حال المجرمين في النار، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

يـوم يُجرُّون في النار على وجوههم عقابـاً وإذلالاً لهم، والوجوه هي أشرف الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون. ويقال لهم: قاسوا أيها المكذبون حر جهنم، وشدة عذابها. وسقر علمٌ لجهنم.

قال الطبري: فإن قال: قائل كيف يذاق مس سـقر أوله طعم فيذاق فإن ذلـك مختلف فيه، فقال بعضهم قيـل ذلك كذلك على مجاز الكلام كما يقال: كيف وجدت طعم الضرب وهو مجاز؟ وقال آخر: ذلك كما يقال: وجـدت مس الحمى؛ يـراد به أول ما نالني منهـا، وكذلك وجدت طعم عفوك.

* قال تعالـى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: إنا خلقنا كل شيء مقدَّراً مكتوباً في اللوح المحفوظ من الأزل. وما شـأننا في الخلق والإيجاد إلا مرة واحدة كلمح البصر في السـرعة، نقول للشيء: كن فيكون.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: ووالله لقـد أهلكنا أشـباهكم ونظراءكم فـي الكفر والضلال من الأمم السالفة الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم. فهل من يتذكر ويتعظ؟ ويعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ حال المتقين في الجنات، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝﴾.

أي: المتقين لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم. وأنهار يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾.

قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾.

أي: في مكان مرضي، ومقام حسن، في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه، عند رب عظيم جليل، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

قوله: ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝﴾.

لأن القربة من الملوك لذيذة، كلما كان الملك أشد اقتدراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك؛ فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوة فيغلونه، والله ـ تعالى ـ قال: ﴿مُّقْتَدِرٍ ۝﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله.

سورة الرحمن (٥٥)

* سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة، ولهذا ورد في الحديث الشريف: **«لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»** [رواه البيهقي].

وهذه السورة الكريمة الجليلة افتتحت باسم الرحمن الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله. وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لا يتقدمه شيء ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ابتدأت السورة بتعديد آلاء الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يحصيها عد، وفي مقدمتها نعمة تعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان.

ثم فتحت السورة صحائف الوجود، الناطقة بآلاء الله الجليلة، وآثاره العظيمة التي لا تحصى: الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصنعة، والأرض التي بث فيها من أنواع الفواكه، والزروع، والثمار، رزقاً للبشر.

ثم بعد ذلك الاستعراض السريع لصفحة الكون المنظور، تُطوى صفحات الوجود، وتتلاشي الخلائق بأسرها، فيلفها شبح الموت الرهيب، ويطويها الفناء، ولا يبقى إلا الحي القيوم متفرداً بالبقاء.

* قدم الله ـ عز وجل ـ في أول السورة أعظم النعم وأتمها وأكملها، وهي نعمة الدين، وقدم من نعمة الدين أعلى مراتبها، وأقصى مراتبها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه وتيسيره. قال تعالى:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝﴾.

أي: الله الرحمن علّم القرآن، ويسّره للحفظ والفهم. وقد عدَّد ـ سبحانه ـ بعض نعمه على عباده، فقدم أعظمها نعمة، وأعلاها رتبة، وهو القرآن العزيز؛ لأنه أعظم وحي الله إلى أنبيائه، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه، وأكثره ذكراً، وأحسنه في أبواب الدين أثراً، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية ﷺ.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝﴾ [الرحمن: ١].

وأوثر استحضار الجلالة اسم (الرحمن) دون غيره من الأسماء.

ولأن معظم هذه السورة تعداد للنعم والآلاء فافتتاحها باسم (الرحمن) براعة استهلال.

﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٢].

ولما كانت هذه السورة لتعداد نعمه التي أنعم بها على عباده، قدم النعمة التي هي أجلها قدراً وأكثرها نفعاً وأتمها فائدة وأعظمها عائدة، وهي نعمة تعليم القرآن، فإنها مدار سعادة الدارين، وقطب رحي الخيرين، وعماد الأمرين.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝﴾.

أي: خلق الإنسان السميع البصير الناطق في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، وأبان أنه إنما خلقه لطاعته وعبادته.

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝﴾.

هذه ثالثة النعم التي امتن الله ـ عز وجل ـ بها؛ أي: ألهمه النطق الذي يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان.

والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان، حثّاً على شكره، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ لأنه أصل النعم الدينية فقدم الأهم.

قال ابن القيم: تأمل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئاً عن صفة الرحمة، متعلقاً باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٨]، فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذا مجيء البركة منه وضعت البركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة.

* قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن: ٧].

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إن الله إنما ضرب لكم الأمثال، وصرف لكم القول لتحيا القلوب، فإن القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله، ومن علم شيئاً فلينفع به، إن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باباً، ويسر ـ لكل باب مفتاحاً، فباب العدل والاعتبار ذكر الموت والاستعداد بتقديم الأموال.

وقال ابن حزم : أفضل نعم الله ـ تعالى ـ على المرء أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل بالنخلة، حيث لا يسقط ورقها، ولا ينقطع نفعها، فكل ما فيها نافع ومفيد، فضلاً عن ثمرها الطيب.

* ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم ـ تعالى ـ بنعمه، فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

أي: فبأي نعم الله يا معشر الإنس والجن تكذبان؟ أليست نعم الله عليكم كثيرة لا تحصى؟

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا، فقال: «**ما لي أسمع الجن أحسن جواباً لربها منكم؟ ما أتيت على قول الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**» [رواه أحمد].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

تكرار هذه الآية الكريمة التي تعدُّ تذييلاً لما سبقها من نعم، نظراً لتعدد هذه النعم وتنوعها، وكرَّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصِّل بين كل نعمتين بما نبههم عليها، كقول الرجل لمن أحس إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكرها ويكفرها: ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً، فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملاً، فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حسن تقريراً.

قال ابن قتيبة: إن الله عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع كل خلة وصفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها.

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأكيد للحجة.

ومن لطائف هذا التكرار: ما ذكره النسفي في تفسيره، حيث قال: وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله، وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم. ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ دلائل قدرته ووحدانيته، وآثار نعمه على عباده، حيث أراهم آثار قدرته وبديع صنعته، فإنه ـ سبحانه ـ لما ذكر خلق العالم

الكبير، وهو السماء والأرض وما فيها، ذكر خلق العالم الصغير، الإنسان ـ وهو ـ سبحانه ـ بعد الامتنان عليهم بآلائه في الكون يمتن عليهم بآلائه في ذوات أنفسهم، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما، فقال:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: خلق أباكم آدم من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة، أي: صوت إذا نقر.

قال المفسرون: ذكر ـ تعالى ـ في هذه السورة أن خلق آدم: ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ وفي سورة الحجر [٢٦] ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي من طين أسود متغير، وفي الصافات: ١١ ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾ أي: يلتصق باليد، وفي آل عمران: ٥٩ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾.

ولا تنافي بينهما؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ أخذه من تراب الأرض، فعجنه بالماء فصار طيناً لازباً، أي: متلاصقاً يلصق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً؛ أي طيناً أسود منتناً، ثم صوره كما تصور الأواني، ثم أيبسه حتى صار في غاية الصلابة كالفخار إذا نقر صوت، فالمذكور ههنا آخر الأطوار.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

وخلق الجن من مارج، أي: من لهب خالص، لا دخان فيه من النار، وفي الحديث: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»** [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: أرسل البحر المالح والنهر العذب يتجاوران ويلتقيان ولا يمتزجان، بينهما حاجزٌ من قدرة الله ـ تعالى ـ لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة.

والمـراد بالبحرين: الملح والحلو، فالملح هذه البحار، والحلو هذه الأنهار السـارحة بين النـاس، وجعل ـ تعالى ـ بينهما برزخـاً، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر.

* وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السـفن الكبيرة تمخر عباب البحار، وكأنها الجبال الشـاهقة علوّاً وارتفاعاً وسعة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء، فقال سبحانه:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

وله ـ جل وعلا ـ السـفن المرفوعـات الجاريات في البحر، كالجبال في العِظَم والضخامة.

والعلم الجبل الطويل، فالسفن في البحر كالجبال في البر.

ووجه الامتنان بها أن الله ـ تعالى ـ سير هذه السفن الضخمة التي تشبه الجبال على وجه الماء، وهو جسـم لطيف مائع، يحمل فوقه هذه السـفن الكبار المحملة بالناس والأرزاق، والمكاسـب والمتاجر، من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم.

* وبعد تعداد هذه النعم وذكر هذه المنن العظيمة، تأتي النهاية لكل شيء في الوجود، ويتجلى وجه الكـريم الباقي، متفرداً بالبقاء، متفرداً بالجلال والدوام، قال تعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

قال الشـعبي ـ رحمـه الله ـ: إذا قـرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقال بعض السـلف: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أن تصلها بقوله ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ حتى يتبين نقص المخلوق وكمال الخالق.

* قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١].

قال ابن كثير: أي: بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقه العيون، قلت ـ أي ابن كثير ـ: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء.

* ثم ذكر ـ تعالى ـ حال أهل الجنة، فقال:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۢ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤)﴾ [الرحمن: ٥٤].

قال السعدي: وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله ـ عز وجل ـ، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخر، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟

* قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)﴾.

أي: وللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب، جنتان: جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر، وإنما كانت اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة.

* ثم وصف ـ تعالى ـ الجنتين، فقال:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩)﴾.

أي: ذواتا أغصان متفرعة وثمار متنوعة.

وخص الأفنان ـ وهي الغصون ـ بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، ومنها تمتد الظلال وتجنى الثمار.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)﴾.

أي: في كل واحدة من الجنتين عين جارية، تجري بالماء الزلال، فماؤهما غزير وسهل يسير.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾ .

هذه صفة ثالثة للجنتين، أي: فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: معروف، وغريب لم يعرفوه في الدنيا.

قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل، إلا أنه حلو، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء.

* ثم بعد ذكر الأمم الغابرة، وما نالها ونزل بها من العذاب والنكال بتكذيبهم الرسل، ذكر ـ سبحانه ـ حال المجرمين في النار، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ ﴾ .

* ثم ذكر حال المتقين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ ﴾ .

أي: المتقين لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم. وأنهار؛ يعني أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن.

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝ ﴾ .

أي: في مكان مرضي، ومقام حسن، في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه، عند رب عظيم جليل، قادر في ملكه وسلطانه، لا يعجزه شيء، وهو الله رب العالمين.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض ما ينالهم من النعيم وتمام الأنس، فقال تعالى:

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ .

أي: مضطجعين في جنان الخلد على فرش وثيرة، بطائنها من ديباج ـ وهو الحرير السميك ـ المزين بالذهب، وهذا يدل على نهاية شرفها لأن البطانة إذا كانت بهذا الوصف فما بالك بالظهارة؟

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ .

الجنى هو الثمر المستوي، أي: ثمرها قريب يناله القاعد، والقائم، والنائم، لا يتعب في قطافه، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكد وتعب.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ .

أي: في تلك الجنان نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم.

قال الحسن: قاصرات الطرف على أزواجهن لا يردن غيرهم، والله ما هن متبرجات ولا متطلعات. وفيه دلالة على عظم خُلق الحياء وأنه ممتد للآخرة.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ .

أي: لم يمسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار عذارى، متحببات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال.

* قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ .

هذه صفة للقاصرات، أي: يشبهن الياقوت والمرجان في صفائهن وحمرتهن، وجمال منظرهن وبهائهن، فهن ناضرات لامعات.

قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان، إن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن، ذلك بأن الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾، ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر.

* قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾ .

أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحسن إليه في الآخرة. والغرض أن من قدم المعروف والإحسان، استحق الإنعام والإكرام.

* قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

الاتكاء مظهر من مظاهر النعيم والرفاهية، والرفرف هو السرير الذي يجلس على المؤمن ويبتهج بمناظر الجنة.

قال القرطبي: وقيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به، وأهوى به، كالمرجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذذ به مع أنيسه.

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وهي: البسط والنمارق والوسائد المنسوجة من الحرير بأبدع النفوس والألوان.

سورة الواقعة (٥٦)

سور الواقعة سورة تشتمل على أحوال يوم القيامة وذكر أهوالها وشدائدها، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال، وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون.

وذكرت السورة عن مآل كل فريق، وما أعده الله ـ تعالى ـ لهم من الجزاء العادل يوم الدين، كما أقامت الدلائل على وجود الله ووحدانيته، وكمال قدرته في بديع خلقه وصنعه، في خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله من القوة في النار، ثم نوهت بذكر القرآن العظيم، وأنه تنزيل رب العالمين، وما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد وأهوال.

قال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

وفي الحديث قال أبوبكر: يا رسول الله قد شبت، قال: **«شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»** [رواه الترمذي].

وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»** [رواه البيهقي].

* قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

ابتدأ هذه السورة بجملة شرطية عن وقوع الساعة، حذف جوابها؛ ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، ويسلك في تفخيمه كل طريق!

ثم ذكر ـ سبحانه ـ أحوال الناس في ذلك اليوم العصيب واختلافهم؛ فذكر ذلك النعيم أو العذاب مفصلاً أوفى تفصيل؛ كأن العين تراه، والقلب يحس به ويشاهده؛ فقال تعالى:

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

وكنتم ـ أيها الناس ـ أصنافاً وفرقاً ثلاثة: أهل اليمين، وأهل الشمال، وأهل السبق؛ فأما السابقون فهم أهل الدرجات العُلى في الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، هذه مراتب الناس في الآخرة. ثم فصَّلهم ـ تعالى ـ بقوله:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾.

استفهام للتفخيم لأحوالهم والتعظيم بشأنهم، أي: هل تدري أيُّ شيء أصحاب الميمنة؟ من هم وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم في أيمانهم، فهو تعجيب لحالهم، وتعظيم لشأنهم في دخولهم الجنة وتنعمهم بها.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: هل تدري من هم؟ وما هي حالهم وصفتهم؟ إنهم الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم، ففيه تعجيب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم. والتكرير للتفخيم والتعجيب.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذا هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم، أي: والسابقون إلى الخيرات والحسنات، هم السابقون إلى النعيم والجنات، ثم أثنى عليهم بقوله:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: أولئك هم المقربون من الله، في جواره، وفي ظل عرشه، ودار كرامته، والسابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة.

ولم يقل: (المتقربون) حتى يفهم أن ما هم فيه من الله ـ تبارك وتعالى ـ، وليس شيئاً حصلوا عليه بأنفسهم، وإن كان عملهم الصالح وإيمانهم إنما هو في أول الأمر وآخره فضل من الرب ـ تبارك وتعالى ـ.

قيل: وأخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم على أصحاب اليمين؟ فيه لطيفة؛ وذلك أن الله ذكر في أول السورة الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب، وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب؛ فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا، ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجدوا ويجتهدوا.

* ثم بدأ ـ سبحانه ـ مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين، فقال تعالى:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝﴾.

أي: السابقون المقربون جماعة كثيرة من الأمم السالفة، لا يحصر عددها. وهم قليل من هذه الأمة، وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق.

* قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكۡوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١].

ولحم طير مما يحبون ويشتهون. قيل: قدم ذكر الفاكهة على اللحم؛ لأن الفواكه أعز، ولذلك جعل التخير للفاكهة، والاشتهاء للحم، ولأن الاشتهاء أعلق بالطعام منه بالفواكه، فللذة كسر الشهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه، وكثر التخير للفاكهة فيه لذة أخرى هي لذة تلوين الأصناف، فهم من لذة عظمى إلى مثلها.

* ولما فرغ ـ سبحانه ـ من ذكر أحوال السابقين، وما أعدّه لهم من النعيم المقيم، ذكر أحوال أصحاب اليمين، وهم الأبرار، فقال تعالى:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾.

استفهام للتعظيم والتعجيب من حالهم، أي: ما أدراك من هم، وما هي حالهم؟ فشأنهم عظيم وحالهم جسيم، فهم: تحت أشجار السدر.

قال المفسرون: والسدر: شجر النبق، والمخضود الذي خُضد أي قطع شوكه. وللسدر من الخواص؛ الظل الظليل، وراحة الجسم فيه.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾.

هو شجر الموز. ومعنى منضود، أي: متراكم قد نُضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه.

* ثم قال ـ تعالى ـ في وصف نساء الجنة:

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

جمع عروب، وهي المتحببة لزوجها، العاشقة له بحسن لفظها، وجمال هيئتها، ودلالها وبهائها. فجمع ـ سبحانه ـ بين حُسن صورتها وحسن عشرتها، وهذه غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن.

﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: مستويات في السن مع أزواجهن، في سن أبناء ثلاث وثلاثين.

* وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ أهل الجنة وهم السابقون، وأحوال أهل اليمين، ذكر الصنف الثالث المعاند المكذب، وهم أهل النار، والعياذ بالله، فقال:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

استفهام بمعنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم.

أي: وأصحاب الشمال ـ وهم الذين يعطون كتبهم بشمائلهم ـ ما أصحاب الشمال؟ أي: ما حالهم، وكيف مآلهم وأي شيء هم فيه؟

* وبعد أن فصَّل ـ تعالى ـ حالهم، قال:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: هـذا الطعـام والشـراب، ضيافتهم وكرامتهـم يوم القيامة، والنُـزُل في الأصل ما يُهيأ للضيف أول قدومه من التحف والكرامة، فتسمية الزقوم نُزلاً، تهكم بهم.

وفيـه مبالغة بديعة، لأن النزل ما يعـد للقادم عاجلاً إذا نزل، ثم يؤتى بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دل على أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه.

* ولما ذكر ـ تعالى ـ الأشـقياء المجرمين وأحوالهم في نار جهنم، ذكر هنا الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته في بديع خلقه وصنعه، لتقوم الحجة على المنكر المكذب بوجود الله، قال تعالى:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الواقعة: ٦٤].

واقتصر ـ سبحانه ـ على ذكر الشرب مع كثرة فوائد الماء ومنافعه؛ لأنه أعظم فوائده وأجل منافعه.

* قـال تعالـى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة ٦٩ـ ٧٠].

قال ابن عثيمين: لم يقل: لو نشاء لم ننزل؛ لكن قال: لو نشاء جعلناه أجاجـاً ـ أي: مالحاً لا يمكن أن يشـرب ـ، فما الحكمـة في اختيار هذه اللفظـة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] لم يقل: لو نشـاء لم ننزل؛ لأن حسرة الإنسان على ماء بين يديه، ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء مفقود.

* قال تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝﴾ [الواقعة: ٦٥].
قال ابن عثيمين: ولم يأت التعبير (لو نشـــاء لم ننبته) لأن كونه ينبت، وتتعلق به النفس ثم يكون حطاماً، أشد وقعاً على النفس من كونه لا ينبت أصلاً.

* قـــال تعالـــى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝﴾ [الواقعـة: ٧٣]
قال ابن القيم: جعل الله النار تذكرة للمقوين ـ أي: المســـافرين ـ، مع أن منفعتها عامة للمســـافرين والمقيمين، تنبيهاً لعباده ـ والله أعلم ـ على أنهم كلهم مســـافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا مقيمين ولا مستوطنين.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝﴾ [الواقعـة: ٧٣]، قال الشـــنقيطي: أي أن في دار الدنيا إذا أحسُّوا شدة حرارتها تذكروا بها نار الآخرة التي هي أشد منها حراً، لينزجروا عن الأعمال المقتضية لدخول النار.

* تحدثت الآيـــات عن ثواب المؤمنين وعقوبة أصحاب الشـــمال؟ ففي الحديـــث عن ثواب المؤمنين لم يذكر ســـبب الثـــواب، وحينما ذكر عذاب أصحاب الشمال بين سبب تعذيبهم.

قال الألوســـي: والحكمة في ذكر ســـبب عذابهم، مع أنه لم يذكر في أصحاب اليمين ســـبب ثوابهم، فلم يقل: إنهم كانوا قبل ذلك شـــاكرين مذعنـــين؛ التنبيه على أن ذلك الثواب منه ـ تعالى ـ فضل، لا تســـتوجبه طاعة مطيع، وشكر شاكر، وأن العقاب منه ـ تعالى ـ عدل، فإذا لم يعلم سبب العقاب يظن أن هناك ظلماً.

* قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝﴾ [الواقعة: ٧٥].
المناســـبة بين ذكر النجوم في القســـم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجـــوه منهـــا: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فـــي ظلمات البر والبحر، وآيات القـــرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، مع ما في النجوم من

الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الأنس والجن.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة: ٧٩].

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به.

وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر، فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب المتقين.

قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة: ٧٩].

فالقرآن الكريم لا ينتفع به إلا من طهر قلبه من الشرك والحقد والبغضاء ليكون طاهراً قابلاً لمعرفة المعاني.

* وختم ـ تعالى ـ السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال:

﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ (٨٣)﴾.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: ذكر الله الحلقوم دون المريء؛ لأن الحلقوم مجرى النفس، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الأخرة، وانتهى من الدنيا.

* وختمت السورة بذكره ـ تعالى ـ طبقات الناس عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم في الآخرة بذكر الطوائف الثلاث، وهم أهل السعادة، وأهل

الشقاوة، والسابقون إلى الخيرات من أهل النعيم، وبيّنت عاقبة كل منهم، ذكرت أحوالهم عند والموت الاحتضار، فكان ذلك كالتفصيل لما ورد في أول السورة من الإجمال، والإشادة بذكر مآثر المقربين في البدء والختام، قال تعالى:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: فأما إن كان هذا الميت من المحسنين السابقين بالدرجات العلا السابقين المذكورين في أول السورة الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، وفضول المباحات، فلهم عند ربهم روح: أي راحة وطمأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح. وريحان: وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، ورزق حسن، وجنة واسعة يتنعم فيها.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾.

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، فهم، من السعداء أهل الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم. فسلام لك ـ يا محمد ـ منهم، لأنهم في راحة وسعادة ونعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

وأما إن كان المحتضر من المنكرين للبعث، الضالين عن الهدى والحق، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، وتفصيل أحوالهم. فضيافتهم التي يكرمون بها أول قدومهم، الحميم الذي يصهر البطون لشدة حرارته. والنزل أول شيء يقدم للضيف، ولهم إصلاة بنار جهنم، وإذاقة لهم من حرها. والتصلية: من صلاة الله النار فهو تصلية، وذلك إذا أحرقه بها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

إن هذا الذي قصصناه عليك ـ يا محمد ـ من جزاء السابقين، والسعداء، والأشقياء، لهو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وهو عين اليقين

الذي لا يمكن إنكاره، فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين؛ وعن درجة اليقين إلى حقه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)﴾.

فنزه ربك عن النقص والسوء، وعما يصفه به الظالمون.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة، قال النبي ﷺ: «**اجعلوها في ركوعكم**»، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١] قال ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**» [رواه أبو داود].

سورة الحديد (٥٧)

هذه السورة الكريمة من السور المدنية، التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية، والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الخالق - جل وعلا - الذي سبَّح له كل ما في الكون من شجر وحجر، ومدر وإنسان، وحيوان وجماد، فالكل ناطق بعظمته، شاهد بوحدانيته.

سميت سورة الحديد بهذا الاسم لورود لفظ الحديد وهو قوة الإنسان في السلم والحرب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾.

وجه اتصالها بالواقعة: أنها قدمت بذكر التسبيح، وتلك ختمت بالأمر به. وتمامه: أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به، وكأنه قيل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] لأنه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

- وقد ابتدأت السورة بالتسبيح لله - عز وجل -، وسور التسابيح خمس مجموعة في هذا البيت:

حديد وحشر ثم صف وجمعة
تغابن خمس تلك نظم التسابح

* قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

يخبر - سبحانه - عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه، أن جميع ما في الكون من إنسان، وحيوان، ونبات، تسبح بحمده، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وأنها قانتة لربها، منقادة لعزته، قد ظهرت فيها آثار حكمته.

دليل على أن كل عمل يسبق إليه أفضل مما يؤخر، من غير أن نلحق بالمتأخر تقصيراً.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

قال السعدي: وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

* قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

قال ابن عاشور: وتخصيص الإنفاق بالذكر تنويه بشأنه، وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات والمفاخرة، والمقامرة ومعاقرة الخمر.

* قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النصب.

قال ابن تيمية: وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل السابقون، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

لما ذكر الله في القرآن الظلمات جمع، والنور مفرد، قال ابن القيم: هذا من إعجاز القرآن لأن طريق الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة متعددة.

* قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثّاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ مُحسن، كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه.

قال السعدي: من كرم الله ـ تعالى ـ أن سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب.

وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن.

قال القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية، طيب النفس يبتغي به وجه الله دون الرياء والسمعة وأن يكون من الحلال.

في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ـ جل جلاله ـ يربي صدقة المتصدق كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله**» [متفق عليه].

ألا ترى أن ذكر مضاعفتها قبل أجرها، ليكون الأجر على ما رباه وأعظمه، لا على صغير ما أقرضه، جوداً منه وكرماً وهو أعلم.

* قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

قال ابن عاشور افتتاح الكلام ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ ونحوه يؤذن بأن ما سيلقى جدير بتوجيه الذهن بشراشره إليه.

* لما ذكر ـ تعالى ـ اغترار المنافقين والكافرين بالحياة الدنيا، نبَّه المؤمنين ألا يكونوا مثلهم، أو مثل أهل الكتاب بالاغترار بدار الفناء، ثم ضرب مثلاً للحياة الدنيا وبهرجها الخادع الكاذب، وذكر دلائل وحدانيته وعظمته مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين عتاب فيه ود، وفيه الحض، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟

ولولا عظم منزلة الخشوع وعلوها، لما عاتب الله الصحابة أفضل القرون، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة السامية التي يريدها الله لهم بعد بضع سنين.

قال ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. [رواه مسلم].

* ثم ذكر - سبحانه - حافزاً لأهل البذل والعطاء، في المال والنفس والفداء، ويخبر عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة، والفقر، والمسكنة، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: الذين تصدقوا بأموالهم على الفقراء ابتغاء وجه الله، والذين أنفقوا في سبيل الله، وفي وجوه البر والإحسان طيبة بها نفوسهم، بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم، وذخراً عند ربهم، يضاعف لهم ثوابهم بأن تكتب الحسنة بعشر أمثالها، ولهم فوق ذلك ثواب حسن جزيل، وهو الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾.

أي: صدَّقوا بوحدانية الله ووجوده، وآمنوا برسله إيماناً راسخاً كاملاً، لا يخالجه شك ولا ارتياب. والإيمان عند أهل السنة والجماعة، هو: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾.

أي: أولئك الموصوفون بالإيمان بالله ورسله، هم الذين جمعوا أعلى المراتب، فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله.

ومقام الصديقين مقام رفيع كما فصلته وذكرته الأحاديث النبوية، ومع علو هذا المقام، فهو بفضل الله ميسور لمن سعى لنيله وطلبه. والصديق: الكثير الصدق.

* ولما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين، ذكر بعدها حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبيّن غايتها وغاية أهلها، وذكر ما يدل على حقارة الدنيا، وكمال حال الآخرة، فقال:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح، وأنه الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيراً لحاصلها وتزهيداً فيها، لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

* قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

إشارة إلى بيان أنواع الحياة وأن اختلافها يكون تبعاً لاختلاف الأزمنة والنفسيات، فالمرء في مهده همه اللهو، وفي صباه اللعب، وفي شبابه الزينة والتفاخر، وفي شيبته التكاثر.

عن قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثياباً خشنة، فقلت له: إني قد أتيك بثوب ألين، مما يصنع بخراسان، وتقر عيناي أن أراه عليك، قال: أرنيه؛ فلمسه وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا، إنه من قطن، قال: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أكون مختالاً فخورا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

وهو الغني ـ سبحانه ـ لا حاجة له إلى خلقه، يده ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، يقول ﷺ فيما يروي عن ربه: **«يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا على صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»** [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قرن ـ تعالى ـ في هذا الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأن بهذين الأمرين ينصر ـ الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله.

* قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: الزهد المشروع هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله.

وفي الأثر: الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق مما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

* قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

عن عبد الرحمن بن عمر قال: ذكر عند عبد الرحمن بن مهدي قوم من أهل البدع، واجتهادهم في العبادة، فقال: لا يقبل الله إلا ما كان على الأثر والسنة؛ ثم قرأ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يقبل ذلك منهم، ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة.

سورة المجادلة (٥٨)

سورة المجادلة سورة مدنية، وتسمى سورة (قد سمع) وتسمى كذلك سورة (الظهار).

تصور الآيات في أولها حالة وقعت في بيت من البيوت يقبع في أطراف المدينة، ويتنزل الوحي ليتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة. والآيات وما جرى فيها من أحداث تملأ قلب المؤمن بوجود الله وقربه، وعطفه ورعايته، وكلآته وعنايته.

وقد نزلت هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته إلى الله، وجادلته إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً.

وفي السورة جملة من الأحكام التشريعية كأحكام الظِّهار، والكفارة التى تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وأحكام الولاء والبراء وعدم مودة الكافرين.

وقد ورد اسم الجلالة (الله) في كل آية منها، ومجيء اسم الجلالة (الله) يغلب في مقام الأحكام، ومقام الإجلال والمهابة.

وختمت السورة ببيان حقيقة الحب في الله، والبغض في الله، الذي هو أصل الإيمان، وأوثق عرى الدين. وجاء في السورة مدح للمؤمنين بعدم مولاتهم لمن حاد الله ورسوله.

* قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي: حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تحاورك وتُراجعك الكلام في شأن زوجها وأمره، وما جرى بينهما.

﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وتتضرع إلى الله ـ تعالى ـ في تفريج كربتها، وتظهر ما بها من المكروه.

قالت عائشة: ـ تبارك ـ الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله أكَلَ شبابي، ونَثَرْتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

أي: ما تتراجعان به من الكلام والحديث، ماذا قالت لك، وماذا رددت عليها. هي وزوجها أوس بن الصامت أحد الأنصار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾.

لجميع الأصوات، سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه.

﴿بَصِيرٌ ۝﴾.

بمن يشكو إليه، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وفي هذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتها بالأمور الدقيقة والجليلة، وهو كالتعليل لما قبله، وكلاهما من صيغ المبالغة في العلم بالمسموعات والمبصرات، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله ـ تعالى ـ سيزيل شكواها، ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها على وجه العموم.

يؤخذ من الآية وجوب رفع الشكوى إلى المولى ـ عز وجل ـ الذي يكشف الضر ويرفع البلوى، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصابته فاقة، فأنزلها بالناس؛ لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى: إما بموت عاجل، أو غنى عاجل»** [صححه الألباني].

ولكن ينبغي عدم الخلط بين شكوى الحال إلى الغير، وبين ما كان من باب المشورة والاستئناس برأي صديق محب، وناصح عاقل لبيب؛ فيما قد

يعرض للإنسان، فإن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، فهذا ليس من الشكوى المنهي عنها.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

ومن الملاحظ أنه استعمل ﴿ٱلَّٰٓـِٔي﴾ الهمزة في حالتي الظهار والطلاق، ولم يستعملها في غيرها، وكأن ذلك لثقل الهمزة، فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة، وهي حالات المفارقة.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وحذف متعلق ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ليعلم كل ما يتطلب الناس الإفساح فيه في الدنيا والآخرة من مكان أو رزق أو جنة عرضها السماوات والأرض.

قال ابن تيمية: فرفع الدرجات والأقدار معاملة بالعلم والإيمان، فكم ممن يختم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقل عبادة منهم وأرفع قدراً في قلوب الأمة، وإنما نالوا ذلك بقوة يقينهم بما جاء به الرسول ﷺ، وكمال تصديقه في قلوبهم، ووده ومحبته، وأن يكون الدين كله لله، فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها.

قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: من عمل بهذا القرآن تصديقاً بأخباره، وتنفيذاً لأوامره، واجتناباً لنواهيه، واهتداء بهديه، وتخلقاً بما جاء به من أخلاق ـ وكلها أخلاق فاضلة ـ فإن الله ـ تعالى ـ يرفعه به في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم

وكل العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال بعض العلماء: المناسبة بين مكانة أهل الإيمان والعلم، وبين الأمر بالتفسح في المجالس والارتفاع منها وجوه عدة:

الأول: الإشارة والتنبيه إلى أن من أهم المجالس إن لم يكن أهمها مجالس الإيمان والعلم.

الثاني: أن التأدب بآداب المجالس من صفات أهل الإيمان والعلم.

الثالث: الإشارة إلى تقديم أهل الإيمان والعلم في المجالس لفضلهم ومكانهم.

* قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾.

أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا إذا كان عاملاً على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته ولو كان أقرب الناس إليه، فإنه لا يجتمع في قلب واحد حب الله وحب أعدائه.

ومعنى يوادّون: يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وشاقهما.

وغرض الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين، ولكنها جاءت بصورة إخبارية مبالغة في النهي والتحذير.

﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴾.

أي: ولو كان المحادّون لله ورسوله أقرب الناس إليهم، كالآباء، والأبناء، والإخوان، والعشيرة، فإن الإيمان يزجر عن ذلك ويمنع منه، ورعايته أقوى من رعاية الأبوّة والبنوّة والأخوّة والعشيرة، وبدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب، ثم بالإخوان لأن بهم التعاضد، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ .

يعني: الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله. أثبت الإيمان ومكنه، وجمعه وجعله في قلوبهم، فهي قلوب مؤمنة موقنة مخلصة. وقوّاهم بنصر منه وتأييده على عدوّهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحاً؛ لأن به يحيا أمرهم.

﴿ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ .

ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها أبد الآبدين.

* قال تعالى: ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ .

أي: قَبِل أعمالهم فرضي عنهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة.

وقدم ـ عز وجل ـ رضاه على رضاهم لأن رضا الله هو الأصل الذي بني عليه إرضاؤه لهم.

﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ .

أي: فرحوا بما أعطاهم الله عاجلاً وآجلاً، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة؛ لأنه أعظم النعم، وأجل المراتب.

قال ابن كثير: وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله ـ تعالى ـ، عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم والفضل العميم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أي: جنده وخاصته، وأولياؤه الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله ـ سبحانه ـ تشريف لهم عظيم، وتكريم فخيم.

وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للذي للبعيد للدلالة على علو مقامهم ورفعتهم.

سورة الحشر ٥٩

سورة الحشر سورة مدنية، نزلت في المدينة. وتسمى هذه السورة: (سورة بني النضير)، وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلما بُعث ﷺ وهاجر إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ فغدروا به وأرادوا قتله، فظهرت بعض آثار قدرة الله ومظاهر عزته بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم، وفي السورة بين الله أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض.

* قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

افتتح ـ سبحانه ـ هذه السورة بالإخبار أن جميع من فوق السموات والأرض تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لعظمته، وقدرته وجلاله.

وقد جاء التسبيح بصيغة الماضي هنا ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ وجاء بصيغة المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ في سورة الجمعة، وجاء بصيغة الأمر في سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝﴾. وفي هذا ما يشير إلى أن جميع أوقات الزمان ولحظاته مملؤه بذكر الله والتسبيح بحمده.

ـ وقد جاءت عدة سور مبتدأة بالتسبيح، سميت المسبحات، وهن:

الأولى: سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الحشر: ١].

الثانية: سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الصف: ١].

الثالثة: سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾ [الجمعة: ١].

الرابعة: سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [التغابن: ١].

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه.

ثم بين ـ عز وجل ـ آثار قدرته الباهرة وعزته الظاهرة، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ﴾.

أي: هو ـ عز وجل ـ الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة. وبنو النضير، رهط من اليهود من ذرية هارون، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل، فغدروا بالنبيّ ﷺ بعد أن عاهدوه، وصاروا عليه مع المشركين، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجلاء، وكانوا أوّل من أُجْلي من أهل الكتاب من جزيرة العرب، ثم أجلي آخرهم في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ، فكان جلاؤهم أوّل حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم، وقيل: آخر الحشر هو حشر جميع الناس إلى أرض المحشر.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝﴾ [الحشر: ٣].

والفرق بني الجلاء والإخراج وإن كان معناهما في الإبعاد واحداً من جهتين: إحداهما أن الجلاء كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد، الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة والإخراج لجماعة ولواحد.

* قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨].

قال الشنقيطي: في هذه الآية الكريمة وصف شامل للمهاجرين في دوافع الهجرة، أنهم: يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وغايتها، وهي: وينصرون الله ورسوله، والحكم لهم بأنهم: أولئك هم الصادقون.

* ثم مدح ـ عز وجل ـ الأنصار وأبان فضلهم وشرفهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم المهاجرين مع الحاجة ورضاهم بإعطاء الفيء لهم، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وفي ذكر ﴿ٱلدَّارَ﴾ ـ وهي المدينة ـ مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوءهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعل هذا هو الذي عناه مالك ـ رحمه الله ـ فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكاً يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق، فقال: إن المدينة تُبُوِّئت بالإيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير: أحسن ما قيل فيه: لا يحسدون إخوانهم على فضل ما أعطاهم الله.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات.

فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها. فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الناس على ثلاث منازل؛ فمضت منزلتان، وبقيت واحدة:

الأولى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟... ﴾ [الحشر: ٨] هؤلاء المهاجرون، وهذه منزلة قد مضت.

الثانية: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴾ [الحشر: ٩]، وهؤلاء الأنصار وهذه منزلة قد مضت.

الثالثة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠]، فأحسن ما أنتم عليه كائنون، أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت.

* قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الحشر: ١٣].

وجه وصف الرهبة بأنه في صدورهم، الإشارة إلى أنها رهبة جد خفيفة أي: أنهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة ليرهبهم المسلمون وما هم بتلك المثابة فاطلع الله رسوله ﷺ على دخيلتهم.

المنافق يخوف بالناس، والمؤمن يخوف بالله.

* قال تعالى: ﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر: ١٤].

قال البغوي: بأسهم فيما بينهم من وراء الحيطان والحصون شديد، فإذا خرجوا لكم فهم أجبن خلق الله.

* وبعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ المنافقين والكفار وحالهم ومآلهم ومصيرهم، وما يجري بينهم من الدلالة على الكفر والشر، ذكر الله ـ عز وجل ـ المؤمنين ووعظهم وهيب، يوم لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا جاه

ولا مال، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى والاستعداد لليوم الآخر، ثم ذكر الله في سياق الآيات حال أصحاب الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وحال الكفار والمنافقين وما هم فيه من الشقاء والعذاب الأليم ، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ٨].

قال السعدي: هذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه وأنه ينبغي له أن يتفقدها فإن رأي زللاً تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإلقائه، ويقايس بين منن الله عليه وإحصائه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨].

مجيء قدمت بصيغة الماضي، حث على الإسراع في العمل، وعدم التأخير؛ لأنه لم يملك إلا ما قدم في الماضي، والمستقبل ليس بيده ولا يدري ما يكون فيه: وما تدري نفس ماذا تكسب غدا.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

فإن قيل: لم كرر الأمر بالتقوى؟ فالجواب من وجهين: أحدهما أنه تأكيد، والآخر وهو الأحسن أنه أمر أولاً بالتقوى استعداد ليوم القيامة، ثم أمر به ثانياً؛ لأن الله خبير بما يعملون، فلما اختلف الموجبات كرره مع كل واحد منهما.

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩].

قال ابن القيم: إن دوام ذكر الرب ـ تبارك وتعالى ـ يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب ـ سبحانه وتعالى ـ يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾، ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله ـ تعالى ـ، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقد فسد جسمه وهلك، ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله ـ تعالى ـ أنساه نفسه في الدنيا، ونسيه في العذاب يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [الحشر: ٢١].

قال القرطبي: حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظة، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي متشققة من خشية الله.

قال ابن الجوزي: والله لو أن مؤمناً عاقلاً قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص بتفكير وتدبر لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله لبه.

* قال جل وعلا: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝﴾ [الزمر: ٦٠].

هو المتكبر وحده، ولا يليق الكبر إلا به، ومن تكبر من خلقه فمأواه سقر، والعبد واجب عليه التذلل والخضوع لربه، والتواضع لعباده.

* وبعد أن ذكر الله بالقرآن العظيم الدال على الخير المعروف بعظمة الله المقتضية للخشية، أعقب ذلك بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا المناسبة لغرض السورة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية لخشيته، وهي

أثـــر من آثار القرآن في كيان الوجود كله، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣].

وهو الجبـــار: الذي يجبر الضعيف من عباده، فيجبر الكســير، ويغني الفقير، وييســـر على المعسر كل عسير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، الخاضعين لعظمته، كما يجبر ضعف الأبدان فييســـر أســـباب الشفاء لها، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله ومآله في دينه ودنياه وآخرته.

والجبار: يشـــمل ثلاث معان: جبر القوة والقهر، وجبر الرحمة وإحلال الفرج والطمأنينة، وجبر العلو، فهو فوق خلقه عال عليهم، وقريب منهم يسمع أقوالهم، وقد ورد الدعاء باسم الجبار «سبحانه ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» [رواه ابو داود].

واتصاف البشـــر بهـــذه الصفة مذمـــوم، كما فـــي قولـــه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [مريم: ٣٢] وقولـــه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم: ١٥].

* قـــال تعالـــى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣].

وذكر وصف (المؤمن) عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراز من توهم وصفه - تعالى - بـ (الملك) أنه كالملوك المعروفين بالنقائص.

فافيـــد أولا نزاهة ذاته بوصف (القدوس)، ونزاهـــة تصرفاته المغيبة من الغدر والكيد بوصف (المؤمن)، ونزاهة تصرفاته الظاهرة من الجور والظلم بوصف (السلام).

وهـــو القدوس: المنزه عن النقائـــص، الموصوف بصفات الكمال، فلا إله معه يدعى، ولا ولي معه ينادى.

وهو السلام: السالم من جميع العيوب وخلل الأوصاف، جميع المخلوقات تنزه ربنا من ذلك، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٤١].

وهو المؤمن: خَلْقه آمنون من أن يظلمهم أويخسهم حقهم.

وهــو المهيمن: على خلقه، مطلع علــى خفاياهم وخبايا صدورهم، فلا تأمن مكر الله إن عصيته.

وهو الشهيد: على أقوال وأفعال عباده: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [البقرة: ٧٤].

وهو العزيز: لا يُغلب، عز كل شيء فقهره، ذلت الصعاب لعزته، ولانت الشدائد لقوته، إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلســلة على صفوان، من دنا منه بالطاعة عز، قال ســبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطـر: ١٠]، ومــن بارزه بالمعصية ذل، فلا تنظر إلى المعصية وانظر إلى من عصيت.

* قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الحشر: ٢٤].

بدأ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يجمع جميع صفات الكمال.

وفي هذه الآية رد العجز على الصدر لأن صدر الســورة مماثل لآخرها. فقد بدأت بالتســبيح وختمت بالتســبيح، فتلاقى المطلع والختام في تناسق سور عجيب.

وهو البارئ: برأ الخلق من عدم، نجوم وشــمس وقمر، وخلق في الأفق ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٣٣]، أدهشت من تفكر فيها وتذكر.

وهو المصور: صور خلقه على صفات مختلفة، وهيئات متباينة كيف شاء ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥].

وخلق الإنسان في أحسن صورة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

وختم فاصلة الآية بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾.

فإن من اتصف بهذه الصفات من الجلالة والعظمة بحيث ينبغي أن يتعجب من حال من أشرك به غيره، فالتسبيح لتنزيهه، والمعنى تنزه الله عن شرك من أشرك به.

سورة الممتحنة ٦٠

سورة الممتحنة سورة مدنية، تدور شرائعها في محيط الولاء للمؤمنين والبراءة من المشركين، والحب والبغض في الله الذي هو أوثق عرى الإيمان.
وقد ذكر كثير من المفسرين، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم، لا شكّاً ولا نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر الله ـ عز وجل ـ النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر ـ رضي الله عنه ـ بعذر قَبِله النبي ﷺ.
وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان.

* قال تعالى:
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة: ١].

قال الشوكاني: وأضاف ـ سبحانه ـ العلو إلى نفسه تعظيماً لجرمهم.
وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: فإن المودة إذا حصلت تبعتها النصرة والموالاة فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل الإيمان.
وقال ـ رحمه الله ـ: فأي دين، وأي مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان ومكان؟ ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ حالهم مع المسلمين، فقال:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ [الممتحنة: ٢].

عطـف الفعل ﴿وَوَدُّوا﴾ ـ وهو ماض ـ على الفعل المضارع ﴿يَكُونُوا﴾ والسر ـ في ذلك ـ والله أعلم ـ أن رغبة الكفار في كفر المسلمين لما كانت قطعية غير محتملة الشك، متأصلة فيهم، لا يحول بين قلوبهم وبين مودتها ذلك حائل، عبر عن ذلك بالماضي الذي يؤتي به للتعبير عما قد تحقق، أو عن متحقق الوقوع.

أما كونهم أعداء للمسلمين، وباسطي الأيدي والألسن بالسوء لهم فأمر مشـكوك فيه، لاحتمال أن يعرض لهم ما يصدهم عنه من قوة المسلمين أو ضعف في الكفار، فلما لم يكن متحقق الوقوع عبر عنه بالمضارع.

* قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [الممتحنة: ٣].

أي: لا تنفعكم القرابات على عمومها ولا الأولاد، وخصهم بالذكر مع دخولهم في الأرحام لمزيد من المحبة لهم والحنو عليهم.

* قال تعالـى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾ [الممتحنة: ٦].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: كرر الحث على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وليس كل أحد تسـهل عليه هذه الأسـوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسـهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطرّاً إلى ذلك غاية الاضطرار.

ولما نزلت الآيات السابقة وتشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين، أطمعهم - سبحانه - في تحول الحال إلى خلافه، وفيها أخبر أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ماداموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة الإيمانية ترجع، فلا تيأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ وهو الحميد؛ مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجلِّ الأعمال، قال ﷺ: «**والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض**» [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: لعل الله - جل وعلا - يجعل بينكم وبين أقاربكم من مشركي مكة مودة، وذلك بأن يسلموا فيصيروا من أهل دينكم، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وحسن إسلامهم، ووقعت بينهم وبين من تقدّمهم في الإسلام مودّة، وجاهدوا وفعلوا الأفعال المقرّبة إلى الله، وقد تزوّج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، ولم تحصل المودّة معه إلا بعد إسلامه يوم الفتح، وترك أبو سفيان العداوة لرسول الله ﷺ. عن أبي هريرة قال: أوّل من قاتل أهلَ الردّة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أي: قادر لا يعجزه شيء، يقدر على تقلب القلوب وهدايتها، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: مبالغ في المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره.

* قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

البر: زيادة في الفضل، والإقساط: العدل.

سورة الصف (٦١)

سورة الصف سورة مدنية، فيها بيان لعظمة الله ـ تعالى ـ وقهره، وذل جميع الخلق له ـ تبارك وتعالى ـ، وأن جميع من في السموات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، وفي السورة ذكر لأمر الجهاد في سبيل الله، وجهاد الأعداء، لإعزاز دينه وإعلاء كلمته، ولهذا سميت سورة الصف، وقد ورد في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط وأوضحه وأبينه.

وسورة الصف من المسبحات، والمسبحات: هي السور المفتتحة بالتسبيح، وتسمى عرائس القرآن، وهي سبع سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

* قال ـ تعالى ـ في مطلع السورة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾ [الحشر: ١].

هو الحكيم؛ لا يدخل في أحكامه ولا تشريعاته خلل ولا زلل، وليس لأحد أن يراجع أحكام الله أو ينتقصها أو يضعها للجدل، والله يحكم لا معقب لحكمه، بل الواجب التسليم والإذعان لها، والانقياد إليها.

* قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ③﴾ [الصف: ٣].

المقت: شدة البغض لم يطلقه الله في القرآن إلا على الكفر والنفاق والفاحشة.

* قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ④﴾ [الصف: ٤].

قال قتادة: ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله ـ عز وجل ـ لا يحب أن يختلف أمره وأن الله وصف المؤمنين

في قتالهم، وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به.

* قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

وإنما خص الأفواه بالذكر - مع أنهم لم ولن يدخروا وسيلة لرد الحق بقول أو فعلٍ إلا عملوها - إشارة لضعفهم ووهنهم، فهم في هذا أشد ضعفاً ووهناً ممن يريدون إطفاء نور الشمس بأفواهم.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

وجملة ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُرِيدُونَ﴾ وهي إخبار بأنهم لا يبلغون مرادهم وأن هذا الدين سيتم، أي يبلغ تمام الانتشار.

* قال عمرو بن مرة: خمسة سموا قبل أن يكونوا:

محمد: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ويحيى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

وعيسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾ [آل عمران: ٤٥].

وإسحاق ويعقوب: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾.

أي: يا من صدقتم الله ورسوله، وآمنتم بربكم حق الإيمان، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن؟ والاستفهام للتشويق.

﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

تخلصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم، وقد جعل العمل بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، وهذه التجارة هي التي بيّنها بالآيتين اللاحقتين، فإن

معناهما: أن الإيمان والجهاد ثمنهما من الله الجنة، وذلك بيعٌ رابحٌ.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي: إيماناً صادقاً، لا يشوبه شك، ولا نفاق، فإن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله، فلهذا قال: وتجاهدون أعداء الدين، وذلك بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام.

وقد قدم الأموال على الأنفس؛ لأنه هي التي يبدأ بها في الإنفاق والتجهز للجهاد.

والقصد نصر دين الله وإعلاء كلمته، وتنفقون ما تيسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها. فهو:

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: ما أمرتكم به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، خير لكم من كل شيء في هذه الحياة، فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء والعز المنافي للذلة، والرزق الواسع، وسعة الصدر وانشراحه.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

أي: يغفر ويمحو الله عنكم ذنوبكم، وهذه المغفرة شاملة للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر.

ذكر أولاً البضاعة التي يتاجرون بها، ويذكر هنا الثمن الذي وعدهم به أي: إن تؤمنوا يغفر لكم، ويدخلكم حدائق وبساتين تجري من تحت قصورها ومساكنها وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ .

أي: يسكنكم في جنات إقامةٍ دائمةٍ لا تنقطع بموتٍ ولا بخروجٍ منها، جمعت كل طيب، من علوٍّ وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة. ذلك المذكور من المغفرة وإدخال الجنات؛ هو الفوز الذي لا فوز بعده، والظفر الذي لا ظفر يماثله.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ .

أي: ويمنَّ عليكم بخصلة أخرى تعجبكم ولها في قلوبكم موقع حسن، وهي: نصر من الله لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

يفتحه عليكم، يعني: النصر على قريش وفتح مكة. وقيل: فتح فارس والروم.

وبشر - يا محمد - المؤمنين بالنصر والفتح في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وبالثواب العاجل والآجل، وجمع لهم ما يسرهم في العاجلة بفتح البلاد، والآجالة وهي جنات عدن.

ويؤخذ من هذا التعبير القرآني المحبب للنفوس: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ أنه ينبغي أن نكون مبشرين.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

هذه الآية حجة واضحة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يشك أحد أن نصر الله إنما هو نصر دينه، ولا يكون نصره إلا بالمعونة على إقامة أمره ونهيه وعلوهما، والأخذ على يد من يريد ذله وإهانته.

سورة الجمعة (٦٢)

سورة الجمعة سورة مدنية، بيَّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها أحكام صلاة الجمعة التي فرضها على المؤمنين، وكان ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة؛ وفي ثنايا السورة الإشارة إلى بعثة الرسول ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه رحمة للعالمين. وذكر الله ـ عز وجل ـ في السورة اليهود وانحرافهم عن شريعة الله.

سميت بسورة الجمعة لمجيء ذكر يوم الجمعة فيها، وهي: تذكير الأمة في هذا اليوم العظيم؛ بنعمة الله عليها بإرساله محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأن الله قد جعله هداية لها بعد الضلال المبين الذي كانت تتخبط فيه. ولا شك أن هذا من أعظم القضايا في حياة المؤمن، التي لا ينبغي أن تغيب عن ذهنه، ولذلك شرعت قراءتها في صلاة الجمعة.

عن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة وخرج إلى مكة فصلى لنا أبو هريرة يوم الجمعة، فقرأ بعد سورة الجمعة في الركعة الأخيرة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة. فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما في الجمعة. [الجمع بين الصحيحين].

* قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ينزه الله ويمجده ويقدسه وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده جميع ما في السموات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تدبيره.

وصيغة المضارع في قوله ﴿يُسَبِّحُ﴾ لإفادة التجديد والاستمرار، فهو تسبيح دائم على الدوام.

﴿ٱلْمَلِكِ﴾ أي: هو الإله المالك لكل شيء، المتصرف في خلقه بالإيجاد والإعدام.

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ أي: المعظم المنزّه عن كل آفة ونقص، المتصف بصفات الكمال. فلا إله معه يدعى، ولا ولي معه ينادى.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: العزيز في ملكه، القاهر للأشياء كلها.

﴿ٱلْحَكِيمِ ۝﴾: في خلقه وأمره، وهذه الأوصاف مما تدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

هو الحكيم؛ لا يدخل في أحكامه ولا تشريعاته خلل ولا زلل، وليس لأحد أن يراجع أحكام الله أو ينتقصها أو يضعها للجدل، والله يحكم لا معقب لحكمه، بل الواجب التسليم والإذعان لها، والانقياد إليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝﴾ [المائدة: ١]، ولا يصلح لعباده سوى شرعه المطهر، ومن سخر بدينه أو شرعه أذله الله.

❁ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝﴾ [الجمعة: ٢].

وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه.

قال ابن كثير: الأميون هم العرب ـ وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال ـ تعالى ـ في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به.

❁ قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فقاس من حمله ـ سبحانه ـ كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر، ولا تفهم، ولا اتباع له، ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته.

❁ ثم ذكر ـ عز وجل ـ حال المسلمين بعد قضاء الصلاة، فقال:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [الجمعة: ١٠].

أمر بالجمع بين الابتغاء من فضله، وكثرة ذكره، ولهذا ورد فضل الذكر في الأسواق ومواطن الغفلة، كما جاء عن النبي ﷺ: **«من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة»** [صححه الالباني].

وفي الآيات السابقة أمرهم ـ عز وجل ـ أولاً بالسعي لاجتماع للصلاة وترك البيع، ثم أمرهم بعد قضاء الصلاة بالتفرق في الأرض وطلب الرزق من الله.

وكان طائفة من السلف يعمد إلى البيع والشراء في هذا الوقت اتباعاً لأمر الله ـ عز وجل ـ وطلباً لبركة هذا الوقت.

وفي يوم الجمعة أُمرنا بالعبادة ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وأمرنا بطلب الرزق وهو عبادة لمن احتسب ذلك ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وأيام المسلم كلها عبادة.

كان عراك بن مالك ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

* لما ذكر الله الدنيا والسعي لها قال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥ ولما تعلق الشأن الآخرة والعمل لها قال: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

في قول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» عند دخول المسجد، و«اللهم إني أسألك من فضلك» عند الخروج منه حكمة، فقيل: لعل ذلك لأن الداخل طالب للآخرة، والرحمة أخص مطلوب له، والخارج طالب للمعاش في الدنيا، وهو المراد بالفضل، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

سورة المنافقون (٦٣)

سورة المنافقون سورة مدنية، فإن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً واستقر فيها، وكثر المسلمون واعتز الإسلام بهم، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج من المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ليبقى جاههم، وتحقن دماءهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة.

وفي سورة الجمعة التي سبقت، ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون.

والسورة تؤكد على كشف المنافقين، وبيان حقيقتهم، وأبرز صفاتهم، لتكون بمثابة تحذير أسبوعي؛ من طائفة خطيرة تهدم الإسلام من الداخل، وتوضح للمؤمنين أن حصوننا مهددة من داخلها بهؤلاء المنافقين، ولعظم خطرهم وعدم انقطاعهم من المجتمع منذ عهد النبي ﷺ حتى اليوم؛ شرع التحذير منهم بشكل متكرر، بتلاوة هذه السورة في صلاة الجمعة.

❊ وبعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ أوصافهم القلبية، ذكر أوصافهم الجسمية، لكثرة انخداع الناس بهم، فقال:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ .

وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ومناصبهم، تعجب من يراها لما فيها من الحسن والنضارة والرونق. وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم فتحسب أن قولهم حقّ وصدق لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم.

وقد كان عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين فصيحاً جسيماً جميلاً، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدي الصالح شيء.

وأما المؤمنون فعكس هذه الصفات، حالهم مستضعفون في ظاهر أجسامهم وكلامهم؛ لأنهم اشتغلوا بعمارة قلوبهم وأرواحهم عن عمارة

أجســادهم، أما بواطنهم فقوية عامرة ثابتة يؤدون بها الأعمال الشــاقة في طاعة الله من الجهاد والعبادات ما لايســتطيع المنافق مكابدته لضعف قلبه، لهذا قال عن المنافقين:

﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ .

شُــبهوا في جلوســهم في مجالس رســول الله ﷺ بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط، التي لا منفعة فيها، ولا تفهم، ولا تعلم، لخلوّهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه.

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

أي: يظنــون لجبنهم وفزعهم، والريب الذي في قلوبهم؛ كل نداء وكل صوت، أنهم يرادون بذلك، وكان المنافقون على وجل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين. فاحذرهم ولا تأمنهم على ســر؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار.

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ المنافــق خائف ذليل، يترقب من أين يأتي الصوت.

* ثم ذكر صفاتهم القبيحة، وقولهم:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ [المنافقون: ٧].

ظنوا أنهم لولا أموالهم لما اجتمع المسلمون لنصر دين الله! فمن أعجب العجب أن يدعي أحرص النــاس على خذلان الدين، مثل هذه الدعوى، ولا يروج هذا إلا على من لا علم له بحقائق الأمور: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

* ثم قال ـ تعالى ـ حاثّاً على المسارعة إلى الخيرات:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝﴾ [الحشر: ٩].

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالاً يلهي عن ذكر الله، لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها، بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد، ولأنها كما تشغل من ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضاً بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وفي ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله، فوقعوا في النفاق، فمن علامات النفاق قله ذكر الله ـ عز وجل ـ. وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله ـ عز وجل ـ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ـ عز وجل ـ.

* قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله ـ: ما الحكمة من قراءة سورة المنافقون في الجمعة؟ مناسبتها ظاهرة، ومنها:

أ ـ أن يصحح الناس قلوبهم ومسارهم إلى الله ـ تعالى ـ كل أسبوع.

ب ـ أن يقرع أسماع الناس التحذير من المنافقين كل جمعة؛ لأن الله قال فيها عن المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

* قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠].

قال السعدي: وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ ليدل على أنه ـ تعالى ـ ما يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم الله الذي يسره لهم ويسر لهم أسبابه.

سورة التغابن (٦٤)

سورة التغابن سورة مكية، يشتمل صدرها على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر ـ سبحانه ـ كمال ألوهيته، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وعظمته وآثار قدرته، وتسبيح من في السموات والأرض بحمده. وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ في كتابه الكريم أن يُقسم في ثلاثة مواضع:

الأول: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (٧)﴾ [التغابن: ٧].

الثاني: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٥٣)﴾ [يونس: ٥٣].

الثالث: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [سبأ: ٣].

* قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن عباس: يهديه لليقين، فيعلم أن ما أصاب به لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [التغابن: ١٤].

أنما صار ولد الولد أحب إلى الرجل من ولده لصلبه: لأن الولد عدوه ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] وولد الولد عدو

العدو، وعدو عدوك صديقك!

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

قال بعضهم: لما ذكر الله العداوة أدخل فيه (من) للتبعيض، فقال: إن من أزواجكم وأولادكم لأن كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر (من) في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنها لا تخلو من الفتنة واشتغال القلب.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: فلما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قال ابن مسعود: لا يقولن أحدكم: إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فأيكم استعاذ، فليستعذ بالله ـ تعالى ـ من مضلات الفتن.

وينبغي أن يتأمل هذا من ابتلي بالفقر والعقم فلا يأس على ما فاته، ويرضى بما قدر الله له، ويعلم أن الخيرة فيما اختاره الله، ويحسن الظن بربه، ويجزم بأن ما اختاره الله له هو عين الخيرة، فكم من أناس كان سبب شقائهم في الدنيا والآخرة أموالهم وعلى أيدي أولادهم.

* قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ترتيب العفو والصفح والغفران جاء في غاية الإبداع والروعة، فبدأ بالعفو وهو ترك العقوبة، ثم ثنى بالصفح وهو ترك التثريب واللوم، والتعيير بالذنب، وختم بالغفران وهو إخفاء الذنب وستره.

قال ابن القيم: وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس: أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن

الهجرة، والجهاد، والتعلم، والصدقـــة، وغير ذلك من أمور البر وأعمال الخير.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)﴾ [التغابن: ١٥].

البخيل: من أجاب داعي الشح.

والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: ســـخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

سورة الطلاق ٦٥

سورة الطلاق سورة مدنية، تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته، وما يترتب على الطلاق من العدة، والنفقة، والسكنى، وأجر المرضع وغير ذلك من الأحكام، تتميماً للأحكام المذكورة في سورة البقرة، وأمرت المؤمنين عند تعذر استمرار الحياة الزوجية إلى أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية.

وفي السورة تسلية للزوجة وتطييب لخاطرها وجبر لكسرها، وتكرر الأمر بتقوى الله في السورة خمس مرات بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين، حين يقع الطلاق وتشح الأنفس، وتنفصم عرى الزوجية.

وقد ذكر الله التقوى وأثرها بين آيات الطلاق لكثرة ما فيها من الانتصار للنفس، وقصد الإضرار وتعدي الحدود، فأي الزوجين اتقى الله فله المخرج ولو بعد حين.

* قال ـ تعالى ـ في مطلع السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

أي: يا أيها النبي، ويا أيها المؤمنون، إذا أردتم تطليق النساء، وقد نادى النبي ﷺ أوّلاً؛ تشريفًا وتعظيماً له، ولأنه السيد المقدم، ثم خاطبه مع أمته.

﴿فَـ﴾ فالتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حيث يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله به.

﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾.

أي: مستقبلات لعدتهنّ، أو قبل عدتهنّ، والمراد: أن يطلقوهنّ في طهر لم يقع فيه جماع، ثم يُتركن حتى تنقضي عدتهنّ، فإذا طلقوهنّ هكذا فقد طلقوهنّ لعدتهنّ.

عن ابن عمر: أنه طلــق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر ـ رضي الله عنه ـ لرســول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: **«ليراجعها، ثم يمســكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء»** [رواه النسائي].

وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر؛ ولأن حالــة الحيض منفرة للزوج، تجعله يتســرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانــت طاهراً، وكونه لم يجامعها فــي ذلك الطهر، لئلّا يحصل من ذلك الوطء حمل، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وذلك ضرر ظاهر.

﴿ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾.

أي: اضبطوها واحفظوها، واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدّة، وهي ثلاثة قروء كاملة لئلّا تختلط الأنساب، والخطاب للأزواج. وأمر بذلك لما يبنى عليه من الأحكام في الرجعة والسكنى والميراث، وغير ذلك.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ ﴾ [الطلاق: ١].

أي: خافــوا الله رب العالمين فلا تعصــوه فيما أمركم، ولا تضارّوهنّ، وخافــوه في حق الزوجــات المطلقات. لا تخرجوهن من مســاكنهن بعد فراقكــم لهن إلى أن تنقضي عدتهن، ويلزمــن بيوتهن التي طلقها زوجها وهي فيها.

وأضاف البيوت إليهنّ لبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة، وفيه دلالة على القرار في البيوت، وأن هذا بيتها تدبر شئونه وترعى أحواله.

وفقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة، ذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فتناسى الناس لذلك الحقوق وغمضوها فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله، ولزيادة الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ﴿رَبَّكُمۡۖ﴾ للتذكير بأنه حقيق بأن يتقي غضبه.

ونهى الزوجات عن الخروج أيضًا، فقال:

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾.

أي: لا يجوز لهن الخروج منها حتى تنقضي عدتهن، أما النهي عن إخراجها فلأن المسكن يجب على الزوج للزوجة لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه، وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه، وكذلك صيانة المرأة، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف، ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ إلا إذا فعلن فاحشة الزنى، وقيل: هي البذاءة في اللسان، والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت؛ لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها.

وهذه الأحكام والشرائع التي بيّنها لعباده، هي حدوده التي حدّها لهم، لا يحلّ لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها.

- وقد جاءت البيوت مضافة إلى النساء في ثلاث آيات من كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الاحزاب: ٣٣].
وقوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].
وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤].
وهي إضافة إسكان ولزوم للمسكنة، والتصاق بهن، لا إضافة تمليك.

* قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

بأن لم يقف معها، ولم يأتمر بها، بل تجاوزها أو قصر عنها فقد بخسها حقها بإيرادها مورد الهلاك، وفي هذا تشـــديد فيمن يتعدى طلاق السنة، ومن يطلق لغير العدة.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾.

أي: لا تعرف أيها السامع، ماذا يحدث الله بعد ذلك الطلاق من الأمر؟ لعلهـــا إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلوبهما فيتراجعا، فيكون ذلك أيسر وأسهل، والواقع يشهد بذلك كثيراً.

وفي الآية قاعدة في الحياة وفي الحياة الأســرية خاصة؛ تمنع الاستعجال وغلق الأبواب، فقد تحتاج يوماً للولوج منها، فدعها مشرعة مفتوحة.

ولقدرة الله ـ عز وجل ـ وسرعة الفرج وزوال الشدة بأمره ـ سبحانه ـ وردت كلمة (أمر) في هذه السورة ست مرات، منها قوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾، وقولـــه: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، فله الأمر وبيده تصريف الأمور كيف يشاء ـ سبحانه وتعالى ـ.

* وتستمر الآيات في بيان أحكام الطلاق، والرفق فيه، وعدم المضارة، ولزوم التقوى، قال تعالى:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فـــإذا قاربـــن انقضاء أجل العدّة وشارفن آخرها، وقاربن ذلك. فراجعوهنّ إلى عصمة النكاح بحسن معاشرة، وصحبة جميلة، ورغبة فيهن من غير قصد إلى مضارّة لهنّ.

والإمساك بالمعروف: هو إحسان العشرة وتوفية النفقة، من غير قصد لمضارة في الرجعة لتطول عليها العدة.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لهن على أخذ شيء من مالهن، مع إيفائهنّ ما هو لهنّ عليكم من الحقوق، وترك المضارة لهنّ.
والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق، والمتعة عند الطلاق، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقهن.

قال العز بن عبد السلام: في حسن المصاحبة والمفارقة حفظ للوداد، وبعد من البغضاء والعداوة، إذ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: اشهدوا على الرجعة إن راجعتم، أو المفارقة إن فارقتم، قطعًا للتنازع، وحسماً لمادة الخصومة. رجلين مسلمين من أهل العدل والاستقامة، لأن في الإشهاد المذكور، سدّاً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ﴾.

أي: أيها الشهداء. ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقصان، تقرّبًا إلى الله على الوجه الحق دون مراعاة أو محاباة للمشهود له، أو المشهود عليه.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾.

أي: من يتق الله بالوقوف عند حدوده التي حدّها لعباده. يجعل له مخرجاً وطريقاً مما وقع فيه، من الهموم والكروب والمحن، وهذا من جملة ثواب من أطاع الله واتبع شرعه، بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة.

قال ابن مسعود: مخرجه أن يعلم أنه من قبل الله، وأن الله هو الذي يعطيه، وهو يمنعه، وهو يبتليه، وهو يعافيه، وهو يدفع عنه.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

أي: بعد انتهاء المحنة وانجلاء البلاء تأتي المنح والهبات والعوض والأعطيات. يسوق إليه رزق من وجهٍ لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه ولا يشعر به، فمن طلق ثم أشهد عند المفارقة على انقضاء العدة، أو عند المراجعة، يجعل الله له مخرجًا ومخلَصًا، وإنما الضيق على من خالف أحكام الله في الطلاق والرجعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والرزق، اسم لكل ما يغتذي به الإنسان؛ وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة.

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٣].

قال بعض العلماء: الرزق على نوعين رزق مضمون لكل حي طول عمره، وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦] ورزق موعود للمتقين خاصة، وهو المذكور في هذه الآية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي: كافيه بحيث لا يحتاج معه إلى غيره.

قيل لرجل من الفقهاء: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، فقال الفقيه: والله إنه ليجعل لنا المخرج وما بلغنا من التقوى ما هو أهله، وإنه ليرزقنا وما اتقيناه كما ينبغي، وإنه ليجعل لنا من أمرنا يسراً وما اتقيناه، وإنا لنرجو الثالثة: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝ ﴾ [الطلاق: ٥].

* وردت في سورة الطلاق كلمة التقوى وما في معناها أكثر من أربع مرات، وذلك لأهمية التقوى حال الخلاف وشح الأنفس، وربما صدر من البعض هجر محرم أو غيبة، أو ظلم يطال أحد الزوجين أو الأولاد، أو غير ذلك من أنواع الأذى.

ـ قال ابن تيمية في الفتاوى: قال بعضهم: ما افتقر تقي قط، قالوا: لم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، والآية اقتضت أن المتقي يرزق من حيث لا يحتسب، ولم تدل على أن غير المتقي لا يرزق، فالكفار قد يرزقون بأسباب محرمة، وقد لا يرزقون إلا بتكلف، وأهل التقوى يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، ولا يكون رزقهم بأسباب محرمة، والتقي لا يحرم ما يحتاج إليه من الرزق، وإنما يحمى من فضول الدنيا رحمة به.

ـ قال الإمام الطحاوي: فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللاً فليستغفر الله، وليتب إليه.

ـ قال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب أحموقته ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك.

ـ قال ابن الجوزي: ضاق بي أمر أوجب غمّاً لازماً دائماً، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقا للخلاص، فعرض لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم، فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

ومن وثق بالله، واعتمد عليه، ولجأ إليه فيما نابه من أمر دينه ودنياه، كفاه ما أهمه، وجلب له ما ينفعه، والأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل؛ لأنه مأمور به، ولكن لا يعتمد على تلك الأسباب.

قال ابن القيم: فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر.

وجعل ـ سبحانه ـ لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزءاً معلوماً، وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته.

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره، وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عند الله وأحبها إليه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

أي: لابد من نفوذ قضائه وقدره، وهذا حض على التوكل وتأكيد له.

وقد جعل ـ سبحانه ـ للشدّة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وقيل: هو قدر الحيض والعدة.

ولما ذكر ـ سبحانه ـ كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله:

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له.

قال النيسابوري: ومن أسرار القرآن ولطائفه أنه ـ سبحانه ـ حث على التقوى في هذه السورة ثلاث مرات: بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وذلك على عدد الطلقات الثلاث، ووعد في كل مرة نوعاً من الجزاء:

الأول: أنه يخرجه مما دخل فيه وهو كاره ويتيح له خيراً ممن طلقها.

والثاني: اليسر في الأمور والموالاة في المقاصد ما دام حياً.

الثالث: أفضل الجزاء وهو ما يكون في الآخرة من النعماء.

ثم حث على التوكل بثلاث جمل متقاربة الخطى:

الأولى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ لأن المعبود الحقيقي القادر على كل شيء، الغنى عن كل شيء، الجواد بكل شيء إذا فوضه عبده الضعيف أمره إليه لا يهمله البتة.

الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: يبلغ كل أمر يريده ولا يفوته المطلوب.

الثالثة: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ أي: وقتاً ومقداراً، وهاتان الجملتان كل منهما بيان لوجوب التوكل عليه لأنه إذا علم كونه قادراً على كل شيء، وعلم أنه قد بين وعين لكل شيء حداً ومقداراً لم يبق إلا التسليم والتفويض.

* ثم بين ـ سبحانه ـ حكم المطلقة التي لا تحيض لصغرها، أو لكبر سنها وختمها بقوله:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾.

ومن يتق الله فيطلق للسنة، يجعل له من أمره يسرًا في الرجعة، ويسهل عليه كل عسير، ويمح عنه ذنوبه، ويضاعف له الأجر والمثوبة.

وقد كرر التقوى ـ سبحانه ـ في هذه السورة لعلمه أن النساء ناقصات عقل ودين، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾.

أي: ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتمشوا عليه، وتأتموا وتقوموا به، وتعظموه وتعملوا بمقتضاه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

أي: ومن يتق ربه يمح عنه ذنوبه. ويعطه من الأجر في الآخرة أجراً عظيماً، وهو الجنة.

* قال ـ تعالى ـ عن الفراق بين الزوجين في سورة النساء: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

قال السعدي: يعني: إذا تعذر الاتفاق والالتئام فلا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أي: بفسخ أو طلاق أو خلع أو غير ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: من فضله وإحسانه العام الشامل.

فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها ليس على الزوج ولا على غيره، بل على المتكفل القائم بأرزاق الخليقة كلها، وخصوصاً من تعلق قلبه به ورجاه رجاء قلبياً طامعاً في فضله كل وقت، فإن الله عند ظن عبده به، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً لها منه وأنفع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي: واسع الرحمة، كثير الإحسان ﴿حَكِيمًا﴾ في وضعه الأمور مواضعها.

* ثم لما بين التقوى في قوله: ومن يتق الله، كأنه قيل كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات، فقال:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

ذكر الله في الآيات السابقة النهي عن إخراج المطلقات عن البيوت، وأمر هنا بإسكانهن. ومن هنا بدأ بيان ما يجب للمطلقات، أي: أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها. من سعتكم وطاقتكم، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة وهذا في المطلقة الرجعية، أما التي طلقت الثالثة فإنها لا نفقة لها ولا سكنى.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

أي: ولا تضيقوا عليهن في المسكن أو النفقة لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة أو الافتداء.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

أي: وإن كانت المطلقة حاملاً، فعلى الزوج أن ينفق عليها وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كان رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن.

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

أي: هؤلاء المطلقات إذا ولـدت، ورضيت أن ترضع لكم ولداً. فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة لولده.

﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ .

هذا خطاب للأزواج والزوجات الذين وقع بينهم الفراق بالطلاق، أي: تشاوروا بينكم بما هو معروف غير منكر، وليقبل بعضكم من بعض المعروف والجميل في شـأن الولد، وهذا يناسب المقام، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم؛ لأنه ولدهما وهما شـريكان فيه، وفي وجوب الإشفاق عليه، حيث إن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر من البغض شيء كثير.

﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ .

أي: بأن لم تتفقوا فـي أجر الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي تريد، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر. فليستأجر مرضعة أخـرى ترضع ولده، وهـو خبر بمعنى الأمر، أي: فسـترضع له مرضعة أخرى، وفيه عتاب للأم لطيف على المعاسرة.

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ .

هذا بيان لقدر الإنفاق، فيه الأمر لأهل السعة بأن يوسعوا على المرضعات من نسائهم على قدر سعتهم. ومن كان مضيّقًا عليه في الرزق فقيرًا، فلينفق مما أعطاه الله من الرزق، على مقدار طاقته، ليس عليه غير ذلك. لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته، وبقدر ما أعطاه من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق ما ليس في وسعه كنفقة الغني، وفيه تطييب لقلب المعسر، وترغيب له في بذل مجهوده.

* وقد ذكر - عز وجل - في سورة البقرة، بالإحسان إلى المطلقة:
قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣١].

أي: فإذا طلقتموهن فادفعوا لهن بشيء من متعة ينتفعن به جبراً لهن، وتطيبياً لخاطرهن، وجبراً لوحشة الفراق والطلاق، وإزالة للأحقاد، على قدر حال الرجل في الغني والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعاً بالمعروف حقّاً ثابتاً على الذين يحسنون إلى المطلقات وإلى أنفسهم بطاعة الله.

وفي الآية ذكر المحسنين، وفي الآية الأخرى ذكر المتقين، قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة: ٢٤١].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

هذه بشارة للمعسرين والفقراء، أن الله يزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، وهو وعد لذوي العسر باليسر، وسيجعل - سبحانه - بعد ضيق وشدّة، سعةً وغنى.

* يعبر القرآن عن الرجل بالزوج، وأحياناً بالبعل، وأحياناً أخرى عن المرأة بالزوج وبالمرأة في مواضع أخرى، وعند استقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها اسم الزوجة متى تحظى بهذا الاسم ومتى لا تكون كذلك.

نجد أنه إذا كانت الزوجية تامة والعشرة قائمة فهي تسمى زوجة، وما عداها امرأة وفي الآية تحقق ذلك، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

وبهذا كانت حواء زوجاً لآدم في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وكذلك في زوجات النبي ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

يقوم معنى الزوج على الاقتران القائم على التماثل والاتقان والانسجام التام، فالزوج انضم إليه مماثل من جنسه، ولذا تستعمل للرجل والمرأة، ولذلك لا يطلق القرآن كلمة زوج على الرجل أو المرأة إلا إذا كانت الحياة الزوجية متفقة ومستقرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وإذا حدث خلل أو نزاع أو خلافات في الحياة الزوجية يأتي البعل: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء:١٢٨].

وكذلك الاختلاف في الدين كما في قصة نوح، ولوط لأنهما كافرتان، فهن لسن زوجات لهم، وإنما هي امرأة تحته، وكذلك امرأة فرعون لأن بينها وبين زوجها فرعون مانع من الزوجية فهي مؤمنة وهو كافر: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾ [التحريم: ١١].

وكذلك عدم الانجاب فامرأة زكريا ـ عليه السلام ـ تسمى امرأة في المواضع ﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥].

وعندما ولدت يحيى جاء السياق باسم الزوجة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] ولم يقل لأزواجهن لأن البعل أعم فالزوج لا تطلق إلا في حال الاتقان والانسجام. فلو قال ـ تعالى ـ (ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن) لقلنا أن المرأة وقت الخلافات أو عدم الإنجاب لا تظهر زينتها لبعلها في جميع الحالات.

وفي الميراث علق ـ سبحانه وتعالى ـ التوارث بلفظ الزوجة دون المرأة. إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع التوارث. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

* ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الأمم السابقة وإهلاك الأمم الطاغية العاتية، والقرون المكذبة للرسل، مع كثرتهم وقوتهم التي لم تغن عنهم شيئاً، وحذر ـ تعالى ـ من عصيانه وتعدي حدوده، قال تعالى:

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾.

فيه بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن ضياع الدنيا بإضاعة الدين، وأن أمن القرى وطمأنية العالم بالحفاظ على الدين.

سورة التحريم (٦٦)

سورة التحريم سورة مدنية، متآخيه السورة مع التي قبلها وهي سورة «الطلاق» وذلك بالافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء وهذه على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة ما لا يخفى.

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردهن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران.

ابتدأت الآية بعتاب من الله لنبيه محمد ﷺ حين حرم على نفسه سريته «مارية»، أو شرب العسل مراعاة لخاطر بعض زوجاته، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيق على نفسه ما وسعه الله له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

* قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: ٢].

هو العليم؛ يعلم السرائر والخفيات، لايخفى عليه قول ولا فعل مما يجترحه العباد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

* ثم ذكر - تعالى - في ثنايا السورة:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣].

وإعراض الرسول ﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه ﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته.

والكريم يتغافل عن تقصير أهله وصحبه، ولا يستقصي حقوقه.

قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام.

وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، وما زاد على المقصود، يقلب العتاب من عتاب إلى تقريع.

قال الله ـ تعالى ـ عن نبينا ﷺ ـ لما أخطات بعض أزواجه ـ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] جاءت كلمة ﴿نَارًا﴾ منكرة دلالة على عظمها وفظاعتها، كونها ناراً كاف للخوف منها؛ لكنها مع ذلك وصفت بوصفين عظيمين: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، و﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، ألا ما أشد هذا الوصف وما أفظعه، حتى قيل: إنه أعظم وصف للنار فيما يتعلق بالمؤمنين.

* قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق: ٨].

وإنما أوثر لفظ القرية هذا دون الأمة ونحوها، لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريفاً بالمشركين من أهل مكة ومتابعة لهم بالنذارة ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: ٤].

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

قال القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العَوْد بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

* قال تعالى: ﴿لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن عباس: ليس أحد من الموحدين إلا يعطى نوراً يوم القيامة، فأما المنافق، فيطفأ نوره، والمؤمن يشفق مما يرى من إطفاء نور المنافق فهو يقول: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨].

* قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التحريم: ٩].

قال ابن تيمية: وهذا في الحقيقة من رحمة الله بعباده، فإن الله أرسل محمداً رحمة للعالمين، وهو ـ سبحانه ـ أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس.

* ثم ضرب الله ـ تعالى ـ مثلاً آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان مؤمناً، فقال تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾.

أي: مثل ـ تعالى ـ للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين، بحال امرأة نوح، وامرأة لوط. كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما نوح، ولوط، ـ عليهما السلام ـ وإنما وصفها بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه ـ تعالى ـ.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

أي: فوقعت منهما الخيانة لهما في الدين، لا بخيانة النسب والفراش فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحداً من أنبيائه بغيّاً.

قيل: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه.

﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ ﴾ .

أي: فلم ينفعهما نوح ولوط مع نبوتهما بسبب كونهما زوجتين لهما شيئًا من النفع، ولا دفعًا من عذاب الله، مع كرامة الأنبياء على الله ومنزلتهم. وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة: ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين، من الكفرة المجرمين، ادخلا النار مع من فيها، أهل الكفر والمعاصي.

* ثم ضرب ـ تعالى ـ مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح، فقال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

أي: إن صولة الكفر لا تضرّهم كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها في جنات النعيم.

وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم ـ رضي الله عنها ـ آمنت بموسى ـ عليه السلام ـ فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فنجاها الله من شره.

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾ .

أي: حين دعت ربها وتضرعت إليه قائلة: يا رب اجعل لي قصراً مشيداً قريباً من رحمتك في درجات المقربين منك، وسؤالها لربها أجلّ المطالب، فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور. فلذا طلبت كون البيوت عنده قبل طلبها أن يكون في الجنة، فإن الجار قبل الدار.

ثم سألت الله أن ينجيها ـ سبحانه ـ من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، من ذاته ومما يصدر عنه من أعمال الشرّ.

﴿ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ .

هم الكفار من القبط أتباع فرعون الطاغين، وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه ومسألته الخلاص عند المحن والنوازل من سير الصالحين.

* ثــم ذكر ـ عز وجــل ـ مريم مثنياً عليهــا: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: ومــريم ابنة عمران، مثل آخر في الإيمان، جمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاها على نســاء العالمين، مع كونها بين قوم عصاة، وقــد أثنى عليها بقولــه: حفظت فرجها وصانته عــن الفواحش، لكمال دينها، وعفتها، ونزاهتها. فنفخ رســولنا جبريل في جيب درعها؛ فحبلت بعيسى ـ عليه السلام ـ.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

هذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإنها آمنت بشرائعه التي شرعها لعباده، ومــا خاطبها به الملَــك، وهو قول جبريل لها: إنما أنا رســول ربك، وما أخبرها به من البشارة بعيسى، وكونه رسولاً من المقربين. وصدقت كذلك بالكتب السماوية المنزلة على الأنبياء.

وكانت من القوم المطيعين لربهم، المداومين على طاعته بخشية وخشوع، وهــذا وصف لها بكمــال العمل، فإنهــا ـ رضي الله عنهــا ـ صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

سورة الملك ٦٧

سورة الملك سورة مكية، وتسمى سورة «المانعة» و«المنجية»؛ لأنها تقي قارئها من عذاب القبر، قال ﷺ: «هي المانعة، وهي المنجية، تنجي من عذاب القبر» [رواه الترمذي]. وفي الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ قال: «سورة من القرآن ثلاثون آية، تشفع لصاحبها حتى يُغفر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» [رواه أبو داود].

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ في السورة جملة من آلائه ونعمه وفضله، وذكر خلق الإنسان لابتلائه في عبادته، وسبب وجوده وإحيائه ومماته. ولأن الحياة الدنيا عند منكري البعث هي نهاية المطاف وغاية الوجود ذكّرهم الله ـ عز وجل ـ بما بعد الموت من الحساب والجزاء والجنة والنار، ثم ساق الأدلة والشواهد على عظمته وقدرته، ومن أعظم ذلك خلق السموات وما فيها من الأجرام والأكوان.

* قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

تبارك: أي: تمجد وتعالى، وكثر خير الله وعظم، وعم إحسانه، ومن عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، والملك هو ملك السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، ويستفاد من إضافة اليد إلى الله ـ تعالى ـ ثبوت صفة ذات له ـ سبحانه ـ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾.

أي: وهو القادر على كل شيء، له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع فهو يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحيي ويميت، لا راد لقضائه.

قال ابن تيمية: فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله، كما قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١]، فلا يرى نفعاً ولا ضرّاً، ولا حركة ولا سكوناً، ولا قبضاً ولا بسطاً، ولا خفضاً ولا رفعاً، إلا والله فاعله وخالقه، وقابضه وباسطه، ورافعه وخافضه، فهذا الشهود هو سر الكلمات الكونيات.

* ثم بين ـ سبحانه ـ آثار قدرته، وجليل حكمته، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

أي: ومن كمال قدرته أنه خلق هذان الأمران العظيمان، الموت والحياة.

والموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقتها له، والحياة تعلق الروح بالبدن واتصالها به.

والمعنى: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم، وقدّم الموت؛ لأنه أهيب في النفوس وأفزع، وإن كان الموت والحياة أمران مألوفان مكرران في حياة الناس، لكن الآيات تبعث على التأمل والتفكر في هذا الأمر العظيم وما بعده، فمن قدرة الله وحكمته وتدبيره أنه خلق الموت والحياة لشأن عظيم، فقال:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: ليكلفكم، ثم يختبركم فيجازيكم على ذلك.

والمقصد الأصلي من الابتلاء: هو ظهور كمال إحسان المحسنين وطاعة الطائعين.

وأحسن العمل: ما كان أخلصه لله ـ عز وجل ـ، وأصوبه، موافقاً لهدي النبي ﷺ.

وفي الآية قوله: أحسن عملاً، ولم يقل أكثر عملاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾.

أنه ـ سبحانه وتعالى ـ الغالب في انتقامه ممن عصاه، الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

وهو ـ سبحانه ـ الغفور عن المسيئين والمقصرين والمذنبين إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر لهم ذنوبهم.

وفي الآية ترغيب في فعل الطاعات، وزجر عن اقتراف المعاصي.

* ثم اتماماً لما سبق، ذكر ـ سبحانه ـ بعض مخلوقاته وعظمتها، وحسن خلقها، ومن ذلك السموات السبع، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

خص ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالذكر دون لفظ الجلاله (الله) إشعاراً أن هذا النظام اقتضته رحمة الله بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم.

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] إنما قال: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾؛ ولم يقل (مرتين)؛ لأن كلمة (مرتين) تحصر النظر في مرتين، بينما ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تفيد التكرار مرة بعد مرة.

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥].

قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به.

وإنما كانت نار السعير خاصة بعذاب الشياطين لكونهم من عنصر النار، ونار السعير أشد من نار طبائعهم، فصارت عذاباً لهم، فلا يمنع خلقهم من نار عذابهم بها، فهي منهم كالتراب من بني آدم، فيتأثرون من ذلك على أنه تكون نار أقوى من نار.

* قال ـ تعالى ـ عن الكفار: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾ [الملك: ٧].

وسماعهم شهيقها من مقدمات عذابهم، فهي في شغف إليهم، بل وتناديهم، كما قال ـ عز وجل ـ ﴿ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [المعارج: ١٧]، وهذا من عذاب الأسماع التي صمّت عن الحق واستمعت للباطل، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

ووجه تقديم السمع على العقل؛ لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذرون، ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها.

* قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك:١٢].

وقدم المغفرة تطميناً لقلوبهم، لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم. فكان الكلام جارياً على قانون تقديم التخلية على التحلية، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع.

* قال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤].

هو اللطيف؛ يلطف بعباده، يسوق الرزق إليهم وهم لا يشعرون.

لا ينفك قدر الله من لطفه، لكن من يفقه هذا اللطف. فإذا قدر قدراً سبق اللطف، وكم نرى من فقد ولده ولطف الله ـ عز وجل ـ بحالة وأنزل عليه الصبر والرضا، ثم عوضه أجراً في الآخرة ومنازل عالية، وأتم عليه نعمة الدنيا بذرية صالحة.

* قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك: ١٥].

أخبر ـ سبحانه ـ أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه.

قال الشيخ علي الطنطاوي: نحن لا نتوكل التوكل الذي لم يأمر به الإسلام، بل نمشي في مناكب الأرض، نمشي مشياً لا نسعى سعياً، لأن الله قال في مجال الرزق: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، إن الله هو الذي قسم الأرزاق، وكتب لكل نفس رزقها وأجلها، وقال في مجال العبادة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، هذا هو الفهم الصحيح لمسألة الرزق.

* وبعد آيات التهديد والنذير تنتقل الآيات إلى لمسة التأمل والتفكير، فقد عاتبهم ـ سبحانه وتعالى ـ وحثهم على النظر والتفكير في ما خلق ـ سبحانه ـ من الطير السابح في السماء، وكيف دقة صنعه، وخفة جسمه، وكسوته بالريش، وارتفاعه، وطيرانه بطريقة عجيبة، تأملوا في حاله إذا ضرب بأجنحته في الهواء ارتفع في الجو وتقدم إلى الإمام.

قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾.

أي: انظروا إلى الطير فوقكم، فهي باسطة لأجنحتها في الهواء تبسطها عند طيرانها، وهذا من عجائب قدرته وخلقه.

﴿وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾.

أي: يضممن أجنِحَتهنّ، ولم يقل قابضات، كما قال صافات؛ لأن القبض يتجدد تارة فتارة، وأما البسط فهو الأصل.

﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ .

أي: ما يمسك الطير في الهواء عند الطيران والقبض والبسط إلا الرحمن. بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، وخص الرحمن دون لفظ الجلالة (الله) للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمة الله بهذه المخلوقات وبمن سخرت له. فرحمة الله بالمخلوقات بإمهالهم وعدم تعجيله بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء بحفظه من السقوط والهلاك، وفيه أيضاً دلالة إيماء على أن من أمسك الطير في الهواء قادر على إهلاك أهل الكفر والمراء.

* قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

تقدم السمع على البصر في الآيات والأحاديث: لأن السمع أهم وأعم، فالإنسان يسمع المنادي من جميع الجهات ولا يرى إلا بالجهة التي يمعن البصر فيها.

* قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ .

وفيه إيماء إلى أن يتوقع كفار مكة عذاب القحط والجوع بالجفاف، فإذا غارت العيون والآبار وذهب الماء في أعماق الأرض ولم تصل إليه الدلاء، فمن غير الله يأتيهم بماء معين تراه الأعين، أو بماء جار طيب، وهو استفهام إنكاري توبيخي موجب شكر المنعم على إنعامه بالإيمان به وعبادته.

وقد ذكر الشيخ السعدي ـ رحمه الله ـ: شيئاً من آثار لطف الله بعباده ـ فقال من لطفه بعباده المؤمنين: أنه يتولاهم بلطفه فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والبدع والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

ومن لطفه: أن يرحمهم من طاعة أنفسهم الأمارة بالسوء التي هذا طلبها وديدنها، فيوفقهم لنهي النفس عن الهوى ويصرف عنهم السوء والفحشاء. فتوجد أسباب الفتنة وجواذب المعاصي وشهوات الغي، فيرسل عليها

برهان لطفه ونور إيمانهم الذي منَّ به عليه مطمئنين لذلك منشرحة لتركها صدورهم.

ومن لطفه بعباده: أن يقدر أرزاق عباده، بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئاً وغيره أصلح؛ فيقدر لهم الأصلح وإن كرهوه؛ لطفاً بهم وبراً وإحساناً: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن لطفه بهم: أنه يقدر عليهم أنواع المصائب، وضروب المحن، والابتلاء بالأمر والنهي الشاق؛ رحمة بهم ولطفاً، وسوقاً إلى كمالهم وكمال نعيمهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن لطفه بعبده: أن يقدر له أن يتربى في ولاية أهل الصلاح والعلم والإيمان، وبين أهل الخير؛ ليكتسب من أدبهم وتأديبهم، ولينشأ على صلاحهم وإصلاحهم، كما امتن الله على مريم، في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن ذلك: إذا نشأ بين أبوين صالحين، وأقارب أتقياء، أو في بلد صلاح، أو وفقه الله لمقارنة أهل الخير وصحبتهم، أو لتربية العلماء الربانيين؛ فإن هذا من أعظم لطفه بعبده، فإن صلاح العبد موقوف على أسباب كثيرة: منها؛ بل من أكثرها وأعظمها نفعاً: هذه الحالة، ومن ذلك إذا نشأ العبد في بلد أهله على مذهب أهل السنة والجماعة فإن هذا لطف له.

ومن لطف الله بعبده: أن يجعل رزقه حلالاً في راحة وقناعة، يحصل به المقصود، ولا يشغله عما خلق له من العبادة والعلم والعمل، بل يعينه على ذلك ويفرغه، ويريح خاطره وأعضاءه، ولهذا من لطف الله ـ تعالى ـ لعبد ربما طمحت نفسه لسبب من الأسباب الدنيوية، التي يظن فيها إدراك

به، فيعلم الله ـ تعالى ـ أنها تضره وتصده عما ينفعه؛ فيحول بينه وبينها، فيظل كارهاً وهو لم يدر أن ربه قد لطف به، حيث أبقى له الأمر النافع، وصرف الأمر الضار، ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المناقب.

ومن لطف الله بعبده ـ إذا قدر له طاعة جليلة لا تنال إلا بأعوان أن يقدر له أعواناً عليها ومساعدين على حملها، قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَـٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٤]، وكذلك امتن على عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝﴾ [المائدة: ١١١]، وامتن على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٦٢].

ومن لطف الله بعبده: أن يعطي عبده ـ من الأولاد والأموال والأزواج ما به تقر عينه في الدنيا، ويحصل له به السرور، ثم يبتليه ببعض ذلك، ويأخذه ويعوضه عليه الأجر العظيم إذا صبر واحتسب، فنعمة الله عليه بأخذه من هذا الوجه أعظم من نعمته عليه في وجوده وقضاء مجرد وطره الدنيوي.
وهذا أيضاً خير وأجر خارج عن أحوال العبد بنفسه، بل هو لطف من الله له، قيض له أسباباً أعاضه عليها الثواب الجزيل، والأجر الجميل.

ومن لطفه بعبده الحبيب عنده: إذا مالت نفسه مع شهوات النفس الضارة، واسترسلت في ذلك؛ أن ينغصها عليه ويكدرها، فلا يكاد يتناول منها شيئاً إلا مقروناً بالمكدرات، محشواً بالغصص؛ لئلا يميل معها كل الميل، كما أن من لطفه به أن يلذذ له التقربات، ويحلي له الطاعات؛ ليميل إليها كل الميل.

ومن لطيف لطف الله بعبده: أن يأجره على أعمال لم يعملها بل عزم عليها، فيعزم على قربة من القرب ثم تنحل عزيمته لسبب من الأسباب فلا

يفعلها، فيحصل له أجرهـا، فانظر كيف لطف الله به! فأوقعها في قلبه، وأدارها في ضميره، وقد علم - تعالى - أنه لا يفعلها؛ سـوقاً لبره لعبده وإحسانه بكل طريق.

وألطف من ذلك: أن يقيض لعبده طاعة أخرى غير التي عزم عليها، هي أنفع له منها؛ فيدع العبد الطاعة التي ترضي ربه لطاعة أخرى هي أرضى لله منها، فتحصل له المفعول بالفعل والمعزوم عليها بالنية، وإذا كان من يهاجر إلى الله ورسوله، ثم يدركه الموت قبل حصول مقصوده قد وقع أجره على الله - مع أن قطع الموت بغير اختياره - فكيف بمن قطعت عليه نيته الفاضلة طاعـة قد عزم على فعلها؟! وربمـا أدار الله في ضمير عبده عدة طاعات، كل طاعة لو انفردت لفعلها العبد؛ لكمال رغبته، ولا يمكن فعلٍ شيء منها إلا بتفويت الأخرى، فيوفقه للموازنة بينها، وإيثار أفضلها فعلاً، مع رجاء حصولها جميعها عزماً ونية.

وألطف من هذا: أن يقدر - تعالى - لعبده ويبتليه بوجود أسباب المعصية، ويوفـر له دواعيها، وهو - تعالى - يعلم أنه لا يفعلها؛ ليكون تركه لتلك المعصية التي توفرت أسـباب فعلها من أكبر الطاعات، كما لطف بيوسف - عليه السـلام - في مراودة المرأة، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يـوم لا ظل إلا ظله: رجل دعته امـرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ومن لطف الله بعبده: أن يقدر خيراً وإحساناً من عبده ويجريه على يد عبده الآخر، ويجعله طريقاً إلى وصوله للمستحق، فيثيب الله الأول والآخر.

ومن لطف الله بعبده: أن يجري بشـيء من ماله شـيئاً مـن المنافع وخيراً لغيره؛ فيثيبه من حيث لا يحتسـب، فمن غرس غرسـاً، أو زرع زرعاً؛ فأصابـت منه روح من الأرواح المحترمة شـيئاً، آجـر الله صاحبه وهو لا يدري! خصوصاً إذا كانت عنده نية حسنة، وعقد مع ربه عقداً في أنه مهما ترتب على ماله شـيء من النفع، فأسألك يا رب أن تأجرني، وتجعله قربة

لي عندك، وكذلك لو كان له بهائم انتفع بدرها وركوبها والحمل عليها، أو مساكن انتفع بسكناها ولو شيئاً قليلاً، أو ماعون ونحوه انتفع به، أو عين شرب منها، وغير ذلك ككتاب انتفع به في تعلم شيء منه، أو مصحف قرئ فيه، والله ذو الفضل العظيم.

ومن لطف الله بعده: أن يفتح له باباً من أبواب الخير لم يكن له على بال وليس ذلك لقلة رغبته فيه، وإنما هو غفلة منه، وذهول عن ذلك الطريق يشعر إلا وقد وجد في قلبه الداعي إليه، واللافت إليه؛ ففرح بذلك، وعلم أنها من ألطف سيده، وطرقه التي قيض وصولها إليه؛ فصرف لها ضميره ووجه إليها فكره، وأدرك منها ما شا الله وفتح.

سورة القلم ٦٨

ســورة «ن» سورة مكية، ابتدأت الســورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه، وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه ـ وحاشاه ـ بالجنون، وبينت أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، قال بعض العلماء: سورة «ن» هي سورة «الخُلُق» الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ قال الله ـ تعالى ـ فيها ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وقد أقســم الله ـ تعالى ـ بالقلم، وذلك أن القلم وما يســطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تســتحق أن يقســم الله بها على براءة نبيه محمد ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون.

* قال تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ [القلم: ١].

قال قتادة: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا القلم ما قام دين ولم يصلح عيش، والله أعلم بما يصلح خلقه.

ويؤخذ من الإقسام بالقلم وبالمكتوب فضل العلم وأهله. وقد قال بعض السلف: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم.

ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ ما أجراه على نبيه من نعمة النبوة والرسالة، ومــا وهبه له من الأخلاق الكاملة العالية الرفيعة والأدب الجم، التي تنافي الجنون والسفه، فقال سبحانه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ أي: عالياً به، جمع لك به محاسن الأخلاق ومحاسن الصفات.

والمعنى: إنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن، ثبت في الصحيح عن عائشة أنها سُئلت عن خلق النبيّ ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن».

قال الغزالي: فسبحان الله ما أعظم شأنه، وأتم امتنانه، انظر إلى عميم لطفه، وعظيم فضله، كيف أعطى ثم أثنى، فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤].

* وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ الآيات السابقة تسلية لنبيه ﷺ وإعانة له على تحمل أعباء الرسالة، شد من أزره ورفع قدره، فقال تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝﴾ [القلم: ٨].

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى: فيه فوائد، منها: أن الأخلاق مكتسبة بالمعاشرة؛ ففيه تحذير عن اكتساب شيء من أخلاقهم بالمخالطة لهم؛ فليأخذ حذره فإنه محتاج إلى مخالطتهم لأجل دعوتهم إلى الله ـ تعالى ـ.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾.

ولا تطع ـ يا محمد ـ كثير الحلف بالباطل، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو:

﴿مَّهِينٍ ۝﴾.

أي: فاجر حقير، خسيس النفس، ناقص الهمة، دنيء الأخلاق.
ومهين: من المهانة، وهي القلة في الرأي والتمييز.

وفيه دليل على أن من أكثر الأيمان هان على الرحمن، واتضعت مرتبته عند الناس.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝﴾.

أي: مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب. يمشي بين الناس بالنميمة.
والنميمة هي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: بخيل ممسك، يمنع النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك. وجاءت الأوصاف: حلاف، هماز، مشاء، مناع، بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

ظالم للخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله ـ تعالى ـ.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: جافٍ، غليظ، شرس الخَلْق، غير منقاد للحق. وهو بعد ما عُدَّ من معايبه زنيم. والزنيم: الدعيّ الملصق بالقوم وليس هو منهم، وهذه أشد معايبه وأقبحها.

قيل نزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعيّاً في قريش وليس منهم، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة. قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً. وروي أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه، فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة فيَّ أعرفها غير التاسع منها، يريد أنه «زنيم»، فإن لم تصدقيني ضربت عنقك بالسيف، فقالت له: إن أباك كان عنيناً ـ أي لا يستطيع معاشرة النساء ـ فخفت على المال فمكنت راعياً من نفسي، فأنت ابن ذلك الراعي، فلم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت الآية.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى، واستكبر عن الحق، وهذا تقريع وتوبيخ له كيف جازى نعم الله بالكفر والاستكبار عن الحق.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

من صفاته وحاله الشنيع، أنه إذا قرأت عليه الآيات جعلها من جملة أساطير الأولين التي يمكن صدقها وكذبها. وقد توعد الله من كذب بآياته

ورسله بالعذاب الشديد جزاء فعله، فقال تعالى:

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴾.

أي: سوف نجعل له الوسم بالسواد على أنفه، وذلك أنه يسود وجهه بالنار قبل دخول النار، فيكون له على أنفه علامة، ونُلْحِق به شينًا لا يفارقه يعرف به، وخص الأنف بالذكر لأن الوسم فيه أبشع. ولأن السمة على الوجه شين وإذاله، وقد خُطم أنفه بالسيف يوم بدر.

قال ابن تيمية: وفيه إطلاق يتضمن الوسم في الآخرة وفي الدنيا أيضاً. فإن الله جعل للصالحين سيماً، وجعل للفاجرين سيماً. قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه لا بد أن يسم صاحب هذه الأخلاق الخبيثة على خرطومه، وهو أنفه الذي هو عضوه البارز الذي يسبق البصر ـ إليه عند مشاهدته؛ لتكون السيما ظاهرة من أول ما يرى، وهذا ظاهر في الفجرة الظلمة الذين ودعهم الناس اتقاء شرهم وفحشهم، فإن لهم سيماً من شر يعرفون بها، وكذلك الفسقة وأهل الريب.

* ثم ساق ـ سبحانه ـ مثلاً ضربه ـ تعالى ـ لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعث محمد ﷺ فقابلوه بالتكفير، والرد والمحاربة، والسخرية والاستهزاء.

قال تعالى:

﴿ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ ﴾ [القلم: ٢٨ ـ ٢٩].

دليل على أن المذنب الظالم لنفسه محتاج ـ مع ربه ـ إلى الاعتراف بذنبه، وسوء صنيعه بلسانه، وإن كان نادماً عليه بقلبه، وكذا كان نبينا ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي».

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ [القلم: ٣١].

قال ابن تيمية: فإنه ـ سبحانه ـ إذا أنعم على عبد بباب من الخير وأمره بالإنفاق فيه فبخل، عاقبه بباب من الشر ـ يذهب فيه أضعاف ما بخل به، وعقوبته في الآخرة مدخرة.

* قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤].

قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم وننسيهم الشكر.

وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه.

* قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وذلك نص في الصبر على ما يناله من أذى الخلق وعلى المصائب السماوية. والصبر على الأول أشد.

سورة الحاقة ٦٩

سورة الحاقة سورة مكية، ذكر الله فيها الساعة وشدائدها، وأحوال الأمم السابقة، وما جرى لهم بعدما طغوا وبغوا. وذكرت الآيات حال الناس يوم القيامة وما يجري لهم من الفزع والأهوال، سورة الحاقة، آيات بينات، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.

* قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾ [الحاقة: ١].

قال البغوي: سميت حاقة لأنها حقت فلا كاذبة لها، وقيل: لأن فيها حواق الأمور وحقائقها، ولأن فيها يحق الجزاء على الأعمال.

* قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٥].

وابتدئ بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهم أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة، لأنهما من الأمم العربية ولأن ديارهما مجاورة شمالاً وجنوباً.

* وقد ذكر ـ عز وجل ـ في السورة ما جرى لقوم عاد، فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٦].

الريح الصرصر الشديدة الباردة، واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح، وزاد شدتها بوصفها ﴿عَاتِيَةٍ ۝﴾ أي: متجاوزة الحدّ في الهبوب والبرودة، لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن، كأنها عتت على خزانها فلم يتمكنوا من ضبطها.

قال ابن عباس: ما أرسل الله من ريح قط إلا بمكيال، ولا أنزل قطرة قط إلا بمكيال، إلا يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على سبيل، (إنا لما طغى) عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝﴾.

وللرياح في القرآن ثمان معان:

أربع رحمة وهي: المبشرات، والمرسلات، والذاريات، والناشرات.

وأربع عذاب: الصرصر، والعقيم في البر، والعاصف والقاصف في البحر.

* قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: ١١].

تصوير عجيب يخلع على الماء صفات الآدمي عبر استعارة فريدة تصور الماء حال اضطرابه بالطاغية مجاوزاً الحد.

* لما ذكر الله ـ عز وجل ـ نهاية الأمم الظالمة، وقصص المكذبين وما جرى لهم من العذاب في الدنيا، ذكر ـ سبحانه ـ الحال يوم الفزع الأكبر يوم القيامة، وأتبعه بذكر أهوالها وشدائدها حيث المشهد المهول، ونهاية الكون، أحداث متسارعة متلاحقة كأننا نراها رأي العين، قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

حيث ينفخ إسرافيل في القرن، وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب وهلاك الدنيا.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾

أي: فتت الجبال واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت الأرض فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. فكسرتا كسرة واحدة لا زيادة عليها. وقيل: دكتا: بسطتا بسطة واحدة.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: هذا ليس على وجه التأكيد المجرد، بل المراد التقييد بالمرة الواحدة.. أي: أن النفخ لم يكن نفختين، ولم يك دك الأرض والجبال بعد حملهما دكتين، بل واحدة فقط، فعل المقتدر على الشيء المتمكن منه، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩].

* ولما ذكر ـ سبحانه ـ حال الأرض وما يقع فيها من تبدل وتزلزل وأهوال عظام، ذكر حال السماء في يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وانصدعت السماء وانشقت بنزول ما فيها من الملائكة، فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية بعدما كانت محكمة.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: تكون الملائكة الكرام على حافاتها وجوانبها، حتى يأمرهم الربّ ـ عز وجل ـ فينزلون إلى الأرض، ويحيطون بالأرض ومن عليها. وفي ذلك اليوم يحمل عرش الرحمن، ثمانية من الملائكة المقربين العظام فوق رؤسهم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: في ذلك اليوم الرهيب يعرض العباد على الله لحسابهم وجزاءهم. لا يخفى على الله ـ سبحانه ـ من ذواتكم، أو أقوالكم وأفعالكم، خافية كائنة ما كانت؛ فالكل مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف الرأس، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز العيوب بروز الشهود، ويتجرد الإنسان من حيطته ومكره، ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه. فاللهم الطف بنا ولا تجعلنا من المفضوحين في يوم العرض ولا فوق الأرض.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١].

الوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من جرد كونها مرضية فقط.

* قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤].

قال قتادة: أيامكم هذه أيام خالية إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام، وقدموا خيراً إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله.

خرج ابن عمر ومعه أصحاب له، ووضعوا سفرة لهم، فمر بهم راعي غنم، فدعاه ابن عمر ليأكل، فقال: إني صائم! فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد سمومه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال: إني والله أبادر أيامي الخالية.

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما ستحقوا.

وفيه دليل قوي على عظم جرم حرمان المسكين؛ لأن عطفه على الكفر وجعله دليلاً عليه وقرينة له، لأن ذكر الحض دون الفعل ليُعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق، وعن أبي الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول: خلعنا نصف السلسلة بالإيمان فنخلع نصفها بهذا.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة: ٣٤].

ووصفه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى، وهذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها، لأنه قرن منه طعام المسكين بالكفر بالله.

* قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠].

وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن، والإنس، والعرش، والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته؛ وهو ـ سبحانه ـ يصرف الأقسام كما يصرف الآيات ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما يرى آية، هو دليلك على صدق رسوله وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤١ ـ ٤٢].

وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: افتراه أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم. فأما الشاعر والكاهن فقد كان معدودين عندهم من أهل الشرف.

* ثم ذكر الله ـ تعالى ـ بعد هذا السياق العظيم، أحوال ومنصرف كل فريق، وذكر أحوال السعداء والأشقياء حيث تعرض الآيات التالية مشهد الناجين والمعذبين، وصفاً دقيقاً واضحاً، كأنه حاضر تراه العيون. وختم السورة بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٣﴾﴾ [الحاقة: ٥٣].

وهو العظيم؛ إذا تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة، أو رعدة شديدة خوفاً من الله، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً.

سورة المعارج (٧٠)

سورة المعارج سورة مكية، ذكر الله - عز وجل - فيها البعث والجزاء وأحوال القيامة وأهوالها، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاء، وراحة ونصب، وذكر فيها أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود. وتحدثت آيات السورة عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور، واستهزائهم بدعوة الرسول ﷺ.

* قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

أي: دعا داع من المشركين على نفسه وقومه بنزول العذاب عليهم، وهذا السائل قيل: هو النضر بن الحارث من صناديد قريش وطواغيتها، لما خوفهم الرسول ﷺ عذاب الله، قال استهزاء: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾، دعا بهذا العذاب على الكافرين.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾.

أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله وذلك لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾.

أي: هو صادر من الله العظيم الجليل، ذو العلو والعظمة والتدبير لسائر خلقه، صاحب المصاعد التي تصعد بها الملائكة، وتنزل بأمره ووحيه.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾

أي: تصعد الملائكة الأبرار إلى الله - عز وجل - في تلك المعارج التي جعلها الله لهم. والروح هو جبريل - عليه السلام - خصه بعد العموم

لفضله وشـــرفه، في يوم كان طوله خمسون ألف سنة من سني الدنيا، مدّة موقف العباد للحساب هي هذا المقدار من السنين، ثم يستقرّ بعد ذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: اصبر ـ يا محمد ـ على دعوتك لقومك، اصبر على اســـتهزائهم وأذاهـــم ولا تضجر، اصبر على صدهم وعصيانهـــم، اصبر عليهم صبراً جميلاً، واســـتمر على أمر الله وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك ما ترى من عدم انقيادهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً. وقد كان هذا فعل النبي ﷺ حتى أشرقت الأرض برسالته ﷺ.

والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه، ولا شكوى لغير الله.

﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾.

أي: إن هؤلاء المســـتهزئين يرون البعث أو العذاب مســـتبعدًا محالاً غير كائـــن لأنهم لا يؤمنون به. والله ـ عز وجل ـ يراه قريباً، كائناً لا محالة، لكنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون.

* ثم ذكر الله ـ عز وجل ـ أحوال وأهوال القيامة، وما يجري في ذلك اليوم، وما يكون فيه، قال تعالى:

﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: يـــوم القيامـــة تكون الســـماء كالمهل؛ وهو ما أذيـــب من النحاس والرصـــاص والفضة، ثم بعـــد ذلك تكون هباءً منثـــوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشـــديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقلته الذنوب، أليس حقيقاً أن ينخلع قلبه وينزعج له، ويذهل عن كل أحد؟ ثم قال سبحانه:

﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: متناثرة متطايرة كالصوف المنفوش.

* وإذا كانت السماء والجبال مع عظمة خلقهما يعتريهما ما يعتريهما من التبدل والتغير، فكيف بالإنسان المخلوق الضعيف، ولهذا قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝﴾ [النازعات: ٢٧].

* قال - تعالى - في ذلك الموقف العظيم:

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝﴾.

أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه، عن شأنه في ذلك اليوم، لما نزل بهم من شدّة الأهوال، ولا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله.

وفي هذه الأحوال العظيمة والشدائد المتوالية تكون الحال كما ذكر سبحانه، بقوله:

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝﴾.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أداة زجر وتعنيف، أي: لا حيلة ولا مناص لهم، لقد ذهب وولى نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾.

أي: إنها النار الحامية. ولظى: اسم لجهنم، واشتقاقها من التلظي في النار، وهو التلهب. تنزع بشدة حرها جلدة الرأس من الإنسان، وخصها بالذكر؛ لأنها أشد الجسم حساسية وتأثراً بالنار.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝﴾.

أي: أن جهنم تنادي وتدعو إليها من أدبر عن الحق في الدنيا، وأعرض عنه. تدعو من جمع المال فجعله في وعاء، فلم ينفق منه في سبيل الله، ولم يؤد منه حق الله.

* ثم ذكر - سبحانه وتعالى - مآل الإنسان وانقسامه إلى فريقين في تلك الأحوال، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ أي: إن الإنسان جبل على الضجر، ولا يصبر على بلاء. والهلع: أشد الحرص، وأسوأ الجزع وأفحشه.

قال ابن القيم في عدة الصابرين: وإذا أردت معرفة الهلوع؛ فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستكانة وباء بها سريعاً، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، والله المستعان.

* تأتي الآيات القرآنية بلفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في مقام الذم في أكثر من ست عشر موضعاً قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج: ٦٦]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس: ١٧] وغيرها من الآيات.

* قال ـ تعالى ـ عن الإنسان: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [المعارج: ٢٠ ـ ٢١].

قال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويهرب مما يكره، ثم تعبده بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾.

أي: يجزع وينخلع قلبه، إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له من مال أو أهل وولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله وقدر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

أي: إذا أصابه الخير، وحصلت له نعمة من الله من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك، فهو كثير المنع والإمساك فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء.

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

أي: المقيمين للصلاة، استثناهم من البشر الموصوفين بالهلع. يعني: أنهم ليسوا على تلك الصفات من الهلع والجزع والمنع، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا مما خولهم الله، وإذا مسهم البلاء صبروا واحتسبوا، لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شدتها ولا يبخلون بخيرها، ويرجون ما عند الله شكراً على النعمة وصبراً على البلاء.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

مواظبون على أداء الصلاة، يحافظون على أوقاتها وواجباتها، لا يشغلهم عنها شاغل. وفي أموالهم نصيب معين فرضه الله عليهم.

للسائل هو الفقير الذي لا يجد شيئاً ويتعرض لك فيطلب منك العون.

والمحروم: الذي لا يقدر على الكسب ويتعفف عن السؤال حتى يحسبه الناس غنيّاً فلا يتصدقون عليه، وقيل الذي أصابته جائحة.

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المعارج: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المعارج: ٢٣].

وكرر ذكر الصلاة لاختلاف ما وصفهم به أولاً، وما وصفهم به ثانياً، فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف، ومعنى المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

أي: يؤمنون بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، لا يشكّون فيه ولا يجحدونه فيستعدون له بالأعمال الصالحة. ومن صفاتهم أنهم خائفون وجلون، مع ما لهم من أعمال الطاعة، فهم يرجون الثواب ويخافون العقاب.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: في عدم حفظ فروجهم عن أزواجهم ولا عما ملكت إيمانهم، ويُلامون إذا انطلقوا فيما عدا ذلك.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات. فأولئك المتجاوزن ما أحل الله إلى ما حرم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: لا يخلون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، ولا ينقضون شيئًا من العهود التي يعقدونها على أنفسهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا هو الوصف السابع من أوصاف المؤمنين، أي: يقيمون الشهادة على وجهها على من كانت عليه من قريب أو بعيد، رفيع أو وضيع، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ولا يحابون فيها قريباً ولا صديقاً، ويكون القصد بها وجه الله.

وذكر حفظ الشهادة بعد ذكر رعي الأمانات، لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد، فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له، وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها، ولأن الشهادة تتعلق بها حقوق كثيرة بل تتعلق بها حدود الله ـ تعالى ـ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، لا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ولا يفعلون ما يحبطها ويبطل ثوابها، وهذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين. وقد افتتح ـ سبحانه ـ الكلام بذكر الصلاة

واختتمه بذكرها؛ فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها وعظم أمرها.

ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

أي: الموصوفون بتلك الصفات الجليلة والمناقب الرفيعة. مستقرّون في الجنات، مكرمون بأنواع الكرامات.

سورة نوح (٧١)

ســورة نوح سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها كاملة، قصة شيخ الأنبياء نوح ـ عليه الســلام ـ مع قومه لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوة التوحيد ونهيه عن الشرك، وما قام به من الدعوة إلى الله بوسائل وأساليب شــتى، ومن ذلك أن ذكرهم بنعمة الله وما أفاض عليهم من الخيرات، ولما عصوا وطغوا أصابهم العذاب، وأغرقهم الله ـ عز وجل ـ عبرة للمعتبرين.

وهــذه القصص وأمثالها مــن قصص الأنبياء فيها تذكير بالأمم الســابقة، وتسلية للنبي ﷺ على ما يلاقي من قومه في سبيل دعوتهم، وهذه السورة تمثل منهج الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ من حيث تنويع الأساليب، والجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة، والتوجه إلى الله ـ عز وجل ـ وشكوى الحال إليه ـ سبحانه ـ.

* قــال تعالــى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝﴾ [نوح: ١ ـ ٣].

قال ابن عباس: كل موضع في القرآن: اعبدو الله؛ فمعناه وحدوا الله.

* قال تعالــى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١].

قال ابن كثير: ولهذا تســتحب قراءة هذه الســورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية. وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: أنه صعد ليستسقي، فلم يزد على الاستغفار، وقرأ الآيات في الاستغفار. ومنها هذه الآية: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝﴾، ثم قال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يتنزل بها المطر.

قال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله ـ عز وجل ـ عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه.

وفي الآية أهمية الترغيب في الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ إذ النفس متشوقة للحصول على العاجل.

* قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

قال ابن القيم في الفوائد: من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ أي: لا تعاملونه معامله من توقرونه.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

قال ابن جزي: وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً، لأن ضوء السراج أقوى من النور، فإن السراج وهو الذي يضيء فيبصر به، والنور قد يكون أقل من ذلك.

* قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

وهذه بشارة لكل مؤمن ومؤمنة يكون إلى يوم القيامة، لأن نوحاً ـ عليه السلام ـ نبي، ودعاؤه مستقيم.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ خص المذكورين لتأكد حقهم، وتقديم برهم ثم عمم الدعاء.

سورة الجن (٧٢)

سورة الجن سورة مكيّة، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أن الجن مكلفون مجازون بأعمالهم، وأنه ـ سبحانه ـ بعث محمداً ﷺ للإنس والجن كافة بشيراً ونذيراً، وذكر ـ تعالى ـ في الآيات اعتناؤه برسوله وحفظه لما جاء به، ومنع الجن من استراق السمع بشهب تطال من يسترق، وبين ـ تعالى ـ شدة حرص الجن لاستماع الرسول وقيامهم بتبليغ الدعوة، وختمت السورة بأن علوم الغيب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق إلا من ارتضاه الله وخصه بعلم شيء منها، فإن الله ـ عز وجل ـ أيد الأنبياء بالآيات الباهرات والمعجزات العظيمات، تأييداً لهم وتبياناً للناس، وقد ذكر ـ تعالى ـ حكاية عن الجن لما علموا وسمعوا بما جرى من بعثة الرسول ﷺ.

ثم بينوا علمهم بقدرة الله ـ تعالى ـ عليهم أينما كانوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

فلاهم يعجزون الله وهم في الأرض، ولاهم يعجزونه بالهرب منها.

ثم قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله ـ تعالى ـ، حذفوا فاعله تأدباً مع الله.

وهذا الأدب كثير في القرآن الكريم، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠].

أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال ـ تعالى ـ آمراً للمصلي أن يقول: ﴿وَأَنَّا

ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾.

إلى آخر السورة فأسند الإنعام والهداية إلى الله ـ تعالى ـ، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الظلال إلى العبيد.

* قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧].

قال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ لو سعنا عليهم في الدنيا؛ وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه.

قدم الإنس في الآية الأولى، والجن في الآية الثانية.

وفي الآيتين تحدٍّ، ولكن لما كان مداره في الآية الأولى البلاغة قدم الإنس، ولما كان مدار التحدي بالثانية سرعة النفاذ والانتقال قدم الجن.

سورة المزمل (٧٣)

سورة المزمل سورة مكية، تتناول جانباً من حياة الرسول ﷺ، في تبتله، وطاعته، وقيامه الليل، وتلاوته لكتاب الله ـ عز وجل ـ، وفي الآيات أمر بالعبادات المتعلقة به ﷺ، ثم أمره بالصبر على أذية أعدائه، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكد الأوقات وأفضلها، وهو قيام الليل.

* قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾.

هذا الخطاب للنبيّ ﷺ وفيه تأنيس وملاطفة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فقد كان يتزمّل بثيابه أول ما جاءه جبريل بالوحي خوفًا منه، فإنه لما سمع صوت الملك ونظر إليه أخذته الرعدة؛ لأنه رأى أمراً لم يرَ مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فأتى أهله، وقال: «زملوني، دثروني». ثم بعد ذلك خوطب بالنبوّة والرسالة، وأنس بجبريل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾ [المزمل: ١].

قال القرطبي: وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليه.

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد ليله ليتنبه إلى قيام الليل وذكر الله ـ تعالى ـ فيه.

* قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾.

قم للصلاة في الليل، ودع التزمل والتلفف والراحة والسكون، وصلّ الليل كله إلا يسيراً منه.

قال ابن تيمية: إذا كان الله ـ عز وجل ـ قد سمى الصلاة تسبيحاً، فقد دل ذلك على وجوب التسبيح. كما أنه لما سماها قياماً في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝﴾ [المزمل: ٢] دل على وجوب القيام، وكذلك لما سماها قرآناً في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] دل على وجوب القرآن فيها، ولما سماها ركوعاً وسجوداً في مواضع دل على وجوب الركوع والسجود فيها.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

أي: قم نصف الليل، أو أقل من النصف قليلاً بأن يكون الثلث أو نحوه. قم للصلاة والعبادة أو زد على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٣ ـ ٤].

إن قيل: لم قيد النقص من النصف بالقلة، فقال: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝﴾ وأطلق في الزيادة، فقال: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ ولم يقل قليلا؟

فالجواب: أن الزيادة تحسن فيها الكثرة فلذلك لم يقيدها بالقلة بخلاف النقص فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيرا.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝﴾.

أي: اقرأه على مهل مع تدبّره حرفًا حرفًا. والترتيل: هو أن يبين جميع الحروف، ويوفي حقها من الإشباع، فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكر، وتحريك القلوب به، والتهيؤ والاستعداد التام له.

والأمر بترتيل القرآن لأجل ضبط ألفاظه وتحسين الصوت به، ولأجل تدبر معانيه وهو الأهم، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً ۝﴾ [المزمل: ٦].

قيل: والحكمة في الترتيل: التمكن من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها. فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ويستنير القلب بنور الله، وبعكس هذا فإن الإسراع في القراءة يدل على عدم الوقوف على المعاني.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ أي: سننزل عليك ـ يا محمد ـ كلاماً عظيماً جليلاً، سنوحي إليك القرآن، سهلاً ميسراً في بناه، ولكنه قول ثقيل فرائضه وحدوده، وحلاله وحرامه، لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مملؤة بالتوحيد، فإن أعباء الرسالة والقيام بها لا تتوافق مع التزمل وطلب الراحة، بل لا بد من القيام بها والنهوض بأعبائها.

وفي قيام الليل، استعداد وتدريب للنفس، ومناجاة للرب، يعين على تحمل أعباء الرسالة ومشاقها.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

قال الشيخ ابن عثيمين: الصبر على ما يقولون يتضمن شيئين:

الأول: عدم التضجر مما يقول هؤلاء، وأن يتحمل ما يقوله أعداؤه فيه، وفيما جاء به.

والثاني: أن يمضي في الدعوة إلى الله، وأن لا يتقاعس.

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة، وكانت هذه في أوائل الدعوة في مكة.

قال الرازي: إن الله جمع ما يحتاج إليه الإنسان في مخالطة الناس في هاتين الكلمتين، لأن المرء إما أن يكون مخالطاً فلا بدّ له من الصبر على إيذائهم وإيحاشهم، لأنه إن أطمع نفسه بالراحة معهم لم يجدها مستمرة، فيقع في الغموم، وإن لم يرضِ نفسه بالصبر على أذاهم، وإن ترك المخالطة فذلك هو الهجر الجميل.

﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

ضربُ مثل لشدة ذلك اليوم، وهو مجاز باعتبار ما يقع فيه من الأحوال والأحزان، وهو تجوز وإبلاغ في وصف هوله؛ لأن يوم القيامة لا يكون فيه ولدان.

والأصل فيه: أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنســان أسرع فيه الشيب، كما يجوز أن يوصف اليوم بالطول، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب.

قال قوم: هذه حقيقة، فتشــيب رؤوســهم من شــدة الهول، كما يُرى الشيب في الدنيا من الهم المفرط كهول البحر.

* قــال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي تقديم طلب الرزق على القتال في سبيل الله إشارة إلى أهمية طلب الرزق والاستغناء عن الخلق.

وقــد كان بعض الصحابــة يتأول من هذه الآية فضيلة التجارة والســفر لأجلها، حيث سوى الله بين المجاهدين والمكتسبين المال الحلال.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ما من حال يأتيني عليه الموت ـ بعد الجهاد في سبيل الله ـ أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين سعبتي رحلي ألتمس من فضــل الله، ثم تلا هذه الآيــة: ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

* قال تعالى: ﴿ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشــيخ ابن عثيمين ـ رحمــه الله ـ: عبر الله بالقرض، وهو الغني ـ ســبحانه وتعالــى ـ، والحكمة في أن يقول هــذا ـ جل وعلا ـ؛ ليبين

أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

* قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشيخ السعدي: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

سورة المدثر (٧٤)

سورة المدثر سـورة مكية، لما بُدِئ رسول الله ﷺ بالوحي أتاه جبريل، فرآه رسـول الله ﷺ على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلألئ، ففزع ووقع مغشـيّاً عليه، فلما أفاق دخل على خديجة ـ رضي الله عنها ـ ودعا بماء فصبه عليه، وقال: «دثروني دثروني»، فدثروه بقطيفة.

❁ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝﴾.

يـا أيها الذي قد تدثـر بثيابه؛ أي: تغشـى بها وتغطـى، يريد النوم والراحة.

وفي هذا ملاطفة في الخطـاب من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله، وعبّـر عنه بصفته ولم يقل: (محمد)، ويا فلان ليستشـعر اللين والملاطفة من ربه، ومثله النداء في سورة المزمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝﴾ ومثله قول ﷺ لعلي إذا نام في المسـجد: «قم أبا تراب»، وقوله ﷺ لحذيفة ليلة الخندق: «قم يا نومان».

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝﴾.

أي: قم من مضجعك وانهض بجد ونشاط، فخوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسـلموا، فالدعوة تحتاج إلى همة وعزيمة ونشاط، وقد فعل الرسول ﷺ ما أمر به وظل قائماً بالدعوة أكثر من عشرين عاماً، لم يسترح ولم يسـكن، نهض بالدعوة وقام بها حتى بلغ الرسـالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝﴾.

أي: وعظـم ربـك ومالكـك ومصلـح أمورك بالتكبيـر، وهـو وصفه ـ سبحانه ـ بالكبرياء والعظمة، وأنه أكبر من أن يكون له شريك. كما أمره

ـ سبحانه ـ بتطهير ثيابه وحفظها عن النجاسات.

وقيل: نفسك فطهرها من الذنب، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾.

أي: اتـرك الأصنام والأوثان، واثبت على هجرها لأنك بريء منها فلا تعبدها، فإنها سـبب العذاب. ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝﴾.

أي: لا تمـن على ربك بما تتحمله من أعباء النبوّة، كالذي يسـتكثر ما يتحمله بسبب الغير.

وقيـل: المعنى: إذا أعطيت أحـدًا عطية فأعطها لوجـه الله، ولا تمنّ بعطيتك على الناس، وانس عندهم إحسانك، ولا ترى لك الفضل عليهم بإحسـانك، ولا تطلب أجره إلا في الله ـ تعالى ـ. بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

قال الحسن: لا تسـتكثر عملك، فإنك لا تعلم ما قبل منه، ومارد منه فلم يقبل.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝﴾ أي: حُمِّلْتَ أمراً عظيماً سـتحاربك العرب عليه والعجم، فاصبر عليه لله، واقصد به وجه الله.

* ثم ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ وجوب إخلاص العبادة له، والصبر على الأذى فيه، مذكراً بأهوال يوم عظيم؛ هو يوم القيامة، قال تعالى:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝﴾.

أي: فـإذا نفـخ في الصور للقيـام من القبور، وجُمـع الخلق للبعث والنشـور. والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن التعبير هنا أشـد إيحاء بشـدة الصوت ورنينـه، وكأنه نَقْرٌ

يُصَـوِّت ويُدَوِّي، والصوت الذي ينقر الآذان أشـد وقعاً من الصوت الذي تسعمه الأذان.

ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين، فهو عسر كله، لا يتخلله يسر.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝﴾.

أي: يوم القيامة، يوم صعب شاق لكثرة أهواله وشدائده. ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين سهل يسير.

* كل مـا في القرآن من أصحاب النـار فالمراد أهلها؛ إلا قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] فالمراد خزنتها.

* قـال تعالـى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٤].

دليـل على توكيد حرمة المسـكين، حيث قرن تضييعـه بترك الصلاة، وخوض الخائضين، وتكذيب بيوم الدين.

* قـال تعالـى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥٠].

شـبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد والرماة، ففرت منه، وهذا مـن بديع التمثيل فـإن القوم مـن جهلهم بما بعث الله ـ سـبحانه ـ رسوله كالحمر فهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشـد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سـعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عمـا يهلكها ويعقرها، وتحت المسـتنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضاً وحضه على النفور فإن في الاسـتفعال مـن الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد؛ فكأنها تواصيت بالنفور وتواطأت عليه.

﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

أي: هو أهل أن يتقيه المؤمنون بترك معاصيه والعمل بطاعته.

﴿ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ .

أي: أن المغفرة من خصائصه، وأنه الحقيق بأن يغفر للمؤمنين ما فرط منهم من الذنوب لفرط رحمته، وسعة كرمه وإحسانه، والحقيق بأن يقبل توبة التائبين من العصاة فيغفر ذنوبهم.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ قال: «**قال الله ـ عز وجل ـ أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً فأنا أهل أن أغفر له**».

وقال قتادة: هو أهل لأن تتقى محارمه، وأن يغفر الذنوب.

سورة القيامة (٧٥)

سورة القيامة ســـورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها البعث والجزاء، والقيامة وأهوالها، والســـاعة وشدائدها، وحالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقـــاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب، ولذلك ســـميت ســـورة القيامة، وذكر أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: من ســـأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها ليقرأ هذه السورة.

* قال تعالى:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾﴾.

لا: أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، والتقدير أقسم بيوم القيامة. وإقســـامه ـ سبحانه ـ بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته.

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾.

أي: ولا أقسم بالنفس المؤمنة التقية وهي نفس المؤمن، تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لِمَ عملتْهُ، وعلى الخير لِمَ لَمْ تستكثر منه.

أو هي نفس الكافر، يلوم نفســـه ويتحسر في الآخرة على ما فرّط منها في جنب الله.

قال الحسن البصري: إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديثي نفسي؟ ولا أراه إلا يعاتبها، وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

* ثم أخبر ـ تعالى ـ مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾.

هذا جواب القسم، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أيظن هذا الإنسان الكافر أن لن نقدر على جمع عظامه بعد الموت وبعد أن صارت رفاتًا، فنعيدها يوم القيامة خلقًا جديدًا، وذلك حسبان باطل.

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾.

أي: بلى سنجمعها، ونحن قادرون على أن نجمع أصابعه بعضها إلى بعض، فنجعلها قطعة واحدة كخف البعير، لكننا أنعمنا عليه بهذه الأصابع، وهي الصغيرة اللطيفة. المشتملة على المفاصل والأظافر، والعروق اللطاف والعظام الدقاق.

وقيل: هذا تنبيه من الله ـ تعالى ـ على أن بنان كل إنسان تختلف عن بنان غيره من الناس في تخطيط بصمتها، ولو شاء ـ تعالى ـ لجعلها متوافقة.

قال الحسن: إن الله أعفّ مطعم ابن آدم ولم يجعله خفاً ولا حافراً، فهو يأكل بيديه ويتقي بها، وسائر الدواب إنما يتقي الأرض بفمه.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾.

بل يريد الإنسان بهذا الإنكار أن يستمر على الفجور، وأن يقدم فُجُورَهُ فيما يستقبله من الزمان، فيقدم الذنب ويؤخر التوبة، يريد أن يَفْجُرَ ما امتدّ عمره ويمضي أمامه راكباً رأسه ولا يذكر الموت.

وقيل الفجور: الكذب مع التعمد.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

أي: يسأل هذا الكافر المعاند: متى يوم القيامة؟ سؤال استبعاد لوقوعه واستهزاء وتعنت.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾﴾.

أي: إذا كانت القيامة؛ تحيرت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف، وذهب ضوء القمر ونوره كله ولا يعود كما يعود إذا خسف في الدنيا.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾.

أي: ذهب ضوؤهما جميعًا، فتجمع الشمس والقمر؛ فلا يكون هناك تعاقب ليل ونهار فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝﴾.

يتساءل الكافر في تلك الأحوال العصيبة، وحين يرى تلك الأهول العظيمة، يريد مسلكاً وطريقاً ينجو به. أين المفرّ؟ وأين المهرب من الله ـ سبحانه ـ، ومن حسابه وعذابه؟ وأين الخلاص والفرار مما نرى؟

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝﴾.

ردع له عن طلب الفرار. أي: لا ملجأ له ولا مغيث من عذاب الله يعصمه يؤمئذ. إلى الله وحده المرجع والمنتهى، والمصير لسائر العباد.

﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝﴾.

أي: يخبر الإنسان يوم القيامة بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، ويُنَبأ بخبر لا ينكره. بل الإنسان شاهد على نفسه، يعرف حقيقة ما هو عليه من إيمان أو كفر، وطاعة أو معصية، واستقامة أو اعوجاج.

وقيل المعنى: بل جوارح الإنسان عليه شاهدة ولو اعتذر وجادل عن نفسه، لم ينفعه ذلك، فعليه من يُكذّب عذره.

* بعد هذا البيان انتقل الحديث إلى القرآن، وطريقة تلقي الوحي عن جبريل، حيث كان رسول الله ﷺ يحرّك شفتيه ولسانه بالقرآن إذا أنزل عليه، قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، حرصاً على أن يحفظه ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝﴾ [القيامة: ١٦].

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

فيه إشارة إلى أنه نزل مفرقاً، وإشارة إلى أن جمعة على هذا النحو الموجود برعاية وعناية من الله ـ تعالى ـ وتحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾، ويشهد لذلك أن هذا الجمع الموجود من وسائل حفظه، كما تعهد ـ تعالى ـ بذلك والله ـ تعالى ـ أعلم.

* ثم ذكر الله ـ عز وجل ـ أن الذي أوجب الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره محبتهم للدنيا وانكبابهم عليها، قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ارتدعوا يا معشر المشركين فليس الأمر كما زعمتم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء، بل أنتم تحبون الدنيا الفانية وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتدعون الآخرة والسعي إليها والقيام بأوامر الله ـ تعالى ـ واجتناب نواهيه.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وجوه أهل السعادة في يوم القيامة، وجوه مشرقة ناعمة غضة حسنة، تنظر إلى خالقها ومالك أمرها، فتتمتع بذلك.

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة من أن الصالحين ينظرون ربهم يوم القيامة كما ينظرون القمر ليلة البدر، وذلك على حسب مراتبهم: منهم من ينظر كل يوم بكرة وعشياً، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة.

* ثم قال ـ سبحانه ـ في المؤثرين العاجلة على الآجلة:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

حال وجوه الأشقياء يوم القيامة كالحة عابسة، كئيبة ذليلة، تتوقع أن تنزل بها داهية عظمى.

والفاقرة: الداهية العظيمة، كأنها كسرت فقار الظهر فهي تنتظر عقوبة شديدة وعذاباً أليماً؛ فلذلك تغيرت وجوههم وعبست.

* وفي الآيات اللاحقة يعظ ـ سبحانه ـ عباده، وقد دنت ساعة الموت فيذكر حال المحتضر عند السياق، واشتداد الكرب عليه، ويطلب عندها كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولكن الأجل قد نزل، والموت قد حضر، وهذا المشاهد واقع يراه الناس كل يوم، وفيه العظة والعبرة، قال تعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝﴾ كلا: ردع وزجر عن إيثار العاجلة، وتذكير بالموت إذا بلغت النفس أو الروح التراقي، والترقوة عظم بين ثغرة النحر والعاتق، ويكنى ببلوغ النفس التراقي عند الإشفاء على الموت.

وقال من حضر صاحبها: من يرقيه ويشفي برقيته؟ التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئًا، وأيقن المحتضر أنها ساعة الفراق من الدنيا ومن الأهل والمال والولد لمعاينته ملائكة الموت، واتصلت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝﴾.

أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، فماتت رجلاه، ويبست ساقاه ولم تحملاه، وقد كان جوّالاً عليهما في الدنيا، وكأنه طوى تلك الأقدام مغادراً دار الدنيا، فالناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

إلى خالقك معاد العباد ومرجعهم، إما إلى الجنة وإما إلى النار.

* ثم أخبر ـ تعالى ـ عن حال الجاحد المكذب الذي لا تنفع فيه الآيات، فلا يزال مستمرّاً على بغيه وكفره وعناده. ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝﴾.

فلا آمن الكافر بالرسول، ولم يصدّق بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. وإنما كذب بالرسول وبما جاء به، وتولى وأعرض عن الطاعة والإيمان.

ثم ذهب يتبختر ويختال في مشيته، افتخاراً بذلك وتكبراً، أو يتثاقل ويتكاسل عن الداعي إلى الحق غير خائف من ربه.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ويلٌ لك يا أيها المكذب. وكرر للتأكيد مبالغة في التهديد والوعيد، أي: هلاك لك فهلاك، ثم هلاك لك فهلاك. أفيظن الكافر المنكر للبعث أن يترك هملاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يحاسب ولا يعاقب، وهذا حسبان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ الإنسان بخلقه الأول:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

الاستفهام للتقرير، أي: ألم يك ذلك الإنسان قطرة من منيّ يراق في الرحم، والغرض: بيان حقارة حاله وبداية منشأه، ثم كان بعد المني علقة، أي: دماً، فخلق الله منها الحيوان وسواه، أي: أتقنه وأحكمه بشراً سوياً.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

فجعل من هذا وهذا، هو أصل الإنسان وتركيبه فكيف يليق بمثل هذا الضعيف أن يتكبر على طاعة الله؟ أليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع وقدر عليه، بقادر على أن يعيد الأجسام بالبعث كما كانت عليه في الدنيا؟ فإن الإعادة أهون من الابتداء، بلى ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على ذلك.

عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، وكان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ قال: سبحانك ربي! فسألوه عن ذلك؟ قال: سمعته من رسول الله ﷺ. [رواه أبو داود].

سورة الإنسان (٧٦)

سورة الإنسان سورة مكية، وتسمى «سورة الإنسان» بهذا الاسم لأن الله - عز وجل - ذكر فيها الإنسان في أربع أحوال:

قبل الخلق: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝﴾.

وعند الخلق: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾.

وفي الدنيا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾.

وفي الآخرة: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾.

فذكر الله فيها أول حال الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها، وتتابعت السورة في سرد نعيم المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم، وذكر بعض صفاتهم وما بلغهم تلك المنازل العالية.

قال صاحب الظلال: والسورة في مجموعها هتاف رخيٌّ نديٌّ إلى الطاعة، والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه، وتذكر نعمته، والإحساس بفضله، واتقاء عذابه، واليقظة لابتلائه وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء.

والسورة تؤكد على تذكير الإنسان بأصل خلقته، وتبين عاقبته ومصيره في الآخرة؛ ليكون على حذر وعلى بينة من أمره، فقد فصل الله في السورة كيف بدأ خلق الإنسان، وكيف انقسم الناس إلى مؤمن شاكر، وكافر جاحد، ومصير كل من الفريقين، وأطال في بيان مصير أهل الجنة تشويقاً وتحفيزاً للمؤمنين، وأشار فيها إلى نعمة نزول القرآن، ووجوب الصبر على العمل به.

* قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾.

أي: قد مضى على الإنسان وقت طويل من الزمان في شخص أبيهم آدم.

قيل: أربعون سنة قبل أن ينفخ فيه الروح، خُلق من طين، ثم من حمأ مسنون، ثم من صلصال.

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝﴾.

أي: قبل نفخ الروح. وقيل: المعنى: قد مضت أزمنة وما كان آدم شيئاً، ولا مخلوقاً ولا مذكوراً لأحد من الخليقة.

قال أبو جعفر بن الزبير: تعريف الإنسان بحاله وابتداء أمره ليعلم أن لا طريق له للكبر واعتقاد السيادة لنفسه، وأن لا يغلطه ما اكتنفه من الألطاف الربانية والاعتناء الإلهي والتكرمة، فيعتقد أنه يستوجب ذلك ويستحقه.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: نحن بقدرتنا خلقنا هذا الإنسان من ماء مهين، ـ وهو المني ـ الذي ينطف من صلب الرجل، ويختلط بماء المرأة.

﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝﴾.

نطفة الرجل ونُطفة المرأة واختلاطهما، وقيل: الأمشاج الأخلاط، لأنها ممتزجة من أنواع وعناصر يخلق الإنسان منها وطباع مختلفة. وخلقناه مريدين ابتلاءه، بالخير والشر وبالتكاليف. فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً، ذا سمع وبصر، وركبنا فيه الحواس ليعظم إدراكه فيمكن ابتلاؤه.

وخص السمع والبصر لأنهما من أهم وسائل الإدراك، ومن أشرف الحواس ومن أجل النعم.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾.

أي: بيّنّا للإنسان وعرّفناه طريق الهدى والضلال والخير والشر، بأدلة العقل والسمع وعرفناه منافعه ومضاره التي يهتدي إليها بطبعه وكمال عقله، سواء كان شاكراً أو كفوراً وذلك بواسطة الرسل والكتب التي أنزلها ـ سبحانه ـ.

وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة؛ نفياً للمبالغة في الشكر وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله ـ تعالى ـ لا يؤدى، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنف عن الكفر المبالغة، فقل شكره، لكثرة النعم عليه وكثرة كفره وإن قل مع الإحسان إليه.

قال أبو حيان: ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً، ولما كان الكفر كثر من يتصف به، ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفوراً بصيغة المبالغة.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤].

دليل على أن المؤمن وإن دخل النار بعصيانه وجرمه وأحرق في النار بقدر جنايته لم يغل، ولم يجعل في السلاسل والأغلال والسعير.

* ثم بين الله ـ جل وعلا ـ أنه بعد أن وهب للإنسان العقل والإدراك والسمع والبصر، وبين له الطريق ووضحه، ونصب الدلائل التي يعرف بها الخالق ـ جل وعلا ـ، حذر وأنذر من عصى وطغى وكفر وأبى، وبعدله ونعمته أحسن الجزاء الأوفى، لمن أطاع وامتثل وأوفى، وقد ذكر الله جملة من أعمالهم التي كانت سبباً في دخول الجنات بعد رحمة الله، فقال تعالى:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾﴾.

أي: أعطوا هذا الجزاء؛ لأنهم كانوا يوفون بالنذر. وهو ما أوجبه الإنسان على نفسه لله من صلاة أو صوم أو ذبح أو غيرها، مما لم يكن عليه واجبًا بالشرع. ويخافون يوم القيامة، استطار شر ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض، فانشقت السماء، وتناثرت الكواكب، والأرض دُكّت، والجبال نسفت.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ .
ويطعمون الطعام مع شهوتهم له وقلته عندهم وحاجتهم إليه، يطعمون الطعام ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله ـ تعالى ـ.
يطعمون هؤلاء الثلاثة الأصناف وهم: المسكين الفقير العاجز عن الاكتساب الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، واليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، فعدم الناصر والكفيل، وأسيراً وهو من أسر في الحرب من المشركين.
وإطعام المساكين والإحسان إليهم من أبواب العمل الخالص؛ لأن نفعهم في الدنيا لا يرجى غالباً.
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ .
لا يتوقعون المكافأة، ولا يريدون ثناء الناس عليهم بذلك، يطلبون مرضاة الله وابتغاء فضله، علمه الله من قلوبهم فأثنى عليهم بذلك.
﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ .
أي: لا نبتغي من وراء هذا الإحسان لا مكافأة ولا جزاء ماليّاً، ولا ثناء قوليّاً.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: من طلب من الفقراء الثناء أو الدعاء فقد خرج من هذه الآية.
﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ .
أي: إنما نفعل ذلك رجاء أن يقينا الله هول يوم شديد، تعبس فيه الوجوه من فظاعة أمره، وشدة هوله.
ومعنى: ﴿قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ .
أي: شديداً عصيباً ضيقاً تنقبض فيه العيون والحواجب. وقيل: القمطرير أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء.

* فكان جزاء أعمالهم الصالحة التي قاموا بها ابتغاء مرضاة الله:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ .

أي: صانهم وحماهم الله ودفع عنهم شر ذلك اليوم وشدته، فلا يحزنهم الفزع الأكبر، بل جعل الله لهم وقاية من شره بسبب خوفهم منه وإطعامهم الطعام لوجهه. وأعطاهم وأكرمهم بدل العبوس في الكفار حُسناً في الوجوه وسروراً في القلوب.

والنضرة البياض والنقاء في وجوههم من أثر النعمة.

* لما تشوقت النفوس وأشرأبت الأعناق، وتعلقت المهج وهاجت الأشواق لهذا النعيم المقيم، ذكر ـ تعالى ـ ما أعد لهم من كرمه وجوده وفضله:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً﴾ .

وأثابهم بسبب صبرهم على طاعة الله، والصبر عن معصيته.

و﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم سالمة من كل مكدر ومنغص.

﴿وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ .

خص الحرير؛ لأنه لباسهم الظاهر الدال على حال صاحبه، ولأنهم تركوه في الدنيا طاعة لله ـ عز وجل ـ.

قيل: لما كان ـ في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى ـ خشونة وتضييق، جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة.

* ولما ذكر طعامهم ولباسهم وأكمل لهم العطاء وأجزل لهم الجزاء؛ وصف نعيمهم ومساكنهم وحالهم، حيث الراحة والدعة، قد ازدانت بيوتهم وأفنيتهم بالأثاث الوثير في جو من الصفاء والبهجة، فلا حر يعكر صفو نعيمهم، ولا برد تتأذى منه أبدانهم، وقد دنت الظلال ومالت الأغصان وغردت الأطيار، وتدلت القطوف بأطايب الثمار، فلا تسمع الأذن إلا ما يسر، ولا ترى العين إلا ما يبهج. قال تعالى:

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ .

متكئــين في الجنة، والاتــكاء: التمكن من الجلوس فــي حال الرفاهية والطمأنينة.

والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس المزين، وإنما خصهم بهذه الحالة؛ لأنها أتم حالات المتنعم، وفيها كمال الأمن والراحة والسعة والسرور.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ [الإنسان: ١٤].

عن مجاهد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ قال: إذا قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، فذلك تذليلها.

* ولمــا زين الله ـ تعالى ـ ظاهرهم بالحلي والثياب، بيّن طهارة باطنهم وزينــة قلوبهم بالحب والرضا، والود والتآلف، فلا غل ولا حســد، قال تعالى:

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) ﴾ .

بدأ ـ ســبحانه ـ بذكر الشــراب وانتهى به وذلك لأنه أروع ما يستلذ به الإنســان، وحاجته إليه أشد، وأول ما يتلهف عليه الإنسان، فحرارة الظمأ أشد من لهيب الجوع، لذا كان مقدماً دائماً.

سورة المرسلات ٧٧

سورة المرسلات سورة مكية، أقسم الله ـ عز وجل ـ فيها بجملة من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء، وذكر ـ عز وجل ـ فيها الموعد الحق، يوم الحساب والجزاء وما يجري فيه، ثم ذكر أحوال الأمم الغابرة وما جرى لهم، وما حل ونزل بهم.

وقد اشتملت سورة المرسلات على الاستدل على قوع البعث عقب فناء الدنيا، ووصف بعض أشراط ذلك. في الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! ما شيَّبك؟ قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات و(عم يتسإلون) و(إذا الشمس كورت)» [رواه الترمذي].

وعن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بـ (والمرسلات عرفاً) [متفق عليه].

* قال تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾.

أقسم الله ـ عز وجل ـ بالملائكة التي يرسلها الله ـ تعالى ـ بشؤونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية ووحيه إلى رسله.

وقيل: إن المرسلات: هي الرياح حين تهب متتابعة وهي ريح العذاب.

﴿عُرْفًا ۝١﴾.

حال من المرسلات، أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢﴾.

وهي أيضاً الملائكة التي يرسلها الله ـ تعالى ـ، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف.

أو أن العاصفات: الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها.

﴿ وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ ﴾.

يحتمل أنها الملائكة تنشـر ما دبرت على نشـره، أو أنها السحاب التي يُنشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها.

﴿ فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ ﴾.

أي: وأقسم بالملائكة التي تفرق بين الحق والباطل والحلال والحرام.

﴿ فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

يقسم الله ـ تعالى ـ بالملائكة يرسلها بالوحي إلى أنبيائه. تعصف لسرعة طيرانها وتنشـر أجنحتها آتية بما يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، حتى تبلغ الوحي إلى الأنبياء.

﴿ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾.

المعنى: أن الملائكة تلقـي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه، وإنذاراً من عذابه. وقيل: عذراً للمحقين، ونذراً للمبطلين.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾.

هذا جواب القسم، أي: إنما توعدون من أمر القيامة ومن البعث والجزاء على الأعمال، محتم وقوعه من غير شك ولا ارتياب.

وفي تطويل القسم تشويق السامع لتلقي المقسم عليه.

* ثم بين ـ تعالى ـ وفصل وقت وقوع ذلك اليوم، وما يجري فيه من الأهوال والكروب:

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ ﴾.

* قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾.

اسـتفهام للتعظيم والتهويل، أي: وما أعلمك بيوم الفصل؟ يعني: أنه أمر هائل لايقادر قدره.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾.
أي: يا حسرتهم، وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم، وقد وردت في هذه السورة عشر مرات لمزيد الترغيب والترهيب.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥].
قال القرطبي: وكرره في هذه السورة عند كل آية لمن كذب، لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإن لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦].

﴿أَحْيَاءً﴾ في الدور، ﴿وَأَمْوَاتًا ﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستراً لهم عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۝﴾.
قال القشيري ـ رحمه الله ـ: اليوم في ظلال العناية والحماية، وغداً هم في ظلال الرحمة والكلاءه، اليوم في ظلال التوحيد، وغداً في ظلال حسن المزيد.

* قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾.
قال الشنقيطي: فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة، وجاء في الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله» ولا معارضة بين النصين، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث، وتكون الدرجات ويكون التمتع بسبب الأعمال، فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال.

* ثم خاطب ـ تعالى ـ المشركين بخطاب تهديد ووعيد لهم، فقال: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مبين.

قال صاحب الظلال: والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهزُّ الرواسي، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال، لا يؤمن بحديث بعده أبداً. إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس، والويل المدخر لهذا الشقي التعيس.

وقال ابن عاشور: والمقصود أن القرآن بالغ الغاية في وضوح الدلالة ونهوض الحجة فالذين لا يؤمنون به لا يؤمنون بكلام يسمعوه عقب ذلك.

سورة النبأ (٧٨)

سورة عم سورة مكية، وتسمى سورة النبأ، يذكر الله ـ عز وجل ـ فيها البعث والجزاء والحساب، ويعدد فيها بعض نعمه وآلائه، وأنه الخالق المنعم المستحق للعبادة، الذي أوجد من العدم، وخلق الخلق لعبادته وطاعته، وفيها من البيان ما يقول للعباد: استعدوا، استيقظوا، تفكروا، تدبروا. هناك بعث ونشور، وحساب وأجور، وعقاب وحسرات.

وتذكر الآيات صوراً من العذاب للكفار والعصاة، ومن النعيم للمؤمنين ما يخوف ويحذر من عذاب الآخرة، وما يجعل المسلم يرجو رحمة ربه بالعمل الصالح الخالص لوجهه الموافق لسنة نبيه، فإن المرء ينظر يوم الجزاء والحساب ما قدمت يداه من أعمال عملها في حياته، ويفرح المؤمن بما وعده الله من النعيم، ويتمنى الكافر حين يرى العذاب وهوله وشدته أنه كان تراباً.

وقد بين ـ تعالى ـ في السورة قدرته العظيمة على خلقه، وذكر بعض نعمه على عباده، ليقرر هذه النعم فيلزمهم شكرها، وهي أمور محسوسة ملموسة، يتبين فيها قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظيم صنعه التي لو فكر فيها الكفار، لما وقع منهم اختلافٌ في النبأ العظيم الذي جاءهم من عند الله.

* قال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

يعني بذلك الشمس، فهي سراج مضيء.

﴿وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

أي وقّاده، والوهج يجمع النور والحرارة، وهي أيضاً ذات حرارة عظيمة فتضيء الكون.

ونبه بالسراج على النعمة بنورها، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على ما فيها من الصالح.

* ثم ذكر ـ سبحانه ـ ما يجري في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام، والجزاء والحساب، ليكون الإنسان على بينة من أمره، وليعرف حاله ومصيره، وفي ذلك بيان وتوضيح لمن سأل عن النبأ العظيم.

قال تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

* قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

عن عبد الله بن عمرو، قال: لم تنزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾، قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

* قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣٦].

ينبغي أن يلحظ الفرق بين قوله في مجازاة الطاغين: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦] وبين قوله هنا: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ ففي مجازاة الطاغين يكون الجزاء موافقاً لأعمالهم عدلاً منه ـ عز وجل ـ، وفي مجازاة المتقين يكون الجزاء مضاعفاً لهم وأوفى وأفضل من أعمالهم فضلاً منه ـ عز وجل ـ.

وقد ورد في الآية كلمة (الرب) والرب: هو المربي والمعطي والقيم، ولهذا لم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣٦]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥].

سورة النازعات ٧٩

سورة النازعات سورة مكية، نزلت في مكة، تُعنى بأصول العقيدة من الوحدانية والرسالة، والبعث والجزاء، فإنه ـ سبحانه ـ خلق الخلق، وبعث لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ليبينوا للناس الطريق الحق والصراط المستقيم، وليحذروهم من الشرك والطغيان والعصيان، ومن تمام عدل الله ـ عز وجل ـ أن جعل بعد دار الدنيا موعداً يلقى فيه كل إنسان جزاءه وفاقاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي الآيات اللاحقة يبين ـ سبحانه وتعالى ـ حال الكفار عند النفخ في الصور، وبعث الناس من قبورهم في ذلك اليوم العظيم، قال تعالى:

﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾.

أقسم ـ سبحانه ـ بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار تنزعها نزعاً شديداً بالغاً أقصى الغاية في الشدة والعسر.

﴿ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾.

يعني: الملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين، تنشطها نشطاً: أي تسلها برفق وسهولة.

﴿ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ ﴾.

هي: الملائكة تسبح بأمر الله، أي تسرع فيه كما يسرع السابح في الماء.

﴿ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ ﴾.

أيضاً هي: الملائكة تسبق غيرها إلى أمر الله ـ عز وجل ـ، أو الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

وصف للملائكة؛ تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر الله من الأمطار والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة،

والنار وغير ذلك؛ أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأوصاف الخمسة على أن القيامة حق، وجواب القسم محذوف تقديره: لتبعثُن، ولتحاسبنَّ، وقد دل عليه قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝﴾ .

وهما النفختان في الصور:

النفخة الأولى: الراجفة، ترجف الناس ويفزعون، ثم يموتون عن آخرهم إلا من شاء الله.

والنفخة الثانية: التي تعقب الأولى هي: الرادفة، يبعثون من قبورهم، فيقومون منها أحياء من قبورهم مرة واحدة، وهم في حالة شديدة من الاضطراب، بادٍ عليهم الذل، يجتمع عليهم الخوف والانكسار، والرجفة والانهيار.

❁ قال تعالى:

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝﴾ .

هـذا يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهـم: إنكم تبعثون، يقولون: أنرد إلـى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصيـر أحياء بعد موتنا، وبعد كوننا في حفر القبور.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝﴾ .

أي: كيف نبعث بعد أن كنا عظاماً بالية فتاتاً؛ سنرد ونبعث من جديد. استبعد منكرو البعث؛ أن يبعثهم الله ويعيدهم؛ وقالوا: إن رُددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا من الجزاء مما يقوله محمد.

قال الله ـ عز وجل ـ في بيان سهولة هذا الأمر عليه:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝﴾ .

أي: إنمـا هي صيحة واحدة، وهـي النفخة الثانية، زجرة من الله ـ عز وجـل ـ يزجرون ويصاح بهم، فيقومون من قبورهم قيام رجل واحد على ظهر الأرض بعد أن كانوا في بطنها.

والساهرة: أرض بيضاء يأتي بها الله ـ سبحانه ـ فيحاسب عليها الخلائق.

* ثم لما ذكر الله ـ عز وجل ـ أحوال الكفار وما يصيبهم في ذلك اليوم، ساق قصة موسى ـ عليه السلام ـ وما أمره الله ـ عز وجل ـ به من القيام بتبليغ الرسالة والدعوة إليه، وذكر ـ جل وعلا ـ ما وجده موسى من فرعون وتكذيبه؛ مع ما أظهر من الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات، إلا أنه طغى وتجبر، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، عبرة له، وموعظة لغيره، وفي ذكر مثل هذه الوقائع والأحداث تخويف لمن كفر برسالة محمد ﷺ، وتسليه لنبيه ﷺ بأن طريق الدعوة شاق يحتاج إلى صبر وتوكل على الله ـ عز وجل ـ.

* قال ـ تعالى ـ مبيناً ما جرى للأمم قبل محمد ﷺ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٩].

ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه، منها:

إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرج مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٧] ولم يقل كلوا، ومنها قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ والتزكي النماء والطهارة والبركة والزيادة. ومنها قوله: ﴿تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه وعلى هذا يخاطب الملوك. فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٩].

وتفريع ﴿فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ على ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ إشارة إلى أن خشية الله لا تكون إلا بالمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، أي العلماء به، أي يخشاه خشية كاملة لا خطأ فيها ولا تقصير.

* قال تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٩].

ولهذا فإن من أعظم أسباب ضياع الأعمار والأعمال والنقص والخلل في أمور الدين والدنيا مخالفة فطرة الله، وسهر الليل أو جعله وقتاً للعمل، وجعل النهار وقتاً للنوم.

سورة عبس (٨٠)

سورة عبس، سورة مكية نزلت بمكة؛ فإن الله ـ عز وجل ـ لما بعث نبينا محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، وأمره بتبليغه ودعوة الناس إليه والقيام بأمره، صدع ـ صلوات ربي وسلامه عليه ـ بالدعوة ودعا الناس إلى الإسلام، وتحمل في سبيل ذلك الأذى والمشقة فصبر عليها.

وفي بداية دعوته، ورغبة في تبليغ هذا الدين، حرص على دعوة كبراء القوم ورؤسائهم ومن له كلمة عندهم، طمعاً في إسلامهم وتأثر الناس بهم، فأعرض ﷺ عن رجل أعمى فقير جاء إليه ليعلمه الدين، وظهرت الكراهة في وجه النبي ﷺ حين سأله، ومع أن الأعمى لم يكن يرى عبوس النبي ﷺ وإعراضه، إلا أن الله ـ عز وجل ـ أنزل في ذلك آيات تتلى، حيث ذكر الموقف وسطره في كتابه العظيم، قال تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

الضمير يعود إلى رسول الله ﷺ، أي: كلح في وجهه وقطب؛ يعني استنكر الشيء بوجهه، وأعرض في بدنه.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

أي: لأجل مجيء الأعمى له، والأعمى هو عبدالله بن عمرو ابن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ وسبب نزولها: أنه جاء إلى النبي ﷺ قبل الهجرة وهو في مكة يسأل ويتعلم منه، وكان عنده قوم من عظماء قريش يطمع النبي ﷺ في إسلامهم، ـ ومن المعلوم أن العظماء والأشراف إذا أسلموا كان ذلك سبباً لإسلام من تحتهم، وكان طمع النبي ﷺ فيهم شديداً ـ، فجاء هذا الأعمى يسأل النبي ﷺ، وذكروا أنه كان يقول: علمني مما علمك الله، ويستقرئ النبي ﷺ ويلح عليه، فكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعرض عنه، وعبس في وجهه، وأصغى إلى عظماء قريش رجاءً وطمعاً في إسلامهم، وود النبي ﷺ

أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة كبراء القوم.

وقد جاءت الآية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾ بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب، وفي هذه أسلوب رفيع في تعلم الأدب وحسن المعاتبة، وهو تلطف في حق النبي ﷺ وإجلالاً له.

وفي الآيات بيان حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها واستغنائها عن كل أحد وعن كل سند! والعجب أن هذا في مكة، والدعوة مطاردة، والمسلمون قلة، ومع ذلك كانت المعاتبة للنبي ﷺ.

وجاء ذكر عبد الله بن أم مكتوم بوصفه إشعاراً بعذره في عدم معرفته بانشغال الرسول ﷺ، وترقيقاً لقلب النبي ﷺ لأجل علته، وهي العمى، حيث يحتاج من الرعاية ما لا يحتاجها غيره.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝﴾.

أي: ـ يا محمد ـ، أي شيء يريبك أن يتزكى هذا الرجل الأعمى، ويقوى إيمانه، ويتطهر من الذنوب والأخلاق التي لا تليق بأمثاله، فإذا كان هذا هو المرجو منه فإنه أحق أن يلتفت إليه.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝﴾.

يعني: وما يدريك لعله يذكر، أي: يتعظ، فتنفعه الموعظة، فإنه ـ رضي الله عنه ـ أرجى من هؤلاء أن يتعظ ويتذكر.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝﴾.

أما من استغنى عن الله، وعن الإيمان بماله لكثرته، واستغنى بجاهه لقوته، وهم العظماء الذين عند النبي ﷺ. فأنت تتعرض وتطلب إقباله عليك وتُقبل عليه، وتهتم بتبليغه دعوتك.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝﴾.

يعني: ليس عليك شيء إذا لم يتزكى هذا المستغني؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ، وفيه مزيد تنفير له ﷺ من مصاحبتهم، فإن الإقبال على المدبر مخل بالمروءة.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾.

أي: وصل إليك مسرعاً في المجيء، طالباً منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله، وهو يخاف الله ـ عز وجل ـ بقلبه لعلمه بعظمته ـ تعالى ـ. فأنت ـ يا محمد ـ تتلهى وتنشغل عنه برؤساء القوم لعلهم يهتدون. وفي الآية لفته للدعاه والمربون ليهتموا بالضعفاء والبسطاء فلهم حق التعلم والتفقه والسؤال.

﴿كَلَّآ﴾.

يعني: لا تفعل مثل هذا، وهذه هي أول مرة يقال في القرآن للنبي ﷺ كلا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝﴾.

أي: الآيات القرآنية التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، تذكر الإنسان بما ينفعه وتحثه عليه. فمن شاء ذكر ما نزل من الموعظة فاتعظ وعمل به، ومن شاء لم يتعظ ولم يعمل، قال المفسرون: كان ﷺ بعد هذا العتاب، لا يعبس في وجه فقير قط، ولا يتصدى لغني أبداً، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، وكان إذا دخل عليه «ابن أم مكتوم» يبسط له رداءه، ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي».

* ثم أخبر ـ تعالى ـ عن جلالة قدر القرآن ورفعة منزلته، وأن هذا الذكر الذي تضمنته هذه الآيات.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝﴾.

معظمة مكرمة عند الله، رفيعة القدر والرتبة عند الله، منزهة لا يمسها إلا المطهرون، مصونة عن الشياطين والكفار.

والصحف جمع صحائف، والصحائف جمع صحيفة، وهي ما يكتب فيه القول.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝﴾.

السفرة الكتبة، وهم الملائكة السفراء بين الله وبين عباده، كرام على ربهم، كرام في أخلاقهم، كرام في خلقتهم لأنهم على أحسن خلقة، وعلى أحسن خُلق، كثيري الخير والبركة.

والبررة: جمع بر، وهو كثير الفضل والإحسان وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

* ولما ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة أنه جعل هذا القرآن العظيم محفوظاً ومنزهاً عن التحريف والتبديل، ذكر ـ سبحانه ـ بعد هذا البيان قبح جريمة الكافر وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة إحسان الله إليه، وبدأ بذكر ضعف الإنسان ومبدئه ومهانته، ليعرف قدره ويطيع ربه ويصرف العبادة لمستحقها، وأن لا يتكبر ويتجبر، قال تعالى:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾.

أي: لعن، وأهلك، والمراد بالإنسان هنا الكافر خاصة.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧)﴾.

﴿مَآ﴾ استفهامية.

أي: ما الذي أكفره وأهلكه، أو ما أشد كفره ومعاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ من أضعف الأشياء.

وما ذكر الله الإنسان في القرآن إلا في مقام الذم، مثل قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧)﴾ [عبس: ١٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار: ٦] ونحوها.

* ثم قال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨)﴾.

استفهام تقرير لما يأتي بعده، أي: من أيِّ شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه، ثم وضح ذلك، فقال:

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾.

والنطفة هي في الأصل الماء القليل، والمراد به هنا ماء الرجل الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب يلقيه في رحم المرأة فتحمل، وهو ماء مهين، فكيف يتكبر؟

﴿فَقَدَّرَهُۥ ۝ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝﴾.

أي جعله مقدراً أطواراً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، أو قدر أجله، ورزقه، وعمله، وشقيّاً أو سعيداً. ثم سهل خروجه من بطن أمه، أو يسر له الطريق إلى تحصيل الخير أو الشر.

قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين، يعنى الذكر والفرج.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝﴾.

الموت مفارقة الروح للبدن، فإذا مات جعله في قبر، مدفوناً ستراً عليه وإكراماً واحتراماً، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفتها على وجه الأرض.

ثم إذا شاء الله ـ عز وجل ـ وأراد، بعثه وأحياه يوم النشور ليجازيه على عمله، وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئة الله ـ تعالى ـ، متى شاء أن يحيى الخلق أحياهم.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝﴾.

أي: ليرتدع وينزجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره، فإنه لم يؤد ما فرض عليه، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة.

ـ ولما ذكر ـ تعالى ـ خلق الإنسان، ذكر بعده رزقه، ليعتبر بما أغدق الله عليه من أنواع النعم، فيشكر ربه ويطيعه، فقال:

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝﴾.

أي فلينظر نظرة اعتبار وتفكر إلى طعامه من أين جاء؟ ومن جاء به؟ وهل أحدٌ خلقه سوى الله ـ عز وجل ـ؟

* وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ البعث والحساب والجزاء، أعاد الإنسان ليتذكر ويتأمل فضل الله عليه، وفي هذا إظهار العظمة لله ـ عز وجل ـ وبيان بعض نعمه على عباده. وأنه المنعم المتفضل، نعمه لا تعد ولا تحصى، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

ثم أرشد ـ سبحانه ـ الإنسان إلى النظر والتفكر في طعامه وكيف وصل إليه، وفي هذا استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام، بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقاً، قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾.

يعني: صيحة يوم القيامة التي تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع، وهذا هو النفخ في الصور.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾.

في ذلك اليوم الرهيب يفر الإنسان من أعز الناس إليه، وأشفقهم لديه، وأحبهم إليه، لهول ذلك اليوم، يفر من أخيه شقيقه، أو لأبيه أو لأمه. ويفر من الأم والأب المباشر، والأجداد أيضاً والجدات، يفر من هؤلاء كلهم.

قال أهل العلم: يفر منهم لئلاً يطالبوه بما فرط به في حقهم من أدب وغيره.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾.

أي: زوجته.

﴿وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

وهم أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه، والفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع.

وقد بدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أحب.

قال ابن تيمية: ابتدأ بالأخ، ومن عادة العرب أن يبدأوا بالأهم، والحكمة في ذلك أن الابتداء يكون في كل مقام بما يناسبه، فتارة يقتضي الابتداء

بالأعلى، وتارة بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى؛ لأن المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصلاً شيئاً بعد شيء، فلو ذكر الأقرب أولاً لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنه يعلم أنه إذا فر من الأقرب فر من الأبعد.

* قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

كل إنسان في ذلك اليوم مشتغل بنفسه مهتم بفكاكها لا ينظر إلى غيره، فإنه لا يفكر في سوى نفسه، حتى إن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ليقول الواحد منهم يؤمئذ «نفسي نفسي» فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء، فأما السعداء؛ فهم كما ذكر ـ سبحانه ـ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

يعني يوم القيامة. مسفرة: من الإسفار وهو الوضوح؛ لأن وجوه المؤمنين تُسفر عما في قلوبهم من السرور والانشراح والبهجة، مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

يعني متبسمة، بما رأته من كرامة الله ورضوانه وهذا من كمال سرورهم، قد بشرت بالخير والنعيم الدائم.

قال عطاء الخرساني: مُسفرة من طول ما أغبرت في سبيل الله.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وجوه الأشقياء، وهذا هو حال الفريق الثاني يوم القيامة. عليها شيء كالغبار والدخان؛ لأنها ذميمة قبيحة. يغشاها وتعلوها ظلمة وسواد، قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: الذين هذا وصفهم، قد جمعوا بين الكفر والفجور.

والفجرة: هم الفاسقون الكاذبون.

قال المفسرون: جمع الله ـ تعالى ـ إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الكفر إلى الفجور.

سورة التكوير (٨١)

سورة التكوير سورة مكية، نزلت في مكة، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها آيات وعظات وعبراً، وجعل التفكر في عجائب صنعه وعظيم خلقه من العبادات العظيمة؛ فإنه ـ سبحانه ـ خلق هذا الكون العظيم بنظام دقيق متناسق لاخلل فيه ولا اضطراب، وذلك من أعظم آيات الله ـ عز وجل ـ، وجعل لهذا النظام الدقيق والصنع البديع أجلاً ينتهي إليه، حيث تتغير السموات والأرض وتفسد تلك الأجرام الهائلة، وتتغير بعض الكائنات، وكل ذلك مؤذن ببدء حياة جديدة، هي اليوم الآخر، ذكرها ـ سبحانه ـ في هذه الآيات، مبيناً لأهوال القيامة وما يكون فيها من الشدائد والكوارث، وما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والتخريب.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين، فليقرأ: «إذا الشمس كورت» و«إذا السماء انفطرت» و«إذا السماء انشقت»** [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير: ١].

وكورت: أي جمعت ولفت ومُحي ضوءها، وجعلت مثل شكل الكرة، وهذا يكون يوم القيامة.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ [التكوير: ٥].

قال ابن عاشور: وذكر هذا بالنسبة إلى الوحوش إيماء إلى شدة الهول، فالوحوش التي من طبعها نفرة بعضها عن بعض تتجمع في مكان واحد لا يعدو شيء منها على الآخر من شدة الرعب، فهي ذاهلة عما في طبعها من الاعتداء والافتراس.

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩].

وإذا سأل الله البنت المدفونة وهي على قيد الحياة: ما الجريمة التي فعلتيها حتـــى يدفنك أهلك، فيقتلونـــك بهذا الدفن؟ وهذا فيــه تبكيت لقاتلها، وتهويل للموقف الذي يســأل فيه المجني عليه، فما ظنك بما يلاقيه الجاني لهذا الجناية البشعة؟

* قال تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التكوير: ٢٦].

هذا من أحســـن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له: إيْش تقـــول خلاف هذا؟ وأين تذهـــب خلاف هذا؟ فالأمـــر منحصر في الحق والباطـــل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق فأين العدول، وأين المذهب؟

سورة الانفطار ٨٢

سورة الانفطار سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها ما أكرم به الإنسان من النعم العظيمة والآلاء الجسيمة وعرفه نعمه عليه، ومع كثرة النعم وجزيل العطاء، ربما يحمل ذلك الإنسان على معصية الله ـ عز وجل ـ لما يراه من تعاقب النعم وتوافر الخيرات، ولا يردعه عن ذلك مثل التذكير والاتعاظ ومعرفته بأن الأحوال تتغير، وأن الله لا يرضى أن تكون نعمه وسيلة لمقارفة المعاصي والآثام. وفي سورة الانفطار تحذير الإنسان من الاغترار بالنعم والتمادي في المعصية لأن أمامه يوم عظيم، وموقف عصيب، يجازى فيه الإنسان على ما قدم وأخر من الأعمال، وهو يوم القيامة، الذي ذكر الله بعضاً من صفاته وأحواله في هذه السورة.

* قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝﴾.

علمت كل نفس ما قدمت وأخرت، وذلك بما يُعرض عليها من الكتاب، وعلمت ما قدمت من عمل خير أو شر.

* ثم ذكر الله ـ عز وجل ـ عن جحود الإنسان وكفرانه لنعمه، وهو يتلقى فيوض النعمة منه ـ جل وعلا ـ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها، ولا يعرف لربه قدره، ولا يشكره على الفضل والنعمة والكرامة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

المراد بالإنسان هنا الكافر، وقيل: الإنسان من حيث هو إنسان، وناداه ـ سبحانه ـ بصفة الإنسان لما أودع فيه من العقل وميزه به عن سائر المخلوقات.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝﴾.

يعني: أي شيء خدعك وسول لك حيث تكذب بالبعث، وتعصي الله في الأمر والنهي، أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

وقيل: إنه ـ سبحانه ـ ذكر ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته لأنه لا ينبغي مقابلة الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور.

وتأمل في سر التعبير بقوله ﴿بِرَبِّكَ﴾ دون قوله «الله» فإن في هذه اللفظة من معاني الملك والرعاية والرفق التي تناسب تذكر الإنسان بنعم الله عليه، وتذكير باستحقاقه ـ تعالى ـ لطاعة مربوبيه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

أي: أليس هو الذي خلقك من نطفة ولم تك شيئاً، وأوجدك من العدم ولم تك شيئاً. فجعلك مستوي الخلقة تسمع وتبصر وتعقل، وجعلك معتدل القامة، حسن الصورة، وجعل أعضاءك متعادلة متناسبة.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: الله ركبك في أي صورة شاء، وهذا من نعم الله على الإنسان أنه سوى خلقه وحسن صورته.

* ومع هذا العطاء الجزيل والنعم المتتالية إلا أن هناك من يجحد هذه النعمة ويصرف العبادة لغير الله. قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

﴿كَلَّا﴾:

للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به، يعني: مع هذا الخلق والإمداد والإعداد.

﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾.

أي: لا تصدقون بالجزاء والحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: من الملائكة يحفظون ويكتبون أعمالكم. كراماً على ربهم، يكتبون ويدونون أقوالكم وأعمالكم، إما بالمشاهدة إن كان فعلاً، وإما بالسماع إن كان قولاً، بل إن عمل القلب يطلعهم الله عليه فيكتبونه.

استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين.

* ثم لما ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الآيات السابقة النعم العظيمة، ووجوب طاعة الله ومراقبته، وأن كل ما يعمله الإنسان محصيّ ومكتوب له أو عليه، ذكر منازل المطيعين ومنازل العاصين، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ .

هذا بيان للنهاية والجزاء. والأبرار جمع بر، وهم كثيروا فعل الخير والطاعات، المتباعدون عن الشر، القائمون بحقوق الله وحقوق عباده؛ فإنهم في نعيم في القلب، ونعيم في البدن.

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ .

وإن الكفار الذين كفروا بربهم وقصروا في حقوق الله وحقوق عباده، لفي نار حامية محرقة.

والآية ليست مقصورة على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم، في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب، وهل العذاب إلا عذاب القلب.

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى: كل من عدل في ولاية من هذه الولايات فساسها بعلم وعدل، وأطاع الله ورسوله بحسب الإمكان فهو من الأبرار الصالحين، وكل من ظلم وعمل فيها بجهل فهو من الفجار الظالمين، إنما الضابط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

* قال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

يدخلونها ويحترقون بها يوم الجزاء، وذلك يوم القيامة. ولن يغيبوا عنها فيخرجوا منها؛ بل هم ملازمون لها.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾.

يوم القيامة لا أحد يملك لأحد شيئاً، لا بجلب خير، ولا بدفع ضرر إلا بإذن الله ـ عز وجل ـ.

﴿ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝ ﴾.

أي: في الآخرة الأمر لله ـ عز وجل ـ ولا تملك نفس لنفس شيئاً إلا بإذن الله، والله ـ عز وجل ـ يتفرد به ـ سبحانه ـ، لا يُملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً كما ملكهم في الدنيا، ولا يقهره قاهر ولا ينازعه أحد.

سورة المطففين (٨٣)

سورة المطففين سورة مكية، فيها إقامة العدل ونشره، والتحذير من الظلم ونبذه، فالله ـ عز وجل ـ حكم عدل لا يرضى بالظلم، ولا يرضاه لعباده حتى في أقل الأمور وأصغرها شأناً، ولهذا ذكر التخويف والوعيد لمن فسدت أخلاقه ولم يراقب الله ـ عز وجل ـ وظلم الناس ولو بالقليل، ومن أولئك أصحاب الأموال، وأهل البيع والشراء، الذين يظلمون الناس بغشهم وخداعهم، فهم يأخذون المال من الناس كاملاً، ويعطونهم أقل من حقهم من المباع، فحذرهم وذكرهم بيوم القيامة حتى لا يتمادوا، ويتوبوا من تطفيف الكيل والميزان، وفي الحديث عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه: «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل بعد ذلك» [رواه ابن ماجه].

وفي القرآن سورتان بدأ الوعيد فيهما بـ ﴿وَيْلٌ﴾، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝﴾ و﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝﴾ الأولى في حفظ أموال الناس، والثانية في حفظ أعراضهم.

* قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝﴾ [المطففين: ١].

وإذا كان هذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن يطففون الكيل والوزن الحي؛ فيأخذون حقهم وافياً، ويبخسون الناس حقهم في ذلك، وإن كان التطفيف في المكيال والميزان فإنه أيضاً في من يأخذ أجراً ولا يؤدي حقه مثلما أخذ مقابله، وعليه فإن بخس الناس حقوقهم في الأمور المعنوية قد يكون أشد من ذلك وأعظم كاحتقار الناس وتنقصهم والتكبر عليهم وعدم الإنصاف من النفس، وعدم قول الحق عليها بل ولا قبوله.

قال سلمان الفارسي: الصلاة مكيال، من وفى وفِّي له، ومن طفف فقد علمتم ما قال في المطففين.

* قال ـ تعالى ـ في وصف شراب أهل الجنة:

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٧ ـ ٢٨].

التسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر ـ سبحانه ـ أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج، ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً، وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مُزج شرابه.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ قال ابن تيمية: ولم يقل (منها) لأن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل يشرب بها، كان المعنى: يروون بها.

سورة الانشقاق (٨٤)

سورة الانشقاق سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أهوال وأحوال القيامة؛ وهي اليوم المهول الذي يُجازى فيه العباد على أعمالهم، فإن الله ـ عز وجل ـ خلق الخلق لعبادته وطاعته، وجعل لهم أمداً وأجلاً يرجعون إليه فيه، فيحاسب المرء على ما قدم، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر، وذلك يوم القيامة حيث تقع فيه الأهوال العظيمة، وتحدث كوارث وشدائد كما ذكر الله ـ عز وجل ـ في وصفها، وهذه الآيات وأمثالها آيات دالة على ربوبية الله ـ عز وجل ـ، مستلزمة للعلم بصفات كماله، وعظيم قدرته.

* قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝﴾.

انشقت: أي: انفتحت وانفرجت وتصدعت وتقطعت، وانتثرت نجومها، وخُسف بشمسها وقمرها، وهذا من علامات القيامة.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾.

تأكيداً لاستماعها لربها، واستسلامها وطاعتها له.

قال الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: تأمل أيها الآدمي البشر الضعيف كيف كانت هذه المخلوقات العظيمة تسمع وتطيع الله ـ عز وجل ـ، هذه الطاعة العظيمة في ابتداء الخلق وفي انتهاء الخلق، في ابتداء الخلق قال: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝﴾ [فصلت: ١١] وفي انتهاء الخلق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٢]. حق لها أن تأذن وتسمع وتطيع.

* قال تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝﴾.

أذنت: بمعنى استمعت، وأطاعت أمر ربها ـ عز وجل ـ، وحق لها أن تأذن، أي تسمع وتنقاد وتطيع فإنها مسخرة مدبرة تحت مُسخر ملك عظيم، لا يُعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .

أي: بُسطت، ودكت جبالها حتى صارت واسعة جدّاً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

أي: جثث بني آدم تلقيها يوم القيامة، وخلت الأرض غاية الخلو حتى لم يبق شيء في بطنها وذلك يُؤذن بعظم الهول.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .

أذنت: يعني استمعت وأطاعت لأمر ربها مثلما أطاعت السماء لربها وحقت.

والمتأمل في الآيات يلحظ عظيم الأهوال، بدأ بالعالم العلوي الذي هو أشرف وأنظم من العالم السفلي، وآذن بتغير أحواله ونهايته.

* ثم ذكر الله ـ عز وجل ـ حال الإنسان وأنه جاهدٌ ومجد في أعماله التي عاقبتها ونهايتها الموت، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ .

أي: أنك تكدح أيها الإنسان كدحاً يوصلك إلى ربك فإليه المرجع وإليه المآب. فما أسرع أن تلاقي الله ـ عز وجل ـ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر.

والكادح: هو الساعي بجد ونوع مشقة.

* وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ بعد هذه الآيات العظيمة حال الناس بعد الحساب والجزاء، حيث ذكر أهل اليمين من يؤتى كتابه بيمينه وهذه علامة السعادة، وأهل الشمال من يؤتى كتابه وراء ظهره، فقال تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ .

أي: من أعطي كتابه بيمينه وهو المؤمن. فسوف يحاسبه الله ـ تعالى ـ بإحصاء عمله عليه، لكنه حساب سهل يسير، يُجازى على حسناته،

ويتجاوز عن سيئاته، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن أنه قد هلك، قال الله ـ تعالى ـ: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم».

قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

وفي الحديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يحاسب إلا هلك»، قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عز وجل ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝﴾ قال: «ذلك العرض، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك» [رواه البخاري].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾.

ينقلب ويعود من الحساب إلى أهله من الزوجات والحور العين في الجنة، مسروراً مبتهجاً بما أعطاه الله من الخير والكرامة.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝﴾.

هؤلاء هم الأشقياء والعياذ بالله، يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره وليس عن يمينه، لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وهذه علامة الشقاوة.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾

أي: إذا قرأ كتابه يدعو على نفسه بالثبور، من كلمات الندم والحسرة والخزي ويتمنى الهلاك والموت.

يصلى النار التي تُسَّعر به ويقاسي عذابها وحرّها، ويكون مخلداً فيها أبداً، لأنه كافر. فقد كان في الدنيا متبعاً لهواه وركوب شهوته غافلاً لاهياً عما أمامه؛ وقد وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد الموت للجزاء والحساب.

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ .

أي: سيحور ويرجع وسيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه كان به بصيراً عليماً خبيراً.

سورة البروج (٨٥)

سورة البروج سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أن هذه الدنيا سجال بين أهل الحق وأهل الباطل، وذكر ـ سبحانه ـ أحوال بعض الأمم السابقة وما جرى بين الفريقين، حيث ذكر قصة أصحاب الأخدود، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين.

عن جابر بن سمرة: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق ونحوهما» [رواه الترمذي].

* قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: ٨].

وهو الحميد، مستحق للحمد والثناء بفعاله، يحمد في السراء والضراء، وحمده من أجلِ الأعمال، قال ﷺ: **«والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض»** [رواه مسلم].

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

* قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يعني: ذا المغفرة، الساتر لذنوب عباده المتجاوز عنها، والمغفرة: ستر الذنب والعفو عنه، فليست المغفرة ستر الذنب فقط بل ستره وعدم المؤاخذة عليه.

﴿ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ مأخوذة من الود، والود هو خالص المحبة، فهو ـ جل وعلا ـ ودود. ومعنى ودود أنه محبوب وأنه حاب، كثير المحبة لمن أطاعه.

وفي هذا سر لطيف: حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله، وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

ما ألطف اقتران اسم الودود بالغفور ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤] فالرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، والله يغفر ويحب عبده إذا تاب، فهو يحب التوابين.

* ثم بين عظمته وتمام سلطانه في قوله تعالى:

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: صاحب العرش. والعرش هو الذي استوى عليه الله ـ عز وجل ـ، وهو أعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وخلقُه بهذا الوصف يدل على عظمة خالقه.

﴿ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

المجد: هو النهاية في الكرم والفضل.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

هذا وصف الله ـ تعالى ـ بأنه الفعال لما يريد، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

* ثم لما ذكر رحمته بعباده المؤمنين ورأفته بهم، ذكر أحداث بعض الأمم السابقة، الدال على صدق ما جاءت به الرسل، فقال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾.

الخطاب هنا موجه لرسول الله ﷺ أو لكل من يصح أن يتوجه إليه بالخطاب، أي: هل بلغك ما أحل الله من البأس وأنزل من النقمة التي لم يردها أحد من الجموع الكافرة الذين تجندوا على حرب الرسل وأولياء الله، وفي ذلك مؤانسة للنبي ﷺ بذلك وتسلية.

سورة الطارق (٨٦)

سورة الطارق سورة مكية، أقسم الله فيها ببعض مخلوقاته، فهو الذي خلق الخلق لعبادته وطاعته، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل عليهم ملائكة يحصون أعمالهم ويدونونها، وتنشر هذه الصحائف يوم الجزاء والحساب.

وقد عظم الله - عز وجل - في هذه السورة قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم، ومسكن ملائكته وفيها خلق الجنة، وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة.

ثم ذكر - عز وجل - خلق الإنسان ومبدأه.

* قال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝﴾ [الطارق: ٦ - ٨].

أي: من بين صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهو موضع القلادة من الصدر.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝﴾ [الطارق: ٩].

قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: أي تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي ﷺ المنافقين معاملة المسلمين حيث كان يستأذن في قتلهم فيقول: «**لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه**»، لهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح، عمل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار، ولهذا أخبر النبي ﷺ عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم**» - يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية

والعياذ بالله ـ لا يتجاوز الإسـلام حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان.

سورة الأعلى ٨٧

سورة الأعلى سورة مكية، كان ﷺ يقرأها في الركعة الأولى من صلاة العيد، وفي صلاة الشفع قبل الوتر، وفي صلاة الجمعة.

عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝﴾ [الغاشية].

قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضاً في الصلاتين [رواه مسلم].

والسورة فيها تنزيه الله ـ عز وجل ـ بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وذكر قدرته، فإنه ـ جل جلاله ـ مدبر الكون، عالم الخفيات، له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته وأفعاله، شرع لعباده أن يسبحوه بكرة وأصيلاً، وقد سبح هو نفسه مفتتح عدد من السور، ومنها هذه السورة.

* والمقصد من هذه السورة: تأكيد تعلق النفوس بالله العظيم الأعلى، والحرص على الآخرة ونعيمها، وعدم التعلق بالدنيا وبهرجها الزائل، وهي تحمل رسالة قصيرة مركزة للمؤمن أن العلو الحقيقي هو في طاعة الله وخشيته ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝﴾، وأن الشقاء والخسران في اجتناب هذه النصيحة والتعلق بالدنيا ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝﴾.

وقد وصف الشقي بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝﴾، وهذه الحقيقة الكبرى ينبغي أن تكون نصب عيني المؤمن في حياته كلها، تكرر عليه كل حين.

* قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وقدم التزكي على ذكر الله والصلاة؛ لأنه أصل العمل بذلك كله فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية، فعلمت منافعها وأكثرت من الإقبال عليها.

* قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ٩].

نفع الذكر إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه، فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه فإنه منهي عنه في هذه الحالة، كما نهى الله عن سبِّ آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله. وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شرٌّ أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به، وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه من شر أو ضرر. فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

سورة الغاشية ٨٨

سورة الغاشية سورة مكية، ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقرؤها في الركعة الثانية من صلاة العيد والجمعة، وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أحوال يوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظام، ومصير وحال أهل السعادة وأهل الشقاء، محذراً ومبيناً، رأفة وشفقة بالعباد حتى لا يضلوا ولا ينحرفوا. وفي هذه السورة ذكر لبيان شيء مما يجده أهل النار في النار، وما ينعم به أهل الجنة في الجنة.

وتذكر هذه السورة العظيمة بقدرة الله العظيمة، وأصناف القيامة، ومصيرهم في الاخرة، وهي المعاني الكبرى المصيرية التي ينبغي أن لا تغيب عن المؤمن أبداً، ويحتاج إلى تعلمها وتذكرها ولهذا شرعت قراءتها في الركعة الثانية من صلاة الجمعة والعيد والاستسقاء.

قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٦].

تجمع هذه الآيات الأربع مشاهد عظيمة، يصبح الإنسان ويمسي وهو يراها خاصة في بيئة مكة والعرب من حولها.

أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين أنها كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلقه سائر أنواع الحيوانات، في عظم جثتها، وشدة قوتها، وعجيب هيأتها اللائقة، يتأمل ما يصدر عنها من الأفاعيل الشاقة، كالنوء بأوقارها الثقيلة، وجر الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش حتى إن أظماءها لتبلغ

العشر ـ فصاعداً واكتفائها باليسير، ورعيها لكل ما يتيسر من شوك وشجر وغير ذلك مما لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما يشاء بقطارها كل صغير وكبير.

قيل: الإبل تجمع أربع خصال لم تجتمع في أي من الحيوانات إلا فيها: فهي حلوب، وركوب، وأكول، وحمولة.

* قال تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝﴾ [الغاشية: ٢٤].

ولم يقل: الكبير، وفي ذلك لطيفة، قال أهل العلم: وإنما قال: الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل.

سورة الفجر (٨٩)

سـورة الفجر سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها حال بعض الأمم السـابقة، وقصص الأقـوام الفانية، خاصـة من كذبوا وتكبـروا وطغوا، ثم ما جرى لهم من العذاب والنكال، وبيان سـنة الله ـ تعالى ـ في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر.

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الآخرة وأهوالها وشدائدها وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشـقياء، ومنازل هؤلاء وأولئك؛ وكل ذلك لأخذ العبرة من مآلهم، والحـذر من مخالفة أمر الله ـ عز وجل ـ.

* قال سبحانه: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝﴾ [الفجر: ٥].

قال ابن كثير: سـمى العقل حجراً؛ لأنه يمنع الإنسـان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝﴾ [الفجر: ١٥].

وهـذا صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعـث. وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته.

فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

وقد وردت كلمة الرب في هذه السـورة خمس مرات إظهاراً لعظمة الله ـ عز وجل ـ ومقدرته، مقابل إظهار طغيان وتكبر الأمم الكافرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

سورة البلد (٩٠)

سورة البلد سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ في أولها ما قدر على الإنسان في هذه الدنيا من المشقة والتعب والأكدار والأحزان والمكابدة، ولهذا حث على الصبر والتحمل وعدم التضجر مما يبتلى به في هذه الدنيا، ولينظر لدار ليس فيها نكد ولا حزن وهي الجنة، فتكون هدفه ومستقره برحمة الله.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة.

وقال ـ رحمه الله ـ: يكابد الشكر على السراء، ويكابد الصبر على الضراء، لا يخلو عن أحدهما.

* قال تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ [البلد: ٦].

أنكر ـ سبحانه ـ على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها ووضعه مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له بل تقرباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه.

* قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ [البلد: ١١ ـ ١٢].

والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل، لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس.

سورة الشمس (٩١)

سورة الشمس سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أن من أسباب الفوز والفلاح محاسبة النفس ومراجعتها وتعاهدها، وبذلك تستقيم النفوس وتتزكى القلوب، والمسلم مأمور بذلك في كل حين ووقت، فإن ذلك أقرب للتوبة والعودة إلى الله ـ عز وجل ـ، ومحاسبة النفس قبل أن تحاسب من علامات التيقظ والفطنة.

وفي مطلع هذه السورة، يقسم الله ـ عز وجل ـ بسبعة أشياء من مخلوقاته العظيمة، فأقسم ـ تعالى ـ بالشمس وضوئها الساطع، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد، وبالأرض التي بسطها على ماء جمد، وبالنفس البشرية التي كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد.

* قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وختم القسم بالنفس، التي هي آخر المخلوقات، فإن الله خلق آدم يوم الجمعة آخر المخلوقات، وبين أنه خالق جميع أفعالها، ودل على أنه خالق جميع أفعال ما سواها.

* قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

والفاجر أبداً خفي المكان زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها.

* قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ١٣ ـ ١٤] .

قال ابن تيمية: إذا كان هذا عذابه لهؤلاء، وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشد عذاباً.

سورة الليل (٩٢)

سورة الليل سورة مكية، جلى فيها ـ سبحانه وتعالى ـ حكمته وعدله، وسبق ذلك بذكر بديع صنعه في الأكوان، وذكر أن من تمام عدله وحكمته أنه لا يضيع عمل المحسن ولا يغفل عمل المسيء، ومن ذلك أن يُوفق المحسن للاستزادة من عمل الخير، ويحرم المسيء من الهداية لأفعال الخير فيستمر في أعمال الشر.

عن ابن عباس قال: إني لأقول هذه السورة نزلت في السماحة والبخل.

وابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى، أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ على أن عمل الخلائق مختلف، وطريقهم متباين.

* قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝﴾.

قال ابن عاشور: اختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام، لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

* قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥ ـ ٧].

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: هذه الآيات جمعت جميع الأسباب التي تنال بها السعادة، فأسبابها ثلاثة:

فعل المأمور ﴿أَعۡطَىٰ﴾.

واجتناب المحظور ﴿وَٱتَّقَىٰ ۝﴾.

وتصديق ما أخبر به الله ورسوله ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝﴾.

فمن جمعها ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾.

* قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ [الليل: ٧].

السين: هنا للتحقيق، أي: أن من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسييسره الله ـ عز وجل ـ لليسرى في أموره كلها، في أمور دينه ودنياه، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك. نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق: اشترى ستة عبيد من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة، يعذبونهم في الله فأعتقهم.

* قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝﴾ [الليل: ١٧ ـ ١٨].

بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب، قاصداً به وجه الله ـ تعالى ـ، فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين ونفقه ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ومما يبين الحب لله والحب لغير الله: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يحب النبي ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله، فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝﴾ [الليل: ١٧]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله؛ بل أدخله النار؛ لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله.

* وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝﴾ تأكيد، فالمتقي لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

قال ابن كثير: أي طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات.

سورة الضحى (٩٣)

سورة الضحى سورة مكية، تتناول شخصية النبي ﷺ، وما حباه الله من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة.

وسبب نزولها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل يصلي لله - عز وجل - ويناجيه، وفي ليلة مرض ﷺ فلم يقم لصلاة الليل ليلتين أو ثلاثاً، واحتبس عنه الوحي، فأتته امرأة مشركة من قومه هي أم جميل - امرأة أبي لهب -، فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله هذه السورة، وكلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وتطمين.

وقد أقسم - عز وجل - في هذه السورة بالضحى، والليل إذا سجى، على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، دلالة على ربوبيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد الظلام للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه.

وكذلك فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار، هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، وكذلك فإنه - سبحانه - اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، فلا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

* قال ابن هبيرة: سورة الضحى جمعت بين قسمين: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

وبين جوابين منفيين: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾.

وجوابين مثبتين: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝﴾.

وفيها ثلاث نعم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾.

وختمها الله ثلاث وصايا.

وكل وصية تقابل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝﴾ [الضحى: ٥ ـ ٧].

قال ابن عثيمين: ولم يقل فآمرك، فهداك، فأغناك، لأن الخطاب ليس خاصاً بالنبي.

* وبعد أن عدد نعمه وآلائه ذكره الله ـ عز وجل ـ بحقوق الضعفة والمساكين، فقال تعالى:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠].

إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم، ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه، فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

قال الشيخ محمد ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: أول ما يدخل في السائل، السائل عن الشريعة، عن العلم، لا تنهره؛ لأنه إذا سألك يريد أن تبين له الشريعة وجب عليك أن تبيِّنها له، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

* قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾.

نعمة الله ـ تعالى ـ على الرسول ﷺ التي ذكرت في هذه الآيات ثلاث نعم. وأمره الله ـ سبحانه ـ بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها بينهم، فإن التحـــدث بنعمة الله داع لشـــكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

ـ لـــم تقترن كلمة العطاء في القرآن كله بغير لفظ الرب ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النبا: ٣٦]، ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ [الضحى: ٥] الرب هو المربي والمعطي والقيم. وقد وعده ربه ـ عز وجل ـ ليس بالعطاء فحسب، بل بالعطاء حتى الرضا.

* والفـــرق بين التحدث بنعـــم الله والفخر بهـــا: أن المتحدث بالنعمة مُخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحســـانه، فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها، شـــاكر له، ناشـــر لجميع مـــا أولاه، مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء عليه، وبعث النفس على الطلب منه دون غيره، وعلى محبته ورجائه، فيكون راغباً إلى الله بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بهـــا. وأما الفخر بالنعم فهو أن يســـتطيل بها على الناس، ويريهم أنه أعز منهـــم وأكبر، فيركب أعناقهم ويســـتعبد قلوبهم ويســـتميلها إليه بالتعظيم والخدمة، وكذلك كسر قلوبهم والتفاخر بأنه هو المستحق لها دونهم.

سورة الشرح (٩٤)

سورة الشـــرح سورة مكية، تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة، ومقامه الرفيع عند الله ـ تعالى ـ.

وقد ذكر ـ عز وجل ـ في السورة ما وقع للنبي ﷺ من أحداث، فبينما كان النبـــي ﷺ وهو صغيـــر يلعب مع الصبيان، إذ جـــاءه جبريل ـ عليه السلام ـ، فألقاه على ظهره ثم شرح (شق) صدره، واستخرج قلبه وشقه، وأخرج منه قطعة ســـوداء، وقال: هذا حظ الشـــيطان منك، ثم غسل قلبه بماء زمزم في طســـت من ذهب، ثم أعاده إلى مكانه، يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: بقي أثر المخيط في صدره ﷺ، فحصل بذلك شـــرح صدر النبي ﷺ حسياً بشقه وإخراج القطعة السوداء من قلبه.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١].

وإنما خص الصـــدر لأنه محل أحوال النفس مـــن العلوم والإدراكات، والمـــراد الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوســـيعه حتى قـــام بما قام به من الدعوة، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي.

وكما شـــرح صدره معنوياً بنور الإيمان والنبوة، وامتن الله على نبيه ﷺ ذلك، فقد ذكر ـ عز وجل ـ العسر بعد اليسر.

* قال ســـبحانه وتعالـــى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

بشـــارة عظيمة، أنـــه كلما وجد عســـر وصعوبة، فإن اليســـر ـ يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر.

وتعريف ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر ـ وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ـ فإنه في آخره التيسير ملازم له.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾.

لم يقل (بعد) بل قال: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾ ليبعث التفاؤل في النفس وقرب الفرج، وأن الفرج ملازم للعسر قريب منه.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾.

أي: إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر، وهذا من نعم الله ـ عز وجل ـ ولن يغلب عسر يسرين.

قال المفسرون: كان رسول الله ﷺ في مكة في ضيق وشدة هو وأصحابه، بسبب أذى المشركين للرسول والمؤمنين، فوعده باليسر، كما عدد عليه النعم في أول السورة تسلية وتأنيساً له، لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه.

* ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أصلاً، والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝﴾.

أي: إذا فرغت من أعمالك وصلاتك، أو من التبليغ، فاجتهد في الدعاء، واطلب من الله حاجتك.

أو: فانصب في العبادة. وتضرع إليه وحده ـ سبحانه ـ رهباً من النار، راغباً في الجنة وانصب لعمل آخر، يعني اتعب لعمل آخر، واجعل رغبتك إليه خصوصاً، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه، مفوضاً أمرك له، ولا تكن ممن إذا فرغوا أو تفرغوا لعبوا وأعراضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين.

قال الشيخ ابن عثيمين: إن استراحتك لتنشيط نفسك وإعادة النشاط يعتبر شغلاً وعملاً، يعني لا يلزم الشغل بالحركات، ففراغك من أجل أن تنشط للعمل الآخر يعتبر عملاً، المهم أن تجعل حياتك كلها جداً وعملاً.

سورة التين (٩٥)

سورة التين سورة مكية، امتن الله فيها على عباده أن خلقهم في أحسن صورة وأفضلها، مؤكداً بهذا نعم الله عليهم، ومدللاً أن من خلق هذا الخلق وسواه قادر على بعث الإنسان بعد موته، كما أنه بحكمته وعدله خلق هذا الكمال في الإنسان ولم يتركه هملاً فلا يكلفه ولا يجازيه على عمله، فاقتضت حكمته ـ سبحانه ـ أن يبعثهم ويجازيهم على أعمالهم، وابتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة والأماكن المشرفة، التي خصها الله ـ تعالى ـ بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله، على أنه ـ تعالى ـ كرم الإنسان فخلقه في أجمل صورة، وأبدع شكل.

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في العشاء ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾ فما سمعت أحد أحسن صوتاً أو قراءة منه. [رواه البخاري].

* قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [التين: ١ ـ ٢].

بدأ بالتين فالزيتون، والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة، قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

* ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم الرب عليه موسى، ثم أنظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠﴾ [المؤمنون: ٢٠].

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة، مكان مولد رسول الله ﷺ ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين، فتدرج من الفاضل إلى الأفضل ومن التشريف إلى الأشرف.

* وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ٢] فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣].

ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣] ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر ـ هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

* قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝﴾.

والله ـ عز وجل ـ أحسن خلق كل شيء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧] وإنما خص الإنسان بالذكر بحسن التكريم، وحسن التقويم والتعديل، لمزيد الاعتناء به، وليحسن صلته بخالقه.

سورة العلق (٩٦)

سورة اقرأ سورة مكية، وهذه الآيات أول ما نزل على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ من القرآن الكريم، نزلت عليه وهو يتعبد في غار حراء حيث كان يقضي الأيام والليالي متعبداً لله ـ عز وجل ـ منعزلاً عن الناس، فجاءه جبريل فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فعل ذلك ثلاث مرات ثم قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝﴾.

* وبين ـ عز وجل ـ خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ [العلق: ٢] كلمة علق هي بالجمع وليس المفرد، هو الدم الجامد الرطب في آن واحد، أما بالمفرد (علقة)، ذكر أيضاً في القرآن كما في سورتي الحج وعافر.

* قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦].

لما أخبر الله ـ تعالى ـ بطغيان الإنسان عجل بذكر الدواء، ولا دواء للطغيان إلا أن يتذكر الإنسان أنه مفتقر لله ـ تعالى ـ وأنه لا يزال مفتقراً في حياته ومماته وغناه وفقره، ومن رحمته ـ تعالى ـ أن ذكر الإنسان الذي أحسن له في التربية بالرجوع الأعظم الثابت الذي لا يجيد عنه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٨].

* قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝﴾ [العلق: ١٩].

وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ افتتحت بالقراءة، وختمت بالسجود، فوضعت الركعة على ذلك، أولها قراءة وآخرها سجود.

سورة القدر (٩٧)

سورة القدر سورة مكية، تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم، وذكر الله - عز وجل - فيها من كرمه وجوده بعض ما خص به هذه الأمة من فضائل ومزايا، ولعلمه - سبحانه - بقصر أعمارهم، عوضهم من الأيام ما يوافي أجوراً عظيمة، ومن ذلك ليلة القدر التي العمل فيها خير من ألف شهر.

* قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾ [القدر: ١].

طالبهم في سورة العلق بالقراءة والتعلم، ثم جاءت سورة القدر بعدها لتبين عظمة ما في كتاب الله - تعالى - المقروء والمتعبد بتلاوته الذي أنزله في ليلة مباركة، وأنه مصدر مهم في التعلم ومعرفة الله - تعالى - فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝﴾.

قال الشنقيطي: كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار، مشعر بفضل اختصاص الليل.

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ومنه قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝﴾ [ق: ٤٠]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝﴾ [المزمل: ٦]، وقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝﴾ [الذاريات: ١٧].

ومن السنة قوله ﷺ: **«إذا كان ثلث الليل الآخر ينزل ربنا إلى سماء الدنيا»** الحديث.

وهذا يدل على أن الليل أخص بالنفحات الإلهية، وبتجليات الرب - سبحانه - لعباده، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل، وسكون الليل ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه.

سورة البينة (٩٨)

سورة البينة سورة مدنية، ذكر الله فيها أحوال الأمم السابقة، فإنه قبل مبعث النبي ﷺ كان الناس يعيشون في ظلمات الكفر والشرك من عبادة الأصنام والنجوم والكواكب والأشجار والأحجار، فبعث الله محمداً هادياً ومبشراً بهذا الدين العظيم، دين الفطرة الذي ارتضاه الله ـ عز وجل ـ لعباده.

وابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن اليهود والنصارى، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق وسطعت أنواره، وبعد أن عرفوا أوصاف النبي المبعوث آخر الزمان، وكانوا ينتظرون بعثته ومجيئه، فلما بعث خاتم الرسل كذبوا برسالته وكفروا وعاندوا.

* قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

قال الشيخ ابن عثيمين: ذلك الجزاء لمن خشي الله ـ عز وجل ـ، والخشية هي خوف الله ـ عز وجل ـ المقرون بالهيبة والتعظيم ولا يصدر ذلك إلا من عالم بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨].

سورة الزلزلة (٩٩)

سورة الزلزلة سورة مكية، ذكر الله فيها من عظيم صنعه في الكون، أن الأرض مستقرة لا تتحرك ولا تضطرب حتى يعيش عليها الإنسان عيشة طيبة هنية، وفي يوم القيامة تتبدل الأحوال وتتغير الأوضاع فتضطرب الأرض وتهتز، ويندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، وتخرج الأرض ما في جوفها من الأجساد والكنوز.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: أنزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ١] وأبو بكر الصديق قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

* وفي الآيات غاية الترغيب في فعل الخير ولو كان قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو كان صغيراً، قال أبو الدرداء: فلا تحقرن شيئاً من الشرك أن تتقيه، ولا شيئاً من الخير أن تفعله، فإن الله يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها.

سورة العاديات (١٠٠)

سورة العاديات سورة مكية، يُذكِّر الله ـ عز وجل ـ عباده فيها بيوم القيامة، وموقف الجزاء والحساب، ليكون الناس على أهبة الاستعداد، ولا تشغلهم الدنيا عن الآخرة، والفانية عن الباقية.

وفي هذه السورة يقسم الله ـ سبحانه ـ بخيل المعركة، ويصف حركتها واحدة واحدة، منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجاة العدو، مثيرة للنقع والغبار وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب.

* قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

العاديات: هي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة، وهي الخيل التي ظهورها عز، وبطونها كنز، وهي التي ترفع عليها رايات السيوف بيد المجاهدين في سبيل الله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: فطبيعة الإنسان وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

سورة القارعة (١٠١)

سورة القارعة سورة مكية، ذكر الله فيها يوم القيامة يوم الجزاء والحساب ويوم الفصل بين العباد، يوم توزن فيه أعمال الخلائق؛ فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته أدخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته أدخل النار، وسورة القارعة تقرر هذه الأمر للاستعداد والتأهب، ومن قبل التوبة والامتثال والطاعة لرب الأرباب.

والسورة كلها تتحدث عن يوم القيامة، حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة، كخروج الناس من قبورهم وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير، المنتشر هنا وهناك، يجيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وذكر الله ـ عز وجل ـ فيها نسف الجبال وتطايرها.

* قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

أي: يكون الناس من شدة الفزع والهول كالفراش؛ وهو الحشرة الطائرة المعروفة التي تتساقط على الضوء ليلاً. ويعني المتفرق المنتشر.

والمعنى: أن الناس في يوم القيامة يسيرون على غير هدى في كل اتجاه لشدة الهول حتى يحشروا إلى الموقف.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾.

هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول، أي: تصير وتتحول الجبال العظيمة الراسية إلى عهن منفوش، أي: تكون كالصوف الذي نُفش بالندف.

والمنفوش: المبعثر الذي تفرقت أجزاؤه، وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت في الجبال العظيمة الصلبة حتى

تصير كالصوف المندوف مع أنها غير مكلفة، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب.

❁ ثم ذكر ـ سبحانه ـ أحوال الناس عند المحاسبة في الموقف، وتفرقهم فريقين، شقي وسعيد على جهة الإجمال، فقال عمن خفت موازينه:

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [القارعة: ٩].

عن أبي هريرة قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة، فقال النبي ﷺ: **«تدرون ما هذا؟»** قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها»** [رواه مسلم].

سورة التكاثر ١٠٢

سورة التكاثر سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها ما يُلهي العباد عن طاعته وعبادته، وحذرهم من هذا الطريق، وبينه لهم، وقد تكرر في هذه السورة الزجر والإنذار تخويفاً للناس، وتنبيهاً لهم على خطئهم، باشتغالهم بالفانية عن الباقية.

* قال ـ تعالى ـ لمن أعرض عن طاعته وألهته الدنيا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١].

أبلغ في الذم من (شغلكم)، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض.

وأعرض عن ذكر التكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وإن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في التكاثر. ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله ـ تعالى ـ.

* قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ٣].

جعل الغاية زيارة المقابر دون الموت، إيذاناً بأنهم غير مستبقين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مرة ثم يظعنون عنها، كما كانوا في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

* قال تعالى: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥].

مراتب اليقين ثلاثة: علم اليقين في سورة التكاثر.

عين اليقين في سورة التكاثر: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝﴾.
حق اليقين في سورة الواقعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝﴾ [الواقعة: ٩٥].

* قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝﴾ [التكاثر: ٨].

أي: عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة، فيسأل عن الأمن، والصحة، والفراغ، وعن شرب الماء البارد على الضمأ وظلال المساكن، وغير ذلك من النعم.

وقد استعرض القرطبي أشهر أقوال التأويل في النعيم فعدَّ منها:

الأمن، والصحة، والفراغ، والإدراك بالحواس والبصر، وملاذ المأكول والمشروب، والغداء والعشاء وشبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخُلق، ولذة النوم، وصحة البدن، وطيب النفس، والنوم مع الأمن والعافية، وجِلْف الخبز.

وقال محمد بن كعب: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ.

وقال الحسن: هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن.

قال ابن تيمية عن الشكر على النعيم: فيطالب العبد بأداء شكر الله على النعيم، فإن الله ـ تعالى ـ لا يعاقب على ما أباح وإنما يعاقب على ترك مأمور وفعل محذور.

وقد أخلصت هذه السورة الوعد والوعيد والتهديد، وكفى بها موعظة لمن عقلها.

سورة العصر (١٠٣)

سورة العصر سورة مكية، ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أنه خلق الخلق لعبادته وإقامة شرعه، والإنسان في هذه الدنيا بين أمرين؛ إما القيام بما أمر الله ـ عز وجل ـ به فقد أفلح ونجا، وإما التمرد والعصيان ومخالفة أمره ـ سبحانه ـ فقد خاب وخسر.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، ولو لم ينزل إليهم إلا هي لكفتهم، لأنها شملت جميع علوم القرآن.

* قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣].

وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره، وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝﴾ [الأنفال: ٤٦]. وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها.

* قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣].

قال ابن عاشور: التخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي بالصبر عليها؛ حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٣].

فبالأمرين الأولين، الإيمان والعمل الصالح يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين - بالنصح والإرشاد والصبر - يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم، فقد جمع بين حق الله وحق العباد.

قال ابن القيم: سورة العصر على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه، شافياً من كل داء، هادياً إلى كل خير.

قال الألوسي: وهي على قصرها جمعت من العلوم ماجمعت.

سورة الهمزة (١٠٤)

سورة الهمزة سورة مكية، ذكر الله فيها أحوال بعض العباد؛ فإن من تأمل في حال الناس وأخلاقهم يجد التفاوت العجيب، وقد أنزل الله ـ عز وجل ـ هذا القرآن مقرراً للشريعة رافعاً راية التوحيد، مهذباً للأخلاق وحسن التعامل وطيب الفعال بين المسلمين.

وفي هذه السورة ذم الله ـ عز وجل ـ الطعن في أعراض الناس وأنسابهم ودناءه من فعل ذلك، وأن له الوعيد الشديد والعقوبة العظيمة إن احتقر أو استهزأ وطعن في أنساب المسلمين وأعراضهم على وجه التنقص والازدراء، وذم الله ـ عز وجل ـ الذين يشتغلون بجمع الأموال وتكديس الثروات كأنهم مخلدون في هذه الحياة.

* قال ـ تعالى ـ في وصف النار: ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: ٧].

قال ابن عثيمين: تصل إلى القلوب ـ والعياذ بالله ـ من شدة حرارتها، مع أن القلوب مكنونة في الصدور وبينها وبين الجلد الظاهر ما بينها من الطبقات لكن مع ذلك تصل هذه النار إلى الأفئدة.

وختمت السورة بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء، قال ـ تعالى ـ في وصف النار وشدتها: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾.

سورة الفيل ١٠٥

سورة الفيل سورة مكية، ذكر فيها ـ سبحانه ـ فضله العظيم وآلائه الكثيرة، وذكر هنا ـ عز وجل ـ لكفار قريش خاصة فضله ومنته عليهم عندما أراد أبرهة الحبشي أن يبني باليمن كنيسة ليصرف الناس إلى حجها دون البيت الحرام، فقام أحد العرب فلطخها بالقذر ليلاً، فعزم أبرهة على هدم الكعبة، وسار بجيش عظيم إلى مكة ومعه الفيل إلى أن دنا من المسجد الحرام، فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة منها خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله ـ تعالى ـ عليهم وعلى جيشهم ما منعهم من هدمها أو التعرض لها، وأبقاها على حالها نعمة منه على أهل مكة، ونكالاً منه لرد من يعتدي على بيته.

ووجه اتصالها بما قبلها: أنه ـ تعالى ـ لما ذكر حال الهمزة اللمزة، الذي جمع مالاً وعدده، وتعزز بماله وتقوى، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل، الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر أموالاً وعتواً، وقد جعل كيدهم في تضليل.

فمن كان قصارى تعززه وتقويه بالمال، وهمز الناس بلسانه، أقرب إلى الهلاك، وأدنى إلى الذلة والمهانة.

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝﴾.

أي: ألم يهلكهم الله ـ تعالى ـ ويجعل مكرهم وحيلتهم وسعيهم في تخريب الكعبة ضلالاً منهم، أدى بهم إلى الهلاك فلم يصلوا إلى مرادهم وهدفهم وغايتهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝﴾.

أي: وسلط عليهم جماعات متفرقة يتبع بعضها بعضاً، وهي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً، مع كل طائر ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره، لا يصيب شيئاً إلا هشمه.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾.

أي: تقذفهم بحجارة من طين طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة. فجعلهم كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت.

والعصف: هو ورق الزرع اليابس الذي يبقى بعد الحصاد.

* وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان الواجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه على نعمه.

وفيها عجائب وغرائب من قدرة الله على الانتقام من أعدائه بأضعف جنوده وهي الطير التي ليست من عاداتها أن تقتل.

قال ابن كثير: إذا تدبرت سياق قصة أصحاب الفيل أدركت أن من أعظم الحكمَ في تولي الله الدفاع عن بيته حتى لا تكون للمشركين يدٌ على بيته، ولا سابقة في حمايته بحميتهم الجاهلية، حتى إذا ما دعاهم النبي ﷺ لم يكن لهم سبب للاعتزاز بحماية بيت الله، ولذا ستفهم التعجب الذي بدئت به السورة، ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ ﴾.

سورة قريش (١٠٦)

سـورة قريش سورة مكية، وفي كثير من السور والآيات يعدد الله ـ عز وجل ـ نعمه على عباده ليوحدوه ويعبدوه ويعرفوا قدر نعمه عليهم، وفي هذه السـورة يمتن الله ـ عز وجل ـ أن جعـل بيته الحرام آمناً وأهله كذلك آمنين، فكان الأمن والاسـتقرار لهم راحة وطمأنينة، وسـعة رزق، وغنى ويسر، ومن ذلك رحلتهم التجارية التي تكون في الصيف إلى الشام، وفي الشتاء إلى اليمن، وما يحصل لهم من منافع تجارية وعائدات عظيمة؛ فكان من الواجب شكر المنعم على نعمه بطاعته وعبادته.

* قال الرازي في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ اعلم أن الإنعام على قسـمين: أحدهما دفع الضرر، والثاني جلب النفع، والأول أهـم وأقـدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفـس واجب، وأما جلب النفع فإنه غير واجب. فلهذا السبب بيَّن نعمة دفع الضرر في سورة (الفيل) ونعمة جلب النفع في هذه السـورة، ولما تقرر أن الإنعام لا بدَّ وأن يُقابل بالشكر والعبودية أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾.

* قـال تعالـى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

عَظَّم نعمة الـرزق والإطعام مـن الجوع، ونعمة الأمن، ولهذا خصهما ـ سبحانه وتعالى ـ بالذكر وامتن عليهم بذلك. وكانت العرب يغير بعضها على بعض ويسـبي بعضها على بعضا، فأمنت قريش من ذلك لمكان البيت العتيق.

سورة الماعون (١٠٧)

سورة الماعون سورة مكية؛ ذكر الله فيها أن الإسلام هو الدين الخالص لله، وأنه أيضاً دين التواصل والتعاطف والرحمة. وقد جمع الله ـ عز وجل ـ بين عبادته وبين الرحمة والعطف على الأيتام والفقراء والتذكير بحق المسكين والفقير في هذه السورة.

بدأت السورة بذكر الإحسان إلى عباد الله، ثم ذكرت الإحسان في عبادة الله والإخلاص فيها، ثم ختمت السورة بالحث على الإحسان إلى عباد الله؛ وكأن السورة تشير إلى أن أهل الإحسان إلى عباد الله هم أهل الإحسان في عبادة الله في الصلاة وفي غيرها، وفي الحديث قال ﷺ: **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»**.

* قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾.

مصلون، يصلون مع الناس، أو أفراداً لكنهم غافلون عنها، لا يقيمونها على ما ينبغي، يؤخرونها عن الوقت الفاضل، لا يقيمون ركوعها ولا سجودها، ولا قيامها ولا قعودها، لا يقرأون ما يجب فيها من قراءة سواء كانت قرآناً أو ذكراً، إذا دخل في صلاته فهو غافل، قلبه يتجول يميناً وشمالاً، فهو ساه عن صلاته، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله ـ عز وجل ـ.

قال ابن عباس: هو المصلي الذي إن صلى لم يرج لها ثواباً، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً.

ومن نعم الله ـ عز وجل ـ ومن لطفه بخلقه أنه لم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون؛ لأن السهو كثير، والغفلة كثيرة.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾.

هـــم المنافقون، يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا، أو يراؤون الناس بكل مـــا عملوه من أعمال البـــر ليثنوا عليهم، وهم بهـــذا لا يريدون وجه الله والدار الآخرة، إنما يريدون المدح والثناء من الناس. ويمنعون إعطاء الشـــيء الـــذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، ويمنعون ما يجب بذله من المواعين وهـــي الأواني، وما يحتاجه الناس من الدلو والفأس والقدر، وهذا من الشـــح والبخل وعدم النفع للآخرين، يعني يأتي الإنســـان إليهم يســـتعير آنية فيمنعونها عنه فكيف بما هو أكثر منـــه، وقيل: يمنعون الزكاة المفروضة.

فلاهم أحســـنوا في عبادة ربهم، ولا أحســـنوا إلى خلقه، فاســـتحقوا الوعيد الشديد، وفي هذه السورة الحث على إكرام وإطعام اليتيم والمسكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها وفي جميع الأعمال، وكذلك الحث على فعل المعروف والإحسان إلى الناس وإعانتهم ودفع حاجتهم.

سورة الكوثر (١٠٨)

سورة الكوثر سورة مكية؛ ما أجلها من سورة وأغزر فوائدها على اختصارها، وحقيقة معناها تعلم من آخرها، فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ بتر شانئ رسوله من كل خير.

شملت سورة الكوثر مع قصرها عظيم العظة والعبرة عبر حملها لوعد وتوجيه ووعيد، فالوعد بالخير، والتوجيه بالشكر، والوعيد ببتر الأعداء.

وذكر الله ـ عز وجل ـ في السورة أنه اختار محمداً ﷺ نبياً ورسولاً واصطفاه على جميع خلقه، وجعل له المكانة العالية الرفيعة، ولما قدم كعب ابن الأشرف اليهودي إلى مكة، قالت قريش له: أنحن خير أم محمد؟ فقال: أنتم خير منه، فأنزل الله في شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

ولما وصف العاص بن وائل النبي ﷺ بأنه أبتر، أنزل الله في شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾، ليعظم منزلة النبي، وأنه صاحب الرسالة والمكانة الرفيعة.

وختمت السورة ببشارة الرسول ﷺ بخزي أعدائه، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة، والانقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة، بينما ذكرُ الرسول مرفوع على المنائر والمنابر، واسمه الشريف على كل لسان، خالد إلى آخر الدهر والزمان.

* قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢].

غالب ذكر النعم يختم ويقرن بالشكر.

كل من ابغض الحق وعادى السنة والتوحيد فإنه مبتور ويصاحبه الوصف الذميم، وكل من نصر الدين والتوحيد والسنة ونصر النبي ﷺ يصاحبه وصف حسن.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ٣].

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ أو ترده لأجل هواك أو انتصار لمذهبك أو شيخك أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله.

ولما كانت سورة (التين) بافصاحها ناهية عن مساوئ الأخلاق، كانت بافهامها داعية إلى معاني القيم، فجاءت (الكوثر) لذلك، وكانت (التين) قد ختمت بأنجل النجلاء وأدنى الخلائق: المنع تنفيراً من البخل، ومما جرَّه التكذيب، فابتدئت (الكوثر) بأجود الجود: العطاء لأشرف الخلائق، ترغيباً فيه، وندباً إليه، فكان كأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾.

في الآية الأولى من السورة قرر أنه ليس أبتر بل هو ﷺ صاحب الكوثر، وفي هذا الآية يرد الكيد إلى كائديه، ويؤكد ـ سبحانه ـ أن الابتر ليس هو محمد ﷺ، إنما هم شانئوه وكارهوه.

سورة الكافرون (١٠٩)

سورة الكافرون سورة مكية؛ هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال. ذكر الله ـ عز وجل ـ، فيها أنه لا يجوز صرف العبادة لغيره ـ عز وجل ـ، وقد كان النبي ﷺ يعلن دعوته على الملأ أن لا معبود بحق إلا الله. قيل: إن قريشاً من جهلها وطغيانها دعت النبي ﷺ إلى عبادة أوثانها سنة، ويعبدون الله سنة، فأنزل الله هذه السورة، ولم تكن العرب تجحد وجود الله ـ عز وجل ـ وأنه الخالق الرازق المدبر، لذا فهم يحجون ويتصدقون وينفقون، لكنهم جعلوا مع الله إلهاً آخر شريكاً له في العبادة. فأنزل الله هذه السورة لتعلن الدين كله لله لا شريك له.

* قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١].

اشتملت على التوحيد العملي نصاً وهي دالة على العلمي لزوماً.

و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً، وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً. ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك.

* قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ٣].

قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة، أي: لن تعبدوا الله في مستقبل أيامكم ما دمتم على كفركم وعبادتكم للأصنام، فعبادتي ليس كعبادتكم، وعبادتكم ليست كعبادتي.

سورة النصر (١١٠)

سورة النصر سورة مدنية؛ فيها البشارة أن دين الله عزيز منصور على مر الأزمان والعصور، وقد امتن الله ـ عز وجل ـ فيها على نبينا محمد ﷺ ومن معه من الصحابة بنصر عظيم، ألا وهو فتح مكة وإزالة الأصنام والأوثان، ودخول القبائل بعد ذلك في دين الله أفواجاً، وبهذا الفتح المبين ارتفعت راية الإسلام، واضمحلّت ملة الأصنام، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه بسنوات من أظهر الدلائل على صدق نبوته ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وفي هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله ﷺ عند حصولها، وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك.

* قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾.

أي: ورأيت العرب يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، بعد أن كانوا يدخلون فيه أفراداً، فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل الناس في دين الله أفواجاً وجماعات حتى كانت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام، والمعنى: إذا نصرك الله ـ يا محمد ـ على أعدائك، وفتح عليك مكة.

* ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

أي: سبحه تسبيحاً، ونزه تنزيهاً عما لا يليق به؛ مقروناً بالحمد والاستغفار، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بالنصر والفتح لمكة ودخول الناس أفواجاً، وفيه الجمع بين التسبيح والاستغفار؛ إذ في الاستغفار محو الذنوب، وفي التسبيح طلب الكمال.

قـــال بعض العلماء: إذا أهم الله على عبد بنعم أن يكثر من الاســـتغفار وحمـــد الله ـ تعالى ـ؛ لأن هذا اعتـــراف بفضل المنعم وطرد العجب عن النفس.

* قال تعالـــى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾.

تضمنت ثلاث بشـــارات، ثم ارشـــادين بعد تلك البشـــارات: التسبيح والاستغفار.

* قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾.

يعني: اســـأله المغفرة تواضعاً لله واســـتقصاراً لعملك، والاستغفار من التقصير في حمد الله وشـــكره، فجهد الإنسان مهما كان ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة العطاء والخير.

وفي هذا إشـــارة إلى شـــكر الله على نصره وتأييده، وإظهار نعمة المُنعم على عباده بالنصر والتأييد. وقد عُهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج وغير ذلك، فأمر الله لرســـوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشـــارة إلى أن أجله قد انتهى، فليســـتعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمـــره بأفضل ما يجده ـ صلوات الله وســـلامه عليه ـ، فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده «**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**».

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝﴾.

من شـــأنه التوبة على المســـتغفرين له، يتوب عليهـــم ويرحمهم بقبول توبتهم.

قال ابن القيم: كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»، فعلم أن التوبة مشـــروعة عقب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله

بالاستغفار توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها.

فإن الاستغفار يتضمن وقاية شر الذنوب، وفي هذا ترغيب في الاستغفار، وحث على التوبة والأوبة، فهو ـ سبحانه ـ أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وهذه السورة الكريمة فيها نعيُ النبي ﷺ ولهذا تسمى سورة «التوديع»، وحين نزلت قال رسول الله ﷺ لعائشة: «**ما أراه إلا حضور أجلي**»، وقال ابنِ عمر: نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزلت: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية، فعاش بعدهما النبي ﷺ ثمانين يوماً.

سورة المسد (١١١)

سورة المسد سورة مكية، فيها صور مما لاقاه النبي ﷺ من الأذى والمشقة حين قام بأمر هذا الدين، فإنه ﷺ قام بالدعوة إلى الله خير قيام، وبذل في سبيلها الغالي والنفيس، ولما أنزل الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ الصفا فنادى: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب، وهو عم النبي ﷺ وكان شديد العداوة والأذية للنبي ﷺ، قال: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه السورة التي تحدث فيها عن هلاك أبي لهب، عدو الله ورسوله.

* ثم ذكر ـ عز وجل ـ امرأته فقال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ٤-٥].

وكانت تحمل حطب العضاه والشوك فتضعه في الليل في طريق النبي ﷺ الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه، فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته، جعل لامرأته وعيد مقتبس لفظه من فعلها وهو حمل الحطب في الدنيا.

قال السيوطي: ما زلت أفحص في القرآن عن دليل على إماطة الأذى عن الطريق حتى وجدته ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ كان من أسباب عذابها وضع الأذى في الطريق.

* وفي هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يُسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

سورة الإخلاص ١١٢

سورة الإخلاص سورة مكية؛ تعدل ثلث القرآن، قال ﷺ: **«من قرأ: قل هو الله أحد؛ فكأنما قرأ بثلث القرآن»** [رواه أحمد والنسائي]. وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: **«قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»** [رواه الترمذي]، قيل لأن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منها الأحكام، وثلث منها وعد ووعيد، وثلث منها الأسماء والصفات، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات، وتقرير التوحيد تمام التقرير.

ومن فضل هذه السورة: أنها تقرأ في صلاة الوتر، وسنة الفجر، وسنة الطواف، وفي أذكار الصباح والمساء، وعند النوم.

وفي السورة ذكر بعض صفات الله - عز وجل - الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المتنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة، وردت السورة على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذي جعلوا لله الذرية والبنين.

وسميت سورة «الإخلاص» بهذا الاسم، لأن الله أخلصها لنفسه، فلم يذكر فيها إلا ما يتعلق بأسمائه وصفاته، ولأنها تخلص صاحبها من الشرك والتعطيل.

وقد تضمنت السورة إثبات كل كمال لله - عز وجل - ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، ونفت كل نقص عن الله - عز وجل - ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾ ونفت المثيل والشبيه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

وفي بعض آية منها ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ رداً على ثلاث طوائف:

المشركون: الذين زعموا بأن الملائكة بنات الله.

ورد على اليهود: الزاعمين أن عزيراً ابن الله.

ورد على النصارى: الزاعمين أن المسيح ابن الله.

وســبب نزولها ما رواه الترمذي عن أبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أن المشــركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك؟ أي اذكر لنا نسبه، فنزلت هذه السورة.

* قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝﴾.

أي: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته، السيد الذي كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والغني الذي قد كمل في غناه، المقصود في قضاء الحوائج وتفريج الكرب وقضاء الحاجات.

والدعــاء عبــادة عظيمة لا يجوز صرفها لغيــر الله ـ عز وجل ـ، وفي الدعاء من الذل والإنكســار في النفس وانشراح في الصدر، وصبر يسهل معه احتمال الواردات عليه، وهذا نوع من أنواع الإجابة.

وفي الدعاء معنى عظيم من أنواع العبودية وتخليص القلب وتفريغه من التعلق بغيره، والدعاء من أكرم الأشــياء عند الله، كما روى ذلك الترمذي أنه ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء».

﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

لم يتخذ ولداً، وليس له أبناء وبنات؛ لأنه ـ جل وعلا ـ لا مثيل له.

﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ لكمال غناه، ولأنه ـ عز وجل ـ هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾.

أي: لم يكن له أحد مســاوياً لا في أســمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فهو ـ سبحانه ـ لا يساويه أحد ولا يماثله، ولا يكافئه ولا يشاركه أحد في شيء من صفات كماله.

* وهــذه الســورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقــد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزهت الله ـ جل وعلا ـ عن صفات العجز والنقص.

فقد أثبتت الآية الأولى: الوحدانية، ونفت التعدد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

وأثبتت الثانية: كماله ـ تعالى ـ، ونفت النقص والعجز ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

وأثبتت الثالثة: أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

وأثبتت الرابعة: عظمته وجلاله ونفت الأنداد والأضداد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

وفي السورة ثلاثة أسماء من أسماء الله: الله، الأحد، الصمد.

فالسورة شاملة جامعة لإثبات صفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص.

وجاء في الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟**» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «**قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن**» [رواه البخاري ومسلم].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإذا قيل: إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فإذا اعتبر قراءة غيرها مع التدبر والخشوع بقراءتها مع الغفلة والجهل لم يكن الأمر كذلك؛ بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» مع حضور القلب وإنصافه بمعانيها أفضل من قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضلون في فهم هذه السورة وما اشتملت عليه، كما أنهم متفاضلون في فهم سائر القرآن.

سورة الفلق ١١٣

سورة الفلق سورة مدنية؛ ذكر الله ـ عز وجل ـ فيها أن الإنسان في هذه الدنيا معرض للابتلاء والمصائب، وقد مر على النبي ﷺ الشدائد والمخاطر في سبيل الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ، ومن ذلك أن اليهود سحروه ﷺ، فأنــزل الله المعوذتين فقرأهما ـ عليه الصلاة والســلام ـ، حتى انحل عنه السحر، فكأنما نشط من عقال ليس به بأس.

وهــذه الســورة والتي بعدها توجيه من الله ـ ســبحانه وتعالى ـ للعياذ بكنفه واللياذ بحماه، وأن يستعيذوا بجلاله وسلطانه من كل مُخَوف، خافٍ وظاهر، مجهول ومعلوم.

والسورة تنقسم إلى أربعة أقسام:

الأول: المســتعيذ: كل من قرأ الســورة بــدأ بالنبي ﷺ إلــى أن تقوم الساعة.

الثاني: صيغة الاستعاذة: أعوذ.

الثالث: ومستعاذ به: الله ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

الرابع: ومســتعاذ منه: أربع أشياء، ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾.

* قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾.

وأعوذ به ـ سبحانه ـ من شر الليل إذا أقبل ودخل في كل شيء وأظلم. لأن الليل إذا أقبل فهو محل ســلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، والأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث، وفيه تتســلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار.

وقيل: أن الغاسق هو القمر.

* قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝﴾.

أي: وأعوذ به من شـــر النساء الساحرات يعقدن الحبال وغيرها، وتنفث بقراءة مطلسمة فيها أسماء الشياطين على كل عقدة تعقد بقصد السحر.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾.

الحاسد هو الذي يكره نعمة الله على غيره، مبغض للناس على ما وهبهم الله من نعم، يريد زوالها عنهم، ولا يرضى بما قســمه الله ـ تعالى ـ له، فيســعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده.

﴿إِذَا حَسَدَ ۝﴾.

أي: ومن حســد الحاســد، وهي العين التي تصيب المُعان، وقد قيدها ـ ســبحانه ـ بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ ۝﴾ لأن الإنســان قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه ما، بل لا يجد في قلبه شيئاً من ذلك.

قال شـــيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: فإن فالق الإصباح بالنور يزيل بمــا في نــوره من الخير ما في الظلمة من الشــر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فإن فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه لا ينشرح صدره لإنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيــق الحاسد وشحه، وهو ـ سبحانه ـ لا يفلق شيئاً إلا بخير.

* وجاء في الآية ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بدَّ، وليس كل حاســد عائن، فإذا اســتعاذ من شــر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

واقترن الحاسد والساحر في السورة، لأن مقصدهما الشر للناس.

والعين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح.

وهذه السورة تضمنت الاستعاذة من أمورٍ أربعة:

الأول: شر المخلوقات التي لها شر عموماً.

الثاني: وشر الغاسق إذا وقب.

الثالث: وشر النفاثات في العقد.

الرابع: وشر الحاسد إذا حسد.

فتضمنت الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

قال الحسن بن الفضل: ذكر الله ـ تعالى ـ الشر في هذه السورة (الفلق) ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخس طبع.

* وفي السورة وبدئها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴿١﴾﴾ صفة تفاؤل وتذكير بالنور بعد الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفرج بعد الانغلاق، والفلق كل ما يفلقه الله ـ تعالى ـ، كالنبات من الأرض، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك، وكله مما يوحي بالفجر المشرق العجيب.

سورة الناس (١١٤)

سورة الناس سورة مدنية، فيها الاستجارة والاحتماء برب الأرباب من شر أعدى الأعداء، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين من الجن يزين له الكفر والفسوق والعصيان، فعلى المسلم أن يدافع تلك الشياطين وذلك بالالتجاء والاعتصام بالله - سبحانه - ليحفظه ويقيه شرهم، ومن ذلك قراءة هذه السورة العظيمة، وقد ذكر الله في هذه السورة ربوبيته للناس، وملكه لهم، وإلهيته لهم، فإضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. وأما إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، وهو المتصرف لهم، المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، والإضافة الثالثة فهو إلههم الحق، ومعبودهم الذي لا إله سواه، ولا معبود لهم غيره.

سورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

وتنقسم سورة الناس إلى أربعة أقسام:

الأول: مستعيذ: القارئ.

الثاني: صيغة استعاذة: أعوذ.

الثالث: مستعاذ به: برب الناس ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝﴾.

الرابع: مستعاذ منه: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝﴾.

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ به مرة واحدة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝﴾، وفي سورة الناس ذكر المستعاذ به ثلاث مرات ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾.

وفي سورة الفلق ذكر المستعاذ منه أربعة أشياء، وفي سورة الناس ذكر مستعاذاً منه واحد ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ﴾.

قيل: لأن سورة الفلق فيها فتن الشهوات فذكر المتسعاذ به مرة واحدة. أما في سورة الناس فأكثر من المستعاذ به لأن المقام مقام فتن شبهات ووسوسة عقدية.

* قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾ [الناس: ١].

من المعلوم أن الله رب جميع الخلائق، وإنما قال رب الناس مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم؛ ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾ [الناس: ٤].

ولم يقل في (قلوب الناس)، قال ابن باديس: والسر في التعبير بـ ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ ﴾، بدلاً من (قلوب الناس) لأن القلب مجلى العقل، ومقر الإيمان، وقد يكون محصناً بالإيمان فلا يستطيع الوسواس أن يظهره، ولا يستطيع له نقباً.

* افتتح ـ سبحانه ـ كتابه الكريم بالدعاء واختتمه به، فسورة (الحمد) التي هي فاتحة القرآن الكريم مشتملة على دعاء الله بأجل المطالب وأكمل المقاصد، ألا وهو سؤال الله ـ عز وجل ـ الهداية إلى الصراط المستقيم والإعانة على عبادته، والقيام بطاعته ـ سبحانه ـ، وسورة (الناس) التي هي خاتمة القرآن الكريم مشتملة على دعاء الله ـ سبحانه ـ، وذلك بالاستعاذة به ـ سبحانه ـ من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وما من ريب إن افتتاح القرآن الكريم بالدعاء واختتامه به دليل على عظم شأن الدعاء، وأنه روح العبادات ولبُّها.

* ثم بين ـ سبحانه ـ الذي يوسوس بأنه ضربان: جني أو إنسي، فقال:

﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

أي: من الجن والناس، والوساوس تكون من الجن، وتكون من بني آدم، أما وسوسة الجني فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأما وسوسة بني آدم فبما يوحي بعضهم إلى بعض من الشر ويزينونه في قلوبهم.

والمعنى: من شر الوسواس، ومن شر الناس، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس، والسورة تتضمن الاستعاذة من العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

* وقد جاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله، وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الخلق وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد ورد في سورة الفلق استعاذة القارئ بصفة الربوبية مرة واحدة من أربعة أشياء، بينما يستعيذ في سورة الناس بثلاث صفات لله ـ جل وعلا ـ من شر شيء واحد ـ وهو الشيطان ـ وما ذاك إلا لشدة خطر الشيطان وكثرة مداخله على الإنسان.

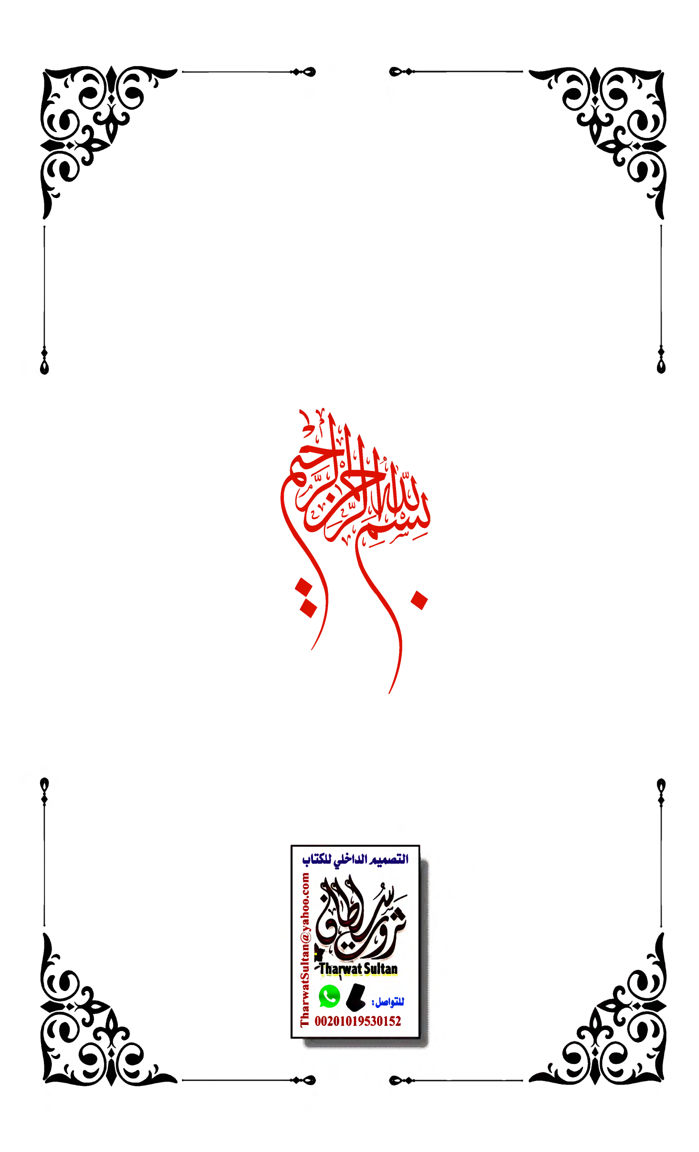
قال شيخ الإسلام: فيها الاستعاذة من شر المخلوقات عموماً وخصوصاً، ولهذا قيل فيها برب الفلق، وقيل في هذه برب الناس، فإن فالق الأصباح بالنور يزيل بما في نوره من الخير ما في الظلمة من الشر، وفالق الحب والنوى بعد انعقادهما يزيل ما في عقد النفاثات، فان فلق الحب والنوى أعظم من حل عقد النفاثات، وكذلك الحسد هو من ضيق الإنسان وشحه، ولا ينشرح صدره لأنعام الله عليه، فرب الفلق يزيل ما يحصل بضيق الحاسد وشحه، وهو ـ سبحانه ـ لا يفلق شيئاً إلا بخير، فهو فالق الأصباح بالنور الهادي، والسراج الوهاج الذي به صلاح العباد، وفالق الحب والنوى

بأنواع الفواكه والأقوات التي هي رزق الناس ودوابهم، والإنسان محتاج إلى جلب المنفعة من الهدى والرزق، وهذا حاصل بالفلق، والرب الذي فلق للناس ما تحصل به منافعهم يستعاذ به مما يضر الناس، فيطلب منه تمام نعمته بصرف المؤذيات عن عبده الذي ابتدأ بأنعامه عليه، وفلق الشيء عن الشيء هو دليل على تمام القدرة، وإخراج الشيء من ضده كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، فهو - سبحانه - قادر على دفع الضد المؤذى بالضد النافع.

وقد جاء في الحديث عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ: «قل هو الله أحد» و«المعوذتين» ثم مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاثاً» [رواه أهل السنن].

تم بحمد الله وتوفيقه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم
التصميم الداخلي للكتاب
Tharwat Sultan
للتواصل:
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com